

جامعـــــة الأزهــــر - غـــزة
عمـــادة الدراســات العليـــا
كلية الآداب والعلـوم الإنسانية
قســم اللغــة العربيـــة

الرُّؤيَةُ الأَيْديولوجيَّةُ والْبِناءُ الفَنّيُّ فِي رِواياتِ خُلوصي عويضَةَ "المُباهَلَةُ"، "الأفعى تُطَوِّقُ الأَرْضَ" أُنموذجًا

The Ideological Vision and Artistic Construction in the Novels of Kholosy Oweida Al-Mubahla", "The snake Encircles the Earth" as Models"

إعدادُ الباحثِ:
محمد جميل يوسف الحرازين

إشـــــرافُ
الأستاذِ الدكتور: محمد صلاح زكي أبو حميدة
أستاذ البلاغة والنقد الأدبي
جامعة الأزهر- غزة

قُدِّمَتْ هذهِ الرسالةُ استكمالًا لمتطلباتِ الحصولِ على درجةِ الماجستير في اللغةِ العربيةِ وآدابِها من كليّةِ الآدابِ والعلومِ الإنسانيةِ - جامعةِ الأزهر – غزةَ

1443هـ/2022م

جامعـــــة الأزهـــر- غـــــزة
عمـــــادة الدراســـــات العليـــــا
كليـــة الآداب والعلـــوم الإنســـانية
ماجســـتير اللغـــة العربيـــة و آدابهـــا



نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة عمادة الدراسات العليا بجامعة الأزهر – غزة على تشكيل لجنة المناقشة والحكم على أطروحة الطالب/ة: **محمد جميل يوسف الحرازين**، المقدمة لكلية الآداب والعلوم الإنسانية لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية و آدابها وعنوانها:

الرؤية الأيديولوجية والبناء الفني في روايات خلوصي عويضة المباهلة والافعى تطوق الأرض أنموذجاً

وتمت المناقشة العلنية يوم الأحد بتاريخ 2022/01/02م.

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الطالب/ة: **محمد جميل يوسف الحرازين**، درجة الماجستير في الآداب والعلوم الإنسانية تخصص اللغة العربية و آدابها.

توقيع أعضاء لجنة المناقشة والحكم :

ا.د. محمد صلاح زكي أبو حميده (مشرفاً ورئيساً) .... التاريخ: 24/ 2/ 2022م

ا.د. فوزي ابراهيم الحاج (مناقشاً داخلياً) .... التاريخ: 24/ 2/ 2022م

د.عبدالرحيم حمدان حمدان (مناقشاً خارجياً) .... التاريخ: 24/ 2/ 2022م

2022/02/20

إقـــــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

الرُّؤْيَةُ الأَيْديولوجيَّةُ والْبِناءُ الفَنيُّ فِي رِواياتِ خُلوصي عويضَةَ "المُباهَلَةُ"، "الأفعى تُطَوِّقُ الأَرْضَ" أُنموذجًا

The Ideological Vision and Artistic Construction in the Novels of Kholosy Oweida Al-Mubahla", "The snake Encircles the Earth" as Models"

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل الآخرين؛ لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

I understand the nature of plagiarism, and I am aware of the University's policy on this.

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted by others elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:	محمد جميل يوسف الحرازين	اسم الطالب:
Signature:	محمد جميل الحرازين	التوقيع:
Date:	2022/02/20	التاريخ:



﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩ ﴾

(النمل: ١٩)



❃ أُهدي ثمرةَ جُهدي إلى منْ تشرفتُ بحملِ اسْمِهِ، مَنْ ورثتُ منهُ حبَّ العلمِ، وغرسَ فيَّ الجِّدَ والمثابرةَ، إلى من كساني ثوبَ الأدبِ والإباءِ، وأعطى، ولم ينتظرِ الثناءَ، إلى والدِ الشهيدِ وأخِ الشهيدِ، إلى سيدِ الرجالِ، والدي العزيزِ، الأستاذِ "جميل" –أبو محمد–.

❃ إلى مَن تَتَذَكَّرُنا بِصَلاتِها وتَنْسى نفسَها، إلى أجمل قلبٍ أَحَبَّنا مِنْ قبلُ ومِنْ بعدُ، إِلَى أُمّي الرَّؤومِ الحَنونِ، مُهْجَةِ القَلْبِ وقرَّةِ العُيونِ، أمّي الغاليةِ –أمِّ محمد–.

❃ إلى منْ تركَ الدنيا قبلَ أنْ تتركَهُ، إلى روحِ عمّي الشهيدِ المجاهدِ "ماجد" –أبو مؤمن–، وإلى روحِ شقيقي ومهجةِ قلبي وتوأمِ روحي الشهيدِ الحبيبِ "إبراهيم"، وإلى أرواحِ شهداءِ الوطنِ والمسلمينِ من قبلِهما ومن بعدِهما.

❃ إلَى شَغافِ قلبِي، إلى مَنْ شارَكَتْني لَحَظاتِ العِلْمِ وَالدِّرَاسَةِ، إلى منْ تحملتِ انشغالي، إلى زَوْجتي الوَدُودِ –أمِّ إبراهيم–.

❃ إلى مَنْ سكنوا قَلبي بِدونِ اسْتِئذانٍ، إلى وَلَديَّ الغَالِيينِ "إبراهيم"، و"عمر"، وغالِيَتي الرقيقةِ "ليان".

❃ إلى من منحوا خطواتي الثقةَ والأملَ، وكانوا لي سندًا وعضدًا وعونًا، إخوتي "مالك" –أبو أنس– وزوجتِهِ –أم أنس– وأولادِهِ –أنس، وجميل، ويوسف–، وأخي "بلال" –أبو كِنان– وزوجتِهِ –أم كِنان–، وآخرِ العنقود أخي "أحمد"، وأُخْتَيَّ الحبيبتينِ –أم يامن– وزوجِها –أبو يامن–، و–أمِّ عصام–، وزوجِها –أبو عصام–.

❃ إلى مَنْ أَفتخرُ بِالانْتِماءِ إِلَيهِمْ، إلى أعمامي وعمّاتي وأخوالي وخالاتي وأولادِهم جميعًا، وعائلتي العريقةِ عائلةِ "الحرازين".

❃ إلى أهلي وعزوتي، إلى عمّي –أبو عبد العزيزِ–، وعمتي –أم عبد العزيز–، وأولادِهِمْ وزوجاتِهِمْ، وإلى عديلي الدكتور خالد الحرازين وزوجته.

❃ إلى مَنْ كانَ عَوْنًا لي في الدراسةِ والعملِ، إلى زمِيلي العزيزِ الأستاذِ "عبد السلام الأقرع".

❃ إلى مَنْ أَفتخرُ بِالانتماءِ إليهِمْ، إلى زُملائي وأصدقائي في السِّلكِ التَّعْلِيمي.

❃ إلى كلِّ من علمني حرفًا، وأخذَ بِيَدي في سبيلِ تحصيلِ العلمِ والمعرفةِ.

إليهِمْ جميعًا أهدي هذا الجهدَ.

الباحثُ: محمد جميل الحرازين



الحمدُ لله الذي علَّم بالقلمِ، عَلَّمَ الإنسانَ ما لمْ يعلمْ، والصلاةُ والسلامُ على من بُعِثَ مُعَلِّمًا للنّاسِ وهاديًا وبشيرًا، ودَاعيًا إلى اللهِ بإذنه وسِراجًا مُنيرا؛ فأَخرجَ النّاس من ظُلمات الجَهْلِ والغوايَةِ، إلى نورِ العلمِ والهِدايَةِ.

أشكرُ اللهَ تعالى وأحمَدُهُ، فهوَ المنعمُ والمتفضلُ على عبادِهِ، أحمَدُهُ أنْ أعانني على إتمامِ هذه الرسالةِ على هذا النحوِ، فاستكملتُ بها متطلباتِ الحصولِ على درجةِ الماجستيرِ في اللغةِ العربيةِ وآدابِها من جامعتِنا الغراءِ؛ جامعةِ الأزهرِ.

أتقدمُ بالشكرِ الجزيلِ إلى مشرفي ومرشدي ومعلمي **الأستاذِ الدكتور: محمد صلاح زكي أبو حميدة**، أستاذِ البلاغةِ والنقدِ الأدبيِّ، فالشكرُ كلُّهُ أصدقُهُ وأعطرُهُ له؛ لتفضلِه بالإشرافِ على رسالَتي، ودقةِ ملاحظاتِه، وسعةِ صدرِه، وطولِ صبره، وإرشادِه وتسديدِه، وبذْلِه النصائحَ المثمرةَ التي أخرجتْ هذا العملَ على هذا النحوِ المطلوب.

كما أتقدمُ بالشكرِ الجزيل إلى مناراتِ العلمِ، أساتذتي في جامعةِ الأزهرِ، الأستاذِ الدكتور: فوزي الحاج، والدكتور: عبد الرحيم حمدان، والأستاذ الدكتور: صادق أبو سليمان، والدكتور: محمد أبو غفرة، والأستاذ الدكتور: محمد البوجي، والدكتور: فضل النمس، والدكتور: عبد الله كراز.

وأتقدمُ بشكرٍ خاصٍّ، مع وافرِ الحبِّ والامتنانِ إلى الأديبِ الكاتبِ: خلوصي عويضة، الذي خصَّني بالاهتمامِ والمتابعةِ والدعمِ المستمرِ.

وأتقدمُ بشكري الكبيرِ إلى المُفكرِ الدكتور: غَازي الصُوراني الذي أمدني بكتبِه، وإلى صديقي الأستاذِ الناقدِ: محمد الصاوي، لما أسداه لي من إرشاداتٍ ونصائحَ.

شكري ومحبتي لأصدقاءِ العمرِ، وعطايا القدرِ الجميلِ، الأستاذِ عوض شلَّح، والأستاذ طارق عيسى، والأستاذ أحمد منيفي، والأستاذ محمود أبو شرخ، والأستاذ أحمد أبو زعيتر، وزملائي في مرحلتي البكالوريوس والماجستير، وإلى كل صديقٍ جمعَتْني بِهِ لحظةُ مودةٍ وصداقةٍ وإخاءٍ.

كما أتقدمُ بخالصِ شكري لمدرستي التي إليها أنتمي: مدرسةِ الشجاعيةِ الإعداديةِ، لإدارتِها وطاقمِها التدريسيِّ، وإلى كلِّ الأصدقاءِ والزملاءِ الذينَ أعتزُّ بأن أكونَ واحدًا منهُمْ.

واللهُ وليُّ التوفيقِ..

مُلخصُ الدراسةِ

يتناولُ هذا البحثُ الرؤيةَ الأيديولوجيةَ والبناءَ الفنيَّ في روايتي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ" للأديبِ الفلسطينيِّ خلوصي عويضة، حيثُ شكلتِ الأيديولوجيا مكونًا واضحًا لمضامينِ الروايتينِ، وركزَ على تناولِ البناءِ الفنيِّ للروايتينِ من خلالِ تحليلِ بِنيةِ الشخصياتِ، وتقنياتِ الزمنِ المتعددةِ، وتجلياتِ المكانِ وأنواعِهِ.

وقد جاءتِ الدراسةُ موزعةً على: مقدمةٍ، وتمهيدٍ، وأربعة فصول، ثم خاتمةٍ. أمّا **المقدمةُ** فقد وضّحَ فيها الباحثُ: دوافعَ الدراسةِ، وأهميتَها، وأهدافَها، ومنهجَها، والدراساتِ السابقةَ، وحدودَ الدراسةِ، وخطتَها. وأمّا **التمهيدُ:** فتناولَ فيه مفهومَ الأيديولوجيا، والعلاقةَ بينَ الأيديولوجيا وفنِّ الروايةِ، وتعريفًا بالأديبِ خلوصي عويضة مع توضيحِ مرجعيتِهِ الثقافيةِ الفكريةِ والاجتماعيةِ، ثم تلخيصًا موجزًا للروايتينِ، وتوضيحَ المعنى السيميائيِّ لعنوانيهما.

تناولَ الباحثُ في **الفصلِ الأولِ** الرؤيةَ الأيديولوجيةَ الدينيةَ في مبحثينِ، الأولِ عنِ الخطابِ الدينيِّ وأشكالِهِ في الروايتينِ، والثاني حولَ صورِ الصراعِ العقائديِّ الذي مثلتْهُ الشخصياتُ المتباينةُ في الروايتينِ. أما **الفصلُ الثاني** فتناولَ فيه الباحثُ الرؤيةَ الأيديولوجيةَ السياسيةَ، وقسمَهُ إلى مبحثينِ: الأولِ حولَ القضايا والرؤى السياسيةِ، وضمَّ محورينِ: القضيةَ الفلسطينيةَ والقضيةَ العراقيةَ، أمّا المبحثُ الثاني فتناولَ الماسونيةَ، وضمَّ ثلاثةَ محاورَ: الأولَ حول مبادئِها وفكرِها الأيديولوجيِّ، والثاني حولَ نفوذِها السياسيِّ، والثالثِ تناولَ مخاطرَها. أما **الفصلُ الثالثُ**، فتناولَ بِنيةَ الشخصياتِ، وقُسِّمَ إلى أربعةِ مباحثَ: الأولِ، حول علاقة الشخصيةِ بعناصرِ السردِ الروائيِّ، والأيديولوجيا، والثاني أنواعِها، والثالثِ وصفِها وتقديمِها، والرابعِ وظيفتِها وتقويمِها. وجاءَ **الفصلُ الرابعُ** متناولًا الزمنَ والمكانَ، ومُقسمًا إلى خمسةِ مباحثَ، كانَ الأولُ حولَ علاقةِ الزمنِ بعناصرِ السردِ الروائيِّ والأيديولوجيا، والثاني حولَ المرجعِ الزمنيِّ الحقيقيِّ للروايتينِ، والثالثُ حولَ تقنياتِ المفارقاتِ الزمنيةِ، والرابعُ حولَ تقنياتِ المدةِ الزمنيةِ، والخامسُ حولَ علاقةِ المكانِ بعناصرِ السردِ والأيديولوجيا، وتجلياتِ المكانِ وأنواعِهِ في الروايتينِ.

وجاءتِ **الخاتمة** رابطةً لفصولِ الدراسةِ، ودوّنَ فيها الباحثُ مجموعةً منَ النتائجِ التي توصلَ إليها، ثمَّ جملةً منَ التوصياتِ المُقترحةِ، وأخيرًا المراجعُ والمصادرُ التي اعتمدَ عليها الباحثُ.

Abstract

This research deals with the ideological vision and artistic construction in the novels "Al-Mubahla" and "The snake encircles the earth" for the Palestinian writer Khalousi Aweida, where ideology formed a clear component of the contents of the two novels. This study focused on addressing the artistic construction of the novels through analysis of the structure of the characters, multiple time techniques, and the manifestations and types of space .

The study was divided into: Introduction, Preface, and four Sections. Then the Conclusion. **In the introduction** the researcher explained: the plan and motives of the study, its importance, its objectives, its approach, previous studies and the limitations of the study, As for **the preface**: he addressed the concept of ideology, the relationship between ideology and the art of novel, and a brief for the writer Khalousi Aweida with an explanation of his intellectual, social and cultural references, then a brief summary of the two novels, and an explanation of the semiotic meaning of their title.

In the **first chapter**, the researcher addressed the religious ideological vision in two researches, the first on religious discourse and its forms in the two novels. The second discussed the images of ideological conflict represented by disparate figures in the two novels. **The second chapter** dealt with the political ideological vision, dividing it into two topics: the first topic was on political issues and visions, and included two sections: the Palestinian and the Iraqi issues. The second topic dealt with Freemasonry, and included three sections: the first section was on its principles and ideological thinking, the second on its political influence, and the third addressed its risks. **The third chapter** dealt with the structure of the characters, and was divided into four researches: The first about the relationship of character to the elements of narrative and ideology, its types, its description and presentation, and the fourth, its function and evaluation. **The fourth chapter** discussed time and space, divided into five researches: The first about the relationship of time to the elements of narrative and ideology, the second about the true temporal reference of the novels, the third on the techniques of temporal paradoxes, the fourth on time-period techniques, and the fifth about the relationship of the place to the elements of narrative and ideology and the manifestations of the place and its types in the two novels.

The conclusion connected the all the chapters, in which the researcher wrote down a set of his findings and proposed recommendations, and finally the references and sources on which the researcher based his study.

فهرسُ المحتوياتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ الخلقِ والمرسلينِ، سيدِّنا محمدٍ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ، ومن سارَ على دربِهِ إلى يومِ الدينِ، وأمَّا بعد:

فأضحت العلاقةُ بينَ الأدبِ والأيديولوجيا علاقةً وثيقةً في عصرِنا الذي يعجُّ بالأفكارِ المتناقضةِ، والصراعاتِ الأيديولوجيةِ والعقديةِ والدينيةِ، ولا يمكنُ إغفالُها أو تجاوزُها، فالأديبُ عندما يبدعُ عملَهُ الأدبيَّ يُعبّرُ عنِ القضايا الفكريةِ والسياسيةِ والدينيةِ والاجتماعيةِ والثقافيةِ، وقد يخرجُ عن حدودِ مجتمعِهِ ليتناولَ القضايا القوميةَ والعالميةَ.

وممَّا لا شكَّ فيهِ أنَّ فنَّ الروايةِ باتَ أقربَ ما يكونُ لنبضِ العصرِ وطبيعةِ الحياةِ المتطورةِ؛ لما تمتلكُ الروايةُ من الإمكاناتِ الكبيرةِ للتوغلِ في تفاصيلِ الحياةِ وقضايا الإنسانِ المختلفةِ، وبما أنَّ الأمرَ متعلقٌ بتناولِ القضايا الفكريةِ والأيديولوجيةِ؛ فإنَّ فنَّ الروايةِ هو الأقدرُ لاحتضانِ الطروحاتِ الفكريةِ منْ خلالِ المساحةِ الواسعةِ التي تعطيها للأديبِ، وسلاسةِ البناءِ الفنيِّ الخاصِّ بالعملِ الروائيِّ.

في هذهِ الدراسةِ يقفُ الباحثُ بين يديْ تجربةٍ روائيةٍ فلسطينيةٍ ناضجةٍ، هي تجربةُ الروائيِّ الفلسطينيِّ خُلوصي محمد عويضة، متناولًا الرؤيةَ الأيديولوجيةَ، والبناءَ الفنيَّ في روايتيِ "المُباهلةِ" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، كنموذجينِ من أعمالِهِ الروائيةِ، التي عالجَ فيها بعضَ القضايا الفكريةِ والدينيةِ والسياسيةِ والإنسانيةِ والاجتماعيةِ، عبرَ مراحلَ زمنيةٍ مختلفةٍ.

لاحظَ الباحثُ في رواياتِ الكاتبِ خُلوصي عويضة مقدرتَهُ الفنيةَ الفائقةَ على إذابةِ الموضوعاتِ الفكريةِ والقضايا الأيديولوجيةِ في قوالبَ فنيةٍ جماليةٍ، دونَ أنْ يَغفلَ عنِ المكوناتِ السرديةِ من لغةٍ وحدثٍ وشخصياتٍ وزمانٍ ومكانٍ وغيرِها من أساسياتِ البناءِ الفنيِّ للروايةِ.

وقعَ اختيارُ الباحثِ على كاتبٍ فلسطينيٍّ؛ لإظهارِ قدرتِهِ الفنيةِ، ومدى ملامستِها للواقعِ الفلسطينيِّ، وارتباطِ قضيتِهِ بالقضايا القوميةِ والعالميةِ؛ ولأننا بحاجةٍ ملحةٍ لكلِّ قلمٍ وفكرٍ جديدٍ يقدمُ تجربتَهُ الفنيةَ ورؤيتَهُ الخاصةَ في معالجةِ القضايا المختلفةِ، التي ترتبطُ بالمجتمعِ الفلسطينيِّ، وتهمُّ الإنسانَ العربيَّ بوجهٍ عامٍّ.

فهذهِ الدراسةُ، تستمدُ قيمتَها من خلالِ تمسكها بالمنهجِ العلمي، ومن خلال التمكنِ من أدوات النقد.

أولًا– دوافعُ الدراسةِ:

١- تسليطُ الضَّوْءِ على كاتبٍ وأديبٍ فلسطينيٍّ تشغلُهُ الهمومُ الوطنيةُ والقوميةُ وقضايا الإنسانِ بشكلٍ عامٍّ.

٢- الرغبةُ في دراسةِ الأعمالِ الروائيةِ للأديبِ خلوصي عويضة، نتيجةً للإعجابِ بأسلوبِ الكاتبِ وموضوعاتِهِ الروائيةِ.

٣- ندرةُ الدراساتِ التي تناولتْ رواياتِ الأديبِ خلوصي عويضة، فالباحثُ لم يجدْ –على حدِّ علمِهِ– سوى دراسةٍ واحدةٍ، بعنوانِ "جدليةُ الهويةِ والعنفِ في روايةِ المباهلةِ"، وبعضَ المقالاتِ المتفرقةِ على صفحاتِ الشبكةِ العنكبوتيةِ.

ثانيًا– أهميةُ الدراسةِ:

تكمنُ أهميةُ الدراسةِ في محاولةِ الكشفِ عن الرؤيِ الأيديولوجيةِ والفكريةِ المختلفةِ التي طرحتَها روايتا "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، وكيفيةِ تشكيلِها، والوصولِ إلى الأبعادِ الفنيةِ لعناصرِ العملِ الروائيِّ التي وظفَها الكاتبُ في أعمالِهِ، ودورِها في تجسيدِ التجربةِ الفنيةِ التي يعبرُ عنها، ومدى نجاحِ الكاتبِ في المزجِ بينَ الجانبِ الأيديولوجيِّ والجانبِ الفنيِّ، دونَ أنْ يفقدَ العملُ قيمتَه الفنيةَ وخصائصَهُ الجماليةَ.

ثالثًا– أهدافُ الدراسةِ:

١- الكشفُ عن المضامينِ الفكريةِ والثقافيةِ والرؤى الأيديولوجيةِ للأديبِ خلوصي عويضة في أعمالِهِ الروائيةِ.

٢- الإبانةُ عن التقنياتِ الروائيةِ الموظفةِ في البناءِ الفنيِّ، ودورِها في نقلِ القضايا الأيديولوجيةِ بأسلوبٍ أدبيٍّ مؤثرٍ.

٣- إبرازُ جمالياتِ رسمِ الشخصياتِ، وتحمِّيلِها الأفكارِ الأيديولوجيةِ، والعلاقةِ بينَ الشخصياتِ وسائرِ عناصرِ البناءِ الفنيِّ.

٤- تحديدُ المجالِ الزمنيِّ، وكيفيةِ استخدامِ تقنيات الزمنِ الفنيةِ في روايتيِ "المباهلةِ"، و"الأفعى تطوقُ الأرضَ".

٥- إظهارُ جمالياتِ المكانِ في روايتيِ "المباهلةِ"، و"الأفعى تطوقُ الأرضَ".

٦- معرفةُ مدى نجاحِ الأديبِ في توظيفِ فنِّ الروايةِ في التعبيرِ عن القضايا والأفكارِ الأيديولوجيةِ.

رابعًا- منهجُ الدراسةِ:

اقتضتْ طبيعةُ الموضوعِ أنْ يسلكَ الباحثُ طريقَ المنهجِ الوصفيِّ التحليليِّ بشكلٍ أساسي، الذي يُعنى بدراسةِ الظواهرِ الموضوعيةِ والفنيةِ وإخضاعِها للتحليلِ والتفكيكِ، فمنْ خلالِهِ يمكنُ تحليلُ النصِّ الروائيِّ لكشفِ الرؤى الأيديولوجيةِ والمضامينِ الفكريةِ في روايتي "المُباهلة"، و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، ثم تحليلُ عناصرِ البناءِ الفنيِّ للروايةِ، بالإضافةِ إلى الاستفادةِ منَ المنهجِ السوسيولوجي؛ لتوضيحِ العلاقاتِ بينَه وبينَ النصوصِ التي ترتبطُ بِهِ.

خامسًا- الدراساتُ السابقةُ:

لمْ يصادفِ الباحثُ -على حدِّ علمِهِ- سوى دراسةٍ واحدةٍ بعنوانِ "جدليةُ الهويةِ والعنفِ في روايةِ المباهلةِ للروائيِّ خلوصي عويضة"، أطروحةُ ماجستير، للباحثتين: سارة قرارة، ونبيلة شوابح، جامعةُ العربيِّ بْنْ مهيدي في الجزائرِ، ٢٠١٨م.

حاولتْ تلكَ الدراسةُ إلقاءَ الضوْءِ على قضيتي الهويةِ والعنفِ وحضورها في روايةِ "المباهلةِ"، واعتمدتْ على المنهجِ السوسيوثقافيِّ والمنهجِ الوصفيِّ، وتكونتْ من مدخلٍ تمهيديٍّ تحدثَ عن تمثلِ الهويةِ والعنفِ في العالمِ العربيِّ، وفصلينِ: الأولُ، نظريٌّ وفيه تحددتِ المفاهيمُ والمصطلحاتُ التي تناولتَها الدراسةُ، تحديدًا الهويةَ والعنفَ وتداخلَهما في الرواياتِ الفلسطينيةِ، وبينتْ أشكالَ الهويةِ وأنواعَها، فمنها: الإسلاميةُ، والفرديةُ الشخصيةُ، و الاجتماعيةُ، والوطنيةُ، والثقافيةُ، وكذلك ذكرتْ أنواعَ العنفِ المتعددةِ، ووضحتْ مصطلحي الأنا والآخرِ والتسامحِ والحوارِ، أما الفصلُ الثاني فكانَ عن تمظهراتِ الهويةِ والعنفِ وتجلياتِهما في الروايةِ، ثمَّ دراسةُ العنوانِ، وتقديمُ ملخصٍ لمضمونِ الروايةِ، ثم عرضُ جدولٍ لتبيانِ الكلماتِ الدالةِ على الهويةِ والعنفِ في الرواية، وأخيرًا الخاتمةُ. وقد ركزتِ الدراسةُ على كيفيةِ توظيفِ العدوِّ الصهيونيِّ للعنفِ؛ لطمسِ معالمِ الهويةِ الفلسطينيةِ والعربيةِ.

ويمكنُ الاستفادةُ من الدراسةِ السابقةِ في إضاءةِ بعضِ المفاهيمِ والمصطلحاتِ، وفي الجانبِ التطبيقيِّ من خلالِ إسقاطِ المفاهيمِ على المضامينِ التي ضمتْها الروايةُ.

وتختلفُ دراستُنا عن الدراسةِ السابقةِ، حيث تناولتِ المضمونَ والبناءَ الفنيَّ في روايتي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، بينما الدراسةُ السابقةُ تناولتِ المضمونَ فقط، وركزَّت على جدليةِ الهويةِ والعنفِ وتجلياتِ ذلك في روايةِ "المُباهلة" فقطْ.

هناكَ بعضُ المقالاتِ المتفرقةِ على الشبكةِ العنكبوتيةِ التي تعدُّ نقدًا انطباعيًّا لأعمالِ الكاتبِ خلوصي عويضة، احتوتْ على إشاراتٍ سطحيةٍ وسريعةٍ حولَ أدبِ الكاتبِ.

سادسًا- حدودُ الدراسةِ:

ركَّز الباحثُ في دراستِهِ لأعمالِ الأديبِ خلوصي عويضة على روايتينِ هما:

١- "المُباهلة"، التي صدرت في العامِ ٢٠١٥م.
٢- "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، التي صدرت في العامِ ٢٠١٧م.

واختارَ الباحثُ هاتينِ الروايتينِ تحديدًا دونَ غيرِهِما من رواياتِ الكاتبِ الأخرى؛ لحضورِ القضايا الأيديولوجيةِ المختلفةِ في الروايتينِ بشكلٍ كبيرٍ؛ ولما تزخرانِ به من تقنياتِ البناءِ الفنيِّ، واكتفى بهما نظرًا لحجمِهما الكبيرِ.

سابعًا- خُطةُ الدراسةِ:

تتشكلُ الدراسةُ من مقدمةٍ، وتمهيدٍ، وأربعةِ فصولٍ، وخاتمةٍ، وقائمةٍ بالمصادرِ والمراجعِ.

المقدمةُ، تضمنتْ: دوافعَ الدراسةِ، وأهميتَها، ومنهجَها، والدراساتِ السابقةَ، وحدودَ الدراسةِ ومحاورَها، معَ شرحٍ موجزٍ لكلِّ محورٍ.

التمهيدُ، وتحدث فيه الباحثُ عنْ: مفهومِ الأيديولوجيا والعلاقةِ القائمةِ بين الأيديولوجيا والروايةِ، وعن التعريفِ بالأديبِ خلوصي عويضة معَ توضيحِ مرجعيتِهِ الثقافيةِ الفكريةِ والاجتماعيةِ التي انعكستْ بشكلٍ كبيرٍ في أعمالِهِ الأدبيةِ، وعن تلخيصٍ موجزٍ لروايتِي "المباهلةِ"، و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، وفي نهايتِهِ سيتناول المعنى السيميائيِّ لعنواني الروايتينِ.

وقُسِّمَتِ الفصولُ إلى:

الفصلَ الأولَ: الرؤيةَ الأيديولوجية الدينيةَ: ويعرَضُ فيه مبحثانِ:

المبحثُ الأولُ: أشكالُ الخطابِ الدينيِّ، يتناولُ الخطابَ الدينيَّ وأنماطَهُ، كالخطابِ المتشددِ والوسطيِّ، والمتحررِ، واللادينيِّ.

المبحثُ الثاني: الصراعُ العقائديُّ: ويتناولُ قضايا الصراعِ العقائديِّ والطائفيِّ، كالصراعِ بينَ الشيعةِ والسنةِ، والمسلمينَ واليهودِ، والمسلمينَ والنصارى، والمسلمينَ من جانبٍ والمسيحيةِ الصهيونيةِ من جانبٍ آخرَ، وصراعِ اليهودِ مع غيرِهِمْ منَ الأممِ الأخرى، وصراعِ الماسونيةِ والبهائيةِ معَ المسيحيةِ والإسلامِ، من خلالِ رصدِ مواقفِ الشخصياتِ المتباينةِ على صعيدِ الأحداثِ الروائيةِ.

الفصلُ الثاني: الرؤيةُ الأيديولوجية السياسيةُ: وقسَّمَه الباحثُ إلى مبحثيْنِ:

المبحثِ الأولِ: قضايا سياسيةٍ ورؤىً أيديولوجيةٍ: سيتناولُ القضايا السياسيةَ والرؤى الأيديولوجيةَ التي لاحظَها الباحثُ، ورصدَها في روايةِ المباهلةِ على وجهِ التحديدِ، وفصَّلَها في محورينِ.

الأولِ: تناولَ القضيةَ الفلسطينيةَ، والثاني: تناولَ القضيةَ العراقيةَ، وحضورَهَما في المضمونِ الروائيِّ.

المبحثِ الثاني: الماسونيةِ... الحقيقةِ الغائبةِ: تحدثَ فيهِ الباحثُ عن منظمةِ الماسونيّةِ بالتفصيلِ، ويضمُّ ثلاثةَ محاورَ: الأولَ: يتحدثُ فيهِ حولَ **المبادئِ الأساسيةِ والفكرِ الأيديولوجيِّ للماسونيةِ،** والثاني: تناولَ فيه **النفوذَ السياسيَّ الماسونيَّ،** وسيطرتَها على الحكوماتِ العالميةِ، والثالث: ركزَ على **مخاطرِ الماسونيّةِ،** كما جاءَ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" تحديدًا.

الفصلُ الثالثُ- بِنيةُ الشخصياتِ في روايتي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، وينقسمُ إلى:

المبحثِ الأولِ: ويقفُ فيه الباحثُ عندَ العلاقةِ بينَ الشخصيةِ وعناصرِ السردِ الروائيِّ، والأيديولوجيا.

المبحثِ الثّاني: أنواعِ الشخصياتِ، ويتطرقُ لأنواعِ الشخصياتِ في الروايتينِ، ما بينَ الرئيسةِ المتطورةِ، والثانويةِ المسطحةِ مع رصدِ عددٍ من نماذجِ الشخصياتِ في الروايتينِ.

المبحثِ الثّالثِ- وَصَفِ الشخصياتِ وتقديمها، ويتعرضُ لأبعادِ الوصفِ الأربعةِ، البعدِ الداخليِّ والخارجيِّ والاجتماعيِّ والفكريِّ في الروايتينِ، وطرقِ التقديمِ ما بينَ المباشرةِ وغيرِ المباشرةِ، والمزجِ بينَهُما.

المبحثِ الرّابعِ: وَظيفةِ الشخصياتِ وتَقويمِها، ويتناولُ فيه الباحثُ الوظائفَ التي منحَها الكاتبُ لشخصياتِهِ في الروايتينِ، وتقويمِها من خلالِ مدى تطابقِها معَ الواقعِ الخارجيِّ المعيشِ.
الفصلِ الرابعِ: الزمنِ والمكانِ في روايتي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، سيتناولُ الزمنَ والمكانَ وتجلياتِهِما في الروايتيْنِ، وقسَّمَهُ إلى خمسةِ مباحثَ: **المبحثِ الأولِ: الزمنِ وعناصرِ السردِ الروائيِّ**، وخصصَهُ الباحثُ للحديثِ عن علاقةِ الزمنِ بعناصرِ السردِ الروائيِّ، وكذلك علاقتِهِ بالأيديولوجيا.

المبحثِ الثاني: ويضم المرجعَ الزمنيِّ التاريخيِّ لروايتي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، ويستعرضُ فيه الباحثُ الزمنَ التاريخيَّ الحقيقيَّ للروايتينِ، أيِ: المحطاتِ التاريخيةَ التي حدثتْ حقيقةً على أرضِ الواقعِ، وكيفَ وظفَها الكاتبُ لخدمةِ معمارِهِ الروائيِّ، وآليةَ سيرِ الزمنِ في الروايتينِ.

المبحثِ الثالثِ: تقنياتِ المفارقاتِ الزمنيةِ، وسيتناولُ فيه توظيفَ الاسترجاعِ والاستباقِ بأنواعِهِما.

المبحثِ الرابعِ: تِقنياتِ المدةِ الزمنيةِ، وسيتناولُ فيه تقنياتِ التلخيصِ والحذفِ والمشهدِ والوقفةِ.

المبحثِ الخامسِ: تجلياتِ المكانِ في روايتِي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، وسيتناولُ فيهِ الأماكنَ المغلقةَ والمفتوحةَ ووصفَها ودلالاتِ الأماكنِ وانعكاسَها على أيديولوجياتِ الشخصياتِ.

الخاتمةُ: وتشملُ النتائجَ والتوصياتِ التي خرجَ بها الباحثُ.

التمهيد

أولًا- مفهومُ الأيديولوجيا، والعلاقةُ القائمةُ بينَ الأيديولوجيا والروايةِ.

ثانيًا- التعريفُ بالأديبِ خُلوصي عويضة، والمرجعيةِ الثقافيةِ الفكريةِ، والتكويناتِ الاجتماعيةِ التي انعكستْ بشكلٍ كبيرٍ في محتوى أعمالِهِ الأديبةِ.

ثالثًا- تلخيصٌ لروايتي "المُباهلة"، و"الأفعى تطوقُ الأرضَ".

رابعًا- المعنى السيميائيُّ لعنواني الروايتينِ.

أولًا– مفهومُ الأيديولوجيا، والعلاقةُ القائمةُ بينَ الأيديولوجيا والروايةِ:

لا شكَّ في أنَّ الأدبَ يتحدثُ عن قضايا الإنسانِ وأفكارِهِ بشكلٍ عامٍّ، والأديبُ البارعُ هو الذي يتخذُ موقفًا أدبيًّا من هذهِ القضايا والأفكارِ. وتختلفُ الرؤى حولَ القضايا الفكريةِ والثقافيةِ والدينيةِ والقوميةِ والإنسانيةِ بشكلٍ عامٍّ باختلافِ الأشخاصِ ومواقفِهِمْ منها.

والكاتبُ المتمكنُ هو الذي ينتقي القضايا والأفكارَ المهمةَ التي تتميزُ بالتوترِ والصراعِ، مما يجعلُها صالحةً للأدبِ، وبالتالي يستطيعُ من خلالِ عملِهِ الأدبيِّ إخضاعَ وإذابةَ المواضيعِ الأيديولوجيةِ الفكريةِ في قوالبَ فنيةٍ جماليةٍ؛ لكيْ يصلَ إلى التوازنِ بينَ المضمونِ والشكلِ في إنتاجِهِ الأدبيِّ، ومَنْ ثَمَّ يصلُ لهدفِهِ ومبتغاهُ. وكلما اقتربَ العملُ الأدبيُّ من الواقعِ، ولامسَ همومَ الشعوبِ؛ كُتِبَ له النجاحُ والبقاءُ والحياةُ. سيتحددُ في هذا المحورِ مفهومُ الأيديولوجيا وإشكاليةُ المصطلحِ من جانبٍ، ثم العلاقةُ القائمةُ بين الأيديولوجيا والروايةِ من جانبٍ آخرَ.

١– مفهومُ الأيديولوجيا:

تعددتِ المفاهيمُ والمصطلحاتُ حول الأيديولوجيا، فكانَ منَ الصعبِ تحديدُ مفهومٍ محددٍ؛ وذلكَ لأنه مفهومٌ يشملُ جميعَ المجالاتِ السياسيةِ، والاجتماعيةِ، والدينيةِ، وفي ذلكَ يقول الناقدُ حميد لحميداني في كتابِهِ النقدِ الروائيِّ والأيديولوجيا (من سوسيولوجيا الروايةِ إلى سوسيولوجيا النصِّ الروائيِّ): "إنَّ مفهومَ الأيديولوجيا من أكثرِ المفاهيمِ صعوبةً في التحديدِ، ولذلكَ فالكتابةُ عنه تعدُّ مغامرةً غيرَ محمودةِ العواقبِ منَ الناحيةِ العلميةِ؛ إذا لمْ يستطعِ الباحثُ تحديدَ المواقعِ التي يتحدثُ انطلاقًا منها عنِ المفاهيمِ المختلفةِ للأيديولوجيا"[١].

وبالنظرِ إلى المفهومِ العامِّ للمصطلحِ: "يرجعُ أصلُ الكلمةِ (أيديولوجيا) (Ideology) إلى مقطعينِ: (Idea) التي مرتْ بدِلالاتٍ كثيرةٍ قبلَ أنْ تدركَ معنى (الفكرة)، ومن هذهِ الدلالاتِ الشكلُ والمظهرُ والصنفُ والطبيعةُ والشكلُ المثاليُّ والنموذجُ، والمقطعُ الآخرُ (Logos) الذي يدلُّ على فكرةِ العلمِ، أو المنهجِ المعرفيِّ الفكريِّ، إلا أنَّها مشتقةٌ منَ الكلمةِ اليونانيةِ (Logos)، أمّا في قاموسِ (أكسفورد) الإنجليزيِّ فلمْ ينصَّ على هذهِ الدلالةِ الحديثةِ إلا في ملحقِهِ الذي طُبعَ سنة ١٩٧٦م، حيثُ

([١]) يُنظر: حميد لحميداني، النقد الروائي والأيديولوجيا (من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي)، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠م، ص١٣.

عرّفَ الأيديولوجيا: بأنها نظامٌ أو منظومةٌ (System) منهجيةٌ للأفكارِ تتصلُ عامةً بالسياسةِ أو المجتمعِ، وبسلوكِ طبقةٍ أو جماعةٍ"[١].

وهناكَ من يرى أنها فلسفةٌ عامةٌ للحياةِ، أمثالَ الكاتبِ نديم البيطار الذي تناولَ المفهومَ في كتابِهِ (الأيديولوجيا الانقلابية)، فعرّفَها بأنها: "أيةُ فلسفةِ حياةٍ تفسرُ علاقةَ الإنسانِ بالمجتمعِ والتاريخِ تفسيرًا عامًّا يكشفُ عن منطقِ التاريخِ وحركتِهِ"[٢].

ويرى شكري الماضي أنّ الأيديولوجيا هي: "علمُ الأفكارِ، أو نظامٌ منَ الأفكارِ والمفاهيمِ الاجتماعيةِ، أيْ مجموعةٌ منَ التصوراتِ التي تعبرُ عن مواقفَ محددةٍ تجاهَ علاقةِ الإنسانِ بالإنسانِ، وعلاقةِ الإنسانِ بالعالمِ الطبيعيِّ، وعلاقتِه بالعالمِ الاجتماعيِّ"[٣].

ويقولُ العروي: "عندما ندرسُ تأثيرَ أيةَ أدلوجةٍ على الفكرِ فإننا نبحثُ في الحدودِ الموضوعيةِ التي ترسمُ أفقَ ذلكَ الفكرِ، والحدودُ من أنواعٍ ثلاثةٍ: حدودُ الانتماءِ إلى أدلوجةٍ سياسيةٍ، وحدودُ الدورِ التاريخيِّ الذي يمرُّ به المجتمعُ ككلٍّ، وحدودُ الإنسانِ في محيطِهِ الطبيعيِّ"[٤].

في ضَوْءِ ما تقدمَ يرى الباحثُ أنَّ المفهومَ الأقربَ للأيديولوجيا والأنسبَ لميدانِ دراستِهِ هو أنها: مجموعةٌ منَ الأفكارِ والمعتقداتِ والتوجهاتِ التي تتخذُها مجموعةٌ ما كمُسَلَّماتٍ ثابتةٍ، وكإطارٍ فكريٍّ تلتزمُ بها داخلَ مجتمعِها، وتحاولُ التأثيرَ على غيرِها مستخدمةً بذلكَ الطرقَ المختلفةَ. وهذا التعريفُ لا يبتعدُ كثيرًا عنِ التعريفاتِ المطروحةِ حولَ الأيديولوجيا.

١-العلاقةُ بينَ الأيديولوجيا والروايةِ:

ترتبطُ الأيديولوجيا باختلافِ مصطلحاتِها بالأدبِ بعامةٍ، وبفنِّ الروايةِ بخاصةٍ. ومنَ الطبيعيِّ أنْ يحملَ العملَ الأدبيَّ رسالةً معينةً، هذهِ الرسالةُ تكونُ مغلفةً بفكرِ الأديبِ وما يؤمنُ بهِ منْ أيديولوجياتٍ معينةٍ، والكاتبُ البارعُ هو الذي يواري أيديولوجيتَهُ وأفكارَهُ خلفَ سطورِهِ وكلماتِهِ، ولا يجعلُها تطفو على السطحِ بطريقةٍ مباشرةٍ، وبذلكَ يعطيها درجةً عاليةً منَ الموضوعيةِ، يقولُ ميخائيل باختين في ذلكَ: "المتكلمُ في الروايةِ هو دائمًا، وبدرجاتٍ متفاوتةٍ، منتجُ إيديولوجيا، كلماتُهُ هي دائمًا عينةٌ أيديولوجيةٌ"[٥].

---

(١) يُنظر: رمضان الصباغ، الفن والأيديولوجيا، ط١، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٥م، ص٩.

(٢) ينظر: نديم البيطار، الأيديولوجيا الانقلابية، د.ط، المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٤م، ص٤٥.

(٣) شكري الماضي، في نظرية الأدب، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥م، ص١٠٣.

(٤) يُنظر: عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا، ط٨، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠١٢م، ص١٢.

(٥) ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، ط١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة،١٩٨٧م، ص ١١٢.

وأكثرُ ما تظهرُ العلاقةُ بينَ الأيديولوجيا والأدبِ في الأعمالِ الأدبيةِ التي تحملُ مضمونًا فكريًّا أيديولوجيًّا؛ لذلك فإنَّ الأدبَ يعدُّ شكلًا منْ أشكالِ الأيديولوجيا، أو خطابًا من خطاباتِها، بلْ إنَّ الأيديولوجيا هي التي تُنتجُهُ، فهي تعبرُ عن الواقعِ المعيشِ. "فالأدبُ هو إنتاجٌ أيديولوجيٌّ ذو علاقةٍ باللغةِ وبمختلفِ أشكالِ استعمالِها، فهو إنتاجٌ لا يوجدُ إلا معَ الأيديولوجيا ومعَ التاريخِ، تاريخِ التشكيلاتِ الاجتماعيةِ، وتاريخِ الإنتاجِ الأدبيِّ وتطورِ أدواتِهِ، وتقنياتِهِ الأساسيةِ، وموادِ عملِهِ"(١).

وعندما نتحدثُ عنْ علاقةِ الأيديولوجيا بالأدبِ لا بدَّ أنْ نتطرقَ إلى علاقةِ الأدبِ بالمجتمعِ؛ لأنه هو الحاضنةُ التي تتبلورُ وتتشكلُ فيها أفكارُ الكُتّابِ والأدباءِ، ويتأثرونَ فيما يحيطُ بهم، ويؤثِّرونَ به من خلالِ أعمالِهِمِ الأدبيةِ وإنتاجِهِمُ الفنيِّ.

ومما يلاحظُ أنَّ فنَّ الروايةِ قد تفوَّقَ على الفنونِ الأدبيةِ الأخرى في مدى ارتباطِهِ بالأيديولوجيا؛ وذلكَ لأنها "أكثرُ الفنونِ التصاقًا بالحياةِ، واستجابةً للواقعِ المعيشِ؛ إذ تلتبسُ بقضاياهُ وإشكالاتِهِ، وتنفتحُ على قيمٍ شتّى تُكوِّن مادتَها، إلا أنَّ ولوجَها إلى عالمِ الروايةِ يقتضي إعادةَ بنائِها في السردِ التخييليِّ عن طريقةِ مجموعةٍ من الأساليبِ والتقنياتِ الفنيةِ"(٢).

وهناكَ منَ الكُتّابِ المهرةِ من يجعلونَ الأيديولوجيا مكونًا جماليًّا فنيًّا في أعمالِهِمُ الروائيةِ، ومما يضاعفُ مهمةَ الأديبِ هو إذابةُ الأفكارِ الأيديولوجيةِ في قوالبَ فنيةٍ جماليةٍ دونَ القفزِ أوْ إلغاءِ الجانبِ الفكريِّ؛ ولكيْ يصلَ إلى التوازنِ المنشودِ بينَ الذاتيِّ والموضوعيِّ. "لا بُدَّ من صوغٍ فنيٍّ حقيقيٍّ قادرٍ على تمريرِ الأيديولوجيا عبرَ مساربِهِ دونَ التصريحِ بِها، أو جعلِها المقامَ الأولَ، حتى لا يجنيَ على العمليةِ الإبداعيةِ"(٣).

إذن فالروايةُ قد تطرحُ أيديولوجيةً واحدةً أو أيديولوجياتٍ مختلفةً أو متباينةً، وذلكَ منْ خلالِ مضمونِها، والصياغةِ الفنيةِ التي يوظفُها الكاتبُ؛ لذا لا يمكنُ لنا الكشفُ عن أيديولوجياتِ الروايةِ إلا من خلالِ التحليلِ والوصولِ إلى هدفِ الكاتبِ منْ عملِهِ الروائيِّ. "لا نستطيعُ أنْ نضعَ أيدِيَنا على أيديولوجيا الكاتبِ إلا بتحليلٍ للحدثِ، وللشخصياتِ، وعلاقاتِها، وأفكارِها"(٤).

---

(١) عمار بلحسن، ما قبل بعد الكتابة حول الأيديولوجيا/الأدب/الرواية، مجلة فصول، مج:٥، ع:٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م، ص١٦٥.

(٢) أنيسة السعدون، الرواية والأيديولوجيا في البحرين، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، الأردن،٢٠١٣م، ص٢٠.

(٣) عبد العزيز بنعبو، من مقال بعنوان: حول تمظهرات الفكري والأيديولوجي في الممارسة المسرحية المغربية، موقع ميدل إيست أونلاين، التعريف الرقمي للمقال: https://middle-east-online.com/

(٤) عصام بهي، أيديولوجيا المصالحة في "قنديل أم هاشم" و"موسم الهجرة إلى الشمال"، مجلة فصول، مج:٥، ع:٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ١٧٧.

ويمكنُ منْ خلالِ التحليلِ التنبه إلى أنَّ الكاتبَ قد وظَّفَ التقنياتِ السرديةَ والوسائلَ الفنيةَ؛ لكيْ يبتعدَ عنِ المباشرةِ والطرحِ المكشوفِ للأيديولوجيا، ومنْ هذه التقنياتِ التي قد يوظفُها الكاتبُ استخدامُهُ لتقنيةِ تعددِ الأصواتِ، والتي يستطيعُ منْ خلالِها أن يوظفَ الحوارَ المتصارعَ بينَ الأيديولوجياتِ المختلفةِ في رواياتِهِ. وتعددُ الأصواتِ "لا تعني بأدلجةِ الفكرِ الروائيِّ وقولبتِهِ بالتأويلِ والإسقاطِ، ولا تقفُ وجهةُ النظرِ عندَ حدودِ الشكلِ الروائيِّ، لتغرقَ في تفاصيلِ الراوي والمرويِّ له فقطْ، وإنما تُعنى بدراسةِ وجهةِ النظرِ بالبعدينِ الفنيِّ والفكريِّ معًا"[١].

والقارئُ المتتبعُ لكتاباتِ الروائيِّ خلوصي عويضة يلاحظُ اعتمادَهُ على التقنياتِ الفنيةِ المختلفةِ للعملِ الروائيِّ، ويركزُ على استخدامِ التقنياتِ التي تُظهرُ الصراعَ الأيديولوجيَّ، ومنها استخدامُهُ لتقنيةِ تعددِ الأصواتِ في روايةِ المباهلةِ؛ وذلك لما تحتويهِ من صراعٍ أيديولوجيٍّ كبيرٍ يدورُ بين شخصياتِ الروايةِ، فكلُّ شخصيةٍ تعبرُ عن وجهةِ نظرِها في القضايا التي تطرحُها الروايةُ، ليظهرُ التوافقَ أو الاختلافَ بينَ الرؤى الأيديولوجيةِ.

وكذلكَ نلاحظُ استخدامَهُ لتقنيةِ الحوارِ بشكليْهِ الخارجيِّ (الديالوج) والداخليِّ (المونولوج)، فالحوارُ منَ التقنياتِ التي تُبرزُ الصراعَ الفكريَّ بينَ الشخصياتِ، ويكشفُ عن خصائصِ مجتمعاتِها، ويُسهمُ الحوارُ في خلقِ الجوِّ العامِّ، والأجواءِ النفسيةِ الخاصةِ للشخصيةِ، وبالتالي يرسمُ الشخصيةَ ويعطيها هويتَها، أما تقنيةُ الحوارِ الداخليِّ (المونولوج) فيصورُ الصراعَ الذاتيَّ الذي تعيشُهُ الشخصيةُ في المحطاتِ الفاصلةِ، كذلكَ يأتي كاشفًا عنِ القناعةِ الذاتيةِ الخاصةِ، فهي تقنيةُ "تضعُ أمامَنا ما يجري في ذهنِ هذهِ أو تلكِ من شخصياتِ الروايةِ"[٢].

وسيكشفُ الباحثُ الرؤى الأيديولوجيةَ وارتباطَها بشخصياتِ الكاتبِ والصراعِ القائمِ بينها، كذلك سيحلّلُ البناءَ الفنيَّ لروايتي الكاتبِ خلوصي عويضةِ "المباهلة"، "والأفعى تطوقُ الأرضَ"، موضوعَ الدراسةِ.

---

(١) محمد التلاوي، وجهة النظر في روايات الأصوات العربية، ط٣، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢م، ص ٢٨.

(٢) لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ٢٠٠٢م، ص١٦٤.

ثانيًا: التعريفُ بالأديبِ خُلوصي عويضة. والمصادر الثقافية الأيديولوجية ، والتكويناتِ الاجتماعيةِ التي انعكستْ بشكلٍ كبيرٍ في محتوى أعمالِهِ الروائيةِ:

عندما نريدُ أن نتناولَ أيَّ عملٍ أدبيٍّ بالتحليلِ والكشفِ، فلا يمكنُنا أنْ نتجاهلَ حياةَ الكاتبِ، والمحطاتِ المهمةَ في مسيرةِ حياتِهِ، وكذلكَ المنعطفاتِ الحادةَ التي أثرتْ في تشكيلِ رؤيتِهِ الخاصةِ للواقعِ المعيشِ، وللقضايا التي تلامسُ محيطَهُ الذي يتفاعلُ فيه.

ولقد أثَّرَ الواقعُ الفلسطينيُّ والصراعُ الدائرُ معَ الاحتلالِ الصهيونيِّ في حياةِ الكُتَّابِ الفلسطينيينَ بشكلٍ عامٍّ، وفي حياةِ الكاتبِ خلوصي عويضة بشكلٍ خاصٍّ، وقدْ عبّرَ عن ذلكَ في أعمالِهِ الأدبيةِ. "ومنَ المؤكدِ أنّ الصراعَ الطويلَ بينَ الفلسطينيينَ والاحتلالِ الصهيونيِّ الذي اتخذَ أبعادًا أفقيةً، ورأسيةً ذاتَ مستوياتٍ مختلفةٍ كانَ لهُ الأثرُ في كتاباتِ الروائيِّ الفلسطينيِّ ورؤاهُ، شأنُهُ في ذلك شأنُ أيِّ مثقفٍ؛ بلْ أيِّ مواطنٍ، لذا وجدنا الروايةَ الفلسطينيةَ تعيشُ قضيةَ الوطنِ بإلحاحٍ، فالروائيُّ وكاتبُ القصةِ والشاعرُ مهمومونَ بها، ويتلمسونَها كقطراتِ الدمِ التي تجري في العروقِ، وهوَ ما جعلَ للروايةِ الفلسطينيةِ حساسيةً خاصةً جدًّا كانَ لها ولا يزالُ مذاقُها الخاصُّ في حقلِ الروايةِ العربيةِ"[١].

في هذا المحورِ سنلقي الضوْءَ على حياةِ الكاتبِ خلوصي عويضة، والعواملِ التي أثرتْ في تشكيلِ ثقافتِهِ الفكريةِ، والمحطاتِ المهمةِ في حياتِهِ، وتكوينِهِ الاجتماعيِّ، ونتاجِهِ الأدبيِّ.

الميلاد والنشأة:

وُلدَ الكاتبُ الفلسطينيُّ خُلوصي محمد حسني عويضة في التاسعِ والعشرينَ منْ آذارَ في العامِ ألفٍ وتسعمئةٍ وأربعةٍ وستينَ في مدينةِ غزةَ[٢]. ونشأَ وسْطَ أسرةٍ كريمةٍ تعيشُ حياةَ الكفافِ والعفافِ، وقد وقد شُغفَ بالقراءةِ مذْ كانَ طفلًا، فكانَ يبيعُ الصحفَ المحليةَ التي كانتْ تصدرُ في حقبةِ طفولتِهِ، وبالرغمِ منْ قسوةِ الظروفِ فقد كانَ متفوقًا في دراستِهِ، حتى نالَ شهادةَ الثانويةِ العامةِ بتفوقٍ في العامِ ١٩٨٢م. ثم قررَ الالتحاقَ بجامعةِ النجاحِ بنابلسِ لدراسةِ الأدبِ الإنجليزيِّ، وسافرَ إلى اليونانِ في محاولةٍ لاستكمالِ دراستِهِ في اللغةِ الإنجليزيةِ[٣].

---

(١) شمس الدين موسى، مراجعات ومتابعات في الرواية والقصة الفلسطينية، وزارة الثقافة الفلسطينية، ط١، ١٩٩٩م، ص٢١.

(٢) السيرة الذاتية للروائي خلوصي عويضة، جائزة كتارا للرواية العربية، التعريف الرقمي للموقع: https://www.kataranovels.com/novelist

(٣) مقابلة شخصية أجراها الباحث مع الكاتب، غزة، بتاريخ ٢٠٢٠/٧/٩م.

انخرطَ الكاتبُ في مجالِ العملِ بالتجارةِ، حتى جرفَهُ تيارُها فترةً زمنيةً طويلةً، وشغلَهُ عنْ مواصلةِ مسيرتِهِ العلميةِ، إلا أنَّ ذلكَ لمْ يقفْ عائقًا أمامَ شغفِهِ بالمطالعةِ والقراءةِ والكتابةِ، وفي ذلكَ يقولُ: "هناكَ تلازمٌ بينَ القراءةِ والكتابةِ، الكتابةُ تأتي ثمرةً لحصيلةِ الإنسانِ منَ المعرفةِ وكتحصيلٍ حاصلٍ من مجموعِ قراءاتِهِ، فكانَ لديَّ شغفٌ بالقراءةِ منذُ سنواتِ الطفولةِ الأولى، ويشرفُني أنْ أقولَ: إنني في سنواتِ طفولتي الأولى كنتُ أبيعُ الجريدةَ، فكانَ صوتي وأنا طفلٌ صغيرٌ يصدحُ في الأزقةِ وشوارعِ مدينةِ غزةَ بأسماءِ الجرائدِ (القدس)،(الفجر)،(الشعب)، وهيَ الصحفُ المحليةُ التي كانتْ في ذلكَ الوقتِ، فتشربتُ رائحةَ الحبرِ منذُ سنواتِ الطفولةِ الأولى، حتى إنني سمَّيتُ روايتي الأولى باسمِ (حبرُ الروحِ)"[1].

بدايةُ المشوارِ الأدبيِّ:

تجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ الكاتبَ خلوصي عويضة قد بدأَ بكتابةِ أعمالِهِ الروائيةِ وهو في أواخرِ العقدِ الرابعِ من عمرِهِ، وذلكَ بعدَ فترةِ مخاضٍ عسيرٍ بينَ الرغبةِ والرهبةِ في الكتابةِ، فكانتْ بمثابةِ الصراعِ النفسيِّ الشديدِ الذي امتدَ إلى سنواتٍ، وكانَ يسألُ نفسَهُ منْ أنتَ حتى تكتبَ؟ ولمنْ ستكتبُ؟ فكانتِ الرهبةُ تنتصرُ دائمًا، إلى أنِ انتصرتِ الرغبةُ أخيرًا، ورأتْ روايتُهُ الأولى (حبرُ الروحِ) النورَ، وتخلصَ من هاجسِ الرهبةِ والخوفِ، ويقولُ في ذلكَ: "تخلصتُ منَ الرهبةِ بالعزيمةِ والإرادةِ، فأخذتُ قرارًا مصيريًّا، إنْ لمْ أتخطَ هذهِ المرحلةَ سأبقى متقوقعًا داخلَ نفسي، في الإطار نفسِهِ، وسأراوحُ مكاني، فكانَ لا بدَّ منْ أنْ أتخذَ قرارًا مصيريًّا بالكتابةِ، وأنا أعتبرُ لحظةَ القرارِ لحظةً مقدسةً وفارقةً في حياتي، فنحَّيتُ هذهِ الهواجسَ جانبًا، وأمسكتُ القلمَ، وبدأتُ أكتبُ السطورَ الأولى منْ روايةِ (حبرُ الروحِ)"[2].

التكوينُ الاجتماعيُّ للكاتبِ:

أثمرتْ مجموعةٌ من العواملِ في التكوينِ الاجتماعيِّ للكاتبِ خُلوصي عويضة، حيثُ شهدَ الكثيرَ منَ الأحداثِ والمنعطفاتِ التاريخيَّةِ الكبيرةِ في محيطِهِ، فشهدَ في طفولتِهِ حربَ ١٩٧٣م، والمشاهدَ الحيَّةَ للاحتلالِ الصهيونيِّ لقطاعِ غزَّةَ وتأثيرِهِ على مناحِي الحياةِ، ثُمَّ الانتفاضةَ الأولى، ومجزرةَ الحرمِ الإبراهيميِّ، واتفاقيةَ أوسلو في العامِ ١٩٩٤م، ومرحلةَ قدومِ القواتِ الفلسطينيَّةِ إلى أرضِ الوطنِ، وتشكيلَ السلطةِ الوطنيَّةِ الفلسطينيَّةِ وتأثيرَ ذلكَ على مُختلفِ مناحي الحياةِ، ثُمَّ شهدَ الانتفاضةَ الثانية عامَ ٢٠٠٠م، ومشاهدَ احتلالِ الضفةِ الفلسطينيةِ ومجزرةَ جنين ٢٠٠٢م، ومؤخرًا كان لأحداثِ الانقسامِ والصراعِ السياسيِّ بينَ قُطبي الحكمِ في فلسطينَ سنة ٢٠٠٦م، الأثرُ الكبيرُ في نفسيةِ

---

(١) من مقابلة تلفزيونية، فضائية الكتاب بغزة بتاريخ ٢٠١٤/٩/٥م.

(٢) المقابلة السابقة.

الكاتبِ، وشكَّل صدمةً له، وانعكسَ ذلكَ في مشروعِهِ التجاريِّ فقد كانَ في أَوْجِ نجاحِهِ، ولكن بسببِ الانقسامِ وصل لطريقٍ مسدودٍ، واضطرَّ لتركِ ميدانِهِ التجاريِّ بسببِ تداعياتِ الانقسامِ السياسيِّ، وهذا ما نراه واضحًا في صفحاتِ روايةِ (حبر الروح) التي عبَّرتْ عن مدى تأثيرِ الانقسامِ على النسيجِ المجتمعيِّ والتفككِ الأسريِّ بسببِ الخلافاتِ الحزبيَّةِ والفكريَّةِ بينَ الإخوةِ والأشقاءِ في البيتِ الفلسطينيِّ، كما يُخبرُ بذلك الكاتبُ: "أنا أستقرئُ الواقعَ فكتاباتي جاءت ثمرةً لذلكَ، فلا شيءَ أصدقُ من معايشتكَ للواقعِ"(١).

وشهدَ العدوانَ الصهيونيَّ الكبيرَ على قطاعِ غزَّةَ أواخرَ سنة ٢٠٠٨م، وكذلكَ عدوانَ سنة ٢٠١٢م ، والعدوان الصهيوني الأصعبَ عام ٢٠١٤م، هذا على الصعيدِ المحليِّ الداخليِّ. أما على الصعيدِ الخارجيِّ فقد عايشَ أحداثَ ١١ من سبتمبر عامَ٢٠٠١م في الولاياتِ المتحدةِ، وما تَبِعها من احتلالٍ لأفغانستانَ، واحتلالِ العراقِ وتدميرِ عاصمتِهِ بغدادَ، ثم الثوراتِ العربيةَ، أو ما يسمى بالربيعِ العربيِّ، فكانَ للصراعِ الطائفيِّ بينَ الشيعةِ والسُّنَّةِ في العراقِ وسوريا تأثيرُهُ الكبيرُ في مضامينِ روايةِ المباهلةِ.

أمَّا على صعيدِ الفضاءِ المكانيِّ للكاتبِ خلوصي عويضة فلا شكَّ في أنَّ لهُ الأثرَ الواضحَ في توسيعِ المشاهدِ والأماكنِ الكثيرةِ التي عاشَ فيها أو زارَها، فالكاتبُ من مواليدِ غزةَ، فكانَ لها الحضورُ الواضحُ في رواياتِه، انتقلَ الكاتبُ إلى محطاتٍ خارجيةٍ، فزارَ دولًا عديدةً منها عربيةً وأجنبيةً، زارَ اليونانَ للدراسةِ، والمغربَ ومصرَ والسعوديةَ والأردنَ والعديدَ من الدولِ، هذا بدورِهِ وسَّعَ منَ الفضاءِ المكانيِّ والزمانيِّ في أعمالِهِ، ونرى ذلكَ في وصفِهِ للعديدِ من الأماكنِ في مصرَ والمغربِ تحديدًا.

ويُلاحظُ أنَّ المراحلَ التاريخيةَ، والأماكنَ المحليةَ والخارجيةَ قد بسطتْ ظلالَها على المضمونِ الذي تناولَهُ الكاتبُ في أعمالِهِ، وشكلتْ إطارًا زمنيًّا شاملًا، فروايةُ (عمو القزم) عالجتْ بعضَ القضايا الاجتماعيةِ والإنسانيةِ في فترةِ السبعينياتِ من القرنِ المنصرمِ، أما روايةُ (ماما فاطمة) فكانتْ صورةً شاملةً لواقعِ المجتمعِ الفلسطينيِّ في الفترةِ الواقعةِ بينَ بدايةِ الثمانينياتِ حتى تشكيلِ السلطةِ الفلسطينيةِ في العام ١٩٩٤م، أما روايةُ (حبرُ الروحِ) فسُجلتْ أحداثُها على وقعِ الانقسامِ الفلسطينيِّ الداخليِّ ٢٠٠٦/٢٠٠٧م، وامتدتْ حتى العدوانِ الصهيونيِّ في العام ٢٠٠٨/٢٠٠٩م.

أمّا روايةُ "المُباهلة" فقدِ امتدتْ من بدايةِ أحداثِ مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ في العامِ ١٩٩٤م في فلسطينَ، وتناولتْ أحداثَ الحادي عشرَ من أيلولَ في العامِ ٢٠٠١م في الولاياتِ المتحدةِ، واحتلالَ العراقِ، والحربَ على لبنانَ في العامِ ٢٠٠٦م، وثوراتِ الربيعِ العربيِّ في العامين ٢٠١٠/٢٠١١م،

---

(١) من مقابلة تلفزيونية، فضائية الكتاب بغزة بتاريخ ٢٠١٤/٩/٥م.

وتشكيلَ ما يُسمّى بتنظيمِ الدولةِ الإسلاميةِ في العراقِ والشامِ، والصراعَ الطائفيَّ بينَ الشيعةِ والسنةِ في العراقِ وسوريا، ثمَّ وصولًا للعدوانِ الأخيرِ على قطاعِ غزةَ في العامِ ٢٠١٤م.

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ هناك قضايا أخرى قدْ شغلتِ الكاتبَ تحديدًا القضايا الإنسانيةَ والاجتماعيةَ التي تمسُّ المشاعرَ البشريةَ عامةً: كالانتحارِ، والقزامةِ، والثأرِ، والعنفِ الأسريِّ، وتجبرِ الأبِ، والتمييزِ بينَ الأبناءِ، وتقبلِ الأقدارِ، والحبِّ والأملِ، والزواجِ الإجباريِّ، والطمعِ والحسدِ، فيقولُ الأديبُ خلوصي عويضة: "الروائيُّ بشكلٍ عامٍّ لا بدَّ أنْ يكونَ لديه نوعٌ منَ الهمِّ العامِّ، فإذا لم يكنْ هناكَ الإحساسَ بذلك، فمنَ الصعبِ أن تعبرَ كتاباتُهُ عمَّا هو خارجُ إطارِ الذاتِ، أو أنْ يعبرَ عنْ قضايا المجتمعِ"[1].

المرجعيةُ الثقافيةُ والفكريةُ:

تنوعتِ القضايا والموضوعاتُ الأيديولوجيةُ الفكريةُ والدينيةُ والإنسانيةُ المعاصرةُ التي تناولَها الكاتبُ خلوصي عويضة في أعمالِهِ الأدبيةِ، وهذا يدلُّ على ثقافتِهِ الواسعةِ والمتنوعةِ، وفي ذلكَ يقولُ: "كاتبُ الروايةِ يحتاجُ إلى إلمامٍ بالثقافةِ العامةِ التي لا حدودَ لها، حتى يستطيعَ أنْ يربطَ بينَ عناصرَ العملِ الروائيِّ، ويتجنبَ الوقوعَ في أيِّ تناقضٍ"[2].

وتظهرُ ثقافتُهُ الدينيةُ من خلالِ تناولِهِ للقضايا الدينيةِ المعاصرةِ، يقولُ: "حتى أُعطيَ العملَ الروائيَّ حقَّهُ احتجتُ قبلَ كتابةِ روايةِ "المباهلةِ" –مثلًا– أنْ أقرأَ في الإنجيلِ والتوراةِ في طبعاتٍ مختلفةٍ، ومَنْ ثمَّ تضمينُ الروايةِ نصوصًا مقتبسةً منَ الإنجيلِ والتوراةِ، وقبلَ كتابةِ روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" استطعتُ الحصولَ على دستورِ الحركةِ الماسونيةِ في مصرَ، الذي صدر أواخرَ العام ١٨٦٠/١٨٧٠م بصعوبةٍ شديدةٍ، وأقرأُ بعضَ نصوصِهِ، وأوظفُها في العملِ الروائيِّ"[3].

ولمْ تقفِ اهتماماتُ الكاتبِ عندَ القضايا السياسيةِ فقطْ، بلِ امتدتْ لتشملَ الموضوعاتِ الدينيةَ الحساسةَ كالصراعِ الطائفيِّ في العراقِ والشامِ، وكذلكَ القضايا الفكريةَ العالميةَ، فعالجَ موضوعَ الماسونيةِ والحركةِ الصهيونيةِ والبهائيةِ في روايةِ (الأفعى تطوقُ الأرضَ)، وألقى الضوْءَ على دورِ تلكَ التنظيماتِ في التأثيرِ على جيلِ الشبابِ، وتناولَ أنشطةَ الماسونيةِ التي تستهدفُ طلابَ الجامعاتِ العربيةِ في مصرَ والمغربِ العربيِّ تحديدًا، وتغييبَ العقلِ الجمعيِّ للشعوبِ، وبسطَ أفكارَها الخاصةَ من أجلِ السيطرةِ والتحكمِ بمصائرِ الشعوبِ.

---

[1] من مقابلة تلفزيونية، فضائية الكتاب بغزة بتاريخ ٢٠١٤/٩/٥م.

[2] المقابلة السابقة.

[3] من مقابلة تلفزيونية، فضائية تلفزيون فلسطين بغزة، صيف ٢٠١٧م.

واستطاعَ بفضلِ إتقانِهِ للغةِ الإنجليزيةِ الاطلاعَ على العديدِ من كتاباتِ أساطينِ الأدبِ الغربيِّ، كشكسبير وغيرِهِ منَ الأدباءِ، أما على مستوى الشخصياتِ العربيةِ، فقد تأثرَ كثيرًا بالأديبِ المصريِّ مصطفى لطفي المنفلوطي وبأسلوبِهِ الأدبيِّ وصياغتِهِ الفذةِ المتميزة، وكذلك بالشيخ الإمام ابن الجوزي في كتابه صيد الخاطر [1].

الإصداراتُ الأدبيةُ للكاتبِ:

١- روايةُ (حبر الروح) صدرتْ في العامِ ٢٠١٣م.
٢- روايةُ (ماما فاطمة) صدرتْ في العامِ ٢٠١٤م.
٣- روايةُ (المُباهلة) صدرتْ في العامِ ٢٠١٥م.
٤- (أحلامُنا لغيرِنا) -مجموعة قصصية- صدرتْ في العامِ ٢٠١٦م.
٥- روايةُ (الأفعى تطوقُ الأرضَ) صدرتْ في العامِ ٢٠١٧م.
٦- روايةُ (أسبوعُ الأسرةِ السعيدةِ) -رواية للناشئين واليافعين- صدرتْ في العامِ ٢٠١٧م.
٧- روايةُ (عمو القزم) صدرتْ في العامِ ٢٠١٩م.
٨- (نشيدُ الحياةِ) -نصوص أدبية- صدرتْ في العامِ ٢٠٢١م.

أعمالٌ غيرُ منشورةٍ للكاتبِ:

٩- روايةُ (صفحاتٌ منْ حياةِ الأميرةِ).
١٠- روايةُ (إعدامُ ملكةٍ ماري أنطوانيت) -رواية للناشئين-.

ويعكفُ حاليًّا على إنتاجِ عملِهِ الروائيِّ الجديدِ بعنوانِ (أسنانُ النملِ)[2].

([1]) مقابلة شخصية أجراها الباحث مع الكاتب، غزة، بتاريخ ٢٠٢٠/٧/٩م.

([2]) المقابلة السابقة.

ثالثًا– تلخيصٌ لروايتي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ":

أولا– تلخيصُ روايةِ "المُباهلة"[1]:

تقعُ روايةُ "المُباهلة" في إطارِ الروايةِ الواقعيةِ التسجيليةِ؛ لأنها تؤرخُ لأحداثٍ تاريخيةٍ حقيقيةٍ وقعتْ على الصعيدِ المحليِّ والدوليِّ في فلسطينَ وسوريا والعراقِ وأفغانستانَ وأمريكا في الفترةِ الممتدةِ من ١٩٩٤م حتى ٢٠١٤م.

والروايةُ من حيثُ البناءِ الفنيِّ تقعُ في ثلاثمائةٍ وواحدة وتسعينَ صفحةً، تضمُّ ثلاثةَ فصولٍ رئيسةٍ هيَ الحقدُ المقدسُ، والبيعةُ، والمباهلةُ، ويتكونُ كلُّ فصلٍ من مجموعةٍ من المقاطعِ الروائيةِ، فالفصلُ الأولُ يتكونُ منْ أربعةَ عشرَ مقطعًا موزعةً على الشخصياتِ الرئيسةِ في الروايةِ، أما الفصلُ الثاني فقدْ تكوَّنَ من أحدَ عشرَ مقطعًا، والثالثُ تكونَ من خمسةِ مقاطعَ، فكانَ مجموعُ المقاطعِ مجتمعةً ثلاثينَ مقطعًا.

اعتمدَ الكاتبُ على أسلوبِ المقاطعِ؛ لأنه محكومٌ بمتغيرِ الزمنِ والمكانِ، وكذلكَ اعتمدَ على تعددِ الأصواتِ؛ لخدمةِ الأفكارِ الأيديولوجيةِ والأفكارِ المتباينةِ من خلالِ شخصياتِهِ، ومن أجلِ إظهارِ الصراعِ بين الآراءِ والتوجهاتِ المختلفةِ.

وتتلخصُ الروايةُ في أنها تحكي قصةَ شابٍ فلسطينيٍّ يُسمى (أسعد)، وُلد في الخليلِ، تعرضَ جدُّهُ للقتلِ في مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ سنة ١٩٩٤م، وتعرضَ هو لإصابةٍ دائمةٍ في قدمِهِ، وفي الهجومِ اللاحقِ للمجزرةِ فَقَدَ أمَّهُ شهيدةً، يسافرُ والدُهُ (أنور) إلى أمريكا، ثم يعيشُ (أسعد) معَ جدتِهِ وأختِهِ وأعمامِهِ في بيتٍ متواضعٍ، ونتيجةً لما حدثَ معَهُ ومعَ جدِّهِ وأمِّهِ تعرضَ لصدمةٍ نفسيةٍ شديدةٍ استدعتْ علاجَهُ على يدِ الدكتور (هادي) المتخصصِ بالصدماتِ النفسيةِ، وهو من فلسطينيّي الأرضِ المحتلةِ في العامِ ١٩٤٨م، والذي لعبَ دورًا رئيسًا في الروايةِ بجانبِ (أسعد) و(أنور) و(عادل).

ينطلقُ كلُّ بطلٍ في مشوارِ الحياةِ، فـ(أنور) يسافرُ إلى أمريكا للعملِ ميكانيكيًّا محترفًا، ويتعرفُ إلى مجموعةٍ من الأصدقاءِ الأمريكيين، ثم يستدعي ابنَهُ (سامي) للعيشِ معَهُ، وفي هذهِ الفترةِ تقعُ أحداثُ الحادي عشرَ من سبتمبرَ ٢٠٠١م وتُلقي بظلالِها الصعبةِ على العلاقاتِ بينَ العربِ والمسلمينَ من جانبٍ والأمريكيينَ من جانبٍ آخر، وتشعلُ الصراعَ العقائديَّ بينَ المسلمينَ والأمريكيينَ والصهاينةِ، وتستغلُ أجهزةُ المخابراتِ الأمريكيةِ وجودَ (سامي) و(أنور) في أمريكا، فيقع (سامي) ضحيةً لضابطِ مخابراتٍ متخفٍ بشخصيةِ شيخٍ متشددٍ، يزرعُ فيهِ الفكرَ المتعصبَ المتشددَ، ومن ثَمَّ يطلبُ منهُ السفرَ إلى أفغانستانَ للمشاركةِ في قتالِ الاحتلالِ الأمريكيِّ، أما (أنور) فيقعُ ضحيةَ لفتاةٍ تعملُ في المخابراتِ

---

(١) صدرت الرواية في عام ٢٠١٥م، عن مطبعة دار الأرقم، غزة.

الأمريكيةِ تُدعى (إيزابيل) تتخفى بشخصيةِ فتاةٍ تحبُ الرجلَ الشرقيَّ، وتغويهِ بجمالِها وأنوثتِها، ومن ثَمَّ تسقطُهُ في فخِ التعاملِ معَ أجهزةِ المخابراتِ الأمريكيةِ، وترسلُهُ إلى أفغانستانَ وباكستانَ لمهمةٍ أمنيةٍ خاصةٍ؛ وذلكَ مقابلَ تخليصِ ابنِهِ (سامي) من سجنِه، ورعاية ابنته (أسماء) التي تعرضت لإصابةٍ في أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م.

وفي المرحلةِ نفسِها كانَ (سامي) يجهزُ نفسَهُ للسفرِ لباكستانَ، وعندَ محاولتِهِ السفرَ تعتقلُهُ المخابراتُ الأمريكيةُ، وتوهمُ أجهزةُ المخابراتِ الأبَ بأنَّ ابنَهُ قد وصلَ إلى (بيشاور) للقتالِ ضدَّ الاحتلالِ الأمريكيِّ، فتساومُهُ (إيزابيل) على حياةِ (سامي)، فيسافرُ لباكستان خاضعًا تحتَ ضغطِ المخابراتِ الأمريكيةِ وعاطفةِ الأبوةِ للبحثِ عنِ ابنِهِ، وينكشفُ أمرُهُ، لكنَّ المجاهدينَ يعفونَ عنهُ ويطلبونَ منهُ التوبةَ والعودةَ للانتقامِ منَ الأمريكيينِ ومن ثَمَّ يعودُ إلى أمريكا لينتقمَ منَ العميدِ (وليام) و(إيزابيل) فيقتلَهما، ويُقتلُ بعدَ رحلةِ صراعٍ شاقةٍ.

وبالربطِ بينَ أحداثِ الروايةِ وتأثيرِها على الشخصياتِ، نرى على الجانبِ الآخرِ سيرَ الأحداثِ معَ شخصيةِ (أسعد)، الذي ينتقلُ للعراقِ مع جدته لزيارة عمه، فيستقر للدراسةِ وهناكَ يطَّلعَ على الواقعِ العراقيِّ عن قُربٍ، وتشهدُ الروايةُ أحداثَ الاحتلالِ الأمريكيِّ للعراقِ وسقوطِ بغدادَ سنةَ ٢٠٠٣م، ثمَّ استغلالَ المحتلَ الأمريكيَّ للصراعِ الطائفيِّ بينَ الشيعةِ والسنةِ، وتوظيفَهُ في إدامةِ الاقتتالِ الداخليِّ والقتالِ بالنيابةِ، فيتأثرُ (أسعد) فيما لحقَ بأهلِ السنةِ من مجازرَ مروعةٍ، مما زادَ روحَهُ المتشبعةَ بالانتقامِ لتتوجهِ للقتالِ الطائفيِّ، فيشاركُ بقوةٍ فيه، بجانبِ قتالِهِ للاحتلالِ الأمريكيِّ، فيصبحَ مطلوبًا للأمريكيِّ والشيعيِّ، فيُعتقلُ في سجنِ (أبو غريب)، ثم يخرجُ في عمليةِ هجومٍ وتحريرٍ لأسرى السجنِ. أما الدكتورُ (هادي) فيعيشُ حالةً منَ الغربةِ والصراعِ النفسيِّ الشديدِ في الداخلِ المحتلِ، فهو دكتورٌ متخصصٌ في الصحةِ النفسيةِ، وكانَ يعيشُ حياةَ طيبةً رغيدةً، وينادي بالسلمِ والمسامحةِ، والسلامِ والتعايشِ معَ الآخرِ، حتى تنقلبَ حالتُهُ رأسًا على عقبٍ، ويتأثرُ كثيرًا بـ(أسعد)، وتتغيرُ نظرتُهُ لمحيطهِ منَ الإسرائيليينَ الذين عاشَ معَهُمْ، وتعلمَ في مدنِهِمْ وعرَفَهُمْ، ويتأثرُ بجرائم الاحتلال في مجزرةِ جنينَ سنةَ ٢٠٠٢م، والعدوانِ على غزةَ سنة ٢٠٠٩م، ومنْ ثَمَّ ينفذُ عمليةَ قتلٍ جماعيٍّ لمجموعةٍ من جنودِ الاحتلالِ الصهيونيِّ، ويقررُ الهربَ والانتقالَ إلى غزة ثم سوريا والعراقِ، ويتبوأُ مكانةً كبيرةً في تنظيمِ الدولةِ الإسلاميةِ في العراق والشام؛ لعلمِهِ وثقافتِهِ فيصبحَ قائدًا للمقاتلينَ، ويشاركُ في المعاركِ المحتدمةِ، ويتعرضُ للإصاباتِ العديدةِ، ثم تشاءُ الأقدارُ أنْ يلتقيَ بصديقِ عمرِهِ (أسعد)، وتجمعُهُمْ ظروفُ الميدانِ، وهنا يظهرُ جَدُّ (أسعد) في أحلامِ (أسعد) ليطلبَ منه مغادرةَ الصراعِ الطائفيِّ،

واستخدامِ المباهلةِ[١] كحلٍّ نهائيٍّ، ويرشدُهُ إلى الانتقالِ إلى فلسطينَ عبرَ الجولانِ، فينفذَ (أسعد) مع صديقِهِ هادي ورفاقِهِ عمليةً بطوليةً ضدَّ الاحتلالِ الصهيونيِّ على أرضِ الجولانِ المحتلةِ.

تنبغي الإشارةُ إلى أنَّ هناك مجموعةً كبيرةً منَ الشخصياتِ الثانويةِ التي كانَ لها دورٌ مهمٌّ في سيرِ الأحداثِ، وإثراءِ النصِّ الروائيِّ.

ثانيًا- تلخيصُ روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"[٢]:

تتألفُ الروايةُ من ثلاثِمئةٍ وأربعٍ وتسعينَ صفحةً موزعةً على اثنينِ وعشرينَ مقطعًا روائيًّا، وتبدأُ الروايةُ من نهايةِ الأحداثِ وَفقًا لتقنيةِ الاسترجاعِ أو ما يعرفُ بـ(Flashback)، ومن ثَمَّ تعودُ لسردِ بدايةِ الأحداثِ والتفاصيلِ التي أدتْ إلى النهايةِ المأساويةِ لبطلِ الراويةِ (نصيف) بإعدامِهِ؛ لقتلِهِ أباهُ الافتراضيَّ (كريم).

في هذه الروايةِ يجعلُ الكاتبُ منَ القارئِ شخصًا مشاركًا للحوارِ معَ بطلِ القصةِ (نصيف) باسمِ شخصيةِ (نجيب)، ويوضِّحُ ذلكَ في المقطعِ الأولِ، يقولُ الكاتبُ: "ولأنني طالما اشتهيتُ منْ أعماقِ قلبي أنْ يكونِ لي أخٌ اسمُه (نجيب) فسأعتبرُ قارئي هو (نجيب)، الذي سيكتوي بنارِ كلماتي القادمةِ"[٣].

يبدأُ (نصيف) بسردِ الأحداثِ مسترجعًا ما حصلَ معه من ذكرياتٍ ومواقفَ ومحطاتٍ، فكانَ مولدُهُ في إيطاليا، وعاشَ طفولتَهُ المبكرةَ في فرنسا، ثم ترعرعَ صبيًّا في مصرَ، ثم في المغربِ، فلمْ تكنْ تربطُهُ علاقةٌ حميمةٌ بالانتماءِ إلى الوطنِ.

يعيشُ (نصيف) ضمنَ أسرةٍ وهميةٍ تتكونُ من أمٍّ افتراضيةٍ تدعى (أميرة) وأبٍ (افتراضي) هو (كريم)، وينتقلُ من دولةٍ إلى أخرى حسبَ ما يطلبُ منه (كريم). فيقضي في مصرَ فترةَ طفولتِهِ، وتخدمُهُ سيدةٌ تدعى (ندى)، وتُديرُ شؤونَهُ الخاصةَ كما يُطلبُ منها، وكانَ يجري إعدادُهُ ليتولى منصبَ الأبَ الروحيَّ للمحفلِ الماسونيِّ في مصرَ خلفًا لـ(كريم)، ينتقلُ للمغربِ معَ (كريم) و(أميرة)، وتكونُ (أميرة) بمثابةِ الأمِّ والمراقبِ لحياةِ (نصيف) كما طلبَ منها (كريم)، يتعرفُ إلى صديقِهِ (رمزي)، وعلى أسرتِهِ، وعلى شقيقِهِ (عماد)، ويتعلقُ بشقيقتِهِ (نجوى) ويحبُّها. كانَ (كريم) يحرصُ على عزلِ (نصيف) عن محيطِهِ، وعن أمورِ الدينِ والسياسةِ، أما باقي العلومِ وتحديدًا الهندسةَ وحسابَ المثلثاتِ؛

---

(١) المُباهلة: مصطلح فقهي، وهو أن يجتمع قومان لإبطال الباطل وإحقاق الحق إذا اختلفوا في شيء ما، ويُلعن الظالم منهما.

(٢) صدرت الرواية في مارس عام ٢٠١٧م، عن مطبعة دار الأرقم، غزة.

(٣) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، ط١، مطبعة دار الأرقم، غزة، ٢٠١٧م، ص٦.

فكانَ يشددُ على تفوقِهِ فيها ليلتحقَ بكليةِ الهندسةِ ليصبحَ مهندسًا عظيمًا فيما بعدُ. وتتطورُ علاقةُ (كريم) بوالدِ (رمزي) وأسرتِهِ وتتوثقُ؛ ليصبحوا أعضاءً في المحفلِ الماسونيِّ. وقبلَ بلوغِ (نصيف) السنّ المطلوب للتعميدِ كعضوٍ جديدٍ في العشيرةِ، يصبحُ عضوًا معمدًا؛ لأنه ابنُ الأبِ الروحيِّ للمعبدِ (كريم)، ثم يلتحقُ (نصيف) بالجامعةِ، وفيها تدورُ رحى النقاشاتِ الفكريةِ وتطرحُ آراءِ الماسونيةِ وأفكارِها بشكلٍ خفيٍّ في ساحاتِ الجامعاتِ، ويكونُ له دورٌ بارزٌ معَ أعضاءِ العشيرةِ الماسونيةِ من رجالٍ ونساءٍ في طرحِ تلكَ المواضيعِ، وتتوثقُ علاقتُهُ بـ(أميرة) من ناحيةٍ عاطفيةٍ جنسيةٍ وغيرِها من الفتياتِ اللواتي يُتقنَّ إغواءَ الجسدِ وفنَّ الجنسِ، ولكنه في الوقتِ نفسِهِ يعيشُ حالةَ منَ الضياعِ الفكريِّ والنفسيِّ، فكانَ دائمًا يطرحُ الأسئلةَ عن نفسِهِ وكينونتِهِ وعن مستقبلِهِ، فكانتْ رحلةُ بحثِهِ عنِ الذاتِ أكثرَ ما أرقَّهُ وشغلَ بالَهُ، وكانتْ فطرتُهُ السويةُ تقفُ لهُ كمنبهٍ رافضٍ بالرغمِ من حياته الغارقة في وحل التردي، وما يراهُ من أفعالٍ مشينةٍ تتخذُها الماسونيةُ كمنهجِ حياةٍ.

يصطدمُ (نصيف) مع (مكرم) وتبدأُ العداوةُ الخفيةُ بينهما، وسرعانَ ما تظهرُ في محطاتِ الروايةِ، ويتعرفُ إلى (سامية) ويتأثرُ بها وبديانتِها، ويشفقُ على وضعِها الأسريِّ بعدَ مقتلِ والديْها، ويتأثرُ كثيرًا بمقتلهما بظرفٍ غامضٍ، وتلفتُ (سامية) انتباهَهُ لتشابهِ قسماتِ وجهِهِ معَ والدِها، وهنا يغوصُ (نصيف) في حيرةِ الغموضِ والبحثِ عن الحقيقةِ، وتبدأُ رحلةُ البحثِ عنِ النفسِ والوعودِ التي وعدَهُ بها (كريم)؛ بأنه سيعيشُ برفاهيةٍ عظيمةٍ، وسيكونُ له شأنٌ كبيرٌ في المحفلِ الماسونيِّ، ويتوقفُ عنِ المشاركةِ في نشرِ الفكرِ الماسونيِّ في الجامعاتِ لأسبابٍ خاصةٍ، لكنه سرعانَ ما يعودُ للعملِ مرةً أخرى. ويدخلُ في خلافٍ معَ صديقِهِ (رمزي) ويشتعلُ الصراعُ بينهما.

يشعرُ (نصيف) بخطرِ التهديدِ والقتلِ على يدِ (مكرم) و(رباح) بأمرٍ من (كريم) لتوقفِهِ عن نشاطاتِ المحفلِ، فيستعيد نشاطَهُ؛ ويعود للعملِ مع مسؤولِهِ المباشرِ في المحفلِ (بشير) ليدرأَ عن نفسِهِ الخطرَ، وتشتدُ حيرةُ النفسِ ويقعُ في شَرَكِ فتياتِ العشيرةِ معَ (سحر) و(فيروز) التي كادَ أن يقتلَها، فيهربُ إلى مصرَ حتى لا يُسجنَ، ويتعرضُ بعدَ ذلكِ للسجنِ بعدَ مشاجرةٍ حدثتْ بينَهُ وبينَ (مكرم)، وتسوءُ علاقةُ (مكرم) بـ(نجوى) فينفصلانِ، أما (عماد) شقيقُ (نجوى) فيقفُ سدًّا ليمنعَ زواجَ (مكرم) من شقيقتِهِ، وليفتحَ الطريقَ أمامَ (نصيف) ليعيدَ فكرةَ الزواجِ منها مرةً أخرى، فيقررُ ذلكَ ويستعدُ للذهابِ للاعتذارِ إلى (كريم)، وليطلبَ من (يوسف) والدَ نجوى الزواجَ منها بحضورِ (كريم) و(أميرة)، ولتعودَ الحياةُ إلى قلبِهِ ونفسِهِ، وما إنْ يصلْ إلى مكتبِ (كريم) ليناقشَهُ في زواجِهِ من (نجوى)، حتى يجدَ بابَ مكتبِهِ مفتوحًا بشكلٍ غيرِ مقصودٍ، ولتحدثَ الفاجعةُ بخروجِ (كريم) من حمّامِ مكتبِهِ الخاصِّ عاريًا، ويتفاجأَ (نصيف) بأنه خنثي، فيصفعُهُ (كريم)، وهنا يفصحُ كريمٌ بالحقيقةِ التي أخفاها عنْ (نصيف) بأنه خالُهُ، وليسَ أباه الحقيقيَّ، وأنه هوَ من تسببَ بقتلِ أبويهِ خنقًا، ويشتبكانِ،

فيصفعُهُ (نصيف) ببعضِ ضرباتٍ ويقرُّ (كريم) بالحقيقةِ المؤلمةِ تحت الضربِ فيقتلُهُ (نصيف)، فيُعتقلُ ويحكمُ عليه بالإعدامِ.

كانتْ هناكَ مجموعةٌ منَ الأحداثِ المحوريةِ في الروايةِ كمقتلِ (ندى) و(مروان) و(رباح) و(سامية) ووالديْها، التي بدورِها أشعلتِ الصراعَ بينَ شخصياتِ الروايةِ، تحديدًا (نصيف) و(كريم) و(مكرم). حيث ضجّتِ الروايةُ بالحواراتِ الفكريةِ والدينيةِ، ويطغى على مجرياتِها مشاهدُ الجنسِ والإغواءِ الأنثوي، وتضاربُ المصالحِ لإثباتِ الولاءِ لمجتمعِ البنائينَ الأحرارِ، وطريقةِ الماسونيةِ في نشرِ أفكارِها ومعتقداتِها.

رابعًا– المعنى السيميائيُّ لعنوانِي الروايتينِ:

أولًا– روايةُ "المُباهلة":

تعدُّ روايةُ "المباهلةُ" منَ الرواياتِ كبيرةِ الحجمِ، يستهلُها بغلافٍ، وبإهداءٍ عامٍّ إلى المسلمينَ وأعدائِهِمْ وللإنسانيةِ عامةً "لأنَّ الإسلامَ اليومَ ضحيةُ أبنائِهِ وأعدائِهِ على السواءِ؛ فإليهما معًا أقدمُ هذا العملَ، ثمَّ للإنسانِ ضحيةَ أخيهِ الإنسانِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ"[١].

يدفعُ عنوانُ الروايةِ الغريبُ القراءَ للبحثِ عن مكنونِهِ، ومعناهُ وسببِ تسميتِهِ، فالمباهلةُ سلاحٌ ربانيٌّ، هدفُها إظهارُ الحقِّ وإزهاقُ الباطلِ من خلالِ الابتهالِ والدعاءِ. فالمباهلةُ كما يعرّفُها ابنُ منظورٍ في اللسانِ: "والمُباهلةُ: المُلاعَنةُ. يقالُ: باهَلْتُ فلانًا أَيْ لاعنتُهُ، ومعنى المباهلةُ أَنْ يجتمعَ القومُ إذا اختلفوا في شيءٍ فيقولوا: لَعْنَةُ اللهِ على الظالمِ منّا"[٢].

وقد استمدَّ الكاتبُ عنوانَ روايتِهِ من قولِهِ تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٦١ ﴾[٣].

أمّا غلافُ الروايةِ الأمامي فيميلُ إلى اللونِ البُنيِّ. طُبعَت عليه صورتانِ: الأولى لشخصٍ يرفعُ يديْهِ إلى السماءِ في حالةِ ابتهالٍ ودعاءٍ، والأخيرةُ لشخصٍ يقفُ خلفَهُ يشيرُ إلى الأعلى باتجاهِ العنوانِ

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، ط١، مطبعة دار الأرقم، غزة، ٢٠١٥م، ص٧.

(٢) جمال الدين أبو الفضل بن منظور، لسان العرب، مادة (ب، هـ، ل).

(٣) سورة آل عمران، الآيات (٥٩، ٦٠، ٦١).

الذي كُتبَ باللونِ الأصفرِ المذهبِ، وبخطٍّ الثلثِ المُحلى في وسطِ صفحةِ الغلافِ بحجمٍ كبيرٍ، أما الخلفيةُ فصورةٌ فيها نيرانٌ ودخانٌ ورمادٌ، وفيهِ إشارةٌ للأحداثِ الداميةِ التي تدورُ رحاها في الروايةِ.

وكتبَ الأديب عويضة عبارةَ "حربُ أفكارٍ، وصراعُ عقولٍ" على غلاف الصفحة الأمامية، حيث تعدُّ عتبةً مهمةً للدخولِ إلى عوالم الرواية.

ثانيا- روايةُ "الأفعى تطوقُ الأرضَ":

قدْ يكونُ عنوانُ الروايةِ مبهمًا وغريبًا، لكنْ بعدَ الاطلاعِ على أحداثِ الروايةِ وما يدورُ فيها من دراما وحواراتٍ يتجلى المعنى، وتتضحُ الصورةُ؛ فالكاتبُ قدِ اختارَ العنوانَ جملةً اسميةً مكونةً منْ مبتدأٍ وخبرٍ جملةٍ فعليةٍ: الأفعى تطوقُ الأرضَ؛ وفي ذلكَ دلالةٌ على الاستمراريةِ والتجددِ، فالأفعى إشارةٌ إلى الماسونيةِ، والفعلُ المضارعُ تطوقُ ذو دلالةٍ على استمراريةِ بثِّها لسمومِها وأفكارِها الهدامةِ حولَ الأرضِ، أيْ في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ مجتمعٍ.

جاءَ لونُ الغلافِ رماديًّا؛ إشارةً إلى رماديةِ هذهِ الجماعةِ ورماديةِ مواقفِها، فهي تُظهرُ عكسَ ما تُبطنُ وتُخفي، أما الصورُ والرموزُ التي طُبعتْ على الغلافِ، فكانتْ صورةً للكرةِ الأرضيةِ عليها رموزُ الماسونيةِ الهندسيةِ الفرجارُ والمثلثاتُ وشخصٌ كبيرٌ بلحيةٍ كثيفةٍ يمثلُ المهندسَ الأعظمَ، يلبسُ تاجًا هدفُهُ حكمُ العالمِ؛ فالعنوانُ والرموزُ المرسومةُ على الغلافِ جاءتْ منسجمةً مع محتوى الروايةِ وهدفِها المنشودِ.

وكانَ الكاتبُ قد أهدى روايتَهُ لكلِّ قارئٍ وقارئةٍ: "هذهِ الروايةُ أردتُها باتجاهٍ، وأرادَها (نصيف) باتجاهٍ آخرَ؛ فكانَ لـ(نصيف) ما أرادَ، وأهداها إليكَ (نجيب) وإلى كلِّ نجيبٍ ونجيبةٍ"[١].

وهو بذلكَ يريدُ إقحامَ القارئِ بكلِّ حواسِهِ ومشاعرِهِ للدخولِ في معتركِ الروايةِ وأحداثِها.

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٤.

الفصلُ الأولُ
الرُّؤيةُ الأيديولوجيَّةُ الدّينيَّةُ

- ❖ المبحثُ الأولُ: أشكالُ الخطابِ الدينيِّ.
- ❖ المبحثُ الثاني: صورُ الصراعِ العقائديِّ.

توطئة:

احتلَّ الدينُ مساحةً واسعةً في الراويةِ العربيةِ المعاصرةِ، فهوَ بمثابةِ العاكسِ للثقافةِ العربيةِ، والمطلعُ على المنظومةِ الفكريةِ العربيةِ يرى أنَّ معظمَ أفرادِ المجتمعِ العربيِّ يجعلونَ للدينِ مجالًا واسعًا في حياتِهِمْ كدليلٍ على التدينِ والالتزامِ، وليسَ غريبًا أنْ نجدَ بعضَ الروائيينَ قدْ جعلوا الدينَ نُصْبَ أعينِهِمْ ليعبروا عن موضوعاتِهِمْ وأيديولوجياتِهِمْ، فقد: "اهتمتِ الروايةُ العربيةُ المعاصرةُ بالاشتغالِ على النصِّ الدينيِّ بمختلفِ مصادرِهِ ومشاربِهِ، وذلكَ بتوظيفِ نصوصِهِ ومضامينِهِ المختلفةِ، وجعلِها آليةً من آلياتِها الإفهاميةِ والاتصاليةِ التي من شأنِها الارتقاءُ إلى المتلقي كالنصوصِ القرآنيةِ والتوراتيةِ، والإنجيليةِ، بالإضافةِ إلى توظيفِ الحديثِ الشريفِ، والتراتيلِ الدينيةِ، والفكرِ الدينيِّ، ولاسيما فكرةُ المخلِّصِ، والفكرُ الصوفيُّ، وغيرُها من الأفكارِ الدينيةِ التي حظيتْ باهتمامِ الروائيينَ المعاصرينَ"[١].

وانسجامًا معَ هذهِ الرؤيةِ فقدْ تجرأَ الكاتبُ خلوصي عويضة بشجاعتهِ الأدبيةِ على طرحِ المواضيعِ الدينيةِ الحساسةِ والشائكةِ، في وقتٍ يحجمُ فيه العديدُ منَ الأدباءِ والكتابِ على تناولِها، ولوْ بالنُّزُرِ اليسيرِ، فنراه قد تناولَ موضوعاتٍ متعددةً؛ كالصراعِ العقائديِّ والطائفيِّ، والماسونيةِ والبهائيةِ في روايتيِ "المُباهلةِ"، و"الأفعى تطوقُ الأرضَ" ميدانَ دراستِنا.

وفي هذا الفصلِ سيتناولُ الباحثُ الرؤيةَ الأيديولوجية الدينيةَ من خلالِ تناولِنا للخطابِ الدينيِّ بأشكالِهِ وأنماطِهِ المتنوعةِ في المبحثِ الأولِ، وسنتطرقُ لقضايا الصراعِ العقائديِّ والطائفيِّ في المبحثِ الثاني.

---

(١) محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، ط١، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، ، ٢٠٠٢م، ص ١٤٠.

المبحثُ الأولُ

أشكالُ الخطابِ الدينيِّ

حظيَ الخطابُ الدينيُّ بأهميةٍ بالغةٍ قديمًا وحديثًا، ولقدْ تعددتْ أنماطُ الخطابِ الدينيِّ الإسلاميِّ وغيرِهِ منَ الشرائعِ الأخرى، وانقسمَ الناسُ فيه إلى جماعاتٍ وتوجهاتٍ ما بين المتشددِ، والوَسَطِيِّ المعتدلِ، والمتحررِ، وغيرِها منْ أنماطِ الخطابِ الدينيِّ المختلفةِ.

وفي وقتِنا المعاصرِ، نرى الصراعاتِ الدينيةَ تتشكلُ وتُبنى انطلاقًا منَ التوجهاتِ الأيديولوجيةِ لكلِّ جماعةٍ أو طريقةٍ أو طائفةٍ، فلكلِّ متلقٍ طريقةٌ خاصةٌ في فهمِ النصوصِ الدينيةِ وتأويلِها، فنتجَ عنْ ذلكَ اختلافٌ وتنازعٌ وتصادمٌ بينَ التياراتِ الدينيةِ وصلَ إلى حدِّ التكفيرِ والقتلِ، ويرى بعضُ الباحثينَ أنَّ: "الخطابَ الدينيَّ المعاصرَ هو المسؤولُ –إلى حدٍّ بعيدٍ– عنْ حالةِ التخلفِ التي يعانيها العالمُ الإسلاميُّ منذُ أنْ توقفَ الاجتهادُ، وشاعَ التمسكُ بالتقليدِ"(١).

وقد تأثرَ الخطابُ الدينيُّ بالحالةِ السياسيةِ في البلدانِ العربيةِ والإسلاميةِ التي تعاني منَ التبعيةِ للغربِ، أو تقعُ تحتَ سيطرةِ الاحتلالِ والاستعمارِ، الذي يوظفُ النزاعاتِ الطائفيةَ القائمةَ على الموروثِ الدينيِّ لتمريرِ مصالحِهِ الاستعماريةِ، وقد باتَ هذا واضحًا وجليًّا في العراقِ وسوريا وبلادِ المشرقِ العربيِّ بشكلٍ عامٍ؛ لذا ظهرتْ فيهِ التياراتُ المتشددةُ، وخطابُ الطائفيةِ والقبليةِ، في حينِ كانَ خطابُ الاعتدالِ الوَسَطِيِّ يجابهِ خطابَ التشددِ والتطرفِ، من خلالِ الفهمِ المناسبِ للأحكامِ والنصوصِ الدينيةِ والشرعيةِ.

فالخطابُ الدينيُّ السّلفيُّ يعتمدُ أولًا وأخيرًا على النصوصِ والمأثوراتِ الدينيةِ؛ "وتقفُ السلفيةُ عندَ هذهِ النصوصِ والمأثوراتِ، وتنكرُ استخدامَ الرأيِ أو القياسِ، فضلًا عنِ العقلانيةِ والتأويلِ، حتى في ترجيحِ نصٍّ على آخرَ من هذهِ النصوصِ، لقدْ كانَ ابنُ حنبلٍ يُسمى "النصَّ" "الإمامَ"، وكما

يقولُ ابنُ القيمِ، معقبًا على أصولِ منهجِهِ، إنهُ: "كانَ شديدَ الكراهةِ والمنعِ للإفتاءِ بمسألةٍ ليسَ فيها أثرٌ عنِ السلفِ، ولقدَ قالَ لبعضِ أصحابِهِ: إياكَ أنْ تتكلمَ في مسألةٍ ليسَ لك فيها إمامٌ"(٢).

وعلى النقيضِ يوجدُ خطابٌ لادينيٌّ، يحاربُ الشرائعَ، ويجعلُها عائقًا أمامَ تطورِ المجتمعاتِ، وهو ما تنادي بهِ الماسونيةُ وتعملُ على نشرِهِ في السرِّ والخفاءِ، على الرغمِ ممّا تدّعيهِ من نشرِها

(١) نصر أبو زيد، نقد الخطاب الديني، ط٢، دار سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ١٣.

(٢) محمد عمارة، السّلفية، د. ط، دار المعارف للطابعة والنشر، سوسة، تونس، د.ت، ص ٢٤.

لشعاراتِ الحريةِ الدينيةِ والفكريةِ، ونشرِ الفضيلةِ والعدلِ والمساواةِ، ومَنْ ثمَّ انقسمَ الناسُ حيالَها بينَ مدافعٍ عنها ورافضٍ لها.

وسيحاولُ الباحثُ في هذا المبحثِ أنْ يستعرضَ أنماطَ الخطابِ الدينيِّ، وخطابَ محاربةِ الدينِ، فقدْ كانَ لهذهِ الأنماطِ حضورُها البارزُ في روايتي "المباهلة"، و"الأفعى تطوقُ الأرضَ" –ميدانِ دراستِنا– والتي انصهرتْ في بناءِ المتنِ الروائيِّ، وقدَّمَ الكاتبُ من خلالِها رؤيتَهُ للأحوالِ الدينيةِ المعاصرةِ، وحلًّا للصراعاتِ الدينيةِ، وذلكَ من خلالِ اطّلاعِهِ على مواضعِ الاختلافِ بينَ الأيديولوجياتِ المتعددةِ.

في روايةِ "المُباهلةِ" نقفُ على شخصياتٍ متعددةٍ، منها ما يمثّلُ الخطابَ الإسلاميَّ المتشددَ أو الخطابَ اليهوديَّ المتشددَ، أو الخطابَ الوسطيَّ المعتدلَ، أو ما يمثّلُ الخطابّ التحرريَّ.

١– الخطابُ اليهوديُّ المتشددُ:

يطالعُنا الخطابُ اليهوديُّ المتشددُ من بدايةِ الروايةِ من خلالِ التعبئةِ الفكريةِ والروحيةِ لـ(غولدشتاين) اليهوديِّ الذي اقترفَ مجزرةَ الحرمِ الإبراهيميِّ سنة ١٩٩٤م، يقولُ الراوي: "ثمَّ استدركَ نفسَهُ، وقدْ تذكرَ أمرًا أرَّقَ نفسه فاستوقفَ معلمَهُ سائلًا: لماذا يعادينا "فرويد" أليسَ يهوديًّا؟ كيفَ يجرؤُ، ويُصرِّحُ بأنَّ الفرقَ بين الموسَوِيَّةِ القديمةِ والحديثةِ أنَّ الأولى تنصُّ صراحةً أنَّ اللهَ إلهُ كلِّ الشعوبِ والأممِ، أما التي وضعَها حاخاماتُ اليهودِ العظامُ وأحبارُهُمْ فـ...، فكما تعلمُ سيدي إنّها تؤكدُ أنَّهُ إلهُ بني إسرائيلَ فقطْ"[١]، فيردُ عليهِ معلمُهُ: "هذا مطرودٌ ملعونٌ شاذٌّ أفّاقٌ، عشقُهُ للمسيحياتِ أورثَهُ كرهَ دينِ الآباءِ والأجدادِ ألا ترى نظرياتِهِ الفاسدةَ السافلةَ تقومُ على الجنسِ دونَ سواهُ؟ لا تدعْ هذا وأمثالَهُ من العلمانيينَ الكفرةَ يُفسدونَ إيمانَكَ بشريعةِ بني إسرائيلَ"[٢]. وهذا بدورِهِ أدى لزرعِ الحقدِ الأعمى عندَ (غولدشتاين)، ويردُّ على معلمِهِ قائلًا: "هذا رأيٌ أبويٌّ أيضًا، إنهُ عدوٌّ يستحقُ سفكَ دمِهِ لكنّهُ مضى إلى سخطِ الإلهِ الربِّ بعدَ أنْ قدحَ في شعبِهِ المختارِ"[٣].

ترسختْ في أعماقِ هذا المجرمِ أصولُ الحقدِ الدينيِّ، واتخذَ من آراءِ معلمِهِ طريقَهُ للاستعلاءِ والاستعداءِ نحوَ الشعوبِ الأخرى، فنشأَ على تقديسِ العنصرِ اليهوديِّ، واعتبارِهِ الشعبَ المحببَ للإلهِ.

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣١.

(٢) المصدر السابق، ص٣٢.

(٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

يظهرُ الخطابُ اليهوديُّ المتشددُ في حواراتِ (أنور) معَ (إيزابيل) التي تعملُ في جَهازِ المخابراتِ الأمريكيةِ ذاتِ التوجهِ الصهيونيِّ، فتقولُ: "لقدْ سمعتُ عنكَ ما أثارَ فضولي... أظنُّكَ كما فهمتُ منَ الأرضِ المقدسةِ"[١]، وأثناء حوارها الإلكتروني مع (هادي) تستخدمُ مصطلحَ أرضِ الميعادِ: "لوْ دعوتْني أثناءَ حوارِنا السابقِ لما ترددْتُ، إنَّ القدومَ إلى أرضِ الميعادِ يمنحني إحساساً آخرَ بالحياةِ"[٢]، وعندَ حديثِها مع الضابطِ الأمريكيِّ (مايكل) الذي يعملُ في العراقِ، فإنَّها تواعدُهُ إلى اللقاءِ في "أورشليم" حسبَ قولِها: "إلى اللقاءِ في "أورشليم"، إلى اللقاءِ في "أورشليم"[٣].

يبرزُ في النصوص السابقة على لسان (إيزابيل) ورودُ المصطلحاتِ العبريةِ المستمدةِ منَ التوراةِ والمعتقداتِ الدينيةِ اليهوديةِ المتشددةِ، مثلَ: أرضِ الميعادِ، والأرضِ المقدسةِ، وأورشليم، وغيرِها منَ المصطلحاتِ التي لم تردْ إلا لترسمَ لنا الصورةَ الحقيقيةَ للطرفِ الآخرِ، وكيفَ استطاعَ أنْ يقلبَ الحقائقَ والمسمياتِ؛ لتؤثرَ في العقولِ بما يتناسبُ معَ أهدافِهِمْ، وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ كلَّ المصطلحاتِ تصبُّ في صهيونيةِ الدولة ويهوديتِها، والكاتبُ هنا عندما يوظفُ المصطلحاتِ والمسمياتِ اليهوديةَ على لسانِ شخوصِهِ؛ فإنهُ يبين لنا موقفَهُ الذي يتمثلُ بالرفضِ لتلكِ المصطلحاتِ، ويظهرُ ذلكَ على لسانِ (هادي) الذي رفضَ استخدامَ (إيزابيل) لتعبيرِ أرضِ الميعادِ، يقولُ: "عفوًا لماذا استخدمتِ تعبيرَ أرضِ الميعادِ معَ أنكِ قدَّمتِ نفسكِ بالعلمانيةِ حدَّ كراهيةِ الأديانِ؟"[٤]، ويستمرُ بفضحِ الخطابِ اليهوديِّ المتشددِ، حيثُ يقولُ: "ومهما تجرأَ الغزاةُ على التاريخِ فأمعنوا في التشويهِ والتحريفِ، فلا عجبَ؛ فلقد ذهبوا أبعدَ منَ ذلكَ حتى امتدتِ الأيدي الآثمةُ إلى كتبِهِمْ المقدسةِ، فحذفوا ما عارضَ الطمعَ والمصلحةَ، وأضافوا ما وافقَ الهوى حتى وصلَ الأمرُ لابتداعِ التلمودِ الذي تَبْرَّأَتْ من نصوصِ حقدِهِ السماءُ، وتئنُ من وجعِ عنصريتِهِ أرضُ الأنبياءِ"[٥].

فهوَ يرفضُ منطقَ الاعوجاجِ التاريخيِّ الذي تسلكُهُ معَهُ تلكَ المتقنعةَ بالعلمانيةِ، القائمَ على التزييفِ والتحريفِ، ويؤمنُ بأحقيةِ وجودِهِ وحريتِهِ، ويؤكدُ تجذرَهُ في هذهِ الأرضِ المباركةِ، بالرغمِ منَ أحقادِهِمُ التلموديةِ.

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٨٠.
(٢) المصدر السابق، ص٢٥١.
(٣) المصدر السابق، ص٢٦٩.
(٤) المصدر السابق، ص٢٥١.
(٥) المصدر السابق، ص٢٣،٢٤.

٢- الخطابُ الإسلاميُّ المتشددُ:

وفي الجانبِ الأخرِ كانَ الخطابُ الدينيُّ الإسلاميُّ المتشددُ على لسانِ العديدِ منَ الشخصياتِ كالشيخِ (محسن)، الذي استطاعَ بأسلوبِهِ المتدينِ والمؤثرِ أنْ يجمعَ الشبابَ حولَهُ، وأنْ يكونَ عليهم أميرًا وموجهًا لتحركاتِهِمْ، وعلى لسان (سامي) نجل (أنور) الذي وصلَ معَ والدِهِ إلى الولاياتِ المتحدةِ، ولمْ يستطعِ الاندماجَ معَ البيئةِ الغربيةِ والمجتمعِ الأمريكيِّ، وجنحَ للتدينِ والتشددِ متأثرًا بالشيخِ (محسن) ورفيقِهِ البشتونيِّ[1]، وكانَ يعترضُ على العلاقةِ غيرِ الشرعيةِ بينَ والدِهِ وصديقتِهِ (إيزابيل)، يقولُ الراوي: "وبدأَ جوُّ النقاشِ يسخنُ معَ غليانِ الماءِ فتوسعتْ دائرةُ الحوارِ حتى عرّجوا على أحوالِ المسلمينَ المستضعفينَ في فلسطينَ والعراقِ، حينها أخبرَهُمْ (سامي) بقصةِ (أسعد) وختمَ ببيتِ شعرٍ ذكرَهُ خطيبُ الجمعةِ تنديدًا بالحصارِ على العراقِ، فأعجبَهُ فحفظَهُ:

تموتُ الأُسْدُ في الغاباتِ جُوعًا   ولحمُ الضأنِ تأكلُهُ الكلابُ"[2]

وتظهر صورة أخرى للخطابِ المتشددِ على لسانِ أحد قادةِ الجماعاتِ المتشددةِ الذي يبايعُهُ (أسعد)، وذلك بعدَ وصولِه إلى العراقِ لزيارةِ عمِّهِ، وما حدثَ من هجومٍ أمريكيٍّ على العراقِ عامَ ٢٠٠٣م: "وانتبهَ جيدًا فلا إقالةَ بعد البيعةِ، ولا خروجَ عنِ الطاعةِ ولا جدالَ، لا شيءَ ينتظرُكَ سوى الموتِ شهيدًا؛ فإنْ أردتَ فهاكَ يدي ممدودةً فبايعْ أوْ ..." [3].

فهذهِ البيعةُ ملزمةٌ، لا فرارَ منها ولا مناصَ، ولا مجالَ لمخالفةِ الجماعةِ، ولا رأيَ ولا مشورةَ للأفرادِ، الرأيُ ما يقررُهُ الأمراءُ، وهنا نرى صورةَ الغلوائيةِ في أعلى مراتبِها، فليس سوى الموتِ سبيلًا لمتبعي هذهِ الجماعاتِ، فهي لا تعرفُ سبيلًا للحياةِ في سبيلِ اللهِ.

وتطالعُنا صورةٌ تاليةٌ للخطابِ المتشددِ على لسانِ أميرِ جماعةٍ متشددة في باكستان (أمير أغا) بعدَ وقوعِ (أنور) في أسرِ جماعتِهِ المتشددةِ في "بيشاور"، بعدَما أرسلتْهُ المخابراتُ الأمريكيةُ للتجسسِ على المقاتلينَ: "إنني أحملُ سلاحي وأقاتلُ الكفارَ والخونَ منذُ أكثرِ منْ عشرينِ عامًا، كلُّ يومٍ طلبتُ الموتَ في سبيلِ الله، وكانتْ توهبُ لي الحياةُ، لأنَّ في القدرِ أنْ ألتقيَ بكَ ثم أطهرُ الأرضَ منكَ، أنتمْ العربُ كنتمْ في بدايةِ ظهورِ الدينِ سببَ هدايةِ البشريةِ ونصرةِ الحقِّ وعزةِ المسلمينَ، أما اليوم ...!! أنتمْ سببُ ضياعِ هيبتِها وتشرّذمِها وهزائمِها... تُبْ ليكونوا أعداءنا معًا"[4].

---

(1) البشتوني: تسمية تطلق على المسلمين السُنّة في باكستان وأفغانستان.

(2) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١١٩.

(3) المصدر السابق، ص١٦٣.

(4) المصدر السابق، ص٢٣٢.

ويجسدُ الدكتور (هادي) صورةً واضحةً للخطابِ الدينيِّ الإسلاميِّ المتشددِ، فهو منْ فلسطينيّي الأرضِ المحتلةِ عام ١٩٤٨م، درسَ في جامعاتِ الاحتلالِ، وكانَ لديهِ مجموعةٌ من الأصدقاءِ اليهودِ، من ضمنِهِمْ مَنْ يعملُ في الجيشِ الصهيوني، آمنَ في البدايةِ بخدعةِ التعايشِ مع الآخرَ، لكنْ بعد تأثرِهِ بما جرى لـ(أسعد) في مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ، وما تلا ذلكَ من مجازرِ الصهاينةِ بحقِّ الأبرياءِ منْ أبناءِ شعبِهِ في قانا وجنينَ وغيرِها، ينتقمُ بعمليةِ قتلٍ جماعيٍّ لمجموعةٍ من جنودِ الاحتلالِ، فَيَدُسَّ السمَّ لهم في الطعامِ، ثم يغادرُ إلى الأردن ثم مصر، ويصل غزةَ عبرَ الأنفاقِ الحدوديةِ معَ مصرَ ويمكثُ فيها فترةً، ثمَّ يغادرُ إلى العراقِ وسوريا، فيحدثُ لديهِ تحولٌ كليٌّ، وينقلبُ رأسًا على عَقْبٍ منْ إنسانٍ مسالمٍ يؤمنُ بالتعايشِ والسلامِ معَ الإسرائيليينَ إلى شخصٍ متشددٍ، ويلتحقُ بالسلفيةِ العلميةِ التي يتركُها بسببِ دفاعِهِمُ الشديدِ عن الأنظمةِ والحكامِ، ليلتحقَ بالسلفيةِ الجهاديةِ المتشددةِ، يقولُ (هادي): "لكنَّ الذي استفزَ عقلي، وحيَّرَ نفسي، وأوجدَ بذرةَ الرغبةِ في البحثِ عن جماعةٍ أخرى هوَ دفاعُهُمُ الشديدُ عن الحكامِ، والإفتاءُ بحرمةِ الخروجِ عليهم... كيف وقلبي يهتفُ معَ الهاتفينَ: الشعبُ يريدُ إسقاطَ النظامِ؟! ومعَ تتابعِ موجاتِ هديرِ الملايينِ الناقمةِ نمتْ البذرةُ وترعرعتْ، خاصةً معَ تدفقِ صورِ الرعبِ القادمةِ منْ سوريا"[1].

فهنا تسقطُ أكذوبةُ التعايشِ التي حاولَ الصهاينةُ أن يروجوها على أبناءِ فلسطينَ، عندما تتصدرُ مجازرُهُمْ المشهدَ من جديدٍ، ويتجهُ إلى الدينِ موغلًا بهِ بانتمائِهِ للتيارِ السلفيِّ، لكن يفرُّ إلى التيارِ الذي يحضُّ على قتالِ الحاكمِ الباغي، فهو يقعُ تحتَ تأثيرِ ثوراتِ الربيعِ العربيِّ، لكنه يبحثُ عن نافذةٍ تقاتلُ بالدمِ والسلاحِ عن شرعيةِ وجودِها، وفي الوقتِ نفسِهِ تسعى لتحقيقِ حلمِهِ في القضاءِ على الطغاةِ.

فيلتحقَ بصفوفِ مقاتلي الجماعاتِ السلفيةِ المسلحةِ، واصفًا ذلكَ: " فاندفعتُ لا آلو جهدًا منْ ليلٍ أو نهارٍ لعملِ أيِّ شيءٍ، إلى أنْ تعرفتُ لمجموعةِ شبابٍ ينتمونَ للسلفيةِ الجهاديةِ، فاعتنقتُ رؤيتَهُمْ متحمّسًا، ثم قاموا لاحقًا بتأمينِ دخولي إلى "درعا"، متحولًا منَ العلميةِ إلى الجهاديةِ، ومنَ الجنوبِ إلى الجنوبِ ضمنَ بلادِ الشامِ"[2].

ويصلُ الدكتور (هادي) إلى مراتبَ متقدمةٍ في تنظيمِ الدولةِ الإسلاميةِ في العراقِ والشامِ نظرًا لمكانتِهِ العلميةِ، وتبحرِهِ في العلومِ الدينيةِ، ويتولى قيادةَ المجموعاتِ المسلحةِ، ومعَ اتساعِ رقعةِ المعاركِ بينَ تنظيمِ الدولةِ وبينَ أعدائِهِمْ، تزدادُ قوةُ التنظيمِ وتتسعُ على الأرضِ، يصفُ (هادي) ذلك قائلا: "نحنُ على الأرضِ لهمْ بالمرصادِ فها هيَ رقعةُ اليابسةِ التي يرفرفُ فوقَها علمُنا تتسعُ وتتسعُ،

---

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٢٥.

(2) المصدر السابق، ص٣٢٦.

ساعينَ لاستعادةِ أمجادِ الغابرينَ يومَ كنّا خيرَ أمّةٍ أخرجتْ للناسِ، وفي سبيلِ تحقيقِ هذا الهدفِ النبيلِ نسحقُ بلا هوادةٍ أو رمقِ رحمةٍ كل مّنْ أو ما يعترضُ طريقَ زحفِنا الهادرِ للأمامِ، فعينٌ على الحاضرِ وعينٌ للأمامِ، وألفُ عينٍ للوارءِ تسّتمدُ من سِيَرِ الأبطالِ المجاهدينَ عزيمةَ فتوحاتِها المتتاليةِ"(١).

فهم مقابل هذا الزحف والتمدد يسحقون ما يواجههم ويعيق تقدمهم، مخالفين في ذلك سيرة الرسول العظيم، الذي رسخَ أخلاقَ المقاتلِ المسلمِ ورسمها لمن بعده، وقد شهدت تلك الحقبة مجازر حقيقية ارتكبها مقاتلو تلك الجماعات، بحقِ أقلياتٍ مختلفة في العراق وسوريا، وبتطبيق أحكام القتل في من وقعوا في الحدود، وكان التشدد والغلو سمة تلك الجماعات.

تظهرُ صورةٌ أخرى لهذا الخطابِ المتشددِ بعدما تجمعُ ظروفُ الميدانِ (أسعد) معَ صديقِهِ القديمِ (هادي) في العراقِ بعدَ خمسةَ عشرَ عامًا منْ لقائِهما في عمان، فتتكونُ مجموعةٌ متشددةٌ من (هادي) و(أسعد) و(عادل) و(راجي)، ويخوضونَ أشدَّ المعاركِ ضدَ الأعداءِ، يقول (هادي): "خاضَ أربعتنا كخليةٍ ضمن مجموعةٍ معاركَ عدةً تنتمي بضراوتِها وطعمِ ظفرِها لصدرِ الإسلامِ الأولِ... تحميدٌ، تكبيرٌ، تهليلٌ، استفتاحٌ، صلاةُ خوفٍ، رصاصُ (هادي) يختصُ بتفجيرِ الأدمغةِ لأنَّ العقولَ المصفحةَ ضدَّ الفهمِ برأيي هيَ سببُ محنِ الأمّةِ وعِظَمِ خطوبِها وكوارثِ بلائِها"(٢).

فهم يحاولونَ أن يستمدوا من التاريخِ الإسلاميِّ صورةً يسقطونَها على واقعِهِمْ، بأنْ تتشابهَ معارِكُهُمْ شكلًا معَ المعاركِ الإسلاميةِ التي فتحتِ الأمصارَ، ومدتْ رقعةَ الدولةِ الإسلاميةِ الأولى، والهدفُ نسفُ الأدمغةِ، لا الحوارُ معَها، فلا مجالَ للدعوةِ والهدايةِ والحوارِ في هذا الفكرِ.

لذا يرى الباحث أن انهيارَ هذا الفكرُ الذي حملَ هذا الخطابَ المتشددَ، كان نتيجة للغلو والتشدد، وانهارتْ معَهُ تلكَ الدولةُ التي اتسمتْ بالدولةِ الإسلاميةِ، فهي وبالرغمِ منَ الشبهاتِ التي تحومُ على وقوفِ المخابراتِ الغربيةِ وراءَ وصولِها لمقاليدِ الحكمِ في العراقِ وسوريا لفترة محدودة، إلا أنها كانتْ تحملُ عواملَ انهيارِها من داخلِها، فالفكرُ التكفيريُّ الغلوائيُّ والسلوكُ العدائيُّ نحوَ المجتمعاتِ المسلمةِ وغيرِ المسلمةِ، جعلَها تتجهُ نحوَ نهايةٍ محتومةٍ، تمثلتْ بسقوطِ تلكَ الدولةِ التي أقيمتْ وتشتتِ جماعتِها وأفرادِها.

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٢٨.

(٢) المصدر لسابق، الصفحة نفسها.

٣- الخطاب الإسلامي الوَسَطَيُّ:

يأتي الخطابُ الإسلاميُّ الوسطيُّ مجابِهًا لخطابِ التشددِ والتطرفِ، فالوسطيةُ التي ينشدُها الكاتبُ خلوصي عويضة في رواياتِهِ، ويدعو لها هي تحرِّي مرضاةِ اللهِ، وموافقةِ مقاصدِ شريعتِهِ، والتمسُّكِ بأرجحِ النصوصِ وأقواها وأحوطِها، وهي يُسرُ الإسلامِ واعتدالُه. فالاستقامةُ هي أسُّ الوسطيَّةِ، وليسَ منْ الوسطيَّةِ في شيءٍ الانحرافُ يَمنةً أو يَسرةً، بأيِّ مسوِّغٍ يأتي بهِ المنحرفُ، فالمَيلُ نحوَ التشددِ والتنطُّعِ، والتعسيرِ على النفسِ أو الغيرِ انحرافٌ عن منهجِ الإسلامِ الأصيلِ، والميلُ نحوَ التفلتِ والتراخي في الأحكامِ الشرعيَّةِ، والتملصُ من حدودِ اللهِ، واختراعُ أحكامٍ جديدةٍ تنقضُ الأحكامَ الثابتةَ انحرافٌ من نَوعٍ آخرَ [١].

ويظهرُ الخطابُ الوسطيُّ جليًّا في روايةِ "المباهلة"، على لسانِ العديدِ منَ الشخصياتِ أبرزُها الشيخُ اليثربيُّ (غانم)، الذي يعملُ أستاذَ تربيةٍ دينيةٍ إسلاميةٍ في مدرسةٍ ثانويةٍ في المدينةِ المنورةِ، سافرَ إلى العراقِ ليقنعَ ابنَهُ الذي يقاتلُ معَ تنظيمِ الدولةِ بالعدولِ والعودةِ للسعوديةِ، فقد كانَ يتمتعُ الأبُ بالوسطيةِ والاعتدالِ وعدمِ التشددِ والغلوِ، واستطاعَ بعلمِهِ وفكرِهِ التأثيرَ في توجهاتِ (أسعد) و(هادي) و(عادل)، ودفعَهُمْ للعودةِ إلى فلسطينَ، يقولُ (أسعد) على لسانِهِ: "أما الذهولُ الذي اعتراهُ من جهتِنا؛ فلأننا كما قالَ منْ فلسطينَ، والجهادُ على أرضِنا أقدسُ وأنبلُ، فالصورة لا يشوبُها أيُّ غبشٍ -كما قال- في غيرِها منَ المناطقِ"[٢].

ويظهرُ أيضًا على لسانِ جدِّ (أسعد) الذي كان مداومًا على الصلاةِ في الحرمِ الإبراهيميِّ، ويمتلكُ ثقافةً دينيةً واسعةً، يرفضُ التشددَ والغلوَّ، ويقسو على حفيدِهِ (أسعد) الذي يسرفُ في القتلِ والدماءِ، ويطالبُهُ بالعودةِ إلى الخليلِ موطنِهِ ومسقطِ رأسِهِ، ويؤثرُ في توجهاتِ (هادي) و(عادل) بطريقةٍ غيرِ مباشرةٍ.

يقولُ الراوي: "وعندَ مغاراتِ قبورِ الأنبياءِ يفوحُ شذى الأرواحِ، ومعَ كلِّ نداءِ صلاةٍ يملأُ الآفاقَ تتوثقُ الصِلاتُ معَ الأجدادِ والآباءِ والأحفادِ؛ لتؤكدَ شرفَها بالانتسابِ لهذا الركبِ الكريمِ الذينَ لم يكونوا أبدًا يهودًا أو نصارى، بل حنفاءَ مسلمينَ بشهادةِ كتابِ ربِّ العالمينَ، تجمعُهُمْ بهم أُخُوَّةُ الدينِ والوطنِ

([١]) علي محمد زينو، مقال إلكتروني بعنوان: الوسطية والطرفية، التعريف الرقمي للمقال: https://www.alukah.net/sharia/0/5762/ بتصرف.

([٢]) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٥٠.

والإنسانيةِ، وعشقُهم المشتركُ للأرضِ التي امتزجَ هواؤُها بأنفاسِهِمْ وترابُها بحباتِ عرقِهِمْ وقطراتِ دمِهِمْ، فمصيرُها مصيرُهُمْ، إنه حبٌّ ممتدٌّ متصلٌ لا يجدي في محاولةِ قطعِهِ مكرُ الليلِ والنهارِ"[١].

فالوسطيةُ تتجلى عبرَ الحنفيةِ التي يسيرُ عليها الأنبياءُ جميعًا من بعدِ سيدنا إبراهيمَ –عليهِ السلامُ– وهي نابعةٌ من أصلِ الفطرةِ وطهارةِ النفسِ ونقاءِ الروحِ، فلا غلوائيةَ، ولا إزهاقَ لأرواحِ الأبرياءِ، فهمْ وإن قاتلوا فهم مقاتلونَ في سبيلِ الحقِّ، وليسوا قتلةً مجرمينَ، يراعون حرماتِ الدينِ وشرائعَ الرحمةِ التي أقرَّها رسولُ الرحمةِ، محبونَ لأوطانِهِمْ، متنسمونَ لعبقِها وأريجِها، يفدونَها بكلِّ غالٍ ونفيسٍ.

ونجدُ هذا الحوارَ المعتدلَ، والخطابَ الوسطيَّ لدى (هادي) قبلَ أنْ يتجهَ إلى تيارِ التشددِ والغلوائيةِ، ويتجلى في حوارِهِ معَ (أسعد) في مرحلةِ العلاجِ بعدَ إصابتِهِ في مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ، حيثُ تتوثقُ صداقةُ (أسعد) مع (راشد) الذي كانَ متحمسًا للنضالِ ومقاومةِ العدوِ الصهيونيِّ، لكنَّهُ يعتقلُ على أيدي السلطةِ، يقولُ (هادي): "الإسلامُ أكّدَ على احترامِ المواثيقِ، لكنْ أظنُّهُ بقدرِ التزامِ الطرفِ الآخرِ، وفي حالةِ صديقِنا (راشد) وأمثالِهِ منَ الشبابِ المتحمسينَ للنضالِ لا حاجةَ للاعتقالِ، لماذا لا يفتحونَ معهم حوارًا بناءً لإقناعِهِمْ وكسبِهِمْ بدلَ السجنِ وسوءِ المعاملةِ التي يَتْبَعُها تأجيجُ المشاعرِ؛ فتتسع مساحةُ الاختلافِ وتتهيأُ النفوسُ للاتجاهِ بعيدًا عنِ التلاقي في منتصفِ الطريقِ"[٢].

وكذلك تبرزُ هذه الوسطيةُ في حوارِهِ الإلكترونيِّ معَ (إيزابيل)، فيظهرُ الخطابُ الإسلاميُّ المعتدلُ، يقولُ (هادي) محدثًا نفسَهُ بعدَ حوارِهِ معَها: "أدركتُ أن محدثتى التي لمْ أمانعِ التعرفَ إليها؛ لأثبتَ لنفسي بالدليلِ اليقينيِّ الملموسِ أنّي لا أكرهُ يهوديًّا لديانتِهِ، بالعكسِ المسلمُ يحترمُ جميعَ الأديانِ السماويةِ، ويبجلُ جميعَ الأنبياءَ، وأنَّ سببَ مشاعري المشوَّهةِ تجاه جيراننا وإحساسي باستحالةِ التعايشِ الذي انغرستْ بذرتُهُ منذُ واقعةِ يومِ الأرضِ، ثمَّ نما وترعرعَ بماءِ القلقِ لا علاقةَ له ألبتةَ بديانتِهِمْ، بل فقطْ كونُهُمْ غزاةً مستوطنينَ"[٣].

فهو لا عداءَ له معَ الديانةِ اليهوديةِ، بل عداؤُه منصبٌّ على الغزاةِ الصهاينةِ، فإسلامُه لا يحاربُ الأديانَ، ولا يقاتلُ معتنقيها ليفرضَ عليهمْ الدخولَ فيه، بل يتركُ لهم حريةَ الاختيارَ، ويدعو أتباعَهُ إلى البرِّ والإقساطِ إلى منْ لمْ يقاتلوهُمْ منْ أهلِ الشرائعِ الأخرى، وهذا ما تَحُضُّ عليه آيُ الذكرِ الحكيمِ، وما تجسدَ في سيرةِ النبيِّ العدنانِ، وما سجلتَهُ صفحاتُ التاريخِ الإسلاميِّ الناصعةُ.

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص٧٣.

(٣) المصدر السابق، ص٢٥٢.

وتتألقُ لوحةُ أخرى للخطابِ الوسطيِّ المعتدلِ في حواراتِ جَدِّ (أسعد)، فبعدَ إسرافِ الأخيرِ في الدماءِ والقتلِ، يزورُهُ جَدُّهُ في منامِهِ برفقةِ سيدِنا إبراهيمَ الخليلِ عليهِ السلامُ، ويخاطبُهُ قائلًا: "أسرفتَ في الدماءِ يا (أسعد) أسرفتَ، إلى متى تُوْغِلُ بضراوةٍ في لُجَّةِ بحرِ الدماءِ؟ أفقْ، أفقْ، أفقْ قبلَ فواتِ الأوانِ، أينَ مواعظي ودروسي لكَ؟ متى تَعي عِظَمَ حرمةِ الدماءِ في الإسلامِ؟ تبْ وعدْ يا جدّي"[١].

فهوَ يذكرُه بما غرسَهُ في أعماقِهِ مِنْ خيريةٍ ووسطيةٍ تأبى الإسرافَ في القتلِ وسفكِ الدماءِ دونَ وجهِ حقٍّ، ويدعوهُ إلى التوبةِ، يأتيه زائرًا في المنامِ معَ أبي الأنبياءِ عليه السلامُ، ليمنحَ الرؤيةَ صدقيةً حقيقيةً، وقداسةً نورانيةً.

وفي محاولاتِ إقناعِهِ بتركِ التشددِ والعدولِ عنهُ، وتركِ القتالِ الطائفيِّ بينَ الشيعةِ والسنةِ، يقولُ الجدُّ: "أينَ أنتَ ممنْ يقولونَ: إنَّ اللهَ –سبحانَهُ وتعالى– ثالثُ ثلاثةٍ، وعزيرُ ابنُ اللهِ؟! معَ ذلكَ أمرَنا بعدَ إقامةِ الحجةِ عليهم بحسنِ جوارِهِمْ، وأنْ نُجادلَهُمْ بالتي هيَ أحسنُ ما لمْ يقاتلونا في دينِنا ويخرجونا من ديارِنا كما فعلَ الصهاينةُ"[٢].

ويقولُ الجدُّ في موضعٍ آخرَ: "أما هؤلاءِ الأفاكونَ الذينَ تجرأوا على الصحابةِ وأمهاتِ المؤمنينَ؛ فحسابُهم على ربِّ العالمينَ الذي يعلمُ القولَ في السماءِ والأرضِ"[٣].

ويحذرُهُ قائلًا: "احذرْ التكفيرَ.. إياكَ ثمَّ إياكَ أنْ تخالفَ[٤]، قولَ المعصومِ –عليهِ السلامُ–: "ومن قذفَ مؤمنًا بكفرٍ فهوَ كَقَتْلِهِ"[٥].

هذه الحواراتُ العميقةُ التي دارتْ بينَ (أسعدَ) وبينَ جدِّه تتجهُ بهِ إلى الوسطيةِ، يقولُ (أسعد): "كيفَ أصلُ إلى رضوانِ اللهِ؟ كيفَ أعلمُ باليقينِ ما يرضيهِ –عزَّ وجلَّ–؟ فأقبلَ عليه مشتاقًا مُضَحِّيًا بالروحِ في سبيلِ مرضاتِهِ... مَنْ.. مِنْ فرقِ أهلِ السنّةِ وهمْ بالعشراتِ حركاتٍ وأحزابٍ وجماعاتٍ على الحقِّ الذي ارتضاه المولى لعبادِهِ كيْ أنصرَهُ؟ دُلني رحماكَ يا جدّي"[٦].

فهوَ يبحثُ مِنْ جديدٍ عنِ الحقِّ المتمثلِ في الوسطيةِ السمحاءِ، بعدَ مشوارِهِ الطويلِ في الغلوائيةِ الموغلةِ بالقتلِ والدمِ، يريدُ الجهادَ عن بصيرةٍ، والقتالَ في سبيلِ اللهِ عن هدى، بعدَ أنْ ضلَّ طريقَهُ، وما

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٤٢.

(٢) المصدر السابق، ص٣٤٣.

(٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٤) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٥) صحيح البخاري، حديث رقم : ٦٦٥٢.

(٦) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٤٤.

كانَ ذلكَ لولا الحوارُ، وهذهِ هيَّ الإشارةُ التي يريدُ الكاتبُ التنويهَ إليها، فالمحاججةُ هي السبيلِ لعودةِ مَنْ أوغلوا بالغلوائيةِ.

ونرى ملامحَ الخطابَ المعتدلَ في حواراتِ (الشيخِ اليثربيِّ) معَ (هادي) و(أسعد) عندما يدعوهُمْ إلى اتخاذِ المباهلةِ حلًّا ربانيًّا لصراعاتِ الأمةِ، يقول (الشيخ غانم اليثربي): "موافقةُ النصارى على المباهلةِ ابتداءً، ثم نكوصُهُمْ يعني معرفتَهُمْ أصلًا بها وبعواقبِها؛ فهل فَهْمي هذا صحيحٌ؟ أجابَ مشجعًا: السياقُ ينسجمُ معَ هذا الفهمِ والأرجحُ أنها مذكورةٌ في التوراةِ والإنجيلِ قبلَ أنْ يطالَهُما التحريفُ والتبديلُ والحذفُ والإضافةُ، بهدفِ المعاندةِ والمكابرةِ مما سهَّلَ على الحاخاماتِ والقساوسةِ إضلالَ أتباعِهِمْ"[1].

فهو يُمَهِّدُ لهم طريقَ المباهلةِ التي تقوم على وسطيةِ الإسلامِ، ثم ينطلقُ (الشيخ اليثربي) ليفسرَ آياتِها ويبينَها لـ(أسعد) و(هادي) و(عادل).

ويرسمُ الكاتبُ سبيلَ الوسطيةِ الذي يدعو إليهِ بعقلانيةٍ ومنطقيةٍ قائمةٍ على موافقةِ الشريعةِ الإسلاميةِ، وتَجَسَّدَ هذا عن طريقِ الحوارِ الهادئِ بينهم، فيبدأُ (أسعد) بالتساؤلِ "إذًا الابتهالُ: الاجتهادُ بالدعاءِ باللعنِ، أيْ هلاكُ منْ كانَ دعيًّا وكاذبًا في دعواهُ، لكنْ... أليستِ المباهلةُ بهذا المعنى خاصةً بالرسولِ؟"[2].

فترتسمُ الإجابةُ الشافيةُ لهذا التساؤلِ لدى (الشيخ اليثربي): "التعريفُ الذي فهمتَهُ صحيحٌ، أما دعوى الخصوصيةِ؛ فتحتاجُ إلى دليلٍ قطعيِّ الثبوتِ قطعيِّ الدلالةِ، لقد قرأتُ العديدُ منَ التفاسيرِ للقدماءِ والمعاصرينَ، ولم ألحظْ أو أقعْ على ما يقطعُ بأنها خاصةٌ، فنحنُ أمةُ النبيِّ وامتدادُ دعوتِهِ، وأصدقُكُما القولَ... لطالما رجَّحْتُ بالظنِّ أنها فعلًا خاصةٌ بالنبيِّ لعدمِ لجوءِ الصحابةِ إليها معَ غيرِهِمْ منْ غيرِ المسلمينَ، أو فيما وقعَ بينَهُمْ منْ اجتهادٍ أدى لمِحَنٍ عظيمةٍ، إلى أنْ تناهى لعلمي أنَّ ابنَ عباسٍ –حَبْرَ الأمّةِ وتُرجمانَها– قد باهلَ، ثمَّ إنني قرأتُ في شرحِ العقيدةِ الطحاويةِ لأهلِ السنّةِ والجماعةِ أنْ تركَ الصحابةِ لفعلٍ ما؛ لا يقومُ دليلًا على النهيِ، وفي تفسيرِ الشعراويِّ ما يعطي الانطباعَ بعدمِ الخصوصيةِ وإمكانيةِ الدعوةِ إلى المباهلةِ في زمانِنا فهوَ –رحمهُ اللهُ– ابنُ زمانِنا، وإنْ كانتْ أيامُهُ لمْ تبلغِ الفتنَ الهوجاءَ العاتيةَ ذروُتها كما هيَ اليومَ"[3].

---

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٥٢.

(2) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(3) المصدر السابق، ص٢٥٢.

فهو يرى في المباهلةِ حلًّا إسلاميًّا خالصًا، مُدعمًا دعوتَهُ بأدلةٍ يقينيةٍ، تنطلقُ من بابيِ القياسِ والاجتهادِ اللذينَ لم يغلقا، كما حاولَ أتباعُ بعضِ المذاهبِ المتشددةِ أنْ يطمسوا على العقولِ.

ونلمحُ معالمَ الخطابِ الوسطي في تفسيرِ (الشيخ اليثربي) لرؤيا (أسعد) لجدِّهِ ولسيدِنا إبراهيمَ الخليلِ عندما يؤكدُ لهما أنْ تركَ الاقتتالِ الطائفيِّ والعودةَ لفلسطينَ، هما الخيارانِ الأصوبانِ لهما في الدنيا والآخرةِ، يقولُ: "رؤيا الخليلِ –عليه السلامُ– تعني تحقيقَ الرؤيا، وأنا أضمُّ صوتي لجدِكِ وأدعوكُما للعودةِ مهما كانَ الثمنُ، فهوَ أفضلُ لآخرتِكُما منَ البقاءِ هنا في أتونِ معاركَ لا ناقةَ لكُما فيها ولا جملَ بلْ... معذرةً أخشى أنكُما كابنيَّ ليس أكثرَ من وقودٍ"[١].

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ الكاتبَ خلوصي عويضة يوظفُ قضيةَ المباهلةِ في روايتِهِ ويجعلُها هدفًا يرجو تحقيقَه، كونَها حلًّا ربانيًّا لحقنِ الدماءِ، وإنهاءً للحروبِ الداخليةِ للأمةِ وصراعاتِ المسلمينَ مع غيرِهِمْ، وباعتبارِها تطبيقًا لسنةِ الرسولِ –صلى اللهُ عليهِ وسلمَ– لدرءِ الخلافاتِ معَ غيرِ المسلمينِ.

أما صورةُ الخطابُ الوسطيُّ الملتزمُ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، فتختلفُ نوعًا ما عنْ شكلِ الخطابِ الوسطيِّ في روايةِ المباهلةِ؛ وذلكَ لأنَّ الروايةَ تُرَكِّزُ بالدرجةِ الأولى على أنشطةِ الماسونيةِ ودورِها في محاربةِ الأديانِ، والسعيِ للسيطرةِ على العالمِ منْ خلالِ نفوذِها واستغلالِها للمناصبِ العليا في الحكوماتِ العالميةِ والتحكمِ برأسِ المالِ العالميِّ.

يصبحُ نموذجُ الشخصِ الملتزمِ تهمةً وجريمةً في المجتمعاتِ التي تتغلغلُ فيها الماسونيةُ بشكلٍ خفيٍّ، فمن يُصَلّي ويؤدي الفروضَ الدينيةَ الأساسيةَ يعدُّ مختلفًا عنْ غيرِهِ ممنْ حولَهُ ممن يلهونَ في المجونِ وينغمسون في الفواحشِ وغيرِها من أساليبِ الماسونيةِ، ويظهرُ ذلكَ في حوارِ (نصيف) مع (عاصم)، الذي تعرَّفَ إليه في السجنِ، يقول (نصيف): "وحينَ استولتِ الدهشةُ من وجودِهِ بينَنا معَ حُسْنِ هيئتِهِ وخلقِهِ وصنائعِ معروفِهِ؛ فيجيبُهُ (عاصم) على سؤالٍ حيَّرَهُ، مُعَلِّلًا سببَ سِجنِهِ بكلمةٍ واحدةٍ أثارتْ عالمًا منَ الفضولِ:

_ ملتزمٌ.

_ ملتزمٌ!! بماذا؟ والمعنى أخي (عاصم)؟ .....

_ ملتزمٌ أخي (نصيف) تعني ببساطةٍ شديدةٍ تأديةَ فروضِ الدينِ الأساسيةِ كالعباداتِ، وأهمُّها الصلاةُ...، أمّا النوافلُ ففي ظروفِ مجتمعِنا طموحٌ ليسَ بعيدَ المنالِ، فأنا هنا لبُعدي عن اللهوِ والمجونِ والخمورِ...، وكنتُ أحرصُ على الصلاةِ في المسجدِ؛ فسجنتُ، هذا كلُّ ما في الأمرِ"[٢].

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٥٣.

(٢) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٢٢٤،٣٢٣.

ويقولُ (نصيف) على لسانِ (عاصم) صاحبِ التوجهِ الإسلاميِّ الملتزمِ: "قالَ إنه رغم ما لحقَهُ من أذىً متعددِ الصنوفِ غيرُ نادمٍ، بلْ حتى لو كانَ الثمنُ مضاعفًا، فلا بأسَ طالما أنه أعانَ مظلومًا وأغاثَ ملهوفًا ودافعَ عنِ الفضيلةِ محاربًا الرذيلةَ، فتلكَ فضائلُ وركائزُ الدينِ الإسلاميِّ الحنيفِ الذي أكرمَ اللهُ بهِ البشريةَ لإسعادِها وهدايتِها إلى الحقِّ والخيرِ والعدلِ"[1]. فهنا تتألقُ صورةُ المسلمِ المعتزِّ بمبادئِ دينِه، المقيمِ لأركانِه، والمجانبِ لاقترافِ حدودِه، وهذا شكلٌ منْ أشكالِ الوسطيةِ التي ترفضُ الرذيلةَ والفاحشةَ، وتنكرُ الإلحادَ. فالوسطيةُ لا تعني المداهنةَ في الدينِ، ولا تسمحُ بنشرِ الأفكارِ الهدامةِ، ولا تقومُ على التمييعِ، فالوسطيةُ فيها عزُّ الإسلامِ والإنسانِ.

وينطلقُ الحوارُ المعتدلُ في تشكيلِ الخطابِ الإسلاميِّ الوسطيِّ الذي يدعو إلى اتباعِ الدينِ الصادقِ المعبرِ عنِ الفطرةِ السويةِ على لسانِ (عاصم) عندما علمَ أنَّ (نصيف) لا يدينُ بديانةٍ معينةٍ ولا يؤمنُ بخالقٍ للكونِ: "مهندس! فأينُ عقلُكَ؟ انظرْ حولَكَ للسماءِ والأرضِ، انظرْ لنفسكِ فكلُّ آياتِ الكونِ والخلقِ تُنبئُ عن عظمةِ الخالقِ اللهِ الواحدِ الأحدِ الفردِ الصمدِ"[2].

هذا الحوارُ وغيرُهُ وتلكَ النماذجُ التي جسدتْ طهارةَ الإسلامِ ونقاءَهُ، بعيدًا عن نتنِ الماسونيةِ وحمأةِ رذيلتِها، دفعتْ (نصيف) للإسلامِ معتنقًا إياهِ، ليكون منقذًا ومخلصًا لهُ.

وفي الأيامِ الأخيرةِ لـ(نصيف) في السجنِ، وقبلَ تنفيذِ حكمِ الإعدامِ بحقِّهِ، نجدُ الضابطَ المشرفَ عليه في السجنِ تشتدُ بهِ الرأفةُ نحوَ هذا الفتى الذي أمضى حياتَه بالضلالِ، فتتجلى ملامحُ الخطابِ الإسلاميِّ الذي يدعو إلى إنقاذِ الأرواحِ والنفوسِ من نارِ جهنمَ: "شعرتُ وقد ترقرقتْ الدموعُ في عينِهِ أنه يهمُّ أو يفكرُ بأنْ يُسلمَ فأسرعتُ أتلو على مسامعِهِ أرجى آيةٍ في كتابِ اللهِ تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣ ﴾"[3]. فانهمرت دموعه والعسكر والحراس من حولي قد بلغَ بهم التأثرُ كل مبلغ"[4].

فيُسلمُ (نصيف) ويُدفنُ في مقابرِ المسلمينَ، ليكونَ هذا رافدًا للوسطيةِ التي يدعو إليها الكاتبُ، فكما أقلعَ أبطالُ روايةِ "المباهلة" عنِ الغلوائيةِ وآبوا إلى الوسطيةِ وسلكوا طريقَ الاعتدالَ، تصحو روحُ بطلِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" ويتركُ مستنقعَ الماسونيةِ؛ ليغتسلَ من أدرانِها في نهرِ الإسلامِ.

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٣٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص٣٢٥.

(٣) سورة الزمر، الآية (٥٣).

(٤) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٣٩٣.

وبهذا يظهرُ لنا أثرُ الخطابِ الإسلاميِّ الوسطيِّ الاعتداليِّ في النفوسِ والمجتمعاتِ، فهو نتاج الفطرةِ السليمةِ، وسليلُ الشريعةِ القويمةِ، بهِ ارتفعَتْ رايةُ الحقِّ، وعليه بُنيتْ دولةُ العدلِ، غير أنَّ الغربَ حاولَ تغييبَ هذا الخطابِ، وطمسَ معالمِهِ، فأوجدَ التياراتِ المتشددةَ صنيعةَ مخابراتِهِ، وخادمةَ أهدافِهِ، لتكونَ بديلًا عنِ الإسلامِ الحقيقيِّ. وقدْ كانتْ رسالةُ الكاتبِ في الروايتينِ تقومُ على اعتمادِ الحوارِ سبيلًا لمواجهةِ التشددِ والتطرفِ، وليس عبرَ الوسائلِ الأمنيةِ والقبضةِ البوليسيةِ التي لا تُوَلِّدُ إلا مزيدًا منَ العنفِ، فالخطابُ لا يجابَهُ إلا بالخطابِ.

٤- الخطابُ المتحررُ:

تعددتِ المفاهيمُ والمصطلحاتُ حولَ مفهومِ التحررِ، فهناكَ من يُعرِّفَهُ بأنه: "مجموعةٌ منَ المعتقداتِ والأفكارِ المكتسبةِ والمترسبةِ بفعلِ تجارِبَ حياتيةٍ مختلفةٍ؛ لتنتجَ تصرفاتٍ وأفعالًا راقيةً تجعلُ حياةَ معتنقِها سعيدةً وهانئةً غالبًا"[١]. وهناكَ من يربطُ الخطابَ المتحررَ بالخطابِ الذي يسيرُ على دربِ القيمِ الغربيةِ ويؤيدُها، وهناكَ منْ يربطُ مصطلحَ التحررِ بمصطلحِ التنويرِ، ومهما تعددتِ المسمياتُ فكلُّها تدورُ في فلكٍ واحدٍ؛ هو تجديدُ الخطابِ الدينيِّ بما يتناسبُ معَ متطلباتِ الحضارةِ الغربيةِ، أما عنْ درجةِ حضورِ الخطابِ المتحررِ في المجتمعاتِ العربيةِ فلهُ حضورُهُ بشكلٍ واضحٍ، وهناكَ العديدُ من المفكرينَ والفلاسفةِ الذينَ يدعونَ إلى خطابِ التحررِ.

يظهرُ الخطابُ المتحررُ في روايةِ "المباهلةِ" في حوارِ (أنور) الذي هاجرَ إلى الولاياتِ المتحدةِ، وينغمسُ في علاقةٍ متحررةٍ مع (إيزابيل)، وعندما يعرِفُ ابنُهُ (سامي) بهذهِ العلاقةِ يعاتبُهُ ويحذرُهُ، لكنَّ (أنور) يدافعُ عنْ أيديولوجيتِهِ المتحررةِ، قائلًا: "لا عيبَ ولا حرامَ، إنها مجردُ صديقةٍ"[٢].

يظهرُ الخطابُ التحرريُّ عندما يحذرُ (سامي) (أنور) منْ أنَّ (إيزابيل) يهوديةٌ، فيدافعُ (أنور) مرةً أخرى، ويقولُ: "نعم يهوديةٌ، وأنا أحبُها يا ابنَ الكلبِ! متى تفهمُ يا حمارُ إنها أمريكيةٌ؟ وأنا كذلكَ، كلانا مواطنينِ نحن هنا، مسلمٌ، مسيحيٌّ، يهوديٌّ، أشكنازيٌّ، بوذيٌّ، واقْ واقْ، كلنا مواطنونَ"[٣].

وهنا يظهرُ تأثرُ (أنور) بمحيطِه، فهوَ لمْ يكنْ ليقوى على هذه النعرةِ التحرريةِ في بلادِهِ المحافظةِ، لكنَّهُ ينطلقُ في مجتمعِهِ الأمريكيِّ ممارسًا لهذه البهيميةِ في العلاقةِ، مغلِّفًا ذلكَ باسمِ المواطنةِ والحريةِ، وهنا يلقي الكاتبُ الضوءَ على اصطدامِ أصحابِ النفوسِ السويةِ بهذا الواقعِ

---

(١) من مقال إلكتروني على موقع الموسوعة الحرة ويكيبيديا بعنوان: الفكر الحر، التعريف الرقمي للمقال: https://bit.ly/3zcKHcA بتصرف.

(٢) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٤٥.

(٣) المصدر السابق، ص١٤٦.

المنغمسِ بالرذيلةِ، مناقشًا للخطابِ التحرريِّ بصوتٍ منفعلٍ يظهرُ بالغضبِ الذي علا في ردِّ الأبِ على ابنِهِ.

أما في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" فإنَّ ملامحَ الخطابِ المتحررِ تختلفُ -نوعًا ما- عنْ روايةِ "المباهلة"، حيثُ تتمركزُ أحداثُ الروايةِ حولَ حياةِ (نصيف)، الذي يبدأُ حياتَهُ يتيمًا في رعايةِ خالِهِ (كريم) الذي يدّعي أنَّهُ والدُهُ، ويعملُ على ضمِّهِ للماسونيةِ في سنٍّ مبكرةٍ، ويمنعُهُ منَ اعتناقِ أيِّ دينٍ أو شريعةٍ سماويةٍ، ويحاربُ الدينَ بكلِّ الطرقِ، يتعرفُ (نصيف) إلى العديدِ منَ الشخصياتِ ذاتِ التوجهاتِ المختلفةِ، ويصطدمُ بفطرتِهِ السويةِ معَ الحالاتِ الشاذةِ التي ترفضُها الفطرةُ البشريةُ.

ويظهرُ الخطابُ المتحررُ في حوارِ (نصيف) معَ (السيد يوسف) والدِ صديقِهِ المقربِ (رمزي) عنِ الدينِ، وسؤالِهِ عنْ ديانةِ والدِهِ (كريم)، يقولُ: "لا عليكَ، أعتذرُ منكَ، وأرجو أنْ تنسى وتغفرَ لي هذا الفضولَ فالناسُ أحرارٌ فيما يؤمنونَ، ولي عندَكَ رجاءٌ، بلْ... أريدُ منكَ وعدًا.. ممكنٌ؟

– تفضلْ:

– شكرًا، لا تحدثْ بابا ولا حرمَهُ الرائعةَ السيدةَ (أميرة) بسؤالي الغبيِّ المتطفلِ عنِ الدينِ"[(١)].

وفي حوارِ (نصيف) معَ (رباح) الذي يعتنقُ البهائيةَ كديانةٍ، يقولُ (نصيف):

"– علمتُ أنكَ بهائيٌّ، هل هذا صحيحٌ؟

- نعمْ، لكنْ بماذا يفيدُكَ ذلكَ؟ لو أنكَ عملتَ بنصيحَتي منذُ التقيتُكَ بألا تسألَ عنْ شيءٍ لكانَ حالُكَ اليومَ أفضلَ، أهيَ (فيروز) من أخبرتْكَ؟
- نعمْ، لكنْ ما المانعُ وماذا ستخسرُ؟! فـ(أميرة) نفسُها سبقَ ودعتني لاعتناقِ دينِكُمْ هذا.
- دعنا منْ هذا، فأمورُ الدينِ والعبادةِ والإلهِ أمورٌ خاصةٌ جدًّا جدًّا، لا نتكلمُ بها أو عنها، فكلُّ فردٍ حرٌّ في أنْ يؤمنَ بما يشاءَ كيفَ يشاءَ، أو لا يؤمنَ بشيءٍ، مثلَ مولانا فائقَ الحكمةِ وكُلِّيِّ الاحترامِ، وكنتَ ستعرفُ ذلكَ دونَ سؤالٍ"[(٢)].

ترتفعُ هنا عقيرةُ الخطابِ التحرريِّ، لتصلَ إلى تبني ما يشاءُ المرءُ من عقيدةٍ وديانةٍ، في الوقتِ الذي يُمنعُ فيهِ السؤالُ عن ديانةِ الآخرِ.. فهذا هتكٌ للحريةِ، وتدخلٌ سافرٌ في شؤونِ الآخرينَ! فتتخفى الماسونيةُ خلفَ هذا الستارِ التحرريِّ، وباسمِهِ تمارسُ شيطنتَها وتدميرَها للقيمِ والنسيجِ الأخلاقيِّ.

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص٢٥٩.

٥- الخطاب اللاديني:

تعدُّ اللادينيةُ اتجاهًا فكريًّا يرفضُ مرجعيةَ الدينِ في حياةِ الإنسانِ، ويؤمنُ بحقِّهِ في رسمِ حاضرِهِ ومستقبلِهِ دونَ تدخلٍ من دينٍ معينٍ أو وصايةٍ من شريعةٍ بعينِها، وتعتقدُ ببشريةِ الأديانِ، وترى اللادينيةُ أنَّ الكتبَ الدينيةَ هي نصوصٌ بشريةٌ ليسَ لها قداسةٌ خاصةٌ أو حقيقةٌ مطلقةٌ، يقولُ أرمين ناوابي: "تلكَ الكتبُ كُتبتْ بواسطةِ بشرٍ عاديينَ، وفي كثيرٍ منَ المواقفِ فإنها نُقِلتْ شفهيًّا، ونُسخَتْ خلالَ قرونٍ"(١).

ويرى الباحث أنَّ نسبةَ حضورِ اللادينيةِ والإلحادِ في المجتمعاتِ العربيةِ والإسلاميةِ آخذةٌ بالانتشارِ والتوسعِ في العقودِ الأخيرةِ؛ نتيجةً لكثيرٍ منَ العواملِ والأسبابِ من أهمِّهما الماسونيةُ ودورُها في هدمِ المعتقداتِ الدينيةِ المقدسةِ.

ويطالعُنا الخطابُ اللادينيُّ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" بشكلٍ مكثفٍ، إذ تركزُ أحداثُ الروايةِ على أنشطةِ الماسونيةِ والبهائيةِ ومحاربةِ الشرائعِ الدينيةِ، وتبينُ خطرَ الأفكارِ الماديةِ اللادينيةِ، والتحللِ منَ الأخلاقِ الحميدةِ. وقدْ حذَّرَ كبارُ الكتابِ العربِ منْ أصحابِ الفكرِ المستنيرِ، والأقلامِ الحقيقيةِ الصادقةِ منَ الماسونيةِ، وكشفوا زيفَها.

يذكرُ الدكتورُ عبد الوهاب المسيري في كتابِهِ "الجمعياتُ السريةِ في العالمِ –البرتوكولاتُ، الماسونيةُ، البهائيةُ–" حقيقةَ الماسونيةِ موضحًا علاقتَها بالدينِ: "الماسونيةُ بدأتْ كدعوةٍ ربوبيةٍ، فهيَ نسقٌ فكريٌّ دينيٌّ متكاملٌ يستندُ إلى العقلِ لا الغيبِ، يحددُ علاقةَ الإنسانِ بالخالقِ وبالطبيعةِ وبطرقِ المعرفةِ، وهي تطرحُ أمامَ تابعيها طرقَ الخلاصِ، وتتكفلُ بتعليمِ مريديها السلوكَ الأسمى، وتزويدِهِمْ بأساسٍ فلسفيٍّ للأخلاقِ التي يؤمنونَ بها فضلًا عنِ أنْ اجتماعاتِها تبدأُ وتنتهي بصلاةٍ؛ ولذا كانَ لا بُدَّ أنْ تصطدمَ الماسونيةُ بالأديانِ كلِّها"(٢). ومنَ الأسسِ التي قامتْ عليها الماسونيةُ أنَّ "الأديانُ تخدرُ وتفترُ وتقتلُ روحَ الفكرِ والبناءِ، والماسونيةُ توقظُ وتبعثُ الأملَ وتحققُ الوجودَ، وتجمعُ الذينَ فرقتْهُمُ الأديانُ وتنزعُ منهم الأملَ المعدومَ الرصيدَ، وتدركُ أنَّ الأديانَ– طبعًا إلا اليهوديةَ– أفيونٌ، ورجعيةٌ تناسبُ عصورَ الانحطاطِ"(٣).

وقد تمكنت الماسونية من أن تخترق كبار الشخصيات الأدبية والفنية والعلمية، ويعدُّ جُرجي زيدان من أهم المدافعينَ عن الماسونية والمناصرينَ لها، إذ يرى أنّها ليستْ ضدَّ الدينِ أوْ بديلًا عنهُ، ولا شكَّ في أنَّ الماسونيةَ ما زالتْ حتى يومِنا هذا مجالًا لاستقطابِ المفكرينَ، ينظرونَ إليها مِنْ أيِّ

---

(١) أرمين ناوابي، لماذا ليس هناك إله، ترجمة عبد الله أحمد، ط١، الجمهورية الملحدة، العراق، ٢٠١٩م، ص١٤.

(٢) عبد الوهاب المسيري، الجمعيات السرية في العالم، ط١، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ١١١.

(٣) محمد الزعبي، الماسونية في العراء، ط١، مطابع معتوق إخوان، بيروت، لبنان، ص ١٠٩.

جانبٍ يريدونَ ويعتقدونَ، ما بينَ مؤيدٍ ومعارضٍ، ويدافعُ عنها مناصروها على اعتبارِ أنها: "مصدرٌ للتمدنِ والحضارةِ، تبذلُ النفيسَ من أجلِ نشرِ الفضيلةِ بينَ الناس، وتردعُ الظالمَ، وتُنصفُ الضعيفِ حينَ ظُلمِهِ، تجمعُ شتاتَ المبعثرينَ، وتنصرُ العدلَ والمساواةَ بينَ البشرِ، ولا تتعرضُ للدينِ في شيءٍ"[1].

يظهرُ الخطابُ اللادينيُّ من بدايةِ أحداثِ الروايةِ، فـ(كريم) الذي يشغلُ منصبَ الأستاذِ الأعظمِ للمحفلِ الماسونيِّ في مصرَ وشمالِ أفريقيا يعملُ جاهدًا على نشرِ الفكرِ الماسونيِّ، أما (نصيف) ففطرتُهُ السليمةُ تبدأُ بالسؤالِ عن الدينِ، ولماذا لا يوجدُ لهُ ديانةٌ وشريعةٌ سماويةٌ يؤمنُ بها، فيقولُ: "أذكرُ أنني سألتُهُ مرةً حينَ التقيْنا فاحتالَ على الأمرِ بطريقةٍ قبلَتُها وقتذاكَ مداركي المحدودةُ، وربما المعدومةُ قائلًا إننا نحبُّ كلَّ الأديانِ ونحتفلُ معهمْ بأعيادِهِمْ، وليبرهنَ على صدقِهِ احتفلْنا معًا بأحدِ مطاعمِ فندقٍ باريسيٍّ بمولدِ عامِ ١٩٦٨م وكنتُ حينَها في أواخرِ السابعةِ قبلَ مغادرتي المفاجئةِ إلى مصرَ، بعدَها استقرَ في وعيي الذي ينمو ببطءٍ تَبَعًا لظروفِ الحصارِ الذي حُشرتُ داخلَ حدودِ عالمِهِ أنه لا دينيٌّ مثلَ غيرِهِ ومثلَ (أميرة) التي سيتضحُ لي لاحقًا أنها ليستْ كذلكَ"[2].

يظهرُ تأثرُ (نصيف) بالخطابِ اللادينيِّ عندما التحق بالمدرسةِ الثانويةِ، فيقدمُ نفسَهُ بوصفِهِ طالبًا لادينيًا، يقولُ: "حينَ وصلتُ الدارَ البيضاءَ والتحقتُ بالثانويةِ، كانتِ المدرسةُ مشروعًا استثماريًّا مغربيًّا فرنسيًّا مشتركًا، وتمنحُ الطالبَ مثلي حقَّ تقديمِ نفسِهِ بأنهُ (لادينيٌّ) كنوعٍ منَ الرقيِّ الحضاريِّ والحريةِ الفكريةِ المقدسةِ تمجيدًا وتطبيقًا لمبادئِ الثورةِ الفرنسيةِ"[3].

يتضحُ الخطابُ اللادينيُّ في ردِّ (كريم) على تساؤلِ (نصيف) الحائرِ حولَ اتخاذِهِ العشيرةَ الماسونيةَ دينًا لهُ قائلًا: "لا.. ولكنَّ هيَ أهمُّ ما في الوجودِ، اسمعْ أنتَ حرٌّ منَ الآنِ باختيارِ أيِّ دينٍ تشاءُ، أو تكونَ مثلي؛ فتلقيَ خرافاتِ الأديانِ كلَّها وراءِ ظهرِكَ، ولا تعرْها أيَّ اهتمامٍ"[4]. ونجدُهُ يغرسُ فيه كرهَ الأديانِ وازدراءَها: "ادفنْ عواطفَكَ (نصيف) وتخلصْ من قمامةِ المشاعرِ إذا أردتْ أنْ تصبحَ يومًا مثلي، وتخلَّصْ أيضًا مرةً وللأبد مما يُسمّى الأديانَ؛ أكبرُ عائقٍ أمامَ النجاحِ بل، عقبةٌ كؤودٌ إنْ لمْ تقبرها لنْ تصعدَ القممَ، فاخترْ لنفسِكَ، وحاذرْ أنْ تخذلَني فلا طاقةَ لكَ بغضبي"[5].

---

(١) جرجي زيدان، تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى اليوم، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٤م، ص ١١، بتصرّف.

(٢) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٢١.

(٣) المصدر السابق، ص٣٤.

(٤) المصدر السابق، ص٥٥.

(٥) المصدر السابق، ص٩١.

يظهرُ الخطابُ اللادينيُّ في نجاحِ (كريم) في تغييبِ (نصيف) عن فطرتِهِ وإبعادِهِ عن صوتِ الحكمةِ، فيقررُ العيشَ بعيدًا عن تأثيرِ الدينِ: "ما إنْ هبطتِ الطائرةُ في مطارِ روما حتى كنتُ قد أخذتُ قرارَ العيشِ بمنأى عنْ أيِّ مؤثراتٍ دينيةٍ"(١).

ثمةَ علاقةٌ قويةٌ وتماهٍ تامٌّ بينَ الماسونيةِ والبهائيةِ، فالبهائيةُ خطابٌ دينيٌّ بالاسمِ والشكلِ، ماديٌّ بالفعلِ والواقعِ، وبينَهُما تشابكٌ بينَ نسقينِ عقيديْنِ يستجيبانِ لاحتياجاتٍ واحدةٍ، فالبهائيةُ تدعو لتجميعِ الناسِ على دينٍ واحدٍ، والماسونيةُ تدعو إلى إقامةِ مملكةٍ موحدةٍ تحكمُ العالمَ. "فالماسونيةُ هي الجمعيةُ الأمُّ لكلِّ الجماعاتِ المتطرفةِ والمذاهبِ الهدامةِ، وبينَ الماسونيةِ والبهائيةِ علاقةٌ عضويةٌ"(٢) . وتنتظمُ البهائيةُ وتنتشرُ في المناطقِ والدولِ التي تكثرُ فيها الماسونيةُ.

يظهرُ تسترُ الماسونيةِ خلفَ البهائيةِ وغيرِها من الدياناتِ في حوارِ (نصيف) معَ (أميرة) ذاتِ المعتقدِ البهائيِّ، التي تشغلُ مكانةً مرموقةً في العشيرةِ، وتعملُ بِرفقةِ (كريم):

" – لكنْ... أنتِ صاحبةُ دينٍ، وقد باركتِني الآنَ بدعائِهِ، وربّما أبوكِ وجدُّك أما بابا....

- اسمعْ (نصيف)، لا علاقةَ للدينِ من قريبٍ أو بعيدٍ بعشيرةِ البنائينَ الأحرارِ، فالذي عمّدَكَ أمسِ هوَ الكاهنُ المسيحيُّ "جيوفاني باتروس" المنبهُ العظيمُ، وقد أخبرَنا قبلَ أنْ يشرعَ بتعميدِكَ أنَّ لدينا الآنَ أكثرَ من ثمانيةِ آلافِ رجلِ دينٍ بمناصبَ مختلفةٍ ودرجاتٍ متفاوتةٍ داخلَ عمومِ الكنائسِ الإيطاليةِ وحدَها، لقدْ كانتِ الكنيسةُ الأرثوذكسيةُ والبروتستانتيةُ من أخلصِ وأقوى حلفائِنا منذُ نشأتِنا المعلنةِ في القرنِ السابعَ العشرَ، بعكسِ الكنيسةِ الكاثوليكيةِ التي ناهضتْنا، بل حاربتْنا رَدَحًا طويلًا منَ الزمنِ"(٣).

ويبرزُ الخطابُ اللادينيُّ منْ خلالِ أنشطةِ الماسونيةِ الهدامةِ للأديانِ وَسَطَ الجامعاتِ وجيلِ الشبابِ، ويُلحظُ هذا عندما يتحدثُ (نصيف) عن دورِ رجالِ العشيرةِ في تنظيمِ الأنشطةِ وطرحِ أسئلةِ النقاشِ بشكلٍ منظمٍ، يقولُ: "وفي استطلاعٍ آخرَ تبعَ سابقَهُ مباشرةً أتى بهِ (مكرم) منْ دوائرَ عُليا تمَّ حصرُ الأسئلةِ في محورٍ محددٍ يبدو ظاهرًا مختلفًا، لكنهُ ليسَ كذلكَ، بل بالعكسِ أكثرَ عمقًا نحوَ الغايةِ المرجوةِ مثلَ: ألا ترى أنَّ الأديانَ عامةً بقيودِها التي لا تنتهي تكبّلُ المجتمعَ وتعيقُ تطورَهُ؟"(٤).

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٦٣.

(٢) محمد إبراهيم البدري، بين البهائية والماسونية نسب، ط١، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٢٧.

(٣) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٨١.

(٤) المصدر السابق، ص٩٩.

يتضحُ هذا الخطابُ اللادينيُّ الهدامُ في تركيزِ أنشطةِ الماسونيةِ على تقزيمِ صورةِ الدينِ الإسلاميِّ وتشويهِهِ بنعتِهِ بالتطرفِ والتعصبِ، فيبدأُ الهجومُ أولًا في الجامعاتِ المصريةِ ثمَّ تنتشرُ الفكرةُ لتصبحَ قضيةً للرأيِ العامِّ، يتداولُها الجميعُ في الشارعِ المصريِّ، يقولُ (نصيف) واصفًا ذلكَ: "لم تكنْ غارةً، بلْ هجومًا كاسحًا شنتهُ أقلامٌ صحفيةٌ وأدبيةٌ مدعومةٌ بوجوهٍ سينمائيةٍ وأصواتٍ إذاعيةٍ لها حضورٌ طاغٍ في الشارعِ المصريِّ على ما أسموهُ "الفكرَ الوهابيَّ" فنعتوهُ بالتخلفِ والتزمتِ والتعصبِ، ودعمِ التطرفِ والجنوحِ نحوَ الإرهابِ، وقمعِ الآخرِ وتكميمِ الأفواهِ وتقييدِ الحرياتِ العامةِ والخاصةِ، ومصادرةِ حقِّ المرأةِ ليسَ فقطْ في القيادةِ، بل في الحياةِ بوأدِها حيّةً إحياءً لتراثِ وإرثِ الماضي البعيدِ البغيضِ؛ مما يشوِّهُ صورةَ الإسلامِ الوسطيِّ المعتدلِ، ليسَ في الغربِ وحدَهُ بل في عُقْرِ دارِهِ بالشرقِ، وحذّرتْ أنه إنْ لم يتنبهْ لأخطارِهِ المحدقةِ؛ فإنَّ مستقبلَ العالمِ العربيِّ تتهددُهُ مخاطرُ التمزقِ إلى دويلاتٍ متناحرةٍ متنازعةٍ، وتمّتِ الدعوةُ إلى نبذِ معتنقي هذا الفكرِ ومحاربتِهِمْ إعلاميًّا بهدفِ تحجيمِ دورِهِمْ مجتمعيًّا"[١].

هنا يُلاحظُ وقوفُ الماسونيةِ خلفَ القائمينَ على الإعلامِ والفنِّ، فكثيرٌ منهم مأجورونَ مدفعونَ إلى طمسِ الإسلامِ، يعملونَ على تغييبِ الوعيِ وتشويهِ صورةِ الإسلامَ الوسطيِّ المعتدلِ.

بعدَ كلِّ نجاحٍ تحققُهُ الماسونيةُ تعقدُ المؤتمراتِ لمناقشةِ دعواتٍ جديدةً لمناهضةِ الأديانِ ومحاربتِها، يقولَ الراوي: "وإذْ تبينَ لمسؤولي العشيرةِ نجاحُ الحملةِ؛ تمّتِ الدعوةُ لعدةِ اجتماعاتٍ استضافتْ فيلا المعادي بعضَها وتقررَ خلالَها قطفُ ثمارِ الهجومِ السابقِ بهجومٍ جديدٍ يدعو إلى الحريةِ المطلقةِ، والانعتاقِ من الماضي ظاهرًا، وإلى اللادينيةِ والإباحيةِ باطنًا تحتَ شعارِ (الدينُ أفيونُ الشعوبِ)"[٢].

فهمْ يقررونَ نشرَ الإباحيةِ والإلحادِ تحتَ مسمياتِ الحريةِ والتحررِ، ولا يكفونَ لحظةً واحدةً عنِ محاربةِ الدينِ، فالخطابُ اللادينيُّ لا يتحققُ إلا بعداءٍ ومحاربةٍ تامينِ للدينِ، فتنطلقُ الشعاراتُ الكاذبةُ، ويحملُها رجالاتُ الماسونيةِ المستولونَ على زمامِ الإعلامِ والموجهونَ للرأيِ العامِ.

يتجلى تأثيرُ الخطابُ اللادينيُّ عندما يحسمُ (نصيف) أمرَهُ ويختارُ الماسونيةَ وأحلامَها، بعدَ احتكاكِهِ بطلبةٍ مسلمينَ يحاورونَهُ حوارًا هادئًا، فيصفَ تفضيلَهُ للانغماسِ في مستنقعِ ماسونيتِهِ: "قدْ وطّدتُ العزمَ على تركيزِ كلِّ جهودي لتدعيمِ مكانتي بينَ أهلي الحقيقيينَ جماعةِ البنائينَ الأحرارِ، فمستقبلي بيدِهِمْ، وجاهي وعزي ومجدي منوطٌ برضاهُمْ، وما شأني بتاريخِهِمْ؟ يكفيني حاضرُهُمُ الذي

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٢٦١.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

يحاصرُ أنفاسي، وعسى الوعودُ والأماني والأحلامُ أنْ ترى النورَ في قادمِ الأيامِ، ثمَّ ما حاجتي للقراءةِ عنِ الإسلامِ أوْ غيرِهِ منَ الأديانِ؟ طالما مستقبلي معَ العشيرةِ بأمانٍ؟"[١].

أما البهائيةُ فيتجلى حضورُها وخطابُها في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، وتكونُ على لسانِ (أميرة) و(رباح) والعديدِ منَ الشخصياتِ التي تعتنقُ البهائيةَ كدينٍ ومعتقدٍ.

وتعرفُ البهائيةُ بأنها: "عقيدةٌ جديدةٌ دعا إليها ميرزا حسين علي نوري (١٨١٧-١٨٩٢م) الذي كانَ يلقبُ "بهاءَ اللهِ"، وتعودُ جذورُ هذه العقيدةِ إلى البابيةِ التي أُسستْ عام ١٨٤٤م على يدِ ميرزا علي محمد الشيرازي"[٢].

وتفخرُ أميرةُ باتباعِها البهائيةَ ديانةً لها: "أنا بهائيةٌ، أتعرفُ منْ أنا؟ أنا منْ أحفادِ غصنِ اللهِ الأعظمِ الميرزا[٣] شوقي، وحفيدةُ بهاء الله الأعظمِ الميرزا يحيى بن حسين القبرصي، نحنُ نولدُ بالبهاءِ ونعيشُ بالبهاءِ ونموتُ بالبهاءِ"[٤].

ونجدُها في حوارٍ آخرَ تحاولُ دعوةَ (نصيف) إلى البهائيةِ: "فأطبقتْ على يديّ وتأملتني بعمقٍ وصمتٍ ثمَّ هزّتْ رأسَها تدعوني باسمةً للدخولِ في دينِها، فلمْ أشأْ أنْ أجرحَ مشاعرَها الرقيقةَ فهمستُ لها: ليسَ الآنَ على الأقلِ دعيني أُشبهُ البابا بشيءٍ"[٥].

وجوهرُ البهائيةِ كما يقولُ الدكتورُ عبد الوهاب المسيري: "هوَ الإيمانُ بالحلولِ الكاملِ، أو بوحدةِ الوجودِ؛ أيْ توحدِ الخالقِ بمخلوقاتِهِ"[٦]. وحولَ هذه المعتقداتِ يدورُ حوارُ (أميرة) مع (نصيف)، إذ تؤدي طقوس عبادتها أمامه، وتصف له أصول معتقدها، وتحدثه عن الميرزا وألوهيته[٧].

ويرى الباحثُ أنَّ البهائيةَ بخطابِها الحلوليِّ، واتخاذِها إلهًا بشريًّا يسيطرُ على الكونِ ويمتلكُ خزائنه[٨] وجهٌ آخرُ للماسونيةِ، ورديفٌ قويٌّ لها، لأنها تدعو إلى طمسِ الدينِ الإسلاميِّ الحقيقيِّ، لذا كانتِ الديانةَ الأكثرَ اعتناقًا لأبناءِ العشيرةِ، وهي بهذا تحملُ خطابًا لادينيًّا خبيثًا.

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص١١٨.

(٢) عبد الوهاب المسيري، الجمعيات السرية في العالم، مرجع سابق، ص٧٠.

(٣) الميرزا: اسم ولقب، استخدم في إيران والدولة العثمانية مشتق من كلمة "أمير"، وكلمة "زاد" الفارسية التي تعنى ابن.

(٤) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٥٦.

(٥) المصدر السابق، ص ١٨٠.

(٦) عبد الوهاب المسيري، الجمعيات السرية في العالم، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٧) ينظر: خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٦٢.

(٨) ينظر: المصدر السابق، ص٦٢.

وهكذا تتجلى معالجةُ الكاتبِ للخطابِ اللادينيِّ، التي تكشفُ عن شكلٍ خطيرٍ من أشكالِ الإلحادِ والإباحيةِ، محذرًا من انتشارِها في أوساطِ شبابِنا في ظلِّ الدعواتِ الهدامةِ لطمسِ الدينِ التي تقودُها الأيدي الخفيةُ للماسونيةِ.

وفي مقاربةِ الباحثِ للخطابِ الدينيِّ، يرى أنَّ الكاتبَ عرضَ صورًا متنوعةً منْ أشكالِ الخطابِ الدينيِّ، لعبتْ دورًا محوريًّا في إذكاءِ نارِ الصراعِ، والتصادمِ بينَ الشخصياتِ التي تحملُ الرؤى الأيديولوجيةَ المختلفةَ، ولقد وظّفَها بشكلٍ مكثفٍ لتخدمَ منطلقاتِهِ الفكريةَ التي تقومُ على الوسطيةِ والاعتدالِ اللذينِ يرجعانِ إلى الإسلامِ الحقيقيِّ، فيرفضُ الكاتبُ الخطابَ اليهوديَّ المتطرفَ الذي أذكى نارَ الحقدِ على فلسطينَ، وزرعَ دولةَ الكيانِ البغيضِ، ويقفُ في وجهِ الخطابِ المتشددِ الذي سلكَهُ أبطالُ روايةِ "المباهلة" في البدايةِ، ثم نجدُهُ ينتصرُ لوسطيتِهِ السمحاءِ عندما يعودُ أبطالُ الروايتينِ إلى الإسلامِ النزيهِ البريءِ من الإجرامِ الذي ينتجهُ فريقُ الغلوائيةِ، والإرهابِ الذي ينعتُهُ بهِ الغربُ.

وهذا شكلَ رافِدًا يدعمُ فكرةَ المباهلةِ التي قامتْ عليها روايةُ المُباهلة التي حملتِ الاسمَ نفسَهُ، فهيَ دعوةٌ إلى التوقفِ عن الاحترابِ والاقتتالِ، واتخاذِ التباهلِ حلًّا لصراعاتٍ مريرةٍ تقضي على الأجيالِ القادمةِ، وتدمرُ البلادَ تدميرًا.

المبحثُ الثاني

صورُ الصراعِ العقائديِّ

يشكلُ الفكرُ المتشددُ المنطلقَ الأساسَ لأيِّ صراعٍ وجوديٍّ، فيدفعُ الشعوبَ للحروبِ والاقتتالِ، وقد حرَصَ أصحابُ المللِ والشرائعِ على تغذيةِ طوائفِهِمْ بمفاهيمَ عقديةٍ تؤججُ فيهِمْ روحَ الاعتناقِ لأفكارٍ تحملُ العنصريةَ، وتقومُ على رفضِ الآخرِ.

بينما وجدنا العقيدةَ الإسلاميةَ تحملُ روحَ التوحيدِ التي ألقتْ بظلالِها على البشريةِ؛ لتفيضَ عدلًا وسلامًا، فهي العقيدةُ الصحيحةُ السليمةُ التي نزلَ بها الإسلامُ، واستمدتْ معالمَها، وأركانَها من الوحيِّ القرآنيِّ والسنةِ النبويةِ الشريفةِ، لكنَّ هناك من خرجَ عن أصولِ هذه العقيدةِ عبرَ الحِقَبِ الزمنيةِ الممتدةِ، فاستبدلَ التطرفَ والتشددَ بسماحةِ الإسلامِ.

وقد اشتملَ صراعُ المسلمينَ العقائديُّ معَ غيرِهِمْ على محاورَ متعددةٍ، فكانَ الصراعُ العقائديُّ معَ أهلِ الكتابِ، من اليهودِ والنصارى، والصراعُ معَ من خرجوا عن الإطارِ العقائديِّ الإسلاميِّ، والصراعُ مع الخارجينَ بالكليةِ عن العقيدةِ والديانةِ الإسلاميةِ كالبهائيةِ والماسونيةِ.

وقد حاولَ الغربُ برموزِهِ الدينيةِ والسياسيةِ تأجيجَ هذا الصراعِ من خلالِ إثارةِ النعراتِ الطائفيةِ والعرقيةِ بينَ المسلمينَ وبينَ غيرِهِمْ، ولكنْ بالرغمِ من ذلكَ وجدنا من يظهرُ حقيقةَ الصراعِ بجلاءٍ تامٍّ، فهذا القسُّ الأمريكيُّ الشهيرُ (بات روبرتسون) الذي يُعْرَفُ بحقدِهِ للإسلامِ، وبتأثيرِهِ الكبيرِ على السياساتِ الغربيةِ يعلنُ في خطابٍ عامٍّ في مدينةِ القدسِ سنةَ ٢٠٠٤م أنَّ الصراعَ دينيٌّ: "لا تخطِئوا الفهمَ أيها السيداتُ والسادةُ، العالمُ كلُّهُ يلفُّهُ الصراعُ الدينيُّ، لا يُخاضُ القتالُ من أجلِ المالِ أوِ الأرضِ، وهو ليسَ صراعًا بين الفقرِ والثروةِ، وليسَ بين العاداتِ القديمةِ والحداثةِ"[١].

وقدْ أظهرتْ رواياتُ الكاتبِ خلوصي عويضة صورًا عميقةً ومكثفةً للصراعِ العقائديِّ، وهذا ينطلقُ من حرصِهِ على تقديمِ الرؤى الفكريةِ التي تُغذي القارئَ بالفكرِ الإسلاميِّ الوسطيِّ.

وسيتناولُ الباحثُ هذا الصراعَ من تلكَ الرؤى التي يتبنّاها الروائيُّ التي تمثلُ أسبابًا حقيقيةً لعداءِ شخصياتِهِ معَ الآخرِ المخالفِ، كالصراعِ بينَ الشيعةِ والسنةِ في الدينِ الإسلاميِّ، أو بين الدينِ الإسلاميِّ وغيرِهِ منَ الشرائعِ كالصراعِ العقائديِّ بين المسلمينَ والنصارى، أو بين المسلمينَ واليهودِ، أو بينَ الماسونيةِ والبهائية ضدَّ المسيحية والإسلام.

---

(١) مادلين أولبرايت، الجبروت والجبار، ط١، ترجمة عمر الأيوبي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٧م، ص٢٤٢.

وقفَ الباحثُ على الصورِ المحتدمةِ للصراعِ العقائديِّ بينَ شخصياتِ الروائيِّ، فلمْ يكنِ الخلافُ بينَ هذه الشخصياتِ خلافًا نظريًّا وحواريًّا فحسب، بل ظهرَ متأجِّجًا، ليصلَ في بعضِ مراحلِهِ إلى القتلِ وارتكابِ المجازرِ، والقضاءِ على المخالفِ للشريعةِ أوِ الطائفةِ.

وهذا المبحثُ يعرضُ صورًا للصراعِ العقائديِّ، وأشكالًا للخلافِ الطائفيِّ كما ظهرتْ في روايتَي "المُباهلة"، و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، وقد قُسِّمَتْ إلى:

١- الصراع بين الشيعة والسنة:

تميَّزَ الصراعُ بينَ الشيعةِ والسنةِ كثابتٍ دائمٍ في التاريخِ الإسلاميِّ القديمِ والحديثِ والمعاصرِ، وقد تذرَّعَ هذا الصراعُ بالدينِ؛ لكي يُعَبِّرَ عن مصالحِهِ، ومنطلقاتِهِ، ومطامعِهِ السياسيةِ.

بدأَ هذا الصراعُ في الحِقَبِ الأولى منَ التاريخِ الإسلاميِّ، فاتخذَه غلاةُ الشيعةِ سبيلًا للمروقِ في الدينِ الإسلاميِّ، وإحالتِهِ إلى دينٍ يشتدُ بهِ الصراعُ ويستعرُ، فظهرتِ الفِرَقُ التي عُرِفَتْ بالروافضِ، الذين رفضوا بيعةَ زيدِ بْنِ عليِّ بْنِ الحسينِ بْنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه؛ لأنَّهُ أبى أنْ يَبْرَأَ منْ أبي بكرٍ وعمرَ بْنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهما(١).

وامتدَ هذا الصراعُ إلى مراحلَ أصبحَ فيها الرافضةُ خنجرًا مسمومًا في خاصرةِ الإسلامِ، كما اصطلحَ على ذلكَ المؤرخونَ المسلمونَ، فظهرَ هناك القرامطةُ والبرامكةُ والفاطميونَ والصفويونَ وغيرُهُمْ، وفي عصرِنا هذا انطلقَت بعض المشاريع لتمثلَ حقبةً جديدةً منَ الصراعِ بينَ السنةِ والشيعةِ، وقد أذكى هذا الصراعَ محاولاتُ الاستعمارِ الغربيِّ، وقد وصفَ ذلك محمد عمارة: "إنّ الاستعمارَ الغربيَّ كانَ على مرِّ تاريخِه معَ الشرقِ الإسلاميِّ دائبَ الحرصِ على زرعِ الفرقةِ الدينيةِ والمذهبيةِ والعرقيةِ بينَ مكوناتِ هذا الشرقِ، وذلك للنفاذِ من هذهِ الثغراتِ لاحتواءِ الشرقِ، وإعادةِ اختطافِهِ من جديدٍ"(٢).

احتلتْ قضيةُ الصراعِ الطائفيِّ بينَ الشيعةِ والسنةِ حيزًا كبيرًا من روايةِ "المباهلةِ"، فكانَ للصراعِ الكبيرِ بينَ الشخصياتِ بِما تحملِهُ من أيديولوجياتٍ مختلفةٍ دورٌ كبيرٌ في سيرِ الأحداثِ، ودفعِها نحوَ الصراعِ والاحتدامِ والتناحرِ، وكانَ للمرجعياتِ الدينيةِ الأثرُ الواضحُ في إشعالِ نارِ الصراعِ والاختلافِ. لأنها "سعتْ -هذه المراجعُ- إلى تمزيقِ النسيجِ الوطنيِّ والشعبيِّ، وذلكَ بإحلالِ الفصلِ المذهبيِّ"(٣).

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦م، ج ٩، ص ٣٢٩، ٣٣٠.

(٢) محمد عمارة وأحمد الكاتب، السنة والشيعة وحدة الدين وخلاف السياسة والتاريخ، ط١، دار طيبة للطباعة، الجيزة، مصر، ٢٠٠٨م، ص١٢.

(٣) المرجع السابق، ص٢٩.

ظهرَ عمقُ هذا الصراعِ على لسانِ (أسعد) بطلِ روايةِ "المباهلةِ" عندما واجهَ أحدَ قادةِ المجموعاتِ الشيعيةِ التي كانتْ تفتكُ بأبناءِ السنةِ: "أنتمْ تطعنونَ هذا القلبَ صبحَ مساءَ في سويدائِهِ بأغلى البشرِ وأعزِّهِمْ بعدَ الرسولِ ﷺ، أما نحنُ فلا نطعنُ في أئمتِكِمْ، بل نقدرُهم، لقد شتمتَني قبلَ القتالِ ونعتَّني: يا حفيدَ يزيدَ"[١].

جاءَ هذا النصُّ عقبَ مرحلةٍ من السردِ الروائيِّ الذي يُظهرُ تنامي الشخصياتِ وتطورَ الأحداثِ، فأبانَ عنِ الحقدِ الذي يضمرُهُ الشيعةُ في أعماقِهِمْ ليوغروا صدورَ إخوانِهِمْ منَ السنةِ.

ولم يكتفوا بالقتلِ والسفكِ والاصطفافِ خلفَ العدوِّ الأمريكيِّ الغازي، بل أسنّوا ألسنتَهُمْ وأطلقوها مُشَرَّعَةً لتنالَ من عِرْضِ المسلمينَ عامةً، متخذينَ من سبِّ أبي بكرٍ الصدّيقِ، وعمرَ بْنِ الخطابِ –رضوانُ اللهِ عليهما–، وعداءِ أمِّ المؤمنينَ عائشةَ سبيلًا لتحطيمِ طهارةِ الدينِ وقداستِهِ.

ويظهرُ ذلك على لسانِ (أسعدَ) معقبًا: "لماذا بحقدِكُمُ المجرمِ تقدحونَ فيمنَ برَّأها اللهُ من فوقِ سبعِ سمواتٍ، وأنزلَ في حقِّها قرآنًا يُتلى إلى يومِ الدينِ؛ الصديقة بنتِ الصديق حبيبةِ رسولِ الله ﷺ؟! ألا تعلمُ أنَّكُمْ بذلكَ تقاربونَ الكفرَ الأكبرَ إنْ كانَ جهلًا، وتغرقونَ فيهِ إنْ كانَ عمْدًا؟!"[٢].

ولم تستطعْ شخصيةُ (أبو لؤلؤة) الموازيةُ لـ(أسعد) أنْ تنفيَ ما نُسِبَ إليها منْ قذفٍ وتشهيرٍ، فراوغَ في ردِّهِ؛ مسوغًا ذلك بأنه تشرَّبَ معتقداتِهِ من مجتمعِهِ وبيئتِهِ التي تربّى فيها، يقول في ردِّهِ على (أسعد): "كفى، كفى، هذا دينُ آبائي وأجدادي، ولم أخترعْهُ من رأسي، أنتَ عشتَ في بيئةٍ تشرّبتَ معتقداتِها وأنا كذلكَ، أنتمْ من الأزلِ تُسفهونَ أحلامَنا، وتنعتونَنا بأقسى وأفظعِ الألفاظِ ولم تتركوا مساحةَ وُدٍّ ورحمةٍ، وترمونَنا في كتبِكُمْ بالكفرِ والزندقةِ، فماذا أبقيتُمْ؟"[٣].

لكنَّ الواقعَ والتاريخَ يؤكدانِ أنَّ كتبَ الشيعةِ المقدسةَ قد أعطتْ مساحةً كبيرةً لسبِّ رموزِ الصحابةِ كأبي بكرٍ الصديقِ وعمرَ بْنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهما، وفي ذلك يقولُ المجلسي، أحدُ كبارِ علماءِ الشيعةِ: "الأخبارُ الدّالّةُ على كفرِ أبي بكرٍ وعمرَ وأضرابِهِما، وثوابِ لعنِهِمْ، والبراءةِ منهم، وما يتضمنُ بِدَعَهُمْ أكثرُ من أنْ يُذكرَ في هذا المجلدِ –بحارِ الأنوارِ– ، أو في مجلداتٍ شتى، وفيما أوردْنا كفايةٌ لمنَ أرادَ اللهُ هدايتَهُ إلى الصراطِ المستقيمِ"[٤].

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٨٤.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٤) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣م،ج ٣٠، ص٣٩٩.

لم يقتصرِ الصراعُ على شخصيةِ (أسعد)، بل حفلتِ الروايةُ بشخصيةِ (الدكتور هادي)، الذي كانَ منسوبُ صراعِهِ معَ الشيعةِ عاليًا، يقول واصفًا ذلك: "أُقسمُ أنَّ شعوري بالعداوةِ للرافضةِ تحديدًا يفوقُ مثيلَهُ على غيرِهِمْ، فالصراعُ بيننا وبينَهُمْ عقائديٌّ صرفٌ، لا كما يُرَوِّجُ أنصارُ الحوارِ معَهُمْ منْ أنَّه خلافٌ فقهيٌّ ومذهبيٌّ، قاصدينَ التقليلَ من شأنِهِ، وخطورتِهِ، بل كوارثُ تبعاتِه التي نحياها؛ محيطٌ من الدمِ، وسعةُ الأرضِ منَ الحقدِ"[1]. فالعمقُ الفكريُّ الذي ينطلقُ من خلالِهِ (الدكتور هادي) مبنيٌّ على رؤيةٍ فكريةٍ متشددةٍ تجاهَ الصراعِ معَ الشيعةِ، وهو الذي تقلَّدَ في مراحلِ الروايةِ المتأخرةِ مكانةً مرموقةً في قيادةِ جماعةٍ سنيةٍ متشددةٍ، حاربتْ على جبهتي الشيعةِ والاحتلالِ الأمريكيِّ.

لم يقفِ الكاتبُ عندَ حدودِ الحقدِ التاريخيِّ، بل أبرزَ الأخطارَ الجسيمةَ التي ولدَّها الحقدُ الشيعيُّ على الأمةِ في واقعِها المعاصرِ، يقولُ (أسعد): "لمْ تكنِ المعادلاتُ السياسيةُ غائبةً عنِ الغابةِ الأمنيةِ بل رأيتُها امتدادًا مُكَمِّلًا للأحقادِ الدينيةِ والتاريخيةِ جوهرِ الصراعِ، وأصبحتِ الساحةُ العراقيةُ ميدانًا فسيحًا وخصبًا للمنازلةِ، وتوافدَ المئاتُ منَ العناصرِ الجهاديةِ من جبهاتٍ مختلفةٍ كأفغانستانَ ومحيطِها، واليمنِ ومحيطِها؛ لقتالِ جيشِ الاحتلالِ الأمريكيِّ، وصنيعتِهِ الجيشِ الحكوميِّ الطائفيِّ، ومسانديهِ الداعمينَ له من مجموعاتٍ إيرانيةٍ، وقواتِ صحواتٍ شعبيةٍ قادتُها وأفرادُها متخمونَ حتى النخاعِ أو يزيد بحقدٍ طائفيٍّ متوارَثٍ، تأصلَ متجذرًا في القلوبِ، فكانوا لا يرعونَ إلًّا ولا ذمَّةً خائضينَ في دماءِ السنّةِ"[2]. فالمُطَّلِعُ على الحالةِ العراقيةِ يدركُ مدى استحواذِ الصراعِ الطائفيِّ بين الشيعةِ والسنةِ على مجرياتِ الحياةِ، أدّى ذلك إلى إحداثِ شروخٍ في العلاقاتِ الاجتماعيةِ والسياسيةِ، وباتَ الدورُ الشيعيُّ مرتبطًا بالأهدافِ العدوانيةِ للاحتلالِ الأمريكيِّ. "إنَّ المأساةَ العراقيةَ قد مثلتْ أكبرَ الزلازلِ التي أصابتِ العلاقاتِ الشيعيةَ السنيةَ منذُ قرونٍ فهناكَ أحزابٌ شيعيةٌ تكونتْ وتدربتْ وتسلّحتْ في ظلِّ ولايةِ الفقيهِ الشيعيةِ الإيرانيةِ، ثم تواطأتْ وتحالفتْ مع الصليبيةِ الأمريكيةِ، المدفوعةِ بالصهيونيةِ اليهوديةِ في القضاءِ على قوةِ العراقِ ووَحْدَتِهِ، ثم عادتْ هذهِ الأحزابُ مع الغزوِ الأمريكيِّ للعراقِ سنةَ ٢٠٠٣م ودخلتْ عمائمُ كبيرةٌ –ومعها الميليشياتُ التابعةُ لها– إلى بغدادَ على ظهورِ دباباتِ الأمريكانِ وطائراتِهِمْ"[3].

وتستمرُ مشاهدُ الصراعِ الطائفيِّ بينَ الشيعةِ والسنةِ، فبعدَ أنْ شَكَّلَ المكونُ السنيُّ في العراقِ حراكًا شعبيًّا للمطالبةِ بحقوقِهِ المسلوبةِ، كان ردُّ الحكومةِ العراقيةِ المحسوبةِ على المكونِ الشيعيِّ أنْ وصفتْ أغلبَ المتجمعينَ والمتظاهرينَ بالإرهابينَ السنةِ، فارتكبتِ المجازرَ بحقِّهِمْ، وهذا ما عزَّزَ صورةَ الصراعِ والقتلِ المتبادَلِ، كما يروي (أسعد): "فتعزَّزَ يقيني أنَّ البندقيةَ والسيفَ هما الدواءُ لقطعِ دابرِ

---

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٦٥.

(2) المصدر السابق، ص٢٣٩.

(3) محمد عمارة وأحمد الكاتب، السنة والشيعة وحدة الدين وخلاف السياسة والتاريخ، مرجع سابق، ص٢٠.

الموغلينَ قدمًا في الإجرامِ، لكنَّ القتلَ كان يؤدي إلى قتلٍ، فاتسعتْ رُقْعةُ الدائرةِ الجهنميةِ حتى غدا مقبولًا تمامًا القتلُ على الهويةِ الطائفيةِ، كثقافةٍ ومنهجِ حياةٍ"[١].

وتميزَ هذا الصراعُ من خلالِ العرضِ الروائيِّ بأنْ سجَّلَ الكاتبُ موقفَهُ الداعي إلى وقفِ الاقتتالِ، وكان همُّهُ وهدفُهُ من المُباهلة هو وَحْدَةُ الأمةِ، وتضميدُ نزيفِ دَمِها المهدورِ، وكانَ سؤالُهُ دائمًا، لماذا لا نستخدمُ هذا السلاحَ –المُباهلةَ– الربانيَّ؟ وظهرَ ذلك في حوارِ (أسعد) مع جَدِّهِ:

"– نعمْ قيَّضَ اللهُ لي رجلًا عالمًا، وَوَعَيْتُ أنَّ المُباهلةَ تعني الملاعنةَ.

- قالَ مؤيدًا: أجلْ الملاعنةُ، قلْ لصاحبيْكَ، ومنْ حولَكُمْ أنْ يُجَرِّبوا هذا السلاحَ بدلَ القتلِ والدَّمِ الذي أطبقَ على الأرضِ.
- قلتُ مستفهمًا: لكن كيفَ نطبقُها؟ قد يبدو الأمرُ غريبًا وعجيبًا.
- ردَّ معترضًا: كيف يكونُ كما وصفتَهُ، وهو آيةٌ في كتابِ اللهِ دليلُ البشريةِ للخيرِ في الدارينِ؟!"[٢].

فهذهِ دعوةٌ في رأيِ الكاتبِ تفوقُ مؤتمراتِ الحوارِ والمقاربةِ الفكريةِ، فهي تدعو إلى اتباعِ الفريقيْنِ للمنهجِ الحقِّ، الذي هو بلا ريبٍ الدينُ الإسلاميُّ بموروثِهِ الصافي الذي حملَهُ أهلُ السنةِ النبويةِ، وبما قدموهُ من علومٍ ناصعةٍ مشرقةٍ، اتبعوا فيها الهديَ القرآنيَّ والنورَ النبويَّ.

وقد حملتِ الروايةُ هذا العنوانَ "المُباهلة"، انطلاقًا من دلالتِها على هذهِ الدعوةِ التي شكلتْ خلاصًا –في نظرِ الكاتبِ– لصراعٍ طويلٍ مريرٍ.

٢- الصراعُ بينَ المسلمينَ واليهودِ:

كانَ اليهودُ عبرَ التاريخِ مثالًا للشعبِ الساديِّ العنصريِّ، الساعي لاستعبادِ البشرِ بكلِّ جَهْدٍ ودَأْبٍ، وبأقذرِ الوسائلِ وأكثرِها خسةً، فكانتِ العقيدةُ التوراتيةُ التي حرَّفوها حافلةً باستحقارِ كلِّ ما هو ليس يهوديًّا، يعلنُ ذلك (أوسكار ليفي) مؤلفُ كتابِ "بروتوكلات حكماء صهيون": "نحن اليهودُ لسنا إلا سادةَ العالمِ ومفسديهِ، ومحركي الفتنِ فيه وجلّاديهِ"[٣].

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣١٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٥٦.

(٣) محمد خليفة التونسي،الخطر اليهودي بروتوكلات حكماء صهيون، ط٤، دار الكتاب العربي،بيروت،١٩٦١م،ص١.

وحينما جاءَ الإسلامُ دينًا خاتمًا لما سبقَهُ انطلقَ الحقدُ اليهوديُّ نحوَ المسلمينَ، إذ كانوا يَعْلَمونَ خروجَ النبيِّ الخاتَمِ، وكانوا يستفتحونَ على مشركي يثربَ بذلك[1]، إلا أنَّهم كفروا بالنبيِّ الذي بُعِثَ، وأصروا على محاربةِ الدينِ الحقيقيِّ الجديدِ، وشهدَ العهدُ المدنيُّ من السيرةِ النبويةِ العطرةِ صراعًا عقائديًّا عميقًا بين المسلمينَ واليهودِ، تمثَّلَ بنقضِهِمْ للعهودِ التي وقعوها معَ الرسولِ ﷺ، ثم معاداتِهِ، وموالاةِ أعدائِهِ، وانتهى بإخراجِهِمْ منَ المدينةِ، ولم تقفْ حلقاتُ الصراعِ عندَ تلكَ الحقبةِ التاريخيةِ، بلِ امتدتْ إلى عصورٍ متلاحِقَةٍ، حتى استطاعَ اليهودُ اغتصابَ أرضِ فلسطينَ، وإقامةَ كيانِهِمُ الزائلِ، فكانَ الصراعُ العقائديُّ الذي انطلقَ منهُ الكيانُ الصهيونيُّ مُجَسِّدًا لأحقادِ اليهودِ، ومعبرًا عن استعلائِهِمْ، ومُشَرِّعًا لاقترافِ أبشعِ المجازرِ ضدَّ شعبٍ متجذرٍ في أرضِهِ، ومتشبثٍ بِها.

وقد حفلتْ روايةُ "المباهلةِ" بصورٍ واقعيةٍ ودقيقةٍ لصراعِ المسلمينَ واليهودِ العقائديِّ، إذ تدورُ بعضُ فصولِها على أرضِ فلسطينَ المُحتلةِ.

يعرضُ لنا الراوي صورًا عديدةً لهذا الصراعِ عبرَ مواقفَ سرديةٍ وحواريةٍ، يطالعُها المتلقي منذُ الصفحاتِ الأولى في روايةِ "المباهلةِ"؛ متمثلةً بحرصِ جَدِّ (أسعد) على أنْ يُوَرِّثَ حفيدَهُ عقيدةَ التمسكِ بالمسجدِ الإبراهيميِّ –الذي عملَ اليهودُ على الاستيلاءِ عليهِ– منذُ نعومةِ أظفارِهِ، يسردُ الراوي ذلكَ: "ويصطحبُهُ معَهُ للصلاةِ في الحرمِ الإبراهيميِّ رابعِ الأماكنِ المقدسةِ عندَ المسلمينَ، تحتضنُهُ بمودةٍ ووفاءٍ جبالُ الخليلِ، وتحيطُ بهِ قراها العامرةُ، تحرسُهُ من زَيْفِ المُدَّعينَ"[2].

ويؤكدُ الروائيُّ ذلكَ الحرصَ على التزييفِ والاعتداءِ الغاشمِ باسمِ العقيدةِ التلموديةِ الفاسدةِ: "ومهما تجرأَ الغزاةُ على التاريخِ فأمَعَنوا في التشويهِ والتحريفِ، فلا عجبَ فلقدَ ذهبوا أبعدَ من ذلكَ حتى امتدتِ الأيدي الآثمةُ إلى كتبِهِمُ المقدسةِ؛ فحذفوا ما عارضَ الطمعَ والمصلحةَ، وأضافوا ما وافقَ الهوى حتى وصلَ الأمرُ لابتداعِ التلمودِ الذي تَتَبَرَّأُ من نصوصِ حقدِهِ السماءُ وتئنُ من وجعِ عنصريتِهِ أرضُ الأنبياءِ"[3].

فقدَ عَمِلَ اليهودُ على طمسِ معالمِ المكانِ المقدسِ الرابعِ للمسلمينَ، باستيلائِهِمْ على قبورِ الأنبياءِ التي يضمُّها الحرمُ الإبراهيميُّ، وتحويلِ جزءٍ كبيرٍ منه إلى كنيسٍ يهوديٍّ، انطلاقًا منْ عقيدتِهِمُ الزائفةِ ونصوصِهِمُ المحرفةِ، ويظهرُ لنا النصُّ حُبَّ المسلمينَ العميقَ للحرمِ، وارتباطَهُمْ بِهِ، وتضحيتَهُمْ في سبيلِ حمايتِهِ.

---

(1) يقول تعالى: ﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴿٨٩﴾ ﴾ سورة البقرة، الآية (٨٩).

(2) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ٢٣.

(3) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

وتؤكدُ لنا الكتبُ التاريخيةُ الحديثةُ حقيقةَ هذا التزييفِ والادعاءِ الكاذبِ الذي مارسَهُ اليهودُ الغاصبونَ على الحرمِ الإبراهيميِّ، فيشيرُ محمد عبد الرحمن في كتابِه "قصةُ مدينةِ الخليلِ" إلى العدوانِ الغاشمِ والمستمرِ الذي يهدفُ إلى تحويلِ الحرمِ بأكملِهِ إلى كنيسٍ ومعبدٍ يهوديٍّ: لم تراعِ سلطاتُ الاحتلالِ المشاعرَ الدينيةَ لسكانِ الأراضي المحتلةِ، فقد حولَّتْ أجزاءً كثيرةً منَ الأماكنِ والمقدساتِ الدينيةِ إلى أماكنَ عبادةٍ لليهودِ دونَ وجهِ حقٍّ، مثالُ ذلكَ تعرضُ الحرمِ الإبراهيميِّ الشريفِ للتهويدِ، وذلك بتحويلِهِ إلى معبدٍ لهمْ، حيثُ وضعوا في داخلِهِ خزانةً بها كتبُهُمُ الدينيةُ، كما وضعوا لافتاتٍ على أضرحةِ الأنبياءِ باللغةِ العبريةِ، مع تخطيطٍ لإنشاءِ كنيسٍ يهوديٍّ في فناءِ المُدَرَّجِ، الذي يصعدُ للحرمِ الشريفِ(١). وقد ذكرَ الروائيُّ تفاصيلَ العدوانِ على الحرمِ ومحاولةِ طمسِ معالمِهِ وتهويدِهِ بالكليةِ في ثنايا روايَتِه(٢).

هناكَ صورةٌ أخرى لحقيقةِ الصراعِ مثَّلَتِ المنطلقُ له، إذِ شكلتْ مجزرةُ الحرمِ الإبراهيميِّ بؤرةَ الصراعِ روائيًّا، فنقلَ الراوي على لسانِ (غولدشتاين) العديدَ منَ الصورِ السرديةِ والحواريةِ والنصيةِ، فقد شُحنتْ روحُهُ وأعماقُهُ بالحقدِ والكراهيةِ ضدَّ أهلِ فلسطينَ، وكانتِ العقيدةُ التوراتيةُ محفزَهُ في ذلك، يقولُ الراوي: "ثمَّ يقفُ معَ نفسِهِ متأمِلًا المعنى، فيتعززُ بداخلِهِ الإيمانُ بحرمةِ السلامِ، وأنَّ سكانَ تلكَ البلادِ ليس أمامَهُمْ سوى القتلِ أو الطردِ، كما سمعَ الأحبارَ في المدرسةِ والكنسِ يؤكدونَ، وأدركَ لماذا يحرصُ المستوطنونَ اليهودُ على قطعِ وإتلافِ شجرِ الزيتونِ؛ إنه تنفيذٌ وطاعةٌ لأوامرِ الربِّ!"(٣).

ولمْ يغفلِ الكاتبُ عن إظهارِ صورةِ والدَيْ (غولدتشاين)، يصفُ لنا روحَ المجرم التي امتلأتْ بعقيدةِ القتلِ والدمارِ، وتظهرُ وقوفَهُما وراء شحنِها: "يتنهدُ بارتياحٍ عميقٍ، فالعقلُ والقلبُ غايةٌ في الانسجامِ، فلا أدنى تململٍ أو اضطرابٍ، فيغادرُ ووالديْهِ الكُنُسَ؛ وهم يترنمونَ بصوتٍ واحدٍ نصًّا جاءَ في سفرِ التثنيةِ"(٤): "وأما مدنُ هؤلاءِ الشعوبِ التي يعطيكَ الربُّ إلهُكَ نصيبًا؛ فلا تَسْتَبْقِ منهمْ نسمةً"(٥).

فهم ينتشونَ بالنصوصِ التي تدعو إلى إهلاكِ الشعوبِ وإبادتِها، مما يدلُّ على تَرَسُّخِ العقيدةِ الإجراميةِ في نفوسِهم، وانغراسِها في أعماقِ الفتى الذي سيغدو واحدًا من كبارِ السفاحينَ.

---

(١) يُنظر: محمد عبد الرحمن، قصة مدينة الخليل، ط١، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، د.ت، ص٢٤.

(٢) يُنظر: خلوصي عويضة، المُباهلة، ص٢٤.

(٣) المصدر السابق، ص٢٩.

(٤) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٥) الكتاب المقدس، سفر التثنية: الإصحاح ٢٠، العدد ١٦.

صورةُ أخرى ينقلُها الراوي عبرَ شخصيةِ (أنور) الذي لمْ تخدعْهُ أمريكا بديمقراطيتِها، ولم تنسِهِ رفاهيةُ العيشِ ولا علاقتُهُ الحميميةُ معَ عشيقتِهِ حقيقةَ هذا الصراعِ، فتكشَّفَ لهُ التاريخُ الأسودُ لتلكَ الأمةِ، يقولُ (أنور): "إنَّ تاريخَ اليهودِ سيدتي غيرُ مشرفٍ ألبتةَ، بل حافلٌ بالبشاعةِ والدمَويةِ، حتى -إنهم- ارتكبوا أحطَّ جريمةٍ في تاريخِ البشريةِ بقتلِ المسيحِ عيسى وزكريا ويَحيى، وإنَّ مَنْ كان تاريخُه ممهورًا بدَمِ الأنبياءِ لا يستطيعُ أن يتهمَ غيرَهُ"[١].

في المقابلِ نجدُ شخصيةَ (إيزابيل) تجسدُ صورةً حقيقيةً لهذا الصراعِ في المجتمعِ الأمريكيِّ حينما يسألُها (أنور): "لماذا استخدمتِ تعبيرَ أرضِ الميعادِ معَ أنكِ قدمتِ نفسَكِ بالعلمانيةِ حدَّ كراهيةِ الأديانِ"؟ فتجيبُهُ: "نعمْ صحيحٌ، وأنا كما أنا، مجردُ تعبيرٍ نستخدمُهُ نحن يهودَ المهجرِ للتكفيرِ عن عدمِ هجرتِنا لإسرائيلَ، إنه كلامٌ عابرٌ لا ينطوي على مضمونٍ نفسيٍّ حقيقيٍّ"[٢].

هذه الصورةُ تظهرُ أثرَ العقيدةِ اليهوديةِ المحرفةِ في نفوسِ اليهودِ خارجَ كيانهم، بالرغمِ منَ انغماسِهِمْ في المجتمعِ الأمريكيِّ إلا أنهم لم ينسوا (أرضَ الميعادِ)!، ويسعونَ إلى بذلِ أنفسِهِمْ لها، مُكَفِّرينَ بذلك عن عدمِ إقامتِهِمْ بها وهجرتِهِمْ لها، فهي تعملُ عبرَ المخابراتِ الأمريكيةِ لخدمةِ دولتِها الأمِّ.

ومما سبقَ يتضحُ تركيزُ الكاتبِ على تصويرِ معالمِ الصراعِ بينَ المسلمينَ واليهودِ، إذ شكَّلَ هذا الصراعُ محورًا من المحاورِ الرئيسةِ في روايةِ "المباهلة"، التي تبدأُ أحداثُها مُصَدَّرَةً بهذا الحقدِ، الذي تتصاعدُ وتيرتُهُ عبرَ توالي السردِ.

٣- الصراعُ بينَ المسلمينَ والنصارى:

ظلتِ العلاقةُ منذُ ظهورِ الإسلامِ معَ الرومِ والممالكِ النصرانيةِ علاقةً مضادةً محكومةً بالعداءِ والحروبِ المتواصلةِ، كالحروبِ الصليبيةِ، واحتلالِ البلدانِ الإسلاميةِ والعربيةِ، وزرعِ كياناتٍ مستقلةٍ تَدينُ بولائِها للغربِ الصليبيِّ، وتعملُ على بثِّ السمومِ والنزاعاتِ في بلادِ المسلمينَ.

وتميزَ الصراعُ الإسلاميُّ معَ النصرانيةِ المحرفةِ بعمقِهِ الدينيِّ ودوافعِهِ العقائديةِ، وأبعادِهِ التاريخيةِ القديمةِ، وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ النصرانيةَ المرادةَ هي النصرانيةُ المحرفةُ التي تجعلُ من شريعةِ النصارى الأصيلةِ ستارًا لها. يلقي محمد الغزالي الضوءَ على حقيقةِ هذا الصراعِ: "وحاشا للنصرانيةِ التي جاءَ بها عيسى ابنُ مريمَ أن تكونَ سرَّ هذا الحيفِ، إن الصليبيةَ المعتديةَ ليست إلا وثنيةً أخفتْ طبيعتَها في غلافٍ سماويٍّ، غير أنَّ هذا الإخفاءَ ما لبثَ أنْ تلاشى، ودلَّ السلوكُ الشائنُ على أنَّ

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٨٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥١.

المستعمرينَ ليس لهمْ دينٌ إلا دينَ السطوِ والفتنةِ، وعيسى وسائرُ الأنبياءِ أبرياءُ من هذا الظلمِ المبينِ"[1]. فالصليبيةُ التي تهيمنُ على الغربِ تختلفُ اختلافًا جذريًّا عن نصرانيةِ عيسىعليه السلام، لكنَّ الرهبانَ والقساوسةَ الصليبيينَ اجتهدوا بالتدليسِ، وخلطِ الأمورِ، ونسجِ صلةٍ جديدةٍ مزيفةٍ بين الصليبيةِ وتعاليمِ المسيحِ؛ حتى يعطوا شعاراتِهم الخبيثةَ شيئًا من قداسةِ المسيحِ عيسىعليه السلام.

جاءَ الصراعُ العقديُّ في روايةِ المباهلةِ بينَ الشخصياتِ التي تتبنى الرؤيةَ الأيديولوجيةَ الدينيةَ الإسلاميةَ مثلَ (أسعد) و(عادل) و(الدكتور هادي)، وبينَ الشخصياتِ التي تحملُ الفكرَ الغربيَّ الاستعماريَّ مثلَ (إيزابيل) و(مايكل) و(سارة) و(إدوارد).

يركزُ الروائيُّ خلوصي عويضة على ذكرِ الحروبِ الصليبيةِ، ومدى تأثيرِها على سلوكياتِ شخصياتِهِ، فـ(أسعد) و(عادل) و(هادي) يعدونَ هجماتِ الغربِ امتدادًا تاريخيًّا لتلكِ الحروبِ، وهذا بدورِهِ أدى إلى تنامي هذهِ الأفكارِ العدائيةِ للاحتلالِ، يسردُ الراوي: "ربما استعادوا منَ الذاكرةِ المطويةِ المخبَّأةِ لحينِ الحاجةِ إليها وقائعَ الحروبِ الصليبيةِ، وكيفَ ولغَ فرسانُ الهيكلِ بسنابكِ خيلِهِمْ في دماءِ المسلمينَ يومَ ذبحوا سبعينَ ألفًا في القدسِ وحدَها، زاعمينَ وَفْقَ نصوصٍ دينيةٍ أنهم يمثلونَ أوامرَ الربِّ، متزلفينَ إليه بهذا البحرِ منَ الدماءِ قربانًا وخشوعًا"[2].

إنَ استدعاءَ قصةِ المذبحةِ الشهيرةِ التي اقترفَها الصليبيونَ في بيتِ المقدسِ في حملتِهِمُ الصليبيةِ وقتلِهِمْ للمسلمينَ وسكانِ القدسِ بتلكِ الطريقةِ، واعتبارِ ذلك تقربًا وتنفيذًا لأوامرِ الربِّ –كما يزعمونَ؛ يؤكدُ لنا فكرةَ العداءِ العقديِّ التي يحملُها الغربُ تجاهَ المسلمينَ.

وقد تجددَ هذا العداءُ الذي أذكتْهُ الصليبيةُ الحاقدةُ والنصرانيةُ المحرفةُ معَ المراحلِ الأولى لاحتلالِ العراقِ سنةَ ٢٠٠٣م، فيصفُ (أسعد) القصفَ الأمريكيَّ وفظاعتَهُ بحقِّ العراقيينَ بالموتِ القادمِ من خلفِ المحيطاتِ النابعِ من حقدٍ صليبيٍّ دفينٍ، يقول: "فإذا الموتُ القادمُ برًّا وبحرًا وجوًّا من وراءِ المحيطِ، والمحيطُ يغتالُ الأحلامَ، يحرقُها بنارِ حقدٍ تأججتْ في القلوبِ، وأرهقَ كاهلَها إرثُها منَ البغضاءِ حتى عَجزَ مكرُ السياسةِ وخبثُ لؤمِها عن مداراتِهِ؛ فنطقتْ –بذلك– ألسنٌ متربعةٌ على عرشِ القيادةِ، ثم حاولتْ بوحيِ الإشارةِ من حكماءِ صهيونَ الاعتذارَ عن (زَلّةِ اللسانِ)! وهل يزلُّ اللسانُ إلا بما ينبضُ بهِ القلبُ، ويشغلُ العقلَ؟!"[3]. فـ(أسعدُ) يستشهدُ بالعبارةِ الشهيرةِ للرئيسِ الأمريكيِّ (جورج بوش الابنِ) التي قالَها بعدَ أحداثِ الحادي عشرَ من سبتمبرِ ٢٠٠١م، بأنه: "سيخوضُ حربًا

([1]) محمد الغزالي، الاستعمار أحقاد وأطماع، ط٤، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص١٠.

([2]) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٧.

([3]) المصدر السابق ، ص١٦٢.

صليبيةً مقدسةً، وهذا يدلُّ على أنه يقصدُ ما يقولُ، وليس زلةَ لسانٍ كما حاولَ بعضُ الساسةِ تبريرَه"[١].
ومن ذلكَ يتضحُ لنا البعدُ الدينيُّ للصراعِ الذي يحركُ الغربَ تجاهِ المسلمينِ.

وفي موقفٍ آخرَ نجدُ أنَّ عجلةَ الأحداثِ تدفعُ (أسعد) إلى التفكيرِ في الجانبِ المعاكسِ والمضادِ للمحتلِ، وتشحنُهُ بشكلٍ قويٍّ ضدَّ الاحتلالِ، فيتجهُ للانضمامِ إلى الجماعاتِ الدينيةِ المسلحةِ، ويبايعُ على قتالِ الصليبينَ وأعوانِهمُ انطلاقًا من أيديولوجيةٍ دينيةٍ مشحونةٍ بالمواقفِ والمشاهدِ الداميةِ التي اقترفَها الاحتلالُ الأمريكيُّ بحقِّ المسلمينَ، يقول (أسعد): "بسم الله الرحمنِ الرحيمِ أبايعُ أميرَنا المفدى المجاهدَ البطلَ أبا قتادةَ البغداديَّ على السمعِ والطاعةِ في العسرِ واليُسرِ، في الشدةِ والرخاءِ، في المكرهِ والمنشطِ وعلى القتالِ في سبيلِ الله ضدَّ الصليبينَ والفرسِ وعملائِهِمْ وحلفائِهِمْ أيًّا كانوا، ومهما كانوا في العددِ والعدةِ حتى الموتِ"[٢].

فهوَ ينطلقُ لقتالِ الاحتلالِ الأمريكيِّ متسلحًا بتلكَ الرؤيةِ والأيديولوجيةِ الدينيةِ المبنيةِ على قاعدةِ العداءِ والصراعِ مع المحتلِّ النصرانيِّ، ويؤكدُ ذلك مرةً أخرى، بقولِه: "انقضتْ شهورٌ عدةٌ ونحن في صولاتٍ وجولاتٍ، نقارعُ الأمريكانَ، نستدرجُهُمْ إلى فخاخِ الموتِ الزؤامِ"[٣]. وبعدما تتضحُ الصورةُ له، ويتيقنُ من عداءِ جميعِ الأطرافِ تجاهَ المُكَوِّنِ السنيِّ تحديدًا، نراهُ يعقبُ بقولِهِ: "لكنني أحاربُ أقوامًا يسعونَ لاستئصالِ شأفتي ومحوي من الوجودِ لدواعٍ دينيةٍ طائفيةٍ تاريخيةٍ لكنهمْ بِدَهاءِ التُّقْيَةِ[٤] يُلْبِسون حربَهُمْ على أمثالِنا ثوبًا سياسيًّا ممزقًا ومرقعًا، والصليبيونَ واليهودُ كذلكَ، فقد برهنتِ الحوادثُ ألا فرقَ، بل هم يَدٌ واحدةٌ"[٥].

يُلاحَظُ أنَّ الدافعَ العقديَّ الممزوجَ بالعداءِ التاريخيِّ كان من أهمِّ الدوافعِ التي دفعتِ الغزاةَ المعتدينَ لشنِّ حروبِهِمْ على المسلمينَ. "الجميعُ يعرفُ أنَّ هناكَ توافقًا بروتستانتيًّا صهيونيًّا عقديًّا، فهناك وَحدةٌ بينهمْ في مختلفِ الأهدافِ، وفي المصيرِ"[٦].

أما (أنور) الذي عاشَ في الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ أحداثَ سبتمبرَ ٢٠٠١م، وما تلاها، فقد كانتْ تجمعُهُ صداقةٌ متينةٌ معَ صديقِهِ (إدوارد) الذي استضافَهُ للعملِ في الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ، وقدّمَ له الكثيرَ من المزايا والتسهيلاتِ، كما جمعتْهُ بهِ علاقةٌ أسريةٌ، لكنها سرعانَ ما تفككتْ بعدَ مقتلِ

---

(١) يوسف العبيري، الحرب الصليبية على العراق، ط١، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، العراق، د.ت، ص٦.

(٢) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٦٣.

(٣) المصدر السابق، ص٢٣٦.

(٤)التُّقية: مصطلح ديني، وهي إخفاء معتقد ما خشية الضرر المادي أو المعنوي، وأن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن.

(٥) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٨٦.

(٦) يوسف العبيري، الحرب الصليبية على العراق، مرجع سابق، ص٦.

ابنةِ (إدوارد) في تلكَ الأحداثِ، ليطفوَ على السطحِ ما كان مختفيًا من صراعٍ، يقولُ الراوي على لسانِ (سارة) زوجةِ (إدوارد): "صرختْ بعدوانيةٍ: أنتمُ المسلمونَ قتلةٌ، إرهابيونَ، لا ترحمونَ صغيرًا ولا كبيرًا، وتاريخُكُمْ معمّدٌ بالدَّمِ. انطلقتْ بعبارتِها بنبرةٍ تقطرُ وقاحةً، وعداوةً، وتفوحُ منها رائحةٌ عنصريةٌ كريهةٌ قذفَتْ بها في وجههِ"[1]. فإضافةُ عبارةِ "تاريخُكُمْ معمَّدٌ بالدمِ" فيها دلالةٌ على التعبئةِ الفكريةِ التي ينتهجُها المعادونَ للإسلامِ في الغربِ، ويدّعونَ فيها انتشارَ الإسلامِ وتوسعِهِ بحدِّ السيفِ والدمِ. وقد زادتْ قسوةُ المستشرقينَ والكتابِ والمثقفينِ الغربيينِ على الإسلامِ بعدَ أحداثِ الحادي عشرَ من سبتمبرَ ٢٠٠١م، التي حدثتْ في نيويورك وواشنطن، واتهموا الإسلامَ بأنه هو الذي صنعَ الإرهابَ في العالمِ، وأنه انتشرَ بحدِّ السيفِ[2]. وهذا اتهامٌ باطلٌ، فالإسلامُ لا يُكرِهُ أحدًا على الدخولِ فيه، يقول عباس العقاد في كتابِهِ "حقائقُ الإسلامِ وأباطيلُ خصومه": "شاعَ عنِ الإسلامِ أنه دينُ السيفِ، وهو قولٌ يصحُّ في هذا الدينِ إذا أرادَ قائلُهُ أنه دينٌ يفرضُ الجهادَ، ومنه الجهادُ بالسلاحِ، ولكنه غلَطٌ بيِّنٌ إذا أُريدَ به أنَّ الإسلامَ قدِ انتشرَ بحدِّ السيفِ، أو أنه يضعُ القتالَ في موضعِ الإقناعِ"[3].

يواصلُ السردُ الروائيُّ إبرازَ صورة الصراعِ العقائديِّ، وتشكيلَ اللبناتِ، والرؤى الفكريةِ لشخصياتِ الروايةِ، فهذا (هادي)، الطبيبُ النفسيُّ لـ(أسعد) وبعدما التقى به في العراقِ، وتعرَّفَ إلى (محمود) ابْنِ عمِّهِ وأسرتِهِ التي تعرضتْ لإبادةٍ جماعيةٍ على أيدي الحقدِ الطائفيِّ، فقدِ استغلَ الاحتلالُ الأمريكيُّ ذلكَ النزاعَ لنشرِ القتلِ والخرابِ في العراقِ، فعملَ على تأجيجِ المشاعرِ الدينيةِ والنعراتِ القوميةِ والطائفيةِ لخدمتِهِ، الأمرُ الذي أدى إلى أنْ يقودَ (هادي) جماعةً مسلحةً تحتَ إطارِ تنظيمِ الدولةِ الإسلاميةِ، يقولُ (هادي): "لم يجدْ (محمود) أيَّ عناءٍ في إقناعي أنَّ المحتلَ الأمريكيَّ يسهمُ بقوةٍ في إذكاءِ نارِ الأحقادِ المطويةِ في النفوسِ بكلِّ أنواعِها ومسمّياتِها، من طائفيةٍ وقوميةٍ وعرقيةٍ، وبالطبعِ إثنيةٍ دينيةٍ"[4]. كان توظيفُ الاحتلالِ الأمريكيِّ للطائفيةِ أداةً قويةً لإدامةِ الصراعِ والفرقةِ والتشتتِ في المجتمعِ العربيِّ الإسلاميِّ. و"قام النظامُ الإمبرياليُّ الأمريكيُّ بعد احتلالِ العراقِ بتأجيجِ الصراعِ الطائفيِّ، من خلالِ تكريسِ سيطرةِ الطائفةِ الشيعيةِ في العراقِ، وبالتالي اشتعالِ الصراعِ الدمويِّ الطائفيِّ"[5].

---

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٨٠.

(2) ينظر: نبيل بباوي،انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء،ط١،نسخة إلكترونية، القاهرة،٢٠٠٢م، ص٢٥.

(3) عباس العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ط٤، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص١٦٦.

(4) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٩٠.

(5) غازي الصوراني، البعد التاريخي للصراع الطائفي بين الشيعة والسنة، ط١، نسخة إلكترونية، غزة، فلسطين، ٢٠١٦م، ص٩.

٤- الصراعُ بينَ المسلمينَ والمسيحيةِ الصهيونيةِ:

ركزَ الغربُ الاستعماريُّ على حالةِ العداءِ والصراعِ معَ المسلمينَ بشكلٍ عامٍّ، وعلى العربِ بشكلٍ خاصٍّ، وعملتْ بعضُ الكنائسِ الأصوليةِ الإنجيليةِ على نشرِ خطابِ الكراهيةِ والعداوةِ للمسلمينَ، وتقاربتْ بشكلٍ ملحوظٍ معَ اليهودِ، وأدى هذا التقاربُ الكبيرُ إلى ظهورِ ما تُعرفُ بالمسيحيةِ الصهيونيةِ، هذا التقاربُ مبنيٌّ على العديدِ من المعتقداتِ الدينيةِ المشتركةِ، كفكرةِ قيامِ دولةِ إسرائيلَ تحقيقًا لنبوءةِ الكتابِ المقدسِ، ومشروعِ بناءِ الهيكلِ مكانَ المسجدِ الأقصى، وكانت فكرةُ عودةِ اليهودِ إلى أرضِ فلسطينَ حجرَ الأساسِ في فكرِ هذه الجماعةِ. "أدى هذا التلاقي إلى دفعِ الأحداثِ في الشرقِ الأوسطِ باتجاهِ تجميعِ اليهود في فلسطينَ ليس أملًا بتحقيقِ نبوءةٍ دينيةٍ بالعودةِ الثانية للمسيحِ فقطْ، إنما رغبةً في توظيفِ هذا التجميعِ لإقامةِ كيانٍ ودولةٍ تكونُ رأسَ جسرٍ لحمايةِ المصالحِ الاستراتيجيةِ لبريطانيا ثم للولاياتِ المتحدةِ"[١].

وكان العداءُ على الإسلامِ من أهمِّ الركائزِ الأساسيةِ لتشكيلِ المسيحيةِ الصهيونيةِ. "كان العداءُ والرغبةُ في قهرِ العربِ منَ العواملِ الرئيسةِ التي شجعتِ الصهيونيةَ المسيحيةَ على تجاهلِ الحقوقِ الطبيعيةِ الشرعيةِ للفلسطينيينَ، فالشعارُ الذي رُفِعَ منذُ منتصفِ القرنِ التاسعَ عشرَ، والذي يقولُ عن فلسطينَ: إنها أرضٌ بلا شعبٍ، لشعبٍ بلا أرضٍ، ينكرُ حتى وجودَ الشعبِ الفلسطينيِّ بمسلميهِ ومسيحيِّيهِ على حدٍّ سواءٍ"[٢].

وقد سعتِ المسيحيةُ الصهيونيةُ إلى حشدِ الدعمِ والتأييدِ بكلِّ أشكالِهِ وأنواعِهِ للدولةِ الصهيونيةِ، وجعلتْ ذلك نابعًا من عقيدةٍ دينيةٍ صرفةٍ. "فالدفاعُ عنْ إسرائيلَ ليسَ مجردَ عملٍ عسكريٍّ يتمُّ بقرارٍ سياسيٍّ، وربطُ الدفاعِ عن إسرائيلَ بعقيدةٍ دينيةٍ يجعلُ أيَّ اعتراضٍ، أو أيَّ عرقلةٍ للدفاعِ عنها ومؤازرتِها اعتراضًا على إرادةٍ إلهيةٍ"[٣]. وهذا كلُّهُ نابعٌ منْ إيمانٍ ذاتيٍّ يقومُ على اعتبارِ أنَّ وجودَ إسرائيلَ يعبرُ عنْ إرادةِ الإلهِ ويجسدُها، فالعقيدةُ القتاليةُ تنطلقُ منْ معتقداتٍ دينيةٍ مشتركةٍ.

في بدايةِ أحداثِ روايةِ "المُباهلة" تطالعُنا صورةُ الصراعِ والعداءِ التي قادتَها المسيحيةُ الصهيونيةُ متمثلةً بالتغذيةِ الروحيةِ والتنشئةِ الفكريةِ المبكرةِ لـ(باروخ غولدشتاين) مُذْ كانَ طفلًا صغيرًا، يقولُ الراوي: "نشأَ (بنيامينُ) طفلًا صغيرًا لعائلةٍ يهوديةٍ أرثوذكسيةٍ متزمتةٍ، جمعتْ بينَ التعصبِ الأعمى حدَّ التطرفِ المقيتِ، والانغلاقِ على الذاتِ، إنها عائلةٌ (غولدشتاين) الأمريكيةِ اليهوديةِ الصهيونيةِ"[٤].

([١]) محمد السماك، الصهيونية المسيحية، ط٤، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٤م، ص٢.

([٢]) المرجع السابق، ص١٩.

([٣]) المرجع السابق، ص٣.

([٤]) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٥.

كان حرصُ والدِيْ (باروخ غولدشتاين) مُنصبًّا على زرعِ الحقدِ الدينيِّ، الذي بدورِهِ حولَها فيما بعدُ إلى ترجمةٍ فعليةٍ في مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ، يقولُ الراوي: "وهكذا نشأَ لأبوينِ يكرهانِ الحياةَ ذاتَها، فحَرَصا على تسميمِ قلبِهِ، وغرسِهِ ببذورِ الحقدِ، ربما لأنَّ أيامَهُما لمْ تأذنْ بعدُ ببناءِ الهيكلِ الثالثِ، وخرابِ بيتِ المقدسِ؛ مما ملأَ قلوبَهُمْ بعداوةٍ طافحةٍ"[1]. ومِنْ ثَمَّ التحقَ (غولدتشاين) بمدرسةِ –يشيف– المتطرفةِ التي عمّقتِ الحقدَ الدينيَّ على المسلمينَ في نفسيتِهِ، يقولُ الراوي: "ولم تألُ الإدارةُ ومدرسوها جهدًا في زيادةِ منسوبِ الحقدِ لأسبابٍ دينيةٍ، فهي أصلًا تُعْنى بتخريجِ المتزّمّتينَ والمتطرفينَ العقائديينَ منَ اليهودِ، لهذا تنفقُ عليها المنظماتُ اليهوديةُ الأمريكيةُ المتربعةُ على عرشِ المالِ والإعلامِ بسخاءٍ يفوقُ الجودَ والكرمَ"[2].

يتضحُ مما سبقَ من مواقفَ ومشاهدَ ارتبطتْ بشخصيةِ (باروخ غولدتشاين) مدى تأثيرِ الحقدِ الدينيِّ الذي غذَّتْهُ المسيحيةُ الصهيونيةُ تجاهَ المسلمينَ.فقد كانَ (غولدشتاين) منفذُ المذبحةِ عضوًا بارزًا في منظمةِ –كاخ– التي هي حركةٌ عنصريةٌ حافلةٌ بالإرهابِ منذ إنشائِها وليسَ ذلكَ مجهولًا لأحدٍ [3].

وتبينُ المقابلةُ الأخيرةُ التي جرتْ بينَ (غولدشتاين) قبيلَ مذبحةِ الحرمِ الإبراهيميِّ بأيامٍ قليلةٍ وبينَ الصحفيِّ الأمريكيِّ (توم روبارتس) فكرةً واضحةً عن تفكيرِ ما يسمونَهُ بالأصوليينَ الجددِ، ففي معرضِ حديثِ (غولدشتاين) عنِ العربِ والمسلمينَ وطريقةِ التعاملِ معهم أكدَ الطبيبُ في جديةٍ صارمةٍ هذهِ العباراتِ: "هناكَ وقتٌ للكشفِ والعلاجِ في العيادةِ، وهناكَ وقتٌ للقتلِ، وهما متلازمانِ، ونحنُ لنْ نتركَ الخليلَ مهما يكنْ منْ أمرٍ، إننا نغُشُّ أنفسَنا عندما نفكرُ بإمكانيةِ التعايشِ معَ العربِ، إنه غيرُ ممكنٍ، إنهمْ وباءٌ ومرضٌ، والجيشُ الإسرائيليُّ يخطئُ عندما يَحولُ بيننا وبينَ الانتقامِ منهم، وعندما يمنعُنا من تخويفِهِم، لا بدَّ وأنْ نطردَهُمْ، إنهم نازيو اليومِ"[4].

عملتِ المنظماتُ الدينيةُ المسيحيةُ على استغلالِ المعتقداتِ التوراتيةِ القديمةِ، فدعمتِ الكنائسُ المتشددينَ الصهاينةَ، ولم يكنِ الدعمُ صدفةً، إنّما هو نابعٌ من إيمانٍ راسخٍ عندَ الإنجيليينَ الأصوليينَ بأنَّ مساعدتَهُمْ لليهودِ ستحققُ النبوءةَ التوراتيةَ، يقولُ الراوي: "هكذا تحتضنُ الكنائسُ وترعى الصهيونيةَ المسيحيةَ، فهم يعتقدونَ أنَّ قيامَ إسرائيلَ هو تحقيقٌ لنبوءةِ العهدينِ القديمِ والجديدِ، تمهيداً لعودةِ المسيحِ إلى الأرضِ كفاتحٍ أو ملكٍ مظفرٍ، يُفني تمامًا غيرَ المسيحيينَ، ويُعظِّمُ الصليبَ، لهذا نجدُ اليمينَ المسيحيَّ يتحالفُ مع مثيلِهِ اليهوديِّ؛ لإيمانِهِ بما يسمونَهُ (لاهوتُ الاستبدالِ المسيحيِّ) أيْ

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٥.

(2) المصدر السابق، ص٢٦.

(3) محمد السمان، حسن عاشور، مذبحة الحرم الإبراهيمي، ط١، دار الاعتصام، القاهرة، د.ت، ص٢٤، بتصرف.

(4) المرجع السابق، ص٢٥.

استبدالُ الكنسِ بالكنائسِ"[١]، وفي ذلك تقولُ الكاتبةُ الأمريكيةُ الشهيرةُ (جريس هالسل) في كتابِها "النبوءةُ والسياسةُ": "إنَّ الإيمانَ بعودةِ السيدِ المسيحِ، وبأنَّ هذهِ العودةِ مشروطةٌ بقيامِ دولةِ صهيونَ، وبالتالي بتجميعِ اليهودِ في أرضِ فلسطينَ، لعبَ في الماضي، ويلعبُ اليومَ، دورًا أساسيًّا في صناعةِ قرارِ قيامِ إسرائيلَ، وتهجيرِ اليهودِ إليها، ومن ثمَّ دعمِها ومساعدتِها"[٢].

وفي حوارِ (عادل) معَ (أسعد) بعدما أمضيا مدةً طويلةً في معارِكِهِمُ المضنيةِ معَ أعدائِهِمْ من الشيعةِ والاحتلالِ الأمريكيِّ، يوضحُ (عادل) لـ(أسعد) أنَّ العداءَ ليسَ معَ كلِّ النصارى إنَّما معَ منْ يناصرُ اليهودَ الصهاينةَ، ويحاربُ المسلمينَ في حقِّهِمْ وبلادِهِمْ، يقولُ (عادل):

"كنا في العراقِ بصددِ إبادةٍ جماعيةٍ لطائفةِ الحقِّ الذينَ هم الأكثريةُ هنا وهناك، فكيفَ نرضى لشرذمةٍ تكاتفتْ وتكالبتْ معَ الأعداءِ الأصليينَ بهدفِ استئصالِنا؟!

- أتعني بالأعداءِ الأصليينَ اليهودَ والنصارى؟
- أقصدُ اليهودَ الصهاينةَ، ومسيحيّي الغربِ الداعمينَ في مجملِهِمْ لليهودِ ضدَّ حقِّنا في أرضِنا"[٣].

أما شخصيةُ (أمير أغا) أحدُ قادةِ المجاهدينَ في أفغانستان فتظهرُ رؤيتَهُ الدينيةَ للصراعِ معَ الصهيونيةِ المسيحيةِ، وذلكَ في حوارِهِ معَ (أنور) الذي سافرَ إلى أفغانستانَ باحثًا عنِ ابنِهِ سامي، ومنفِّذًا لمهمةٍ خاصةٍ للاحتلالِ الأمريكيِّ، وبعدَما يتعرفُ إلى (أنور) وحالِ أسرتِهِ المشتتةِ بشكلٍ خاصٍّ، وموقفِ السياسةِ الأمريكيةِ العدائيةِ تجاهَ بلادِهِ فلسطينَ، يقولُ (أمير أغا) ساخطًا: "يهودٌ كفارٌ ملعونونَ مطرودونَ من رحمةِ الله، ستأتي السكينُ على رقابِهِمُ السمينةِ، سواءٌ حينَ أو قبلَ أنْ ينطقَ الشجرُ والحجرُ: تعالَ يا مسلمُ ورائي يهوديٌّ فاقتلْهُ وأرحْني منهُ، ومسيحيونَ صليبيونَ مأجورونَ يقتلونَ بالوكالةِ لصالحِ يهودَ الذينَ يركبونَ أكتافَهُمْ منذُ القدمِ، كلُّ هؤلاءِ يَدٌ واحدةٌ؛ حلفٌ معَ الشيطانِ ضدَّ المسلمينَ السنّةِ"[٤].

فاستدعاءُ الكاتبِ لحديثِ رسولِ اللهِ ﷺ، عن أبي هريرةَ ﷺ عنِ رسول اللهِ ﷺ، قال: "لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى تُقَاتِلُوا اليَهُودَ، حتَّى يَقُولَ الحَجَرُ وراءَهُ اليَهُودِيُّ: يا مُسْلِمُ، هذا يَهُودِيٌّ وَرائي فاقْتُلْهُ"[٥] على لسانِ (أمير أغا) يؤكدُ الأيديولوجيا الدينيةَ التي بنى عليها الكاتبُ شخصياتِهِ، فـ(أمير أغا) لا

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٦.

(٢) جريس هالسل، النبوءة والسياسة، ترجمة: محمد السماك، ط٣، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١١.

(٣) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٤٩.

(٤) المصدر السابق، ص٢٢٢.

(٥) صحيح البخاري، حديث رقم : ٢٧٦٨، ص ١٠٧٠.

يقتصرُ كلامُهُ على اليهودِ فحسبُ، بل يشملُ أعوانَهُمْ منَ المسيحيةِ الصهيونيةِ الذينَ تحالفوا جميعًا ضدَّ المسلمينَ السنةَ تحديدًا.

ويصلُ الكاتبُ إلى حقيقةٍ ثابتةٍ تؤكدُ عداءَ المسيحيةِ الصهيونيةِ للمسلمينَ، وإنكارَهِمْ لتعاليمِ المسيحِ عيسى عليه السلام، يقولُ الراوي: "هؤلاءِ المسيحيونَ المتصهينونَ نبذوا وراءَ ظهورِهِمُ النصوصَ الإنجيليةَ التي تدعو إلى المحبةِ والسلامِ والوئامِ والتسامحِ، كتراتيلِ كنائسِ المهدِ والقيامةِ والناصرةِ ودمشقَ وبغدادَ والقاهرةِ والشرقِ عمومًا، ولم يُلقوا بالًا لقولِ الكنيسةِ الأمِّ في روما[1]: "إن تعاليمَ المسيحيةِ مبنيةٌ على أساسِ التسامحِ"، وتجاهلوا أو لعلَهُمْ أنكروا موعظةَ المسيحِ: "لا تقاوموا الشرَّ بالشرِ، بلْ منْ لطمَكَ على خدِّكَ الأيمنَ فحوِّلْ له الآخرَ" [2].

٥- الصراعُ بينَ اليهودِ وغيرِهِمْ منَ الأممِ الأخرى:

يرى اليهودُ أنَّ كلَّ الأممِ خُلقتْ لخدمتِهِمْ، فنظرتُهُمْ لغيرِهِمْ نظرةٌ دونيةٌ، قائمةٌ على التمايزِ والاختلافِ. "فاليهودُ شعبٌ شديدُ الحرصِ على التمايزِ عنْ غيرِهِ منَ الشعوبِ، وشديدُ التمسكِ بعنصريتِهِ وانكماشِهِ على نفسِهِ، والنظرِ إلى الآخرينَ كأعداءٍ يجبُ القضاءُ عليهِمْ"[3].

اصطلحَ اليهودُ على تسميةِ غيرِهِمْ منَ البشرِ بمصطلحِ الأغيارِ، ويستمدونَ هذهِ النظرةَ من كتبِهِمُ الدينيةِ المحرفةِ، فهي مبنيةٌ على عقيدةٍ ونصوصٍ تلموديةٍ بحتةٍ، ويعتبرونَ أنَّ أرواحَ غيرِ اليهودِ هي أرواحٌ شيطانيةٌ، وشبيهةٌ بأرواحِ الحيواناتِ، بل كالحميرِ تحديدًا، ويجبُ قتلُها والخلاصُ منها، ومن تلكَ النصوصِ: "اقتلِ الصالحَ من غيرِ الإسرائيليينَ، ومُحَرَّمٌ على اليهوديِّ أنْ يُنَجِّيَ أحدًا من باقي الأممِ منْ هلاكٍ، أو يخرجَهُ من حفرةٍ يقعُ فيها، لأنَّهُ بذلكَ يكونُ حفظَ حياةَ أحدِ الوثنيينَ"[4].

تطالعُنا صورُ الحقدِ والصراعِ بينَ اليهودِ وغيرِهِمْ منذُ بدايةِ أحداثِ روايةِ المُباهلة، وتركزُ على ما كانَ يزرعُهُ الأبُ الروحيُّ الحاخامُ (كاهانا) في عقليةِ تلميذِهِ (باروخ غولدنشاين) من أفكارٍ تُحرضُ على القتلِ والعداءِ لكلِّ البشرِ إلا اليهودَ، يقولُ الرواي: "قرأَ (كاهانا) لـ(غولدشتاين) نصوصًا تلموديةً طالبًا منه فهمَها جيدًا، والعملَ بها بعد حفظِها: "لولا خلقُ الله اليهودَ لانعدمتِ البركةُ في الأرضِ، ولما خُلقتِ الشمسُ، ولا هطلتْ قطرةُ مطرٍ، فالفرقُ بينَ اليهودِ وغيرِهِمْ منْ شعوبِ الأرضِ كالفرقِ بينَ

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٦.

(٢) الكتاب المقدس، سفر متى: الإصحاح ٥، العدد ٣٩.

(٣) عدنان حداد، الخطر اليهودي على المسيحية والإسلام، ط١، دار البيروني، بيروت، ١٩٩٧م، ص٦.

(٤) أغسطس روهلنج، الكنز المرصود في قواعد التلمود، ترجمة: يوسف نصر الله، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٨٩٩م، ص٦٦.

الإنسانِ والحيوانِ"، ضحكَ الطبيبُ قائلًا لأبيهِ الروحيِّ: ما أجملَ وأروعَ وأصدقَ هذا المعنى، فربتَ الأبُ على كتفِ ابنِهِ في العقيدةِ الروحيةِ التلموديةِ مباركًا نباهتَهُ وصدقَ إيمانِهِ"[١].

إنَّ إدراجَ الراوي لنصوصِ التلمودِ على لسانِ الحاخامِ (كاهانا) يعكسُ موقفَ الكاتبِ من اليهودِ ونظرتِهِمُ المتعاليةِ على كلِّ البشرِ. فالفرقُ بينَ درجةِ الإنسانِ والحيوانِ، هو بقدرِ الفرقِ بينَ اليهودِ وغيرِ اليهودِ. والشعبُ المختارُ همُ اليهودُ فقطْ، أما باقي الشعوبِ فَهُمْ حيواناتٌ، ويعتبرُ اليهودُ غيرَ اليهودِ أعداءً لهُمْ [٢].

يعرضُ الراوي موقفًا للحاخامِ يصورُ فيهِ تربيتَهُ لتلميذِهِ على الحقدِ تجاهَ الأغيارِ، قائلًا: "اقتلِ الصالحَ من غيرِ الإسرائيليينَ، فإنَّ مَنْ يقتلُ مسيحيًّا أو أجنبيًّا أو وثنيًّا يكافأُ بالخلودِ في الفردوسِ"[٣]. فيعقبُ الراوي على ذلكَ: "لا شيءَ يسترعي الانتباهَ في قولِهِ أجنبيًّا أو وثنيًّا يعني مسلمًا، إنما اضطربَ القلبُ قليلًا عندَ ذِكْرِ "مسيحيًّا"، فشردَ ذهنُ (بنيامين) مستعيدًا أيامَ مدرسةِ –يشيف– فكأنَّ الأمرَ اختلطَ عليهِ، فأحسَّ بذهولِهِ معلمُهُ؛ فبادرَهُ سائلًا: ما بكَ بُنَيَّ؟ استجمعَ الابنُ شجاعتَهُ الأدبيةَ في حضرةِ معلمِهِ الروحيِّ، وقالَ: ولكنَّ المسيحيينَ حلفاؤُنا، لقدْ تعلمتُ منهمُ الكثيرَ"[٤].

هنا تحدثُ المفارقةُ في هذا الموقفِ عندما يستغربُ (غولدشتاين) من ذكرِ معلمِهِ للمسيحيينَ بالعداءِ، فهمْ مَنْ مهّدوا له الطريقَ، ووفروا لهُ كلَّ السبلِ للهجرةِ إلى أرضِ الميعادِ حسبَ تعبيرِهِمْ وإقامةِ دولتِهِمْ، فالعداوةُ اليهوديةُ للمسلمينَ مؤكدةٌ ولا خلافَ فيها، أما العداءُ معَ المسيحيينَ فهو ما استرعى انتباهَ (غولدنتشاين)، وهذا ما ذكرتْهُ كتبُهُمْ المحرفةُ في العهدِ القديمِ والتلمودِ خاصةً[٥].

ولم يَرُقْ للحاخامِ وصفُ تلميذِهِ للمسيحيينَ بالحلفاءِ، فقالَ ملوِّحًا بإصبعِهِ: "إياكَ والخلطَ بينَنا وبينَهُمْ، إنهم كفارٌ هراطقةٌ، وما تراهُ اليومَ من حولِكَ ألزمتْهُ المصلحةُ فقطْ، التي لنَ تدومَ أبدَ الدهرِ، فعمّا قليلٍ عندما نبدأُ بناءَ الهيكلِ نسودُ العالمَ برمتِهِ، ويعودُ هؤلاءِ خدمًا لنا"[٦]. "فمن ليسَ يهوديًّا هو

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣١.

(٢) يُنظر: أحمد شلبي، مقارنة الأديان (اليهودية)، ط٨، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٢٦٨.

(٣) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣١.

(٤) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٥) ينظر: أغسطس روهلنج، الكنز المرصود في قواعد التلمود، مرجع سابق، ص٦٦.

(٦) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣١.

الذي يجبُ أنْ يعملَ ويعرقَ من أجلِنا، ونحنُ من يجبُ أنْ يجنيَ ثمارَ كدِّهِ، وأرباحَ تعبِهِ، وعرقِهِ؛ كي نصبحَ تدريجيًّا أسيادَ العالمِ"[١].

وقدْ حاولتِ اليهوديةُ التلموديةُ طمسَ المسيحيةِ، والقضاءَ عليها، وخنقَها منذُ نشأتِها وحتى يومِنا هذا، فقدِ اضطهدتِ المسيحَ، وحكمتْ عليه بالصلبِ والموتِ[٢].

وهذا (مارتن لوثر) الأبُ الروحيُّ للكنيسةِ البروتستانتيةِ يقول في كتابِهِ "اليهودُ وأكاذيبُهُمْ" محذرًا المسيحيينَ منَ التعاملِ معَ اليهودِ: "فينبغي لكَ يا صديقي المسيحيَّ، أن تفكرَ فيما أنتَ صانعٌ، إذا ما سمحتَ لهؤلاءِ اليهودِ العُمْيِ أن يضلوكَ السبيلَ، وإياكَ أن تنسى المثلَ القائلَ: "إذا قادَ الأعمى مثلَهُ، فكلاهُما يقعُ في الحفرةِ". وليسَ منَ المستطاعِ أنْ تتعلمَ منَ اليهودِ شيئًا فوقَ ما في حاصلِ علمِكَ"[٣].

تستمرُ مشاهدُ الصراعِ العقديِّ اليهوديِّ ضدَّ الأغيارِ، فيواصلُ الحاخامُ تعزيزَ أفكارِ الحقدِ والاستعلاءِ، وقد استمدَها من نصوصِ التلمودِ، يقولُ الراوي على لسانِ (كاهانا): "استمعْ ما يقولُهُ التلمودُ في أحدِ أهمِّ نصوصِهِ: "الله لا يغفرُ ذنبًا ليهوديٍّ يَرُدُّ لأجنبيٍّ مالَهُ المفقودَ أو المنهوبَ" أفهمتَ الآنَ؟"[٤].

ويعرضُ لنا الراوي أثرَ هذه التربيةِ التلموديةِ في نفسِ التلميذِ (باروخ): "قبَّلَ التلميذُ رأسَ الحاخامِ قائلًا بأدبٍ جمٍّ: فهمتُ سيدي؛ إلى اللقاءِ في أورشليمَ". إنَّ اليقينَ الذهنيَّ الذي يحملُهُ (غولدشتاين) حولَ مسألةِ العداءِ والحقدِ على المسلمينِ وغيرِهِمْ، يدفعُهُ بشكلٍ مطلقٍ إلى تطبيقِ ذلك بالقولِ والفعلِ.

يتبينُ مما سبقَ مدى عدوانيةِ اليهودِ تجاهَ غيرِهِمْ منَ الأممِ، فهم يحملونَ هذهِ الأفكارَ في عقولِهِمْ وأفكارِهِمْ وتصرفاتِهِمْ، وهذا ليس غريبًا عندما نرى المجازرَ التي يرتكبونَها بحقِّ غيرِهِمْ منَ البشرِ، هذهِ الأفكارُ مجتمعةً دفعتْ (باروخ غولدتشاين) لاقترافِ المجزرةِ المروعةِ في الحرمِ الإبراهيميِّ فجرَ يومِ الجمعة الخامسَ عشرَ من رمضانَ منَ العامِ ١٤١٤هـ، الواقع في الخامسِ والعشرينَ من شباطَ منَ العامِ ١٩٩٤م، التي راحَ ضحيتَها تسعةٌ وعشرونَ مصليًّا، ثم ارتفعَ العددُ إلى خمسينَ شهيدًا، وأكثرَ من مائةٍ وخمسينَ جريحًا[٥].

---

(١) عبد الرحمن الدوسري، اليهودية والماسونية، ط١، دار السُّنة، السعودية، ١٩٩٤م، ص٢٤.

(٢) يُنظر: بول مركلي، الصهيونية المسيحية (١٨٩١-١٩٤٨م)، ط٤، ترجمة فاضل جكتر، قدمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤م، ص٢٠.

(٣) يُنظر: مارتن لوثر، اليهود وأكاذيبهم، ط١، ترجمة عجاج نويهض، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٨٤.

(٤) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣١.

(٥) يُنظر: محمد السمان، حسن عاشور، مذبحة الحرم الإبراهيمي، مرجع سابق، ص١١، ص١٦، ص٣٠.

٦-صراعُ الماسونيةِ والبهائيةِ معَ المسيحيةِ والإسلامِ:

سعتِ الجمعياتُ السريةُ العالميةُ المتمثلةُ بالماسونيةِ والبهائيةِ جاهدةً إلى محاربةِ الأديانِ والشرائعِ الدينيةِ، لا سيما المسيحيةُ والإسلاميةُ، وعملتِ الماسونيةُ على ذلكَ منذُ نشأتِها، وجعلتْ عداءَها للأديانِ منْ أهمِّ أهدافِها، وأبقتْ على علاقتِها القويةِ معَ اليهودِ. فأعلنتِ تلكَ الحركةُ عداءَها السافرَ للأديانِ، وروَّجَتْ للإلحادِ، والعقائدِ الكفريةِ، والفلسفاتِ والأفكارِ الماديةِ اللادينيةِ[١].

ولمْ تعدْ جهودُ الماسونيةِ في محاربةِ الأديانِ خافيةً، فهيَ مذهبُ فكريٌّ هدّامٌ، وحركةٌ منْ أخطرِ الحركاتِ التي أفرزَتْها عقليةُ اليهودِ الحاقدةُ لإحكامِ قبضتِها على العالمِ، وحكمِهِ وَفْقَ إرادةِ اليهودِ ومخططاتِهِمْ الرهيبةِ للقضاءِ على الأديانِ والأخلاقِ التي تعارضُهُمْ، سواءٌ أكانوا منَ المسلمينَ أمْ منَ النصارى، فهي: "لا تعترفُ بالأديانِ والقومياتِ، وتهدفُ إلى إزالتِها من الوجودِ، وهذه هي غايتُها الحقيقيةُ"[٢].

ويُلاحَظُ التركيزُ الواضحُ للماسونيةِ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" على محاربةِ الأديانِ ما عدا اليهوديةَ، ويلاحظُ أنَّ بطلَ الروايةِ (نصيف) بعدما يأخذُهُ الزهوُ بالماسونيةِ ومكانتِها وقوتِها العالميةِ ذاتِ البأسِ الشديدِ، فيقولُ مخاطبًا (نجيب): "أذكرُ أنَّ المؤلفَ ختمَ بوثيقةٍ صادرةٍ عنِ المحفلِ البريطانيِّ الذي تأسسَ في العامِ ١٧١٧م، ممّا حفظتُهُ منها مبهورًا أننا نحنُ الماسونَ لا يمكنُنا أنْ نتوقفَ عنْ حربِ المسيحيةِ والإسلامِ؛ لأنه لا مناصَ من ظفرِنا أو ظفرِهِما، وأنَّ الأرضَ كلَّ الأرضِ ميراثُ أحفادِ البنّائينَ الأحرارِ، وأيَّ سلطةٍ على وجهِ الأرضِ غيرَ سلطتِنا فهي مغتصبةٌ يجبُ استردادُها"[٣]. من ذلكَ يظهرُ العداءُ الكبيرُ الذي تضمرُهُ الماسونيةُ للمسيحيينَ والمسلمينَ معًا، فهُمْ يسعونَ لإقامةِ حكومتِهِمُ العالميةِ بزعامةِ اليهودِ أخلصِ حلفائِهِمْ، فيخططونَ ويعملونَ على نشرِ الإلحادِ والفسادِ ومحاربةِ الحضارةِ، والفطرةِ البشريةِ السليمةِ.

وفي موقفٍ آخرَ يُظْهِرُ (كريم) رئيسُ المحفلِ الأعظمِ موقفَهُ لـ(نصيف) حولَ الأديانِ: "دعْكَ منْ هذهِ الهرطقاتِ، والأفضلُ كيْ تنجحَ فيما أنتَ مقدمٌ عليهِ ألا تفكرَ بأمرِ الدينِ هذا نهائيًا، إنَّ الأديانَ اللعينةَ سببُ تخلفِ البشريةِ"[٤].

---

(١) صالح الرقب، واقعنا المعاصر والغزو الفكري، ط١، دار رحمة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠م، ص٢٢٤.

(٢) جواد أتلخان، أسرار الماسونية، د.ط، ترجمة: نور الدين الواعظ، سليمان القابلي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٦.

(٣) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٢١٠.

(٤) المصدر السابق، ص٦٢.

وهكذا فإنَّ العقليةَ التي تبني عليها الماسونيةُ أعضاءَها تقومُ على محاربةِ الأديانِ، واعتبارِها سببَ تخلفِ البشرِ، وهذا منْ أهمِّ المبادئِ والأيديولوجياتِ التي تفرضُها.

وفيما يلي يستعرضُ الباحثُ صورَ العداءِ والصراعِ بين الماسونيةِ والمسيحيةِ والإسلامِ، وذلك في محورين:

أ- محاربةُ الماسونيةِ للمسيحيةِ:

رفضتِ الكنيسةُ الكاثوليكيةُ والأرثوذكسيةُ إقامةَ أيِّ علاقةٍ معَ الماسونيةِ، وعدَّتْ كلَّ منْ ينتمي إلى أحدِ محافلِ الماسونيةِ مُقترِفًا لخطيئةٍ مميتةٍ، أما الكنيسةُ البروتستانتيةُ فقدْ كانتْ علاقتُها بالماسونيةِ علاقةً قويةً مبنيةً على التشاركِ في الأفكارِ والمعتقداتِ. "وقدِ انتشرتِ الماسونيةُ في البلادِ البروتستانتيةِ؛ لأنَّ البروتستانتيةَ هي شكلٌ منْ أشكالِ علمنةِ الكنيسةِ الكاثوليكيةِ"[١].

حاربتِ الماسونيةُ المسيحيينَ الرافضينَ لها بكلِّ السُّبُلِ والوسائلِ، وعملتْ على هدمِ معتقداتِهِمْ، وتدميرِ كنائسِهِمْ من الداخلِ. وأصبحتْ هيَ الأداةَ الكبرى في الحربِ ضدَّ الكنيسةِ[٢]. وفي ذلكَ يقولُ المطرانُ عطا الله حنا: "إنَّ الماسونيةَ الشريرةَ تحاربُ الكنيسةَ في كلِّ مكانٍ، لذا على جميعِ المسيحيينَ أنْ يكونوا يقظينَ وعلى قدرٍ من الوعيِ، كي يدافعوا عنْ حضورِهِمْ، وتراثِهِمْ"[٣].

يذكرُ (نصيف) بطلُ الروايةِ أقوالَ (جاك تيني) حولَ المشروعِ الماسونيِّ الذي واجهَ المسيحيةَ في فرنسا: "فبعدَ أنْ يُوْرِدُ معطياتِ الحربِ الضروسِ التي خاضَها أجدادُنا الماسونُ لتحطيمِ عرشِ الكنيسةِ الكاثوليكيةِ، وإذلالِها بَدْءًا من تحويلِ فرنسا معَ قيامِ الثورةِ إلى بحيرةٍ داميةٍ، مؤكداً أنَّ الثورةَ ومفصلتَها من اختراعِ وترتيبِ وإعدادِ المحفلِ الماسونيِّ الفرنسيِّ الذي شهدَ وضمَّ اجتماعاتِ قادةِ الثوارِ حتى صيغتْ قوانينُ الثورةِ داخلَ هيكلِهِ، وعلى إثْرِ ذلكَ قامَ الغوغاءُ بحرقِ نصفَ فرنسا منَ كنائسَ ومعاهدَ ومدارسَ"[٤].

كانتِ الماسونيةُ ولا تزالَ مِحْراكًا للحروبِ والثوراتِ الداخليةِ، وذلك منْ أجلِ إحكامِ سيطرتِها على العالمِ، فناصبتِ المسيحيينَ العداءَ في فرنسا، وأشعلتِ الثورةَ، وقتلتِ الكثيرَ منهم، ثمَّ ادعتِ مبادئَ الإخوةِ والعدلِ والمساواةِ، واتخذتَها شعارًا. فالثورةُ الفرنسيةُ ما هي إلا وليدةُ الماسونيةِ[٥].

---

(١) عبد الوهاب المسيري، الجمعيات السرية في العالم، مرجع سابق، ص١٠٢.

(٢) يُنظر: المرجع السابق، ص١٠١.

(٣) المطران عطا الله حنا، مقال إلكتروني بعنوان: الماسونية والصهيونية يستهدفون الكنيسة بغطاء سياسي، منشور بتاريخ ١٤ سبتمبر ٢٠١٨م، التعريف الرقمي للمقال: https://bit.ly/3wt4cM4

(٤) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٢٠٨.

(٥) يُنظر: جواد أتلخان، أسرار الماسونية، مرجع سابق، ص٢١.

يعرضُ (نصيف) في حوارِهِ معَ (نجيب) صورةً لدورِ الماسونيةِ في الثوراتِ التي أطاحتْ بالحكوماتِ الوطنيةِ الشرعيةِ: "ويؤكدُ جاك أنَّ هذا الأمرَ تكررَ في روسيا معَ القيصرِ، وصولًا إلى الثورةِ البلشفيةِ التي قادَها اليهودُ الخزرُ الأشكنازُ ذوو الأصولِ الوثنيةِ الذين مارسوا إرهابًا منظمًا على أعلى المستوياتِ، وبكفاءةٍ عاليةٍ لإغراقِ الإمبراطوريةِ في فوضى عارمةٍ، ثمَّ بعدَ نجاحِ الثورةِ تقلّدوا الحكمَ فذبحوا آلافَ المسيحيينَ الروسِ"[١].

هكذا كانَ عداءُ الماسونيةِ للمسيحيةِ، وفي ذلكَ يقولُ –وليم جاي كار– مؤلفُ كتابِ "أحجارٌ على رقعةِ الشطرنجِ" أحدُ أهمِّ كتبِ الماسونيةِ: "وتَسَلَّمَ الماسونُ أو من على شاكلتِهِمْ الحكمَ والسلطةَ بعدَ ذلكَ، وفعلًا سقطتِ الحكوماتُ الشرعيةُ في فرنسا وإنجلترا، وسقطتْ دولةُ القياصرةِ في روسيا، وظهرتِ الحكوماتِ التي تتبنى الأفكارَ والفلسفاتِ المناقضةَ للدينِ والقيمِ والأخلاقِ الدينيةِ"[٢].

ب–محاربةُ الماسونيةِ والبهائيةِ للإسلامِ:

جعلتِ الماسونيةُ والبهائيةُ محاربةَ الدينِ الإسلاميِّ هدفًا رئيسًا لهما، ودعمَتا كلَّ الوسائلِ التي تعملُ على وأدِ الإسلامِ، فعملتا على نشرِ الإلحادِ، وهدمِ القيمِ والمبادئِ والأخلاقِ الحميدةِ، وجعلتْ منَ العدلِ والمساواةِ والديمقراطيةِ والإنسانيةِ ستارًا لخداعِ الأممِ. و "غايتُها قبلَ كلِّ شيءٍ إبادةُ الأديانِ جميعًا، ولا يكفي التغلبُ على الأديانِ والمعابدِ، بل القصدُ هوَ محوُ الأديانِ، وبعدَ أن نُفَرِّقُ الدينَ عن الدولةِ، نبدأُ محاولةَ محوِ الإلهِ"[٣].

كانتِ المعتقداتُ التي عملتِ الماسونيةُ على تعزيزِها وزرعِها في عقليةِ (نصيف) تركزُ على مبدأِ محاربةِ الدينِ الإسلاميِّ منَ الداخلِ، فكانَ مفكرو الماسونيةِ يأخذونَ منْ نصوصِ القرآنِ والأحاديثِ النبويةِ؛ ليشعروا محاوريهِمْ بالثقافةِ وقوةِ الحجةِ، وهذا ما حدثَ في الحواراتِ التي كانَ يجريها (نصيف) داخلَ الجامعةِ منْ أجلِ نشرِ أفكارِ الماسونيةِ عنْ طريقِ الإقناعِ والمواجهةِ، كما يَرْوي (نصيف): "وكانَ (رؤوف) قدْ قدَّمَ لنا أوراقَ عملٍ مختصرةً ومعمقةً، ليسَ مطلوبًا سوى التدربِ المكثفِ على سهولةِ حفظِها كجداولِ الضربِ لتطبيقِها في الميادينِ الطلابيةِ، وكانتْ أوراقُهُ مدعّمةً بما يسمونَهُ آياتٍ وأحاديثَ؛ لنستعملَها في تعزيزِ الإيحاءِ بقوةِ ثقافتِنا، وشرعيةِ حجتِنا"[٤].

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٢٠٨.

(٢) وليم جاي كار، أحجار على رقعة الشطرنج، ط١، ترجمة: محمد ثابت، دار الحياة ودار الوعي للنشر والتوزيع، اليمن، ٢٠١١م، ص٢٤، بتصرف.

(٣) محمد إبراهيم البدري، بين البهائية والماسونية نسب، ط١، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، القاهرة،١٩٨٦م، ص٣٠.

(٤) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٢٦١.

أما عن البهائيةِ ودورِها في محاربةِ الدينِ الإسلاميِّ بالرغمِ منْ تسترِها خلفَ قناعِهِ بادئَ الأمرِ، فقد ظهرَ وجهُها القبيحُ متجردةً منهُ. فعملتْ على نشرِ الكفرِ والزندقةِ والإلحادِ، وابتدعتْ لنفسِها دينًا جديدًا له أتباعُهُ، ونظمُهُ وطقوسُهُ، وعباداتُهُ وعاداتُهُ، ومحافلُهُ في الشرقِ والغربِ[1].

وعندما نقفُ أمامَ شخصيةِ (نصيف) وحالةِ الصراعِ والتشتتِ الفكريِّ التي عاشَها، فإننا نتأكدُ منَ الحالةِ التي أرادَاها (كريم) و(أميرة)، فقد عملوا على إبعادِهِ عنِ الدينِ بكلِّ الطرقِ. ونجدُ آثارَ ذلكَ في حوارِ (نصيف) معَ (الشيخِ) الذي تصادفَ معَهُ في الطائرةِ، يقول (نصيف):

"– شكرًا أيها (الشيخُ) المحترمُ للنصيحةِ، لكنني مُبتلىً بنقمةِ العقلِ، وأمقتُهُ، فيا ليتَهُ يغيبُ فلا يعودُ، لكنَّ المنكرَ للأسفِ لا يؤثرُ، فأنا معتادٌ على الشربِ.

- معتادٌ! يعني سكيرٌ مدمنٌ! وأسفاهُ على الشبابِ المسلمِ.
- لستُ سكيرًا ولا مسلمًا.
- نصرانيٌّ؟
- لا، لا شيءَ، ربّما بهائيٌّ!
- أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ، لأنْ تكونَ لا شيءَ بالمطلقِ أفضلُ منْ بهائيٍّ.
- لماذا تقولُ ذلكَ أليستِ البهائيةُ دينٌ ينبغي احترامُهُ؟
- لا دينَ ولا تينَ ولا تبنَ، إنهم منَ الفرقِ الباطنيةِ المجرمةِ التي تستهدفُ طعنَ الإسلامِ في الظهرِ، إنهم لا يَمتّونَ لنا بصلةٍ سوى العداءِ، والعداءِ فقطْ"[2].

فقولُ (نصيف): "ربما بهائيٌّ"، يدلُّ على حالةِ الضياعِ الفكريِّ، وعدمِ الاستقرارِ على معتقدٍ أو دينٍ يطمئنُ إليهِ، وهذا ما دفعَ (الشيخَ) المسافرَ بجوارِهِ إلى وصفِ البهائيةِ بما سبقَ منْ أوصافٍ حقيقيةٍ، ويستمرُ (الشيخُ) في توضيحِ صورةِ البهائيةِ لـ(نصيف) قائلًا: "يا بنيَّ: أفعالُهُمْ وأقوالُهُمْ هي التي تُدينُهُمْ وتجرّمُهُمْ، أنا داعيةٌ أحبُّ الهدايةَ حتى للمجوسِ، لكنَّ هؤلاءِ يجاهرونَ بعداوتِنا، وينفذونَ مخططاتِ أعدائِنا لتحطيمِ الإسلامِ منَ الداخلِ، إنهم شرٌّ منَ الدوابِ، فالأنعامُ تؤدي وظيفتَها التي خُلقتْ لها، وهؤلاءِ لا يكتفونَ بانحطاطِ ضلالِهِمْ، بل يُسَخِّرونَ كلَّ طاقاتِهِمْ لإضلالِ الآخرينَ، وسحبِهِمْ إلى وحلِ مستنقعِ كفرِهِمْ المُزَيَّنِ بالرذيلةِ بكلِّ أشكالِها، ومهما بلغَ الكيدُ والتآمرُ فإنَّ الإسلامَ محفوظٌ بحفظِ اللهِ"[3].

---

(1) يُنظر: محمد إبراهيم البدري، بين البهائية والماسونية نسب، مرجع سابق، ص١٣.

(2) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٣٤٤.

(3) المصدر السابق، ص٣٤٥.

وهكذا.. نلاحظُ أنَّ الأفكارَ التي كانَ يتغذى عليها (نصيف) الذي كانَ عضوًا في العشيرةِ كانتْ تقومُ على مبدأِ بثِّ السمومِ، والنزاعِ، والخلافِ، ونشرِ الرذيلةِ، وتقويضِ المبادئِ الأخلاقيةِ، والتي كانتْ منَ أهمِّ أساليبِ الماسونيةِ والبهائية في معاداتهما للإسلام.

وقد استطاعتِ الماسونيةُ وحليفتها البهائية في ظلِّ التقنيةِ الهائلةِ تحقيقَ الكثيرِ من تلكَ الأهدافِ بجهودِها المتواصلةِ، فقدْ بثتِ الرذيلةَ والإباحيةَ عبرَ الشبكةِ العنكبوتيةِ، ونشرتِ الإلحادَ واللادينَ في نفوسِ شبابِ المسلمينِ وغيرِهِمْ، ونفذَتْ إلى ذلكَ باسمِ التحررِ والتنويرِ.

ومما سبقَ تتجلى لنا حالةُ الصراعِ والعداوةِ التي تضمرُهما الماسونيةُ والبهائيةُ حينًا، وحينًا تجاهرانِ بهما لمواجهةِ الأديانِ والشرائعِ لا سيما الإسلامُ والمسيحيةُ، وتُبْقي على حالةِ الودِّ والانسجامِ معَ اليهوديةِ المحرفة؛ لتَلاقي الأهدافِ بينهما في بوتقةٍ واحدةٍ.

إنَّ صورَ الصراعِ العقائديِّ التي وقفَ عليها الباحثُ في روايتي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، قد بلورتْ ملخَّصًا وافيًا حولَ الصورةِ التي كانتْ ترتسمُ في الوعيِ لأشكالِ الصراعِ المتعددةِ.

كما اتضحَتْ معالمُ ذلكَ الصراعِ من خلالِ مقاربةِ النصوصِ التي تناولَها الباحثُ، التي أرادَ الأديبُ عويضة أنْ يبرزَها، فالصراعُ الدينيُّ والعقائديُّ كان جليًا وواضحًا، ومحركًا مهمًّا لأحداثِ روايتي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، وقد عملَ الكاتبُ على تشكيلِ صورتِهما الكاملةِ، والتي تعكسُ بالضرورةِ موقفَه من أشكالِ الصراعِ.

كما أنَّ الصراعَ بينَ الإسلامِ وغيرِهِ منَ الشرائعِ قد شَغَل حيزًا وفيرًا منَ الأحداثِ، فالميدانُ الروائيُّ دفعَ باتجاهِ الاحتكاكِ معَ اليهوديةِ والمسيحيةِ والصهيونيةِ والماسونيةِ والبهائيةِ، وهذا بدورِهِ أدى إلى احتدامِ الصراعِ، والاختلافِ في المعتقداتِ والأفكارِ الأيديولوجيةِ.

وقد نوَّعَ الكاتبُ في استخدامِ الصراعِ وتوظيفِهِ، وأبدعَ في ذلكَ، واستطاعَ بلغتِهِ الأدبيةِ أنْ يقدمَهُ بصورةٍ لافتةٍ، وهذا يدلُّ على القدرةِ الفائقةِ والتقنيةِ العاليةِ لديهِ في توظيفِ الصراعِ لفهمِ أحداثِ الروايةِ، وتشويقِ القارئِ لمتابعةِ الأحداثِ بشغفٍ، وربطِها ربطًا متناسقًا، ومتسلسلًا.

الفصلُ الثانـي
الرُّؤيـةُ الأيديولوجيَّةُ السّياسيَّةُ

- ❖ المبحثُ الأوَّلُ: قضايا سياسيةٌ ورؤىً أيديولوجيةٌ.
- ❖ المبحثُ الثاني: الماسونيُّة...الحقيقةُ الغائبةُ.

توطئة:

شكلتِ القضايا السياسيةُ مكونًا أساسيًّا من مكوناتِ الفنِّ الروائيِّ، واهتمَّ الكُتّابُ والأدباءُ بتناولِ هذه القضايا في أعمالِهِمْ، وقد كانتِ الروايةُ هيَ الفنَّ الأقربَ لتناولِ القضايا الأيديولوجيةِ والرؤى المعاصرةِ. ونظرًا لما تتصفُ بهِ الروايةُ منَ استيعابِها لحقولٍ شتى منَ السردِ، والتشخيصِ، والأمكنةِ، والأزمنةِ، والمروياتِ، فقد كُتِبَ عليها أيضًا أنْ تتضمنَ طيفًا أيديولوجيًّا قد تختلفُ فيه الأيديولوجياتُ وتتصارعُ، وهذا الاختلافُ أو الصراعُ يمنحُها القوةَ الأدبيةَ التي ترتقي بها إلى مستوى البناءِ الدراميِّ المتألقِ[١].

وقد فرضتِ الظروفُ السياسيةُ والنضاليةُ للواقعِ العربيِّ تداولًا أعلى وانتشارًا أكبرَ، وبهذا غدتِ الروايةُ أكثرَ الأجناسِ الأدبيةِ تعبيرًا عن أزماتِ الأمةِ، وقضاياها. "وقد أصبحتْ قضايا الفكرِ، ومشكلاتُ الأيديولوجيا السمةَ الرئيسةَ، والغالبةَ عندَ كثيرٍ منْ كتّابِ الروايةِ العربيةِ في وقتِنا المعاصرِ"[٢].

وعلاقةُ الأيديولوجيا بالسياسةِ علاقةٌ وثيقةٌ؛ وذلكَ لحاجةِ الأنظمةِ السياسيةِ إلى أيديولوجياتٍ مُعينَةٍ تفرضُها، وتعملُ على تطبيقِها، والدفاعِ عنها، فالسياسةُ حاضرةٌ في أغلب الخطاباتِ الأدبيةِ، لأنها محورٌ فكريٌّ لا يمكنُ تغافلُهُ، ومنْ خلالِها تتحققُّ أهدافُ الأنظمةِ في فرضِ هيمنتِها، وسيطرتِها على الشعوبِ.

وعندما يستحضرُ الكاتبُ القضايا السياسيةَ الأيديولوجيةَ، ويوظفُها في عملِهِ الروائيِّ؛ فإنّه يبني عالمًا جديدًا يقتربُ أو يبتعدُ منَ الواقعِ، فالنصُّ عبارةٌ عنْ مجتمعٍ خاصٍّ حدودُهُ اللغةُ، ولهُ شخصياتُهُ، وأماكنُهُ، وأحداثُهُ، وأزمنتهُ، التي لا يمكنُ أن يُكتَبَ لها التفاعلُ إلا بوجودِ الأفكارِ والأيديولوجياتِ المتنوعةِ بينَ الشخصياتِ، فـ: "الأيديولوجيا تدخلُ الروايةَ باعتبارِها مكونًا جماليًّا؛ لأنها تتحولُ في يَدِ الكاتبِ إلى وسيلةٍ لصياغةِ عالمِهِ الخاصِّ"[٣]. وتتجلى قدرةُ الأديبِ أثناءَ عمليةِ السردِ الروائيِّ على تطويعِ القضايا السياسيةِ، وإذابتِها في قالبٍ فنيٍّ روائيٍّ.

ويُعَدُّ الكاتبُ خُلوصي عويضة منْ الروائيينَ الملتزمينَ، المهمومينَ بقضايا شعبِهِ الفلسطينيِّ وأمتِهِ العربيةِ، وقد حظيتِ الصراعاتُ السياسيةُ الوجوديةُ بنصيبٍ وافرٍ في رواياتِهِ.

---

(١) يُنظر: حنين معالي، الراوية بين الأيديولوجيا والفن، ط١، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، ٢٠١٣م، ص٨.

(٢) طه وادي، الراوية السياسية، د.ط، الشركة المصرية العالمية للنشر –لونجمان، د.ت، ص٢.بتصرف.

(٣) شادية بن يحيى، مقال إلكتروني بعنوان: الأيديولوجيا في الرواية، موقع ديوان العرب، منشور بتاريخ ٢٥ أغسطس٢٠١٣م، التعريف الرقمي للموقع: https://bit.ly/3klEwi3

وقفَ الباحثُ في روايةِ "المُباهلة" على مجموعةٍ من القضايا السياسيةِ التي تناولَها الكاتبُ، فقدِ اهتمتِ الروايةُ بتصويرِ الأحداثِ السياسيةِ في العالمِ، وفي الوطنِ العربيِّ والإسلاميِّ، مثلَ أحداثِ الحادي عشرَ من أيلولَ ٢٠٠١م، واحتلالِ أفغانستانَ والعراقِ، وكانَ للقضيةِ الفلسطينيةِ والقضيةِ العراقيةِ الحضورُ الأبرزُ في مجرياتِ الروايةِ، وأحداثِها.

أما روايةُ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، فقدِ اهتمتْ بالماسونيةِ وبيانِ خطرِها، ونفوذِها السياسيِّ الخفيِّ في إشعالِ الحروبِ، والصراعاتِ السياسيةِ والوجوديةِ، وخلقِ النزاعاتِ بذرائعَ متنوعةٍ بين دينيةٍ وسياسيةٍ.

وقد قسَّمَ الباحثُ هذا الفصلَ إلى مبحثيْنِ:

المبحثِ الأولِ: قضايا سياسيةٌ ورؤىً أيديولوجيةٌ، ويَضُمُّ محورينَ:

- ❖ المحورَ الأولَ: القضيةِ الفلسطينيةِ.
- ❖ المحورَ الثاني: القضيةِ العراقيةِ.

المبحثِ الثاني: الماسونيّةُ...الحقيقةُ الغائبةُ، ويضمُ ثلاثة محاور:

- ❖ المحورَ الأولَ: المبادئُ الأساسيةُ والفكرُ الأيديولوجيُّ للماسونيةِ.
- ❖ المحورَ الثاني: النفوذُ السياسيُّ الماسونيُّ.
- ❖ المحورَ الثالثَ: مخاطرُ الماسونيّة.

المبحثُ الأولُ

قضايا سياسيةٌ، ورؤىً أيديولوجيةٌ

المحورُ الأولُ- القضيةُ الفلسطينيةُ:

واكبَ الأدبُ بشعرِهِ ونثرِهِ القضيةَ الفلسطينيةَ، ولا سيما الفنُ الروائيُّ منذُ النكبةِ، وما تلاها من أحداثٍ، ومحطاتٍ فارقةٍ في تاريخِ النضالِ حتى يومِنا هذا، وعبَّرتِ الروايةُ عنِ الويلاتِ التي مرَّ بها الشعبُ الفلسطينيُّ. "لقدِ اهتمَ الأدباءُ بالقضيةِ الفلسطينيةِ، وعبّروا عنها في أعمالِهِمُ الأدبيةِ؛ لأنها قضيتُهُمُ المركزيةُ التي تعبرُ عنْ أزمةِ الوجودِ، ولذلكَ نجدُهُمُ عبَّروا عن هذهِ القضيةِ بأشكالٍ فنيةٍ متعددةٍ من بابِ الالتزامِ الفكريِّ والقوميِّ والوطنيِّ"(١).

شكلتِ المنعطفاتُ التاريخيةُ في تاريخِ الصراعِ معَ الاحتلالِ مادةً ثريةً، ورافدًا غزيرًا للروايةِ الفلسطينيةِ، واستلهَمَ الأدباءُ منها القصصَ والحكاياتِ، وسطَّروها في رواياتِهِمْ. "واستأثرتِ الروايةُ الفلسطينيةُ الصادرةُ بعدَ النكبةِ خاصةً بموقعٍ مميزٍ بينَ مجملِ النتاجِ الروائيِّ العربيِّ، ليسَ بسببِ توجهِ أكثرِها إلى قضيةِ الصراعِ معَ مغتصبي الأرضَ فحسبُ، بلْ بسببِ كفاءتِها في إعادةِ إنتاجِ هذا الصراعِ بأدوات فنية متقدمة جماليا"(٢).

ولا شكَّ أنَّ رؤيةَ الأديبِ للواقعِ والحياةِ السياسيةِ تؤثرُ في أسلوبِ طرحِهِ ومقاربَتِهِ للقضايا التي يتناولُها، وتصبحُ صاحبةَ التأثيرِ في اختيارِهِ للتقنيةِ التي يوظفُها في تلكَ القضايا.

وقد ضمتْ روايةُ "المُباهلة" العديدَ منَ الرؤى والتوجهاتِ المتعلقةِ بالإنسانِ الفلسطينيِّ وصراعِهِ معَ الاحتلالِ، فكانَ لمسألةِ التعايشِ بين فلسطينيّي الداخلِ والاحتلالِ حضورٌ بارزٌ، كما ركزتْ على تفاصيلِ الدعم الأمريكيِّ للاحتلالِ الصهيوني.

وسيقفُ الباحثُ في هذا المحورِ على رؤيتينِ سياسيتينِ: الأولى، فلسطينيي الداخلِ بينَ خدعةِ التعايشِ والجذورِ التاريخيةِ، والثانية، الموقفِ السياسيِّ الأمريكيِّ تجاهَ القضيةِ الفلسطينيةِ.

١- فلسطينيو الداخلِ بينَ خدعةِ التعايشِ والجذورِ التاريخيةِ:

واجهَ الفلسطينيونَ المتمسكونَ بأرضِهِمْ وبيوتِهِمْ بعدَ نكبةِ ١٩٤٨م صنوفًا مختلفةً منَ التمييزِ والاضطهادِ على يدِ الاحتلالِ الإسرائيليِّ، وكانتْ نظرةُ التهميشِ منْ بعضِ الفلسطينيينَ لهمْ سببًا في

(١) يُنظر: حنين معالي، الراوية بين الأيديولوجيا والفن، مرجع سابق، ص١٤٣.

(٢) نضال الصالح، نشيد الزيتون قضية الأرض في الرواية العربية الفلسطينية، د.ط، اتحاد الكُتّاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤م، ص٩.

الاندماجِ والتعايشِ معَ الاحتلالِ بصفتهمْ مواطنينَ عربًا. "كما تمَّ إغفالَهُمْ إلى درجةٍ أصبحوا فيها بالنسبةِ لعمومِ الفلسطينيينَ والعربِ في منزلةِ الفلسطينيينَ المنسيينَ، فضلًا عنِ اعتبارِ الإسرائيليينَ لهمْ بمثابةِ الطابورِ الخامسِ، أو الحاضرِ الغائبِ"[١].

ولا يزالُ فلسطينيو الداخلِ يقودونَ معركةَ البقاءِ والتصدي لسياسةِ التمييزِ العنصريِّ، على الرغمِ من تعايشِ بعضِهِمْ معَ المجتمعِ المدنيِّ للاحتلالِ، إلا أنّ هذا التعايشَ لمْ يَدُمْ طويلًا، بسببِ تنفيذِ الاحتلالِ لمخططاتٍ سياسيةٍ تستهدفُ وجودَهُمْ، وتسعى لتهجيرِهِمْ. "ولمْ يكن مستغربًا ممارساتُ الاحتلالِ ضدَّ فلسطينيّي الضفةِ والقطاعِ، فهي تمارسُ العنصريةَ ضدَّ مواطنيها، أو ما يُفترضُ أنهم مواطنونَ إسرائيليونَ"[٢].

وقدْ تعرضَ الكاتبُ لقضيةِ التعايشِ وصراعِ الهُويةِ لدى فلسطينيّي الداخلِ المحتلِ، من خلالِ شخصيةِ (الدكتور هادي) وأسرتِهِ التي تعيشُ في مجدِ الكرومِ في منطقةِ الجليلِ، وصديقِ دراستِهِ الإسرائيليِّ (زخاريا) الذي انتقلَ للعملِ في جيشِ الاحتلالِ فيما بعدُ.

كانتْ فكرةُ التعايشِ في أولِ الأمرِ متأرجحةً بينَ القَبولِ والرفضِ عند (هادي)، ومعَ الأحداثِ الداميةِ المتلاحقةِ في يومِ الأرضِ وانتفاضةِ الحجارةِ تقلَّصتْ هذهِ الرغبةُ، يقولُ (هادي): "منذُ الحادثةِ الأولى في العامِ ١٩٧٦م –يومِ الأرضِ– شعرتُ أن مساحةً معينةً منَ الرغبةِ في التعايشِ الآمنِ زالتْ من قلبي"[٣]. لكنَّ هذهِ الرغبةَ أبقتْ في نفسِهِ بصيصَ أملٍ للبقاءِ، لذا شاركَ في المظاهراتِ الطلابيةِ مع نشطاءِ اليسارِ الإسرائيليِّ. يصفُ تأثيرَ الانتفاضةِ الأولى على فكرةِ التَّعايُشِ لديه، فيقُولُ: "أمّا الحدثُ الثاني فكانَ مطلعَ العامِ ١٩٨٨م، حينَ اجتاحتِ القدسَ والضِّفةَ وغزةَ انتفاضةٌ عارمةٌ؛ سلاحُها الحجرُ، وكنتُ يومَها طالبًا في الجامعةِ، فساهمتُ بقوةٍ في المظاهراتِ الطلابيةِ التي شاركَ فيها أغلبُ الطلبةِ العربِ ونشطاءُ اليسارِ الإسرائيليِّ من أنصارِ السلامِ، رفعنا الصوتَ عاليًا: لا بديلَ عنَ السلامِ، نعمْ لدولةٍ فلسطينيةٍ تعيشُ في أمنٍ وسلامٍ إلى جوارِ إسرائيلَ، قتلُ الأبرياءِ وصمةُ عارٍ"[٤].

ويَبْرُزُ اعتزازُهُ بالانتماءِ للعروبةِ وفلسطينَ في حوارِهِ معَ (أسعد)، عندما تعرَّفَ إليه وقتَ إشرافِهِ على علاجِهِ بعدما أصيبَ في مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ، يقول (هادي): "كمْ كنتُ سعيدًا حينَ سألني بلهفةٍ وخوفٍ، هلْ أنتَ عربيٌّ؟ أجبتُهُ بفرحٍ غامرٍ: نعمْ أنا مثلُكَ عربيٌّ فلسطينيٌّ، لأني أكرهُ تسميتَنا

(١) مأمون كيوان، فلسطينيون في وطنهم لا دولتهم، د.ط، مركز الزيتونة للدراسات، بيروت، ٢٠١٠م، ص٧.

(٢) عباس إسماعيل، عنصرية إسرائيل، ط١، مركز الزيتونة للدراسات، بيروت، ٢٠٠٨م، ص٩. بتصرف.

(٣) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٥٠.

(٤) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

عربَ إسرائيلَ أو عربَ الداخلِ أو 48 فنحنُ لسنا نكرةً، نحن ننتمي بعقولِنا، وقلوبِنا، بماضينا، وحاضرِنا، ومستقبلِنا، لشعبِ فلسطينَ، عربٌ أقحاحٌ منذُ الأزلِ، وإلى الأبدِ، لن نزولَ، ولن نذوبَ في الآخرينَ، مهما تعاظمتِ المغرياتُ؛ لأننا ببساطةٍ طرفا نقيضٍ، وإن اقتضتْ ظروفُ المرحلةِ وحساباتُها أن يتصنَّعُ كلُّ فريقٍ للآخرَ عكسَ ما ينطوي عليهِ باطنُهُ"[١].

فهنا يَظْهَرُ الانتماءُ الحقيقيُّ لفلسطينَ كاملةً، لشعبِها وترابِها وعروبتِها، وتتداعى فكرةُ التعايشِ الواهيةُ، فهو يرفضُ أيَّ تسميةٍ تنتقصُ منْ فلسطينيتِهِمُ الكاملةِ، ويؤكدُ جذورَ التواصلِ والاتصالِ السرمديةَ والأبديةَ، ويعلنُ رفضَ مغرياتِ نزعِ الهويةِ، وهذا كلُّهُ يثبتُ رفضَ فكرةِ التعايشِ فلسطينيًّا كما يجسدُها الكاتبُ في شخصيةِ (هادي).

أما نظرةُ الآخرِ، التي تمثلتْ بشخصيةِ (زخاريا) اليهوديِّ، فهي مبنيةٌ على أيديولوجيةِ التمييزِ والعنصريةِ ورفضِ غيرِهِ، يقولُ (زخاريا): "إنكَ وقومَكُ أضيافٌ، غيرُ مرغوبٍ بكُمْ، ووجودُكُمْ عبءٌ ثقيلٌ، مواطنونَ منَ الدرجةِ العاشرةِ، انظرْ حولَكَ: فكلُّ مظاهرِ التمييزِ العنصريِّ تحيطُ بكمْ، وتُمارَسُ ضدَّكُمْ، ثم بعدَ هذا أترضى أنْ تكونَ ساذجًا، وتُلْقي بالًا لأكذوبةِ التعايشِ والمساواةِ؟!"[٢].

نجدُ أنَّ موقفَ (زخاريا) قائمٌ على المصارحةِ والصلافةِ، فوصفَ هادي وشعبَهُ بالضيوفِ المنبوذينَ والعبءِ الثقيلِ، ويؤكدُ سخريتَهُ منْ فكرةِ التعايشِ التي تنسفُها مظاهرُ التمييزِ العنصريِّ، وهذا أيضًا يثبتُ رفضَ مُدَّعي السلامِ في الجانبِ الآخرِ لتلكَ الفكرةِ. "فالمواطنونَ العربُ الفلسطينيونُ يشكلونَ شريحةً متأخرةً بعدَ الشرائحِ اليهوديةِ، وهمْ أدنى طبقةٍ حتى منَ المهاجرينَ اليهودِ الشرقيينَ"[٣].

يعرضُ الكاتبُ صورةً أخرى يحاولُ فيها (زخاريا) العزفَ على وترِ الفصلِ والتمييزِ بينَ فلسطينيّي النكبةِ، وغيرِهِمْ منْ أبناءِ الشعبِ الفلسطينيِّ في الضفةِ؛ تماشيًا معَ سياسةِ الاحتلالِ المخادعةِ، فيصفُ (هادي) بأنّهُ إسرائيليٌّ مثلُهُمْ، يقول: "هادي.. أنتَ الأنَ إسرائيليٌّ مثلُنا، أعرفُ أنهمْ بالنسبةِ لكَ أقاربُ، أو شيءٌ كهذا، لكنهم محتالونَ مخادعونَ، كذّابونَ، إذا منحناهُمْ يومًا ثقتَنا وانسحبْنا من –يهودا والسامرةِ–[٤] سيذبحونَنا، أيرضيكَ هذا؟ لقد نَزَعوا الأملَ بالسلامِ من أحشائِهِ، وزرَعوا مكانَها أحقادَهُمْ وأكاذيبَهُمُ التي يتنفسونَها؛ لتمنحَهُمُ البقاءَ"[٥]. هذهِ الصورةُ سرعانَ ما تتغيرُ، ليطلبَ (زخاريا) من هادي ألا يفصحَ عن انتمائِهِ العربيِّ، حتى وصلَ بهِ الأمرُ أنْ يطلبَ بصلافتِهِ القميئةِ منهُ عدمَ

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٥١.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) مأمون كيوان، فلسطينيون في وطنهم لا دولتهم، مرجع سابق، ص١٥.

(٤) مصطلح إسرائيلي رسمي يُستخدم للإشارة لمنطقة الضفة الغربية.

(٥) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٠٥.

الحضورِ لزيارتِهِ، يقول (زخاريا): "عذرًا منكَ هادي.. إذا دخلتَ هنا ثانيةً ورأيتَ حولي زوّارًا؛ فلا تظهرْ أنّكَ تعرفُني خشيةَ أنْ يكونوا من الحزبِ _الليكود_، والأفضلُ ألا تُظْهَرَ أنك عربيٌّ، والأفضلُ – سامحني– ألا تأتيَ"(١).

فهذا الصهيونيُّ يتخذُ منَ التعايشِ وسيلةً حقيرةً لتحقيقِ مأربِهِ، فتارةً يَسْخَرُ منها، وأخرى يُسَخِّرُها في الوقيعةِ بين أبناءِ الشعبِ الواحدِ، ثمَّ يعودُ لينسفَها، وهذا يثبتُ أنَّ المجتمعَ الصهيونيَّ صنعَ أكذوبةَ التعايشِ داخلَ الوسطِ الفلسطينيِّ في كيانِهِ، وكانَ هوَ أولَ من أسقطَها بعنصريتِهِ، ومجازرِهِ، وهمجيتِهِ.

ومعَ تصاعدِ المجازرِ الصهيونيةِ بحقِّ الشعبِ الفلسطينيِّ، ومشاهدِ اقتحامِ المسجدِ الأقصى، وسقوطِ عشراتِ الشهداءِ التي كانتْ سببًا في إشعالِ الانتفاضةِ الثانيةِ؛ كان موقفُ فلسطينيّي الداخلِ مساندًا لأبناءِ شعبِهِمْ، فشاركوا في المظاهراتِ المنددةِ بالجرائمِ، وخاضوا هباتٍ مماثلةً في ضراوتِها، مما دفعَ بقوةٍ إلى تراجعِ فكرةِ التعايشِ معَ الاحتلالِ، التي كانَ يؤمنُ بها (هادي) أولَ الأمرِ، ويحاولُ إقناعَ (أسعد) بذلك، يقولُ (هادي): "فبينَما كنتُ أشاهدُ ما يجري في أروقةِ المسجدِ وباحاتِهِ هَيْمَنَ الشكُّ المتربصُ، وأحكمَ سيطرتَهُ على مجاميعِ النفسِ، وتداعتْ صورُ يومِ الأرضِ، وتكسيرِ العظامِ خلالَ الانتفاضةِ الأولى، ومجازرِ صبرا وشاتيلا وقانا، وطبعًا مجزرة الحرم الإبراهيمي، حتى إنّي ببصرِ الذاكرةِ رأيتُ (أسعد) يحاورُني قائلاً بتهكمٍ: أينَ التسامحُ والتعايشُ وتجاوزُ الماضي؟ أينَ أحاديثُك التي لا تنتهي عن هذا كلّه؟ اسمعْ يا (دكتور): الماضي هو الحاضرُ، ولنْ يختلفَ الغدُ"(٢).

فتأثيرُ تلك الأحداثِ الجِسامِ ألقى بظلالِهِ على شخصيةِ (هادي)، فتهاوتْ أكذوبةُ التعايشِ والتسامحِ أمامَ ناظريْهِ، وفي أعماقِ نفسِهِ، واستعانَ الكاتبُ بتقنيةِ الاسترجاعِ ليُرَسِّخَ الحوارَ القديمَ بينَ (أسعد) و(هادي)، ليستنهضَ في الأخيرِ حبَ الانتماءِ للوطنِ، ورفضَ أكاذيب الاحتلالِ.

كما كانَ لاجتياحِ الضفةِ في ربيعِ سنةِ ٢٠٠٢م، واقترافِ العدوِّ لأبشعِ المجازرِ في جنينَ ونابلسَ، ومحاصرةِ الرئيسِ "ياسر عرفات" أثرٌ كبيرٌ في تحولِ قناعةِ (هادي) التامةِ، مما دفعَهُ إلى تركِ عملِهِ، والسفرِ، معلنًا بذاك الكفرَ بفكرةِ التعايشِ معَ الاحتلالِ، يقول (هادي): "مضتِ الأيامُ إلى أنْ وقعَ اجتياحُ الضفةِ الغربيةِ، والمحاصرةُ والاقتحامُ والحرقُ والتدميرُ في مخيمِ جنينَ، سحقًا للكلماتِ كمْ تخذلُ في مواطنَ تعجزُ فيها أنْ تصفَ حالَ الروحِ، كمْ تشظتْ، وتعذبتْ، وبكتْ، كم توالى صراخُها المحمومُ المكتومُ، حتى بصدقٍ اجتاحتْني رغبةٌ عارمةٌ أن أذهبَ إلى المخيمِ لا كيْ أُسعفَ وأُداوي نفوسًا أَحرقَها حقدُ الأعداءِ ... نعمْ الأعداءُ، فإلى متى أهربُ متحاشِيًا تسميةَ الأشياءِ

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص١٣٦.

بمسمّياتِها؟ أيةُ دعاوى زائفةٌ خادعةٌ باطلةٌ حاولتُ سنواتِ عمري أن أتمسكَ بأوهامِها؛ أنني مواطنٌ في دولةٍ تقتلُ قصفًا، وقنصًا، وحرقًا، وإبادةً أبناءَ شعبي الحقيقيينَ الذين إليهم وحدَهُمْ تريدُ الروحُ أنْ تَشُدَّ رِحالَها؟!"[١].

فهذا الحوارُ الداخليُّ التلخيصيُّ يؤكدُ ارتفاعَ منسوبِ القهرِ النفسيِّ الذي ولَّدَهُ الاقتناعُ الهشُّ بفكرةِ التعايشِ، وقد تأججتِ الرغبةُ بالانعتاقِ من هذا الوهمِ، وصولًا للكفرِ بها، وهذا ما حرَصَ الكاتبُ على معالجتِهِ عبرَ عرضِ الانهيارِ لتلكَ الفكرةِ من خلالِ محطاتٍ ومراحلَ اتسمتْ بالتوترِ الدراميِّ.

فتعدى الأمرُ مرحلةَ الكفرِ، ليصلَ مرحلةَ الثأرِ؛ فتتنامى الأحداثُ ليذوقَ (هادي) نفسُهُ علقمَ الاحتلالِ، ويكتويَ بنارِ إجرامِهِ، فليسَ الفلسطينيُّ بمنأىً عنْ مجازرِ الصهاينةِ، ولا بمعزلٍ عنْ وحشيتِهِمْ؛ حتى وإنْ كانَ مواطنًا محسوبًا على دولةِ الاحتلالِ.

وتجلتْ تلكَ الكارثةُ التي زلزلتْ أركانَ (هادي)؛ بقتل عصاباتِ الكيانِ ابنته البريئةَ ونسمتَهُ الرقيقةَ، فتراكمَ في نفسِهِ الثأرُ المقدسُ لطفلتِهِ ولأبناءِ شعبِهِ قاطبةً، يقولُ الراوي: "وبكى حتى نبتَ كلأُ الأرضِ مرتوِيًا من دموعِهِ يومَ علِمَ أنَّ ريحانةَ فؤادِهِ (نسمة) قد سبقتْهُ إلى العُلا، فحدثَ لها ما وقعَ لـ(شهد) و(ليلى) لكنْ بطريقةِ الدهسِ أو الدعسِ تحت عجلاتِ المستوطنينَ؛ فتضاعفَ عزمُهُ على اللحاقِ بها بعدَ أن يثأرَ لها، ولشعبِهِ صاحبِ أقدسِ قضيةٍ عرفتْها البشريةُ"[٢].

هذا الكمُ منَ الرغبةِ بالثأرِ دفعَ (هادي) إلى الانتقامِ من (زخاريا) ورفاقِهِ الذين يخدمونَ في جيشِ الاحتلالِ عنْ طريقِ عمليةِ قتلٍ جماعيةٍ بالسمِّ[٣]، وذلكَ بعدما طلبَ منهُ (زخاريا) حضورَ حفلِ انتصارِهِمْ على غزةَ بعدَ العدوانِ الكبيرِ سنةَ ٢٠٠٩م، فجهَّزَ (هادي) السمَّ القاتلَ، وانتظرَ اللحظةَ الحاسمةَ لوضعهِ في الطعامِ، ثمَّ انسحبَ هاربًا إلى الأردن ثم إلى مصرَ ثمَّ إلى غزةَ، ليلتحقَ بالسلفيةِ العلميةِ، ثم يخوضَ رحلةً طويلةً منَ التقلباتِ الفكريةِ في حياتِهِ، فانتقلَ منَ السلفيةِ العلميةِ إلى الجهاديةِ، وبعدَ أحداثِ مسجدِ ابْنِ تيميةَ في رفحَ، ينتقلُ إلى سوريا، ويصلَ إلى قيادةِ مجموعةٍ مسلحةٍ معَ تنظيمِ الدولةِ، وانتهى به الحالُ إلى مشاركةٍ فاعلةٍ في الثورةِ السوريةِ، حتى وصلَ إلى قناعةٍ راسخةٍ أنَّ فلسطينَ هي الأُوْلى بدمِهِ، وجهادِهِ، وقتالِهِ، ليحددَ مع رفاقِهِ الفلسطينيين مناسبةَ يومَ الأرضِ –يومَ الانتفاضةِ الأولى لفلسطينيِّي الداخلِ المحتلِ– موعدًا لعمليتِهِمُ الفدائيةِ على الحدودِ السوريةِ الفلسطينيةِ مشتبكًا معَ العدوِ الصهيونيِّ، يقولُ الساردُ: "إلى أنْ جاءَ اليومُ الموعودُ الذي اختارَ تاريخَهُ (هادي)

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٨٩.

(٢) المصدر السابق، ص٣٨٨.

(٣) يُنظر: المصدر السابق، ص٣٠٩.

٣/٣٠، إنَّهُ يومُ الأرضِ الساكنُ وجدانَ الشعبِ وضميرَه، والذي انحفرَ وانغرسَ بأعماقِهِ منذُ طفولتِهِ"[١].

فهو قد تعرضَ إلى تغريباتٍ فكريةٍ جعلتْهُ ينحرفُ عن بوصلةِ القضيةِ الأساسيةِ، إلى أنْ أدركَ في النهايةِ أنَّ فلسطينَ هي الأقدسُ والأجدرُ بالدماءِ، وهذهُ رسالةٌ من الكاتبِ لتعودَ فلسطينُ إلى صدارةِ الاهتمامِ في قضايا الأمةِ.

ويرى الباحثُ أن الكاتبَ برعَ في الكشفِ عنْ تفاصيلِ خدعةِ التعايشِ مع الاحتلالِ، كما أظهرتْ مقاربتُنا أعلاه.

٢- الموقفُ السياسيُّ الأمريكيُّ تجاهَ القضيةِ الفلسطينيةِ:

لعبتِ السياسيةُ الأمريكيةُ دورًا كبيرًا في دعمِ المشروعِ الصهيونيِّ على أرضِ فلسطينَ، متبنيةً الموقفَ الصهيونيَّ تبنيًّا كاملًا، عاملةً على تسهيلِ هجرةِ المستوطنينَ والمهاجرينَ اليهودِ من كلِّ أنحاءِ العالمِ وصولًا إلى أرضِ فلسطينَ، وقد أكَّدَ الرؤساءُ الأمريكيونَ المتعاقبونَ على البيتِ الأبيضِ ذلكَ الدعمَ والتأييدَ المطلقينِ، فهذا تصريحٌ رسميٌّ للرئيسِ "بيل كلينتون"[٢] عبَّرَ فيه عن مدى التزامِ الولاياتِ المتحدةِ بدعمِ إسرائيلَ: "إنَّ تفوقَ إسرائيلَ العسكريَّ أكبرُ منه في أيِّ وقتٍ مضى؛ لأنَّ الولاياتِ المتحدةَ التزمتْ بذلكَ"[٣].

وقد بذلتِ الولاياتُ المتحدةُ كلَّ ما في وُسْعِها لدعمِ الكيانِ الصهيونيِّ، بالمالِ والسلاحِ على حدٍّ سواءٍ، وبالدفاعِ عنها في المحافلِ الدوليةِ، وتبني رؤيتِها ومواقفِها في المراحلِ المختلفةِ. واختارتْ أنْ تكونَ في خندقٍ واحدٍ معَ الجانبِ الصهيونيِّ، وعملتْ كلَّ ما في وُسْعِها من أجلِ تمريرِ السياسةِ الإسرائيليةِ، وأصبحَ التفريقُ بينَ الموقفِ الأمريكيِّ والموقفِ الإسرائيليِّ منْ أصعبِ الأمورِ، بل إنَّنا لا نجانبُ الحقيقةَ إذْ قلنا: إنَّ التعنتَ الإسرائيليَّ أضحى مطلبًا أمريكيًّا بالدرجةِ الأولى[٤].

أبرزتْ روايةُ "المباهلة" أبعادَ الدعمِ الأمريكيِّ، والسياساتِ الخارجيةَ للولاياتِ المتحدةِ، وأثارَ ذلكَ على سيرِ الأحداثِ، وتحديدَ أيديولوجياتِ الشخصياتِ، وتوجهاتِهِمْ بناءً على تلكِ المواقفِ

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٨٩.

(٢) صدر هذا التصريح بتاريخ ١٩٩٥/٥/٧م، في خطاب ألقاه بيل كلينتون أمام اللجنة الأمريكية الإسرائيلية أيباك.

(٣) من مقال إلكتروني بعنوان: حكام البيت الأبيض وإسرائيل. شبكة الجزيرة الإعلامية، منشور بتاريخ ٢٨ مارس ٢٠١٧م، التعريف الرقمي للموقع: https://bit.ly/3zbutjB

(٤) يوسف الطويل، الحملة الصليبية على العالم الإسلامي والعالم، ط٢، صوت القلم العربي، القاهرة، ٢٠١٠م، ص١٢. بتصرف.

والسياساتِ تجاهَ القضايا السياسيةِ لاسيما القضيةُ الفلسطينيةُ، فيتجلى موقفُ (أسعد) الرافضُ، بسؤالِهِ عن أسبابِ العداءِ المتوارثِ للشعبِ الفلسطينيِّ، يقولُ الراوي واصفا حال (أسعد): "لماذا تبادرُ وتتاصبُ الحكوماتُ الأمريكيةُ المتعاقبةُ شعبَهُ هذا العداءَ؟! لماذا تقفُ كصخرةٍ صماءَ لا تبصرُ، ولا تسمعُ غيرَ ما يريدُهُ المستوطنُ العبرانيُّ؟! لماذا تُجْهِضُ أحلامَهُ ومشاريعَهُ السياسيةَ في كلِّ المحافلِ الدوليةِ تحتَ مِطرقةِ الفيتو اللعينِ، ولماذا يُقْتَلُ شعبُهُ ليلَ نهارَ بالمالِ والسلاحِ الأمريكيِّ؟!"[1].

فتدوي هذهِ الأسئلةُ في عقلِ الفتى الذي ينظرُ إلى الواقعِ الذي أوصلتْهُ إليهِ السياسةُ الأمريكيةُ الصهيونيةُ، فبِاسْمِ الفيتو الأمريكيِّ تُمَرِرُ الإداراتُ المتعاقبةُ كلَّ طغيانٍ لإسرائيلَ، وتطلقُ لها الحبلَ على غاربِهِ لتعربدَ، وتقترفَ الجرائمَ والمجازرَ، ويتمددَ سرطانُها الاستيطانيُّ، ونجد أنه قد تحققَ لإسرائيلَ في ظلِّ الإمبرياليةِ الغربيةِ النماءَ والتطورَ، وقد باتتْ ذراعَهُمُ المسيطرَ على المنطقةِ، وقد وصفَها الناقدُ الفلسطينيُّ الدكتور فوزي الحاج برأسِ الجسرِ: "فلمْ يَعُدْ خافيًا على أحدٍ أنَّ إسرائيلَ ليستْ سوى "رأسِ جسرٍ" للإمبرياليةِ الغربيةِ، والولاياتِ المتحدةِ – بصفةٍ خاصةٍ – منْ أجلِ استغلالِ المنطقةِ العربيةِ الغنيةِ بخيراتِها الطبيعيةِ، وموقعِها الاستراتيجيِّ في الصراعِ بينَ الكتلتينِ الكبيرتينِ"[2].

وظهرَ موقفُ الدعمِ المجتمعيِّ والدينيِّ الأمريكيِّ للاحتلالِ من خلالِ تنظيمِ الزياراتِ المتبادلةِ بينَ دولةِ الاحتلالِ والمساندينَ الداعمينَ لهمْ في أمريكا، فكانَ لها التأثيرُ الكبيرُ في تشكيلِ أيديولوجيةِ (باروخ) الذي تتلمذَ على أيدي قادةِ الفكرِ والحقدِ المقدسِ، يقولُ الساردُ: "وهناكَ تَعرّفَ (غولدشتاين)، وتقربَ ممنْ يعتنقُ مبادئَ الحقدِ المقدسِ؛ فلبّى دعوتَهُمُ لحضورِ المؤتمراتِ والندواتِ، يصغي جيدًا لما يُقال في المحاضراتِ التي يشرفُ عليها وينظمُها قادةُ الفكرِ الصهيونيِّ من يهودَ ومسيحيينَ، بعضُهُمْ مقيمٌ بشكلٍ دائمٍ في أمريكا، ويزورُ إسرائيلَ ضمنَ وفودِ الدعمِ والمساندةِ التي تحجُّ إلى "تل أبيب" على مدارِ الساعةِ، وبعضُهُمْ بالعكسِ يأتي أمريكا زائرًا لشحذِ الهممِ والاطمئنانِ على مخزونِ حقدِ القلوبِ؛ أنه في أعلى مستوياتِهِ"[3].

فهذا الدعمُ الأمريكيُّ الكاملُ صورةٌ منْ صورِ الدعمِ والدفاعِ المطلقِ عن إسرائيلَ، ويترسخُ من خلالِهِ تعبئةُ العقولِ بالفكرِ المتطرفِ، الداعي إلى الجريمةِ، الذي يترجمُهُ المتدينونَ الحاقدونَ سلوكًا حقيقيًّا، ويجسدهُ (باروخ غولدشتاين) بالمجزرةِ البشعةِ التي اقترفَها في الحرمِ الإبراهيميِّ، فكانَ صورةً ناطقةً لهذا الدعمِ المطلقِ.

---

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٢.

(2) فوزي الحاج، صورة اليهودي في المسرح العربي في مصر، رسالة دكتوراة، جامعة عين شمس، مصر، ١٩٨٨م، ص٢١٣.

(3) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٠.

وكانَ شعورُ الفلسطينيِّ بالغطرسةِ الأمريكيةِ عارمًا، فتولدتْ لديه كراهيتُهُمْ، لما يمارسونَهُ منْ نفاقٍ وازدواجيةٍ في المعاييرِ، وقد شعرَ (أسعد) بمرارةِ ذلكَ، يقولُ: "فنحنُ قبلَ العراقيينَ من أوائلِ من تأذوا منْ غطرستِهِمْ وحقدِهِمْ ونفاقِهِمُ الرخيصِ، وكيلِهِمْ بألفِ مكيالٍ، حسبَ بوصلةِ المصلحةِ، فكيفَ لا أكرهُهُمْ؟!"[1].

ولمْ يكنْ هذا الشعورُ قاصرًا على الابْنِ، بل تعداهُ إلى الأبِ، فـ(أنور) الذي يقيمُ في بلادِ الأحلامِ أمريكا يمتلئُ أيضًا بشعورِ المرارةِ الذي وصفَهُ لـ(أمير أغا) بالويلاتِ، يقول: "أنا من بلادٍ ذاقتْ ويلاتِ السياسةِ الأمريكيةِ، فأنتَ تعلمُ موقفَها من قضيةِ كفاحِ شعبِنا، وتحالفَها الاستراتيجيَّ معَ إسرائيلَ"[2].

فشخصياتُ الكاتبِ خلوصي عويضة، كانتْ مدركةً وعلى وعيٍ كبيرٍ بواقعِ الانحيازِ الأمريكيِّ الذي يصلُ إلى حدِّ الجريمةِ، فالابنُ (أسعد) يؤكدُ تجرعَهُمْ للإيذاءِ الأمريكيِّ القاهرِ الذي سبقوا به العراقيينَ، فمنذُ النكبةِ وعبرَ محطاتِ معاناةِ الشعبِ الفلسطينيِّ لم يجدوا في الموقفِ الأمريكيِّ سوى الدعمِ الشاملِ، والاحتضانِ الكاملِ للمشروعِ الاحتلاليِّ الصهيونيِّ للأرضِ، والإنسانِ، والمقدساتِ.

كما يبرزُ الدعمُ الأمريكيُّ بصورةٍ فاضحةٍ عبر تبني مشاريعِ الاستيطانِ، واتخاذِها سبيلًا لإعلاءِ دولةِ إسرائيلَ، فنجدُ الإداراتِ الأمريكيةَ المتعاقبةَ تحتفي بتمددِ الاستيطانِ، بتأييدها نهبَ الأراضي الفلسطينيةِ، يقولُ السارد واصفًا الدعمَ الأمريكيَّ للاستيطانِ: "إذا ففكرةُ مشروعِ الاستيطانِ والإحلالِ قاسمٌ ومبدأٌ مشتركٌ بينَ اليهودِ وحلفائِهِمْ منَ المسيحيينَ المتصهينينَ"[3]. فهؤلاءُ المسيحيونَ المتصهينونَ هم المحركونَ الحقيقيونَ للمشهدِ الأمريكيِّ، والراسمونَ لسياسةِ أمريكا المنحازةِ الداعمةِ للاستيطانِ الصهيونيِّ الذي هوَ قاسمٌ ومبدأٌ مشتركٌ مع إسرائيلِ في تغولِها وتوغلِها الاستيطانيِّ.

ويظهرُ الكاتبُ المطالبةَ الحثيثةَ التي يوجهُها قادةُ الفكرِ الصهيونيِّ المسيحيِّ في أمريكا نحوَ زيادةِ الدعمِ للاستيطانِ: "ويطالبُ بزيادةِ الإنفاقِ على المستوطنينَ وقادتِهم في كلِّ بقعةٍ منْ أرضِ كنعانَ، معَ التركيزِ على القدسِ والخليلِ"[4].

فهمْ لم يكتفوا بالدعمِ المتواصلِ للتوسعِ الاستيطانيِّ السرطانيِّ، بل يطالبونَ بزيادةِ الإنفاقِ الأمريكيِّ، ورفعِ سقفِ ميزانيتِهِ منَ الخزانةِ الأمريكيةِ، وهذا الدعمُ يتجهُ نحوَ المدنِ المقدسةِ في فلسطينَ، فهم يريدونَ طمسَ المعالمِ الإسلاميةِ والعربيةِ في القدسِ والخليلِ، تحقيقًا لنبوءةِ التوراةِ

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٣٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢١.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٤.

(٤) المصدر السابق، ص٣٠.

والإنجيلِ في نزولِ المسيح إلى بيتِ المقدسِ، وهذا يفسرُ الدعمَ المسيحيَّ الصهيونيَّ الأمريكيَّ للكيانِ، فالسياسةُ تتعانقُ معَ الأحلامِ الدينيةِ.

وقدِ استطاعَ الكاتبُ تجسيدَ الرؤيةِ السياسيةِ للموقفِ الأمريكيِّ المنحازِ والداعمِ بالمطلقِ لدولةِ الكيانِ الغاصبِ، وقد برعَ في تنويعِ مشاهدِ هذا الموقفِ، من خلالِ شخصياتِ روايتِهِ، فتارةً تصّدرَ ذلك (باروخ) المجرمُ الذي صنعتَهُ البيئةُ المسيحيةُ الصهيونيةُ، وأخرى عرضَها لنا (أسعد) بطلُ الروايةِ في سردِهِ لمشاهدِ وصولِهِ إلى بغدادِ، وتارةً عبرَ شخصيةِ (أنور) الذي عاشَ في أمريكا، لكنَّهُ لم يغمضْ عينيْهِ عن حقيقةِ الوقوفِ المخزي للدولةِ التي يعيشُ فيها ضدَّ بلادهِ السليبةِ التي قدِمَ منها.

المحورُ الثاني: القضيةُ العراقيةُ:

شهدَ العراقُ على مرِّ عصورِهِ، وكرِّ تاريخِهِ أحداثًا وحروبًا سياسيةً ودينيةً كبرى عصفتْ بِهِ، وحظيتْ تلكَ الأحداثُ والمحطاتُ بالحضورِ القويِّ في الفنونِ الأدبيةِ الشعريةِ منها والنثريةِ، وإنْ كانَ الشعرُ قدْ حازَ على قصبِ السبقِ في التعبيرِ عن مكنونِ الشعراءِ –كون العراقِ موطنًا من مواطنِ الشعرِ العربيِّ القديمِ–؛ فإنّ العملَ الروائيَّ كان حاضرًا بقوتِهِ وزخمِهِ يحكي عن العذاباتِ والحكاياتِ والبطولاتِ التي سطَّرَها أبناءُ العراقِ. "تميزَ النصَّ الروائيُّ العراقيُّ دونَ غيرِهِ منَ النصوصِ العربيةِ بارتباطِهِ المباشرِ بتاريخِ العراقِ وحوادثِهِ السياسيةِ وتحولاتِهِ العنيفةِ"[١].

شكَّلَ المنعطفُ التاريخيُّ الحادُ إبانَ العدوانِ الكبيرِ على العراقِ واحتلالِهِ سنةَ ٢٠٠٣م تحولًا جذريًّا في الحالةِ الثقافيةِ والفكريةِ لدي الكثيرِ من الكُتّابِ والأدباءِ، وامتدَّ تأثيرُ ذلك إلى سائرِ العراقيينَ والعربِ بشكلٍ عامٍّ، فكانَ العملُ الروائيُّ مهمومًا بتجسيدِ الواقعِ المأساويِّ الجديدِ. وبرزتْ قضيةُ الاحتلالِ الأمريكيِّ في مقدمةِ الإشكالاتِ التي تصدى لها الروائيونَ، لأنَّ الغزوَّ وما أحدثَهُ منَ انقساماتٍ اجتماعيةٍ وسياسيةٍ ومذهبيةٍ قدَّمَ مادةً خصبةً يستقي منها الكتابُ والأدباءُ قصصَهُمْ[٢]. وقد سجلتِ الروايةُ العراقيةُ قفزةً نوعيةً في عددِ الرواياتِ الصادرةِ في الفترةِ الممتدةِ بين سنتيْ ٢٠٠٣م و ٢٠١٤م. "حيث وصلَ العددُ لأكثرَ من أربعمئةٍ وسبعينَ روايةً، وبذلكَ إشارةٌ إلى انتشارِ ثقافةِ الكتابةِ الروائيةِ في الوسطِ الأدبيِّ"[٣].

---

(١) سلام إبراهيم، الرواية العراقية: رصد الخراب العراقي في أزمات الدكتاتورية والحروب والاحتلال وسلطة الطوائف، د.ط، المركز العربي للأبحاث، الدوحة، ٢٠١٢م، ص١.

(٢) يُنظر: مروان الجبور، مقال إلكتروني بعنوان: الرواية العراقية الجديدة. شبكة الجزيرة الإعلامية، منشور بتاريخ ٢٧ مارس ٢٠١٦م، التعريف الرقمي للموقع: https://bit.ly/3i3ja7D

(٣) مازن معموري، مقال إلكتروني بعنوان: الرواية العراقية التحولات والمُنجز الثري، شبكة الميادين الإعلامية، منشور بتاريخ ١٥ أغسطس ٢٠١٨م، التعريف الرقمي للموقع: https://bit.ly/3ixZKqi

وقد ضمتْ أحداثُ روايةِ "المباهلة" التسلسلَ التاريخيَّ للمنعطفاتِ التاريخيةِ في العراقِ، وجسدت صورتَها في المدةِ التي سبقتِ الغزوَ الأمريكيَّ، مرورًا بسقوطِ بغدادَ والبصرةِ، واحتلالِ كلِّ المدنِ العراقيةِ، وقد رسمتْ مشاهدَ بارعةً للوحةِ المقاومةِ العراقيةِ للاحتلالِ، وانتقلتْ لتجسيدِ النزاعِ الطائفيِّ بينَ أطيافِ العراقيينَ المتعددةِ، ونقلتْ صورةً شاملةً للوضعِ السياسيِّ بشكلٍ عامٍّ، وصولًا إلى أحداثِ الربيعِ العربيِّ، وربطتْ بينَ الواقعِ العربيِّ في الدولِ العربيةِ والإسلاميةِ، لا سيما فلسطينُ والعراقُ وسوريا وأفغانستانُ.

وسيقفُ الباحثُ في مقاربتِه لنصوصِ القضيةِ العراقيةِ، على رؤيتيْنِ أساسيتيْنِ:

١- السياسةُ الغربيةُ تجاهَ العراقِ:

افتعلتِ القوى العالميةُ المتمثلةُ بأمريكا وبريطانيا المعضلاتِ الكبرى لضربِ العراقِ من أجلِ إضعافِهِ، لما يمثلُهُ من قوةٍ عربيةٍ صاعدةٍ، واتخذتْ من غزوِ العراقِ للكويتِ، وادعاءِ وجودِ أسلحةِ الدمارِ الشاملِ مبررًا ظاهرًا للهجومِ عليه وتدميرِهِ، بينما كانتْ تخفي الدوافعَ الدينيةَ والسياسيةَ والاقتصاديةَ الواضحةَ. وهو الأمرُ الذي أكدَهُ الرئيسُ الأمريكيُّ "جيمي كارتر" في العام١٩٨٠م، حيثُ أعلنَ: "أن محاولةَ أيِّ قوةٍ خارجيةٍ تحقيقَ السيطرةِ على منطقةِ الخليجِ سوفَ تعدُّ هجومًا على المصالحِ الحيويةِ للولاياتِ المتحدةِ، وسوفَ يُصَدُّ مثلُ هذا الهجومِ بأيةِ وسيلةٍ ضروريةٍ، بما فيها القوةِ العسكريةِ"[١].

وقد سبقَ الهجومَ الغربيَّ على العراقِ مؤامرةٌ محبوكةٌ وحصارٌ مشددٌ. "ذاقَ فيهِ العراقيونَ الويلاتِ، وتعرضَ العراقُ لأكثرَ من ثلاثةَ عشرَ عامًا لحربٍ شرسةٍ وحصارٍ همجيٍّ وحاقدٍ، شنتْهُ كلٌّ من بريطانيا وأمريكا بحججٍ ومبرراتٍ مختلفةٍ"[٢].

استحوذَ المشهدُ العراقيُّ على حيزٍ واضحٍ في روايةِ "المباهلة"، وشكلتْ أحداثُ الساحةِ العراقيةِ دافعًا قويًّا لعمليةِ السردِ الروائيِّ، وتأزمِ المواقفِ، وتكوينِ الرؤى الفكريةِ والتحولاتِ الأيديولوجيةِ لشخصياتِ الروايةِ.

استطاعَ الكاتبُ خلوصي عويضة أن يدمجَ القضيةِ العراقيةِ معَ القضايا الأخرى في روايتِهِ منْ خلالِ شخصيةِ البطلِ (أسعد)، الذي انطلقَ من فلسطينَ عنْ طريقِ الأردنِ لزيارةِ أهلِهِ في العراقِ قُبيلَ احتلال٢٠٠٣م، حيث صوِّرتِ الروايةُ مشاهدَ الحصارِ الغربيِّ المشددِ على العراقِ، يقولُ (أسعد):

(١) محمد الأدهمي، الطريق إلى حرب الخليج، الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧م، ص٧٠.

(٢) يوسف الطويل، الحملة الصليبية على العالم الإسلامي والعالم، مرجع سابق، ص١٢. بتصرف.

"حصلْنا على التأشيرةِ منَ السفارةِ، وانطلقتْ بنا الحافلةُ تقطعُ الصحراءَ الأردنيةَ العراقيةَ، فلا طيرانَ إلى بغدادَ المحاصرةِ، ويريدونَها أنْ تلفظُ أنفاسَها؛ فتموتَ قهرًا وجوعًا ومرضًا"[١].

فتزيدُ المسافةُ وتطول على المسافرين إلى العراقِ تحتِ لهبِ الصحراءِ القاحلةِ من شعورِ الحصارِ المريرِ، كما أنَّ انقطاعَ الأدويةِ والأغذيةِ الذي أودى بحياةِ الأطفالِ والنساءِ والرجالِ والشيوخِ، والحصارَ الاقتصاديَّ الذي أعادَ العراقَ إلى عصورٍ متأخرةٍ، كلُّ تلكَ المشاهدِ التي رآها (أسعد) وعايشَها، جعلتْهُ مدركًا للخطرِ العظيمِ الذي أحاقَ بذلك البلدِ العزيزِ على قلوبِ الفلسطينيينَ، والعربِ.

ويصفُ (أسعد) مشهدَ اشتدادِ الحصارِ على العراقِ، وعزمِ القوى العظمى على ضربهِ واحتلالِهِ، وما تعرضتْ لهُ بغدادُ من هجومٍ بريٍّ وجويٍّ وحشيٍّ، قائلًا: "إنهُ ربيعُ بغدادَ الرابعَ منذُ الألفيةِ الجديدةِ... ربيعٌ يُمْطرُ شهبًا منْ نارٍ، كأنما السماءُ تحترقُ، وصواريخُ "كروز" تطيرُ ناعقةً في طريقِها لضربِ الهدفِ، هكذا على امتدادِ أيامِ الحربِ زفرتْ جهنمُ بعضًا من أحشاءِ جحيمِها بأنفاسٍ لاهبةٍ، تحرقُ العراقَ منْ كلِّ الجهاتِ والجبهاتِ، أشلاءٌ تتمزقُ محترقةً، تتطايرُ في الهواءِ المسممِ برائحةِ القتلِ، تلوحُ مودعةً أرواحًا سكنتَها فملأتَها بأحلامِ الحياةِ، فإذا الموتُ القادمُ برًّا وبحراً وجوًّا من وراءِ المحيطِ، والمحيطُ يغتالُ الأحلامَ يحرقُها بنارِ حقدٍ تأججتْ في القلوبِ، وأرهقَ كاهلَها إرثُها من البغضاءِ"[٢].

شكَّلتْ هذه الأحداثُ المتسارعةُ، والمشاهدُ المريعةُ للغزوِ المدمرِ بؤرةَ التحولِ الفكريِّ، لدى (أسعد) و(عادل)، فزرعتْ في عقليْهما الأفكارَ الأيديولوجيةَ المبنيةَ على الانتقامِ والثأرِ، فشهدتْ تلكَ المرحلةُ مقتلَ مئاتِ الآلافِ من العراقيينَ جراءَ القصفِ الجويِّ القادمِ منْ خلفِ المحيطاتِ، أو الهجومِ البريِّ المشبعِ بالحقدِ والكرهِ لكلِّ ما هو عربيٌّ وإسلاميٌّ.

وتُلقي القضيةُ العراقيةُ بظلالِها على علاقةِ (أنور) بمحيطِهِ داخلَ المجتمعِ الأمريكيِّ، فبعدَ سقوطِ النظامِ العراقيِّ، وانتشارِ الفوضى والدمارِ والخرابِ، يجدُ أنور صعوبةً كبيرةً في التواصلِ معَ أهلِهِ وذويهِ في العراقِ بسببِ ما حلَّ بهم، فيسألُ (إيزابيل) مستفهمًا عن صعوبةِ ذلك، ومتهمًا دولتَها بالتسببِ بكلِّ الخرابِ والدمارِ للعراقيينَ؛ فتجيبُهُ مدافعةً عن سياسةِ بلادِها: "إنَّ بناءَ ديمقراطيةٍ هناكَ هو هدفٌ مركزيٌّ للحربِ، يحتاجُ إلى وقتٍ، وأعداءُ النهجِ الديمقراطيِّ الغربيِّ كثُرٌ، سوفَ يعرقلونَ ما يقومُ بهِ الحاكمُ المدنيُّ (بول بريمر)، والقائدُ (شوارسكوف)، وجهودُ (رامسفيلد) السياسيةُ تحتاجُ إلى زمنٍ كيْ تنضجَ وتعطيَ ثمارَها"[٣].

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٩٨.

(٢) المصدر السابق، ص١٦٢.

(٣) المصدر السابق، ص١٧٨.

لكنَّ (أنور) يعرفُ أنَّ ما تقولَهُ هو مجردُ وهمٍ وتضليلٍ، فيصفُ جهودَ (رامسفيلد) بالأكاذيبِ والخدعِ، ويسترجعُ المبرراتِ الواهيةِ التي ساقتَها السياسةُ الأمريكيةُ لضربِ العراقِ واحتلالِهِ، يقولُ (أنور): "هذا ملعبُكُمْ الذي لا ينافسُكُمُ فيهِ أحدٌ، عفوًا (إيزابيل) إنه مُتخمٌ بالأكاذيبِ، فحتى الرئيسُ (بوش) لم يتورعْ عنِ الكذبِ لتبريرِ أفعالِهِ، فأينَ الأسلحةُ الكيميائيةُ والبيولوجيةُ المزعومةُ التي ساقَها مبررًا للحربِ؟! محضُ افتراءاتٍ رخيصةٍ، لكن... دعينا من السياسةِ التي أحتقرُها"[١]. فتجيبُ عليه مبررةً سياسةَ دولتِها، والأيديولوجيةَ التي تنطلقُ من خلالِها: "لا، لا (أنور) أنتَ مخطئٌ، فالسياسةُ هي المدخلُ الصحيحُ للأمنِ والاقتصادِ والرفاهيةِ، وبالمناسبةِ لا يهمني الرئيسُ أو غيرُهُ، يهمني فقطْ أمنُ أمريكا، وليذهبِ العالمُ إلى الجحيمِ"[٢].

تعربُ (إيزابيل) في نهايةِ الحوارِ عن عنصريتِها وهمجيتِها، فأمنُ أمريكا هو الأهمُ لديها، وليكنِ العالمُ الثالثُ مُسخرًا لخدمةِ العمِّ (سام)، حتى لو احترقَ وأُبيدَ في سبيلِ رفاهيةِ الأمريكانِ، فهي تقدمُ تبريراتٍ ساذجةً، وأدلةً واهيةً لتحافظَ على صورةِ الديمقراطيةِ الكاذبةِ، وفي المقابلِ نجدُ أنَّ الماكينةَ الإعلاميةَ الغربيةَ لم تفلحْ في سلخِ (أنور) عنْ روحِهِ العربيةِ الصميمةِ، ولم تغير من انتمائِهِ للشعوبِ المضطهدةِ، فهو يرفضُ الغزوَ والاحتلالَ، ويرى في رموزِهِ الحاكمةِ مثالًا للتضليلِ والأكاذيبِ، ولا ينافقُ في ذلك، ولا يخشى من إبداءِ استنكارِهِ للوحشيةِ والعدوانيةِ التي تمارسُها أمريكا.

ينقلُ لنا الكاتبُ صورةً أخرى للسياسةِ الأمريكيةِ تجاهَ بلادِ المسلمينَ عمومًا والعراقِ خصيصًا، يبرزها الحوارُ الذي دارَ بينَ (أنور) و(أمير أغا)، تلكَ النظرةُ التي تقومُ على التلونِ في المواقفِ، بما يحققُ المصلحةَ الأمريكية، يقول (أمير أغا): "منذُ الحربِ الأمريكيةِ على أفغانستانَ؛ وقعتْ بلادُ المسلمينَ في قبضةِ تحالفِ الناتو وعملائِهِمُ الهزارا[٣] والآنَ تتكررُ الجريمةُ في العراقِ بنفسِ الطريقةِ، من يعلمُ ماذا أو منْ غدًا؟ انظرْ دناءةَ الأمريكيينِ وحقارةِ سياستِهِمُ المتلوّنةِ كالحرباءِ، لقد كانوا يسمونَنا المجاهدينَ عندما كنّا نحاربُ خصومَهُمُ الروسَ، والآنَ أصبحْنا إرهابيينَ!!"[٤].

فقد كانتْ أمريكا تصفُ المقاتلينَ المسلمينَ بالمجاهدينَ، وتغدقُ عليهم بالأموالِ والسلاحِ لقتالِ روسيا، وبعدما سقطتْ روسيا وانتقلَ المجاهدونَ لقتالِ الاحتلالِ الأمريكيِّ في أفغانستانَ وباكستانَ والعراقِ تغيرَ الحالُ والوصفُ من مجاهدينَ إلى إرهابيينَ، وهذا يظهرُ الاستقواءَ الأمريكيَّ على الشعوبِ، واستغلالِها بما يحققُ مصالحَها وأهدافَها وأطماعَها.

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٧٨.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) الهزارا: الشيعة في أفغانستان.

(٤) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٢١.

تتضحُ من النصوصِ السابقةِ وحوارِ الشخصياتِ فيها قدرةُ الكاتبِ على توظيفِ المواقفِ السياسيةِ الأمريكيةِ والغربيةِ تجاهَ العراقِ وبلادِ المسلمينَ؛ بما يخدم معمارَهُ الفنيَّ الروائيَّ، فقد شكلتِ القضيةُ العراقيةُ محورًا رئيسًا في الصراعِ المتنامي بينَ أبطالِ الروايةِ، وقدِ استطاعَ تقديمَ ذلك بأسلوبٍ توافقيٍّ يحافظُ على السردِ الماتعِ الذي يقدمُ الرؤى الفكريةَ والسياسيةَ عبرَ عرضٍ دراميٍّ شائقٍ.

٢-المقاومةُ العراقيةُ ضدَّ الاحتلالِ:

شكلتِ المقاومةُ العراقيةُ ردًّا طبيعيًّا على الاحتلالِ الأمريكيِّ وأعوانِهِ، وكانتْ خيارًا ثابتًا وعقيدةً وطنيةً راسخةً ترفضُ العدوانَ، وتؤمنُ بحتميةِ الحقِّ في الدفاعِ عنِ الأرضِ والدينِ والإنسانِ. وقد جعلتْ تحريرَ العراقِ هدفًا واضحا وأولويةً قصوى لها، بالرغمِ من محاولاتِ التثبيطِ والتخويفِ، وتعرضتِ المقاومةُ العراقيةُ لجميعِ الضغوطِ والمضايقاتِ النفسيةِ والإعلاميةِ والأمنيةِ والماديةِ الهائلةِ[١].

وبدأتْ مجموعاتُ المقاومةِ تتشكلُ بعدَ المجازرِ التي اقترفَها الاحتلالُ الأجنبيُّ، وكانتْ باكورةُ العملياتِ في المدنِ والقرى السنيةِ مثلَ الفلوجةِ والأنبارِ وصلاحِ الدينِ.

وقد قدمتْ روايةُ "المباهلة" رؤيةً واقعيةً للمقاومةِ العراقيةِ، استثمرَ فيها الروائيُّ كلَّ المعطياتِ والأحداثِ والتجاذباتِ عبرَ حبكةٍ روائيةٍ مزجتْ بينَ الواقعِ والخيالِ والمعرفةِ الميدانيةِ والدقيقةِ للميدانِ وساحاتِ القتالِ، وتفاصيلِ المجتمعِ العراقيِّ.

تبدأُ فكرةُ العملِ المسلحِ عندَ (أسعد) بعدَ سقوطِ النظامِ، فينخرطُ في مجموعةٍ مسلحةٍ، ويبايعُ أميرَها (الشيخَ محسن) الذي أرسلَ في طلبِهِ قائلًا: "مرحبًا بـ(أسعد) قاهرِ الأعداءِ، إنما كنتُ أمتحنُ عزيمةَ صبرِكَ لكثرةِ ما سمعتُ عن بأسِكَ في ميادينِ القتالِ وساحاتِ الوغى -أيها المحاربُ العنيدُ والمقاتلُ الصنديدُ-؛ حتى عزمتُ على لقائِكَ، وهاكَ يدي: لندعْ أقدارَنا قبلَ أكفِنا تلتحمُ متوحدةً في الجهادِ حتى الموتَ، أو الموتَ فلا سبيلَ للنصرِ الآنَ، إنما نمهدُ الطريقَ لمنْ يأتيَ بعدنا، نذودُ عن حياضِ الأمةِ مدافعينَ بضريبةِ الدمِ عن شرفِ انتمائِنا لهذا الدينِ العظيمِ"[٢].

وبعدَ مبايعةِ (أسعد) على القتالِ والجهادِ يطلبُ منه أميرُ المجموعةِ أنْ يرافقَ (عادل) في كتيبةِ الموتِ، ويشجعُهُ بالآياتِ والأحاديثِ الدينيةِ التي تحضُّ على الجهادِ والقتالِ، وبذلكَ يتشربُ (أسعد) أيديولوجيا الجهادِ والقتالِ، يقولُ (الشيخُ محسن): "قبلتُ بيعتَكَ، ووثقتُ بعهدِكَ؛ فانطلقْ معَ (عادل) -أبي جندل- فأطعْهُ فيما يأمرُكَ، وليكنْ لكَ معَهُ سهمٌ في كتيبةِ الموتِ، ومعَكُما عشراتُ المقاتلينِ الأفذاذِ من أبناءِ العراقِ الأبيِّ، ازرعوا الموتَ، واحصدوا الأرواحَ، أريدُ الرعبَ أن يقتلَهُمْ قبلَ

---

(١)يُنظر:حارث الضاري، المقاومة العراقية:انطلاقتها وتطورهاوأهدافها، ط١،مؤسسة البصائر،بيروت،٢٠١٠م، ص١٣.

(٢) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٦٣.

أن تقتلوهُمْ، ألمْ يقلِ النبيُّ –عليه الصلاةُ والسلامُ–: نصرتُ بالرعبِ من مسيرةِ شهرٍ؟ هكذا أنتمْ: اقتلوهُمْ حيثُ ثقفتموهُمْ، وطهروا أرضَ الرافدينِ من دنسِهِمْ ورجسِهِمْ، واسمعْ، واسمعْ، اسمعْ وأطِعْ"(1).

فينطلقُ (أسعد) متسلحًا بوصايا شيخِهِ، وما بثَّهُ فيه من روحٍ جهاديةٍ، تشعلُ في أعماقِهِ نارَ المقاومةِ، وتحثُّه على الاِنْتقامِ من الأعداءِ الذين أحالوا العراقَ إلى جحيمٍ، منخرطًا في صفوفِ كتيبةِ الموتِ التي تُوكلُ إليها مهامُ الردعِ القاسي من خلالِ عملياتٍ محكمةِ الإتقانِ تعتمدُ على القتلِ العنيفِ، والردودِ الانتقاميةِ.

وفي محطةٍ أخرى منْ محطاتِ الروايةِ يقتلُ (أسعد) جنديًّا أمريكيًّا بعدَ أنْ ينجحَ بالفرارِ من معتقلِ "أبو غريب"، ويصرحُ بذلكَ للحاجِّ (أبو جعفر) صديقِ جدِّهِ الثاني، لكنَّ الحاجَ (أبو جعفر) يخشى عليهِ منَ القتلِ، ويطلبُ منه الهربَ منَ العراقِ قائلًا: "قتلُ جنديٍّ أمريكيٍّ يعني أنَّ الموتَ ينتظرُكَ إنْ لمْ تغادرِ العراقَ، أنصحُكَ يا ولدي أنْ تفكرَ بالسفرِ إلى الأردنِ، وتعودَ للضفةِ"(2).

هنا تظهرُ قدرةُ الكاتبِ على توظيفِ شخصيةِ (أسعد) ليكونَ مقاومًا شرسًا للعدوِّ، يقاومُ بالسلاحِ؛ فيقتلَ جنديًّا أمريكيًّا، ويفرَّ منَ السجنِ الشهيرِ، ولا يعبأَ بمطاردتِهِمْ لهُ، ولا بنصائحِ صديقِ جدِّهِ الثاني.

وبعدَ عملياتِ كرٍّ وفرٍّ يقعُ (أسعد) في الاعتقالِ، لكنَّ هذهِ المرةَ يؤسرُ هو وابنُ عمِّهِ (عادل)، ويحكمُ عليهِ بالإعدامِ، فيصورُ (أسعد) ذلكَ: "قبلَ مُضِيِّ أقلِ منْ عامٍ على اعتقالي الثاني، تمَّ تقديمي لمحكمةٍ صوريةٍ، فقادوني مسلسلًا إلى محكمةٍ كان قضاتُها يرتدونَ زيًّا عسكريًّا، طالعوا الملفَ، وتحدثَ أمامَهُمْ وكيلُ نيابةٍ بأقسى العباراتِ قائلًا بوقاحةٍ وصفاقةٍ منقطعةِ النظيرِ: "أوسعْنا له مكانًا بينَنا ليتعلمَ فأوسعَنا قتلًا" مطالبًا بعقوبةِ الإعدامِ التي سرعانَ ما نطقَ بها أوسطُ الطراطيرِ"(3).

هذا المشهدُ تكررَ معَ شابٍ جزائريٍّ انضمَ للمقاومةِ العراقيةِ، وقتلَ عددًا منْ جنودِ الاحتلالِ الأمريكيِّ، يقولُ (أسعد): "وتكررَ في الجلسةِ نفسِها الأمرُ نفسُهُ معَ شابٍّ جزائريٍّ اسمهُ (هارون) صاحَ بفرحٍ عندَ النطقِ بالإعدامِ: الحمدُ للهِ، ثُّم همسَ لي: يحقُّ لمثلِنا أنْ يهنأَ بموتِهِ ويفخرَ، وقدْ أذقْنا الجنودَ الأمريكيينَ مهانةَ الموتِ"(4).

فلم يَعُدْ يعبأُ كلاهما –أسعد وهارون– بالموتِ، وقد أظهرا سعادتَهُما بحكمِ الإعدامِ الذي سيجعلُهُما شهيدينِ، فهما صَدَقا في جهادِهمُا وأخلصا في مقاومتِهما، وهنا يُظْهِرُ الكاتبُ رغبةَ الشبابِ العربيِّ في تحريرِ بلادِهِ والتصدي لأعدائِهِ، فهذا فلسطينيٌّ وذاك جزائريٌّ يدافعانِ عن بلادِ الرافدينِ التي

---

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٦٣.

(2) المصدر السابق، ص٢٠٨.

(3) المصدر السابق، ص٢١١.

(4) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

غزاها الغربُ؛ ليحكمَ سيطرتَهُ على رقابِ الشعوبِ، ويمعنَ في نهبِ خيراتِها، وسلبِ مقدراتِها، ويحطمَ حاضرَها ومستقبلَها، ويشوهَ ماضيها. فالكاتبُ حريصٌ على تجسيدِ الرؤى الفكريةِ السياسيةِ لدى قارئِهِ، تلكَ الرؤى القائمةُ على مفاهيمِ الانتماءِ العروبيِّ والإسلاميِّ، والتصدي لأيِّ عدوانٍ يمسُّ أيَّ جزءٍ منْ جسدِ الأمةِ.

وانطلاقًا من تلكَ الرؤى لمْ يغفلِ الكاتبُ تصويرَ العملياتِ الكبرى للمقاومةِ العراقيةِ، فجسدَ في روايتِهِ تفاصيلَ عمليةِ اقتحامِ المقاومةِ لسجنِ "أبو غريب"، وتحريرِ المعتقلينَ من داخلِهِ، وبرعَ في دمجِ واقعِ حياةِ (أسعد) و(عادل) داخلَ السجنِ معَ الحدثِ الحقيقيِّ الذي شهدَهُ العراقُ في تموزَ ٢٠١٣م. حيثُ فرَّ مئاتُ المعتقلينَ من سجنِ "أبو غريب" بالقربِ منَ العاصمةِ العراقيةِ بغدادَ بعدما نجحتِ المقاومةُ العراقيةُ في اقتحامِهِ وتهريبِ الأسرى، واندلعَ قتالٌ على مدى عدةِ ساعاتٍ بين مسلحي المقاومةِ العراقيةِ والقواتِ الأمريكيةِ والعراقيةِ في أعقابِ اقتحامِ سجنِ "أبو غريب" غربيِّ بغدادَ[١].

يصورُ الكاتبُ مشهدَ اقتحامِ السجنِ على لسانِ (أسعد): "دوَّتْ أصواتُ انفجاراتٍ عنيفةٍ تزامنتْ معَ زخاتِ رصاصٍ لا تهدأُ، ثمَّ دوتْ أصواتُ قنابلَ أشعلتْ حرائقَ، وبدأْنا نشتمُ رائحةَ دُخانٍ، ومنْ عنابرَ مجاورةٍ تعالتْ أصواتٌ: السجنُ يحترقُ، يحترقُ... ألسنةُ لهبٍ، ثم أربعُ قذائفَ هاون دكتِ المكانَ، تبعَها إطلاقُ رصاصٍ كثيفٍ يوحي بوقوعِ اشتباكٍ ومواجهةٍ، لحظتُها صدَحَتْ تكبيراتُ المعتقلينَ هاتفينَ بفرحٍ لا يُصَدَّقُ ويستحيلُ أنْ يُوصفَ: اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ، وتواصلَ الرصاصُ ينهمرُ معَ القنابلِ، ثمَّ خلالَ لحظاتٍ تتابعَ الرصاصُ متقطعًا، وتوقفتِ الانفجاراتُ وعلا التهليلُ وصيحاتُ التكبيرِ، وتمَّ إخمادُ دويِّ صفيرِ الإنذارِ، وتحولتْ ساحةَ المعتقلِ لجبهةِ حربٍ وجهًا لوجهٍ، ومعَ موجاتِ هديرِ اللهُ أكبرُ، بدأنا نسمعُ أصواتِ تحطيمِ أبوابِ المعتقلينَ: تمَّ اقتحامُ المعتقلِ، هروب، هروب"[٢].

يُظهرُ المشهدُ السابقُ براعةَ الكاتبِ في تصويرِ أحداثِ اقتحامِ السجنِ وتحريرِ الأسرى، ويجسدُ قوةَ المقاومةِ العراقيةِ في تحديها للاحتلالِ الأجنبيِّ والقواتِ العراقيةِ المواليةِ لهُ، فسجنُ "أبو غريب" كان مَعْلمًا من معالمِ الذلِّ والهوانِ تُرتكبُ فيه أفظعُ جرائمِ التعذيبِ الجسديِّ والنفسيِّ التي تجرعَها أبناءُ العراقِ المناوئينَ للاحتلالِ الأجنبيِّ وأعوانِهِ.

ومعَ استمرارِ صولاتِ القتالِ بينَ المقاومةِ العراقيةِ والاحتلالِ وأعوانِهِ، نجدُ (أسعد) قدْ حدَّدَ أولوياتِ مجموعتِهِ المسلحةِ بقيادةِ ابنِ عمِّهِ (عادل): "حَرَصْنا على أمريْنِ؛ أولُهُما: عدمُ التورطِ بحوادثِ

---

(١) حكيم الزميلي، من خبر صحفي منشور على موقع شبكة BBC NEWS، منشور بتاريخ ٢٢ يوليو ٢٠١٣م، التعريف الرقمي للموقع: https://bbc.in/3wZXI7p ، بتصرف.

(٢) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢١٣.

استهدافِ المدنيينَ بالأسواقِ والحسينياتِ بقنابلَ مزروعةٍ أو بشريةٍ، وثانيهُما: البقاءُ خارجَ دائرةِ التحالفاتِ، ورفضُ الانضواءِ تحتَ رايةٍ أو جماعةٍ كبيرةٍ"[١].

فهو يريدُها مقاومةً شريفةً، طاهرةَ اليدِ، لا تولغُ بالدماءِ، ولا تتورطُ بالانتماءِ لأجنداتٍ هنا أو هناك، كيلا تكونَ مقاومةً مأجورةً. لكنَّ جرائمَ الصراعِ الطائفيِّ المتجسدةَ بالشيعةِ جعلتْهُ يخرجُ عنْ إطارِ الحدِ من الولوغِ بالدماءِ.

ففي الحوارِ الذي دارَ بينَ (أسعد) و(عادل) بعدَ مقتلِ ابنةِ عمِّهِ (ليلى)، واعتقالِ أختِها (شهد) على أيدي مقاتلي الجيشِ العراقيِّ الشيعيِّ، ينزلقُ (أسعد) لينتقمَ منهم، يقولُ مخاطبًا (عادل):

"-(عادل)... لا محرماتٍ، أتسمعُ؟ لا محرماتٍ ولا خطوطَ حمراءَ، كلُّ شيءٍ مباحٌ، كلُّ شيءٍ.

- لنْ نكونَ مثلَهُمْ، ولنْ..

- بلْ سأكونُ وأسفلَ وأكثرَ دمويةً وإجرامًا.

- لا ... لا يا (أسعد).

- بلى، بلى، بلى، بلى يا (عادل).

- إذًا لنفترقَ؛ فطريقُنا مختلفٌ.

- كما تشاءُ... بحارُ الأرضِ لن تطفئَ جحيمَ غضبي، ولنْ أسمحَ أن يَحولَ شيءٌ دونَ ثأري، مهما كانَ وأيًّا كانَ.

- توقفْ، كفى، لنْ نهبطَ إلى قعرِ الرذيلةِ، لن نفعلَ فعلَهُمْ وننتهكَ أعراضًا محرمةً، وإلا ما الفرقُ بيننا وبينهم؟! أجبني، هيّا أجبْ، اسمعْ وافهمْ، سنقتلُ الأنذالَ، ونطعمُ الكلابَ جيفَهُمْ، أما الأعراضُ فلا"[٢].

يأبى (عادل) أنْ يطغى الحقدُ عليه، وأنْ يُعميَ الانتقامُ بصيرتَهُ، بينما (أسعد) يمتلئُ بذلكَ، ويدعو ابْنَ عمِّهِ إلى تجاوزِ المحرماتِ، وارتكابِ المجازرِ، هوَ صراعٌ عقليٌّ صوَّرَهُ الكاتبُ ببراعةٍ، وكشفَ من خلالهِ عنِ الدوافعِ التي جعلتْ بعضَ فصائلِ المقاومةِ تتجهُ إلى القتلِ الانتقاميِّ، وهذا يفسرُ أيضًا تدخلَ الجهاتِ الخارجيةِ في المقاومةِ، التي دفعتْها في بعضِ المحطاتِ إلى التساوقِ معَ الأحزابِ الشيعيةِ المدفوعةِ منْ إيرانَ. وكما يبدو فإنَّ الكاتبَ استطاعَ أنْ يجسدَ ملمحًا مهمًّا منْ ملامحِ

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص٢٤١.

المقاومةِ العراقيةِ، وهو الانزلاقُ إلى دركِ الانتقاماتِ، وتنفيذِ الأجنداتِ، وعالجَهُ برؤيةٍ سياسيةٍ إنسانيةٍ ترسمُ معالمَ المقاتلِ والمقاومِ الشريفِ الملتزمِ بأخلاقِ الجهادِ التي خطَّها الإسلامُ.

كما أنَّ ساحتَها لمْ تخلُ من تدخلِ الطوائفِ العراقيةِ الأخرى، فالمعروفُ أنَّ المقاومةَ العراقيةَ المسلحةَ بدأتْ منَ المدنِ والقرى السنيةِ، في حينِ أنَّ الطائفةَ الشيعيةَ غضتِ الطرفَ عنِ مقاومةِ الاحتلالِ بادئَ الأمرِ، ثم عمدَتْ في مرحلةٍ متأخرةٍ إلى تشكيلِ "جيشِ المهدي" الموالي لإيرانَ، فخلقتْ بذلكَ بلبلةً وفوضى كبيرتيْنِ، وأدى ذلك إلى انعدامِ القرارِ الموحدِ، يقولُ (أسعد): "أدى ظهورُ ما يُسمّى بـ"جيشِ المهدي" الشيعيِّ إلى حيرةٍ وبلبلةٍ في فهمِ حقيقةِ اختلافِهِمُ السياسيِّ، لكنَّ هزالةَ قتالِهِمْ، وخورَهُمُ المعيبَ المخزي، وأسلوبَ غضِّ الطرفِ، والتسامحَ الذي اتبعَهُ الجيشُ العراقيُّ معَهُمْ، وتقاعسَ الجيشِ الأمريكيّ وتراخيهِ عن قتالِهِمْ كما يفعلُ بهستيريةٍ معَ المقاتلينَ السنةِ الأبطالِ. –هذهِ الطريقةُ المفضوحةُ– أسدلتْ ستارَ المسرحيةِ الخائبةِ، وباتَ لدينا يقينٌ أنَّ المسألةَ توزيعُ أدوارٍ، ومهامٍ؛ للتدليسِ على غوغاءِ العوامِ، كما أنَّ الساحةَ لمْ تخلُ منْ عناصرِ تخريبٍ، وجواسيسَ يهودٍ حرَصوا على إذكاءِ نارِ الفتنةِ، وتوسيعِ نطاقِها بإدخالِ مكوناتٍ أخرى إلى أتونِها، هذا ما كانَ عليهِ رأيُ المجاهدينَ حينَها"[1].

ونرى الكاتبَ يصورُ مراحلَ تطورِ المقاومةِ، مواكبًا للأحداثِ الجسامِ التي مرتْ بها المقاومةُ والعراقُ، فمعَ اشتدادِ الحربِ على المكونِ السُّنيِّ، وتعمدِ إعدامِ الرئيسِ العراقيِّ "صدام حسين" في يومِ عيدِ الأضحى المباركِ، اشتدتْ دائرةُ النارِ والقتلِ على الاحتلالِ الأمريكيِّ وأعوانِهِ، يقولُ (أسعد): "من مِثْلي –بعدما عايشتُ– يعرفُ عمقَ ارتباطِ السياسةِ بالمصالحِ القذرةِ، والأهواءِ المريضةِ، وبُعْدَها السحيقَ عنِ الحقِّ والعدلِ؟ لذلكَ حينَ صَعِدَ قمةَ الهرمِ في السلطةِ السياسيةِ والأمنيةِ أشخاصٌ تاريخُهُمْ ملوثٌ بوحلِ العمالةِ تعمَّدوا إعدامَ الرئيسِ صدام يومَ عيدِ النحرِ، فنحروهُ وهو يردِّدُ شهادةَ التوحيدِ فيما ضحكاتُهُمُ الساخرةُ بمشاعرِ الملايينِ ترتدُّ عليهمْ ويلًا وثبورًا، فشهدَ ذلك العامُ حربًا دمويةً مفتوحةً تكبدَ فيها الأمريكانُ وعملاؤُهُمُ الأنذالُ خسائرَ مروعةً دكتْ قلاعَ قلوبِهِمُ الخائرةَ"[2].

ولم يغفلِ الكاتبُ الإشارةَ إلى استغلالِ الاحتلالِ الأمريكيِّ العملاءَ والمدسوسينَ لزيادةِ سعيرِ الاقتتالِ الداخليِّ، والقتلِ على الهويةِ والانتماءِ الدينيِّ، وقد برعَ في توظيفِ شخصيةِ العميلِ الذي ينتحلُ صفةً واسْمًا مزيفًا يُدْعى بـ(الشيخ محسن) الذي تدربَ على الخطابةِ، وتعمقَ في الأمورِ الدينيةِ والمسائلِ الفقهيةِ الجهاديةِ، حتى وصلَ إلى قيادةِ مجموعةٍ مسلحةٍ، وكان كلُّ ذلكَ لخدمةِ مُشَغِّليهِ، وبعدَ افتضاحِ أمرِهِ تبينَ أنه منَ الفئةِ العريقةِ منَ العملاءِ المخضرمينَ، يقول (أسعد): "أدركتُ لحظتَها كغيري سببَ تشددِهِ في تركيزِ قتالِنا ضدَّ الجيشِ العراقيِّ، وحثَّهُ الدؤوبَ على إيقاعِ الموتِ قتلًا

---

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٤٠.

(2) المصدر السابق، ص٢٤٥.

بالرافضةِ، وقهرني السؤالُ حتى رميتَهُ في حجرِ (عادل): أتظنُّهُ لعبَ بنا واستخدمَنا لزيادةِ سعيرِ الصراعِ الطائفيِّ؟"[1].

أبحرَ الكاتبُ في رصدِ تفاصيلِ حالةِ المقاومةِ العراقيةِ، موظفًا الرؤى الفكريةَ السياسيةَ الأيديولوجيةَ، والعقيدةَ الثابتةَ التي انطلقتْ منها تلك المقاومةَ من خلالِ تجسيدِ شخصيتَيْ (أسعد) و(عادل)، مرخيًا وقائعَ حقيقيةً أتقنَ مزجَها بقصصٍ خياليِّة؛ لتخدمَ عمليةَ السردَ الروائيَّ، وصولًا للحظةِ التنويرِ، التي تتمثلُ بالوصولِ إلى المباهلةِ التي أقيمتْ بينَ الفريقيْنِ.

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٧٤.

المبحثُ الثاني

الماسونيةُ... الحقيقةُ الغائبةُ.

تعدُّ الماسونيةُ منْ أخطرِ المنظماتِ السريةِ التي ظهرتْ عبرَ التاريخِ إنْ لمْ تكنْ أكثرَها خطرًا على الإطلاقِ، وهيَ متغلغلةٌ في أغلبِ دولِ العالمِ، ولا تكادُ تسلمُ منها إلا بعضُ الدولِ.

وقبلَ الخوضِ في هذا المبحثِ ينبغي أنْ نبينَ المعنى والدلالةَ اللذينِ يحملُهُما مصطلحُ الماسونيةِ، فهي: "منظمةٌ يهوديةٌ إرهابيةٌ غامضةٌ محكمةُ التنظيمِ، تهدفُ إلى سيطرةِ اليهودِ على العالمِ عن طريقِ تقويضِ الأخلاقِ والأديانِ ما عدا الدينَ اليهوديَّ، وإشاعةِ الإلحادِ والإباحيةِ والفسادِ، واستخدامِ الشخصياتِ المرموقةِ في العالم، يوثِّقُهُمْ عهدٌ متينٌ يحفظُ الأسرارَ، وتنفيذِ ما يُطلبُ منهم"(1).

وتُعتبرُ الماسونيةُ أحدَ أهمِّ أذرعِ اليهودِ لتنفيذِ مخططاتِهِمْ وأهدافِهِمْ العامةِ، والسياسيةِ على وجهِ الخصوصِ، لذلكَ نجدُ أنَّ: "اليهودَ وراءَ كلِّ المؤامراتِ التي تُحاكُ ضدَّ الأمةِ الإسلاميةِ، وهمْ وراءَ هذهِ الفتنِ والحروبِ التي تشتعلُ، والمتأملُ يظهرُ له بوضوحٍ مَنْ المستفيدُ الأولُ من كلِّ الأحداثِ الجاريةِ، ولمْ يبقَ أحدٌ ممن يشكلُ خطرًا عليهمْ من قريبٍ أو منْ بعيدٍ إلا وزُجَّ بهِ في أتونِ الخسائرِ والاستنزافِ، وخلاصةُ المشهدِ أنَّ أهدافَ اليهودِ تتحققُ دونَ أدنى خسائرَ مِنْ قِبَلِهِمْ"(2).

ارتبطتِ الماسونيةُ بالسياسةِ ارتباطًا وثيقًا، وسعتْ إلى تحقيقِ أهدافِها من خلالِ نفوذِها السياسيِّ الخفيِّ، وعملتْ على الاستيلاءِ على العالمِ عن طريقِ تطعيمِ أكبرِ قدرٍ منَ البشرِ بالفكرِ الماسونيِّ، وكذلكَ سعتْ إلى إخضاعِ الأحزابِ السياسيةِ العالميةِ لسيادتِها، وجعلِها خادمةً لتحقيقِ أطماعِها، وقوضتِ الحكوماتِ الشرعيةَ، وألغتْ أنظمةَ الحكمِ الوطنيةَ، ونشرتِ الإباحيةِ والإلحادِ والفسادِ الخُلقي والاجتماعي، وحاربتِ الدينَ الإسلاميَّ، والشريعةَ المسيحيةَ كما اتضحَ ذلكَ في الفصلِ الأولِ، وسيقفُ الباحثُ على الكثيرِ من الخفايا والدقائقِ بتدبرِ وقائعِ الحياةِ والأحداثِ الجسيمةِ التي خاضَها أبطالُ روايةِ "الأفعى تُطَوِّقُ الأرضَ"، وباستجلاءِ ما حملتْهُ تلكَ الشخصياتُ من أفكارٍ ومعتقداتٍ، وما أشاعتْهُ من فسادٍ، ونفذتْهُ منْ سياساتٍ.

---

(1) مانع الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ط٤، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٩٩م، ص٥١٠.

(2) صالح زنداقي، الماسونية أهدافها وأساليبها بين الماضي والحاضر، مجلة الشهاب، ع: ٥، ديسمبر، ٢٠١٦م، ص١٧٠.

وتُطْلِعُنا روايةُ (الأفعى تطوق الأرض) –بصفةٍ خاصةٍ– على منظمةِ الماسونيةِ، وتُعَرِّفُنا بأهدافِها وأنشطتِها ونفوذِها السياسيِّ في أروقةِ الحكمِ وصناعةِ القرارِ العالميةِ، سيلقي الباحثُ الضوْءَ على طقوسِها، ومبادئِها، وخطرِها، وارتباطِ ذلكَ بأحداثِ الروايةِ وشخصياتِها.

وقُسِّمَ هذا المبحثُ إلى ثلاثةِ محاورَ رئيسةٍ:

المحورِ الأولِ– الطقوسُ والمبادئُ الأيديولوجيةُ للماسونيةِ:

أسستِ الماسونيةُ أفكارَها ومبادِئَها الأيديولوجيةَ على طريقتينِ.

الأولى– المعلنةُ الظاهرةُ: وهي المبادئُ الإنسانيةُ الخلاقةُ؛ لتحقيقِ أهدافِها بسهولةٍ وسلاسةٍ.

الثانيةُ– المخفيةُ المضمرةُ: وهي ما تصبو إليهِ فعليًّا، وتعملُ على تحقيقِهِ منْ هدمٍ للأخلاقِ الحميدةِ، وتحطيمٍ للأديانِ، ونشرٍ للرذيلةِ والإلحادِ.

وكانَ منها أنْ أعلنتْ أنها تقومُ على مبادئِ الحريةِ والإخاءِ والمساواةِ. وهيَ شعاراتٌ خادعةٌ تُظهرُ الماسونيةَ بمظهرِ المنظمةِ الإنسانيةِ؛ مما يجلبُ لهمُ المؤيدينَ والأنصارَ في جميعِ أنحاءِ العالمِ[1]. وباسمِ هذهِ الشعاراتِ تبثُّ سمومَها وأفكارَها، فمثلًا شعارُ الحريةِ؛ يوظفُ لحريةِ الدينِ، وحريةِ المرأةِ، وتحررِها من قيودِ الدينِ، ونحوَ ذلكَ، وبمبدأِ المساواةِ جعلوا المرأةَ صنوَ الرجلِ في كلِّ شيءٍ، وباسمِ الحريةِ تُنشرُ الفوضى وينتشرُ خرابَ الشعوبِ والبلدانِ المستقرةِ.

وقد تميزتِ الماسونيةُ بطقوسٍ غريبةٍ تعتمدُها عندَ تعميدِ أعضائِها وضمِّهِمْ إليها، حيثُ يجري قَبولُ الأعضاءِ الجددِ في جوٍّ مرعبٍ ومخيفٍ. يُقْتادُ العضوُّ مجردًا من ملابسِهِ إلى رئيسِ المحفلِ، وهو معصوبُ العينينِ، وما أنْ يؤديَ يمينَ حفظِ السرِّ ويفتحُ عينيْهِ؛ يفاجأُ بسيوفٍ مسلولةٍ حولَ عنقِهِ، ومن حولِهِ غرفةٌ شبهُ مظلمةٍ، فيها جماجمُ بشريةٌ وأدواتٌ هندسيةٌ، وذلكَ لبثِّ المهابةِ في نفسِ العضوِّ الجديدِ، ويُصَوَّرُ عاريًّا حتى لا يقوى مستقبلًا على تركِ الماسونيةِ أو البوحِ بأسرارِها[2].

نجدُ هذهِ المبادئَ والطقوسَ متمثلةً في حياةِ أبطالِ الروايةِ وشخصياتِها الذينَ ينضوونَ تحتَ إطارِ الماسونيةِ: (نصيف)، و(كريم)، و(أميرة)، و(ماما ندى)، و(رمزي)، و(مروان)، و(رباح)، و(مكرم)، وغيرِهِمْ.

---

(1) صالح زنداقي، الماسونية أهدافها وأساليبها بين الماضي والحاضر، مرجع سابق، ص١٧٢، بتصرف.

(2) يُنظر: صالح الرقب، واقعنا المعاصر والغزو الفكري، مرجع سابق، ص٢٢٠، بتصرف.

بدأتْ ملامحُ الفكرِ الأيديولوجيِّ للماسونيةِ تظهرُ معَ المراحلِ الأولى لحياةِ (نصيف) بطلِ الروايةِ منذُ كانَ طفلًا صغيرًا، فكانَ (كريم) الذي يشغلُ منصبَ رئيسِ المحفلِ المصريِّ الأعظمِ يفرضُ عليهِ طوقًا فكريًّا يقضي بعدمِ التعرضِ للدينِ أوِ السياسةِ، وهذا ما ينسجمُ معَ مبادئِ الماسونيةِ الأساسيةِ، يقولُ (نصيف): "فالتلفازُ مثلًا وامتدادًا لما كانتْ تطبقُهُ بأمرِهِ (ماما ندى) في مصرَ، مسموحٌ لي بمشاهدتِهِ فقطْ ساعةً في اليومِ بحضورِهِ صامتًا، أو بحضورِ (أميرة) إنْ كانَ مسافرًا أو لديهِ ضيوفُ مُجْتَمِع بهمْ في معبدِهِ، كان كلاهُما شديدَ الحرصِ على عدمِ الحديثِ في الدينِ أو السياسةِ أمامي"[1].

وكانتْ (أميرة) برفقةِ (كريم) تعملُ جاهدةً على غرسِ الأفكارِ الأيديولوجيةِ في عقليةِ (نصيف)، وتهيئتِهِ للمستقبلِ الزاهرِ الذي ينتظرُهُ عندَ دخولِهِ في الماسونيةِ، تقولُ (أميرة): "عمومًا حبيبي أنتَ ستكونُ سيدًا مَهيبًا مطاعًا، ولو تعرفُ عظمةَ المستقبلِ الذي ينتظرُكَ؛ لقدَّرتَ جهودَنا من أجلِكِ"[2].

فهما (كريم) و(أميرة) يرسمانِ له معالمَ حياتِهِ، ويضعانِهِ على سلمِ المجدِ الماسونيِّ، فوقتُهُ محددٌ بدقةٍ، والحديثُ معَهُ، أو أمامَه بعيدٌ عما يشوِّهُ عقليتَهُ التي سيجري تعبئتُها في الوقتِ المحددِ.

لذا بعدما بلغَ (نصيف) سنَّ الرشدِ سارعَ (كريم) برسمِ صورةٍ مشرقةٍ للماسونيةِ في ذهنِهِ، وصارحَهُ بأنَّ مجدًا كبيرًا ينتظرُهُ داخلَ أروقةِ المنظمةِ، وبذلكَ تظهرُ المبادئُ الأساسيةُ للماسونيةِ وطقوسِ التعميدِ، يقولُ (كريم): "مرحبًا بكَ (نصيف) بينَ أبناءِ العشيرةِ، عشيرةِ البنائينَ الأحرارِ الخالدةِ المؤبدةِ أبد الدهرِ طالما الشمسُ تشرقُ وتغربُ... منذُ الآنَ سطعَ نجمُ مجدِكَ البَهائيِّ العظيمِ في يومِ بلوغِكَ الرشدَ في عقيدتِنا، وسأعلنُ لمحافلِ الماسونيةِ في كلِّ بقاعِ الأرضِ نبأَ قربِ تعميدِكَ ابنًا كريمًا وفيًّا سليلَ الآباءِ والأجدادِ الماسونِ العظامِ، أنتَ يا (نصيف) أو أنتَ أيُّها الأخُ (نصيف) –فعقيدةُ عشيرتِنا تقومُ على الإخاءِ والمساواةِ والحريةِ– حفيدُ أحدِ أقطابِ المحفلِ الوطنيِّ الكبيرِ بالمشرقِ"[3].

فالعباراتُ المفخمةُ، والمُمَجِّدَةُ للماسونيةِ، تشيعُ في آفاقِ النصِّ، فـ: –البنائون الجدد، والخالدة المؤبدة، ونجم مجدك البهائي، وسليل الآباء والأجداد الماسون، والإخاء والمساواة والحرية، المحفل الوطني الكبير– كلُّها عباراتٌ ذاتُ بريقٍ يخطفُ بصرَ الفتى الذي يقتربُ من تعميدِهِ، وذاتُ رنينٍ يُدَوّي في أذنيهِ، فيجعلَهُ ينتظرُ بشغفٍ تلكَ اللحظةَ.

ويعززُ (كريم) ثقافةَ (نصيف) حولَ الماسونيةِ، ويدعمُهُ بالأوراقِ والكتبِ، يقول (نصيف): "في بطنِ السحابِ وعلى ارتفاعِ خمسةَ عشرَ ألفَ قدمٍ ناولني (كريم) مجموعةَ أوراقٍ كلُّها عدا واحدةٍ تعريفٌ

---

(1) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٢١.

(2) المصدر السابق، ص٢٤.

(3) المصدر السابق، ص٥٥.

بالتاريخِ، والنشأةِ، والأهدافِ، وبعضُ اللوائحِ، لم أفهمْ أغلبَها، فقط قالَ لي: اقرأْ؛ فقرأتُ، ومما حفظتُهُ لتعددِ التكرارِ: الماسونيةُ منظمةٌ أخويَّةٌ عالميةٌ يتشاركُ أفرادُها عقائدَ وأفكارًا واحدةً، الماسونيةُ تعني البنايةَ الحرةَ، وهي عشيرةٌ لها رموزٌ خاصةٌ موضحةٌ بطريقةٍ مجازيةٍ، العشيرةُ الماسونيةُ هي جمعيةُ البنائينَ الأحرارَ المتحدينَ بِعُرْوَةِ الإخاءِ"[١].

تتجلى رؤيةُ الكاتبِ خلوصي عويضة حولَ الماسونيةِ من خلالِ طرحِهِ مجموعةً منَ الأسئلةِ حولَ الماسونيةِ في حوارِ (نصيف) مع قارئِهِ المتخيلِ (نجيب)، يقولُ (نصيف): "ما هيَ الماسونيةُ (نجيب)؟ أظنّه سؤالًا يشغلُ بالَ نصفِ سكانِ الكرةِ الأرضيةِ ممّنْ لهُمْ عقولٌ تهتمُ بما يدورُ حولَها، داخلَ بيتِها وجوارِها ومحيطِها، حسنًا إليكَ باختصارٍ جوابَ السؤالِ، الماسونيةُ تعني: الهندسةَ، بعضُ إخواني السابقينَ كانَ يدّعى الانتسابَ إلى المهندسِ (حيرام) باني هيكلِ سليمانَ، وبعضُهُمْ زعمَ أنَّ العشيرةَ وُلِدَتْ منْ رحمِ فرسانِ الهيكلِ، وكثيرٌ منَ الماسونِ المصريينَ، خاصةً الطبقةَ المخمليةَ يرى في الماسونيةِ إعادةَ بعثٍ وإحياءٍ للديانةِ الفرعونيةِ القديمةِ، أما (نصيف) فسيحدثُكَ عما عايشَهُ، فلا شيءَ أصدقُ منَ المعايشةِ التي تُسقطُ الحاجةَ لأيِّ تعريفٍ، فالعارفُ والمعروفُ لا يُعرفُ، وعندَ الحاجةِ لتوثيقِ أمرٍ ضروريٍّ سأحرصُ أنْ يكونَ منْ صميمِ مستنداتِهِمْ، فأرشيفُهُمْ مُخَزَّنٌ بذاكرتي الخصبةِ الفتيةِ"[٢].

يوردُ الكاتبُ هنا تعريفًا عامًّا للماسونيةِ، لكنَّهُ يتحدثُ عن مبادئِ الماسونيةِ، وأهدافِها، وما يحدثُ في أروقتِها، وداخلَ إطارِها التنظيميِّ من خلالِ شخصياتِ روايتِهِ، وما عايشَهُ بطلُ الروايةِ (نصيف) منْ صراعٍ نفسيٍّ وفكريٍّ بسببِ العشيرةِ ومستقبلِهِ الغامضِ.

أما عنْ مصيرِ منْ يحنثُ بيمينِهِ ويُخْلِفُ وعدَهُ للماسونيةِ؛ فإنَّ مصيرَهُ القتلُ أوِ الإعدامُ، يقولُ الراوي على لسانِ المنبهِ الأعظمِ للمحفلِ الماسونيِّ واصفًا مشهدَ إعدامِ مَنْ حنثَ بقسمِهِ، وموجهًا الكلامَ لـ(نصيف): "احذرْ أيها الجاهلُ، احذرْ أيها الجاهلُ المدعوُّ (نصيف)، فما تراهُ أمامَكَ رأسُ غيرِكَ قد يكونُ يومًا رأسَكَ، فهذا رأسُ أخٍ حنثَ بيمينِهِ، وخانَ القسمَ، وأفشى لأعدائِنا بأسرارِنا المقدسةِ، احذرْ (نصيف) فهكذا نعاقبُ الخونةَ؛ فليكنْ عبرةً لك، اصرخْ، ارجفْ، ارتعشْ أيها الجاهلُ"[٣].

وتظهرُ براعةُ الكاتبِ في تصويرِهِ لمشهدِ تعميدِ (نصيف) داخلَ المعبدِ الماسونيِّ، وما يتخللُهُ من طقوسٍ غريبةٍ، يقول (نصيف): "حتى إذا انتهى طقسُ تقبيلِ سيفِ العشيرةِ ارتفعَ صوتٌ لا أدري

([١]) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٥٩.

([٢]) المصدر السابق، ص٥٨.

([٣]) المصدر السابق، ص ٧٢.

منْ أينَ صائحًا: أيها الإخوةُ إنَّ هذا الجاهل يُوْجَدُ الآنَ في معبدِنا، ماذا يطلبُ؟ ماذا يريدُ؟ فأجابَ (كريم): جاء يطلبُ النورَ، فسأله مُعَمِّدي: أهو أهلٌ لهذا المعروفِ؟ ثمَّ سألني مباشَرَةً: أتشعرُ بحدِّ السيفِ فوقَ رأسِكَ؟ ثّم تابعَ بقوَّةٍ: إنَّ هذا السيفَ سيكونُ دائمَ الانتصابِ لمعاقبةِ كلِّ من يحنثُ بيمينِهِ، سيمزقُ قلبَكَ، ويقطعُ رأسَكَ إن كنتَ خائنًا للعشيرةِ، أما زلتَ تريدُ النورَ؟ فأومأَ لي (كريم) أنْ أجبْ؛ فأجبتُ: نعم أيها المُبَجَّلُ العظيمُ، فارتفعَ صوتٌ يسألُ المحيطينَ بنا: هل يستحقُ النورَ؟ فسرتْ دمّدمةٌ قويةٌ: نعمْ، نعم، صغيرٌ، صغيرٌ، فطلبَ منْهُمُ الصمتَ قائِلًا: إذًا تسلّحوا بسيوفِكم أيها الإخوةُ، وأنتَ أيها الجاهلُ أتقسمُ بملءِ إرادتِكَ وحريتِكَ أمامَ مهندسِ الكونِ الأعظمِ، وأمامَ هؤلاءِ الإخوةِ المحترمينَ بأنكَ لنْ تبوحَ بأيِّ سرٍّ ستطّلعُ عليهِ؟ وهلْ تقسمُ بأنْ تحبَّ إخوانَكَ وتَهُبَّ لنجدتِهِمْ؟ وهلْ تقبلُ بأنْ يُقطع عنقُكَ إذا أخللتَ بقسمِكَ؟ كانت روحي ترتعدُ، لكنَّ نظراتِ (أميرة) و(كريم) المشجعةَ أنطقتْ لساني مرةً أخرى: نعمْ أُقسمُ، فَعَلا صوتُ المنبهِ الأعظمِ: فليكنْ نورًا، أيها الأخُ المحترمُ (نصيف) لقد قرَّرَ معبدُ الفنِّ والفلسفةِ لعشيرتِنا الجليلةِ الخالدةِ قَبولَكَ بصفةٍ عاجلةٍ واستثنائيةٍ عضوًا فاعلًا برتبةِ مبتدئٍ، ويتمُّ خطُّ ذلك بالقلمِ الأعظمِ بالدفترِ الأعظمِ"[١].

هذا المشهدُ المرعبُ الذي عايشَهُ (نصيف) بتفاصيلِهِ الدقيقةِ سيلقى بظلالِهِ على حياتِهِ ومستقبلِهِ فيما بعدٌ، فيظلُ مرهونًا له، فسيفُ العشيرةِ المسلطُ على رقبتِهِ؛ سيجعلُهُ يعملُ في المنظمةِ تحتَ تهديدِ الخوفِ والقتلِ، وليس اقتناعًا بمبادئِها وأفكارِها.

وتفردتِ الماسونيةُ بطقوسِها السريةِّ وألفاظِها وحركاتِها الخاصةِ المتعلقةِ بتبادلِ التحيةِ أو المصافحةِ. وتميزتْ بإشاراتٍ ورموزٍ جُعِلَتْ واسطةً يتعارفُ بها أبناءُ العشيرةِ؛ فيتميزونَ بها عن سواهُمْ[٢]. وهذا ما يلفتُ انتباهَ (نصيف)، وما يعلِّمُهُ إياهُ أعضاءُ المحفلِ المصريِّ، يقولُ (نصيف): "واسترعى انتباهي نوعُ مفرداتِ الترحيبِ المتبادلةِ بينَهُما (أميرة) و(جلال) مثلَ قولِها لهُ: مرحبًا بالأخِ المَهيبِ (جلال) أفندي، تفضلْ. شكرًا أيتُها الأختُ المحترمةُ العظيمةُ"[٣]. ويتعلمُ طريقةَ تبادلِ التحيةِ الأَخَويَّةِ الماسونيةِ على يَدِ (مكرم)، يقولُ (نصيف): "وعلّمني تبادلَ التحيةِ الأَخويةِ باليَدِ والعينِ والرأسِ"[٤]. وبعدما يتعمقُ (نصيف) في العشيرةِ، ويصبحُ عضوًا بارزًا فيها، ويشاركُ في اجتماعاتِهِمْ واحتفالاتِهِمْ، يتعرفُ إلى فتاةٍ فرنسيةٍ تُدعى (سيرجين دي لاموند)، ويكتشفُ أنها منْ أعضاءِ الماسونيةِ عندَ مصافحتِها، يقول (نصيف): "وبرقةٍ ضغطتْ ببطنِ إبهامِها ظهرَ إبهامي عرفتُ أنها أختٌ

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ٧٦.

(٢) جرجي زيدان، تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى اليوم، مرجع سابق، ص ٨، بتصرّف.

(٣) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ١٧.

(٤) المصدر السابق، ص ٩٧.

ماسونيةٌ قبلَ أنْ تقولَ ذلكَ"[١]. وعندما كانَ يَشِذُّ (نصيف) متعمِدًا عنْ آدابِ العشيرةِ يذكِّرُهُ (كريم) بذلكَ مباشرةً، يقولُ: "لماذا تقولُ (أميرة) حاف؟ لماذا لا تقولُ ماما (أميرة) أو الأختَ المحترمةَ العظيمةَ (أميرة)، عوّدْ لسانَكَ أدبَ العشيرةِ وفنِّها الملوكيِّ"[٢].

وبعدَ انقطاعِ (نصيف) عنِ الأنشطةِ الماسونيةِ وتراجعِهِ الملحوظِ، يقررُ مسؤولُهُ المباشرُ الدكتورُ (رؤوف) أنْ يجتمعَ بهِ وبقيةَ الأعضاءِ ليوجهَ له هذا التذكيرَ على وجهِ الخصوصِ، يقولُ الدكتورُ (رؤوف): "الإخوةُ المحترمونَ، الولاءُ ليسَ شعارًا يُرفعُ ويُتغنى به، نحنُ لسنا وزراءَ حكومةٍ أوْ أعضاءَ حزبٍ سياسيٍّ أو نقابةٍ مهنيةٍ أو عماليةٍ، نحن أبناءُ البنايةِ الحرةِ الماسونُ العظامُ الولاءُ عندنا ممارسةٌ وتطبيقٌ عمليٌّ، والطاعةُ بحرفيتِها وحذافيرِها هي البرهانُ، وليسَ الكلامَ الفارغَ الخاويَ منْ أيِّ مضمونٍ وأثرٍ ملموسٍ، بغيرِ ذلكَ لا نكونُ جنودًا أوفياءَ لعشيرتِنا الجليلةِ وغيرَ قائمينَ على قسمِ الإخلاصِ والسعيِ الحثيثِ الدؤوبِ لتحقيقِ أهدافِنا العظيمةِ التي ستغيِّرُ وجهَ الأرضِ، وتكتبُ تاريخَ البشريةِ من جديدٍ، هذا التذكيرُ الذي أؤمنُ أنه يسرى في دمائِكِمُ المقدسةِ الموهوبةِ منكمْ حبًّا ووفاءً لعشيرتِكِمْ أحوجني إليه الأخُ المحترمُ (نصيف)"[٣].

أما أهمُّ القيودِ التي تُكَبِّلُ بها الماسونيةُ عنصرَها وتفرضُها عليه؛ فهي أنه لا يستطيعُ اختيارَ أصدقائِهِ أو من يتعاملُ معهم إلا بمعرفةِ المحفلِ الماسونيِّ، وهذا ما تكشفُهُ (أميرة) في حوارِها معَ (نصيف): "اسمعْ جيدًا وافهمْ... أنتَ لستَ حرَّ الاختيارِ معَ منْ تتعاملُ، ولا حتى أنا ولا حتى بابا، فماذا تريدُني أن أقولَ أكثرَ من ذلكَ، لقد أقسمتَ بدمِكَ على الطاعةِ والولاءِ، فماذا دهاكَ؟!"[٤].

وتتركزُ أهدافُ العشيرةِ في نشرِها لأفكارِها الجديدةِ على هدمِ المعتقداتِ القديمةِ والموروثِ الاجتماعيِّ والعاداتِ والتقاليدِ التي تحفظُ للإنسانِ قيمتَهُ وكرامتَهُ وكيانَهُ، ويتنبهُ (نصيف) لكلِّ ذلكَ في حوارِهِ مع قارئِهِ المتخيلِ (نجيب)، ويكونُ ذلكَ بالترويجِ تحتَ مسمياتٍ براقةٍ مخادعةٍ لجذبِ العقولِ: "لاحظْ (نجيب) أنَّ كلَّ سؤالٍ يمهدُ لهدمِ معتقدٍ قديمٍ، ويؤسسُ لفكرٍ جديدٍ أوْ لإنسانٍ جديدٍ منسلخٍ عن تخلفِ الماضي مندفعٍ نحوَ التحضرِ والتمدنِ، فهكذا يجري الترويجُ ضمنَ الوسطِ كلِّهِ الذي يتبارى عامةً بإظهارِ تمدنِهِ وسَعَةِ ثقافتِهِ. هل تعارضُ أم تؤيدُ نشرَ المودةِ الأخويةِ التي نادتْ بها الثورةُ الفرنسيةُ العظيمةُ لتحقيقِ شعارِها الخالدِ، الإخاءُ، المساواةُ، الحريةُ؟ هلْ أنتَ معَ حوارِ الحضاراتِ لنشرِ وتعميقِ ثقافةِ التسامحِ؟ هلْ أنتَ معَ مبدأِ الحوارِ بينَ كلِّ البشرِ؟[٥].

([١]) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ١٧٦.

([٢]) المصدر السابق، ص ١٧٨.

([٣]) المصدر السابق، ص ١٦٠.

([٤]) المصدر السابق، ص ١٤٢.

([٥]) المصدر السابق، ص ٩٩.

يلاحظُ الباحثُ هنا أنَّ الماسونيةَ قدِ اتخذتْ منَ التمسكِ بالماضي والموروثِ الأخلاقيِّ مدخلًا لنعتِ المجتمعاتِ الشرقيةِ بالتخلفِ والرجعيةِ، مطالبةً الأجيالَ الجديدةَ بهدمِ كلِّ مقدسٍ، ليسيرَ بناءُ الإنسانِ الجديدِ على المقاييسِ التي تفرضُها قوانينُها تحتَ مسمياتِ التمدنِ والتقدمِ وحوارِ الحضاراتِ.

ومنَ الملاحظِ أيضًا أنَّ هذهِ الأهدافُ تتلاقى معَ الأهدافِ الكبرى للصهيونيةِ التي تسعى لتقبلِ الاحتلالِ الإسرائيليِّ لفلسطينَ كجزءٍ طبيعيٍّ في المنطقةِ العربيةِ تحتَ مبدأِ الحريةِ والمساواةِ وحوارِ الحضارات.

المحور الثاني– الأهداف السياسية للماسونية:

تتمتعُ الماسونيةُ بنفوذٍ سياسيٍّ عميقٍ في الحكوماتِ العالميةِ، ويعدُّ أعضاؤُها صناعَ القرارِ فيها، ومنْ خلالِهِمْ تتشكلُ السياساتُ الخارجيةُ للدولِ الكبرى تحديدًا الولاياتِ المتحدةَ الأمريكيةَ، وفرنسا، وبريطانيا، وروسيا. وتمكنتِ الماسونيةُ منْ قلبِ الأنظمةِ القائمةِ في معظمِ ممالكِ أوروبا.

وتظهرُ الأهدافُ السياسيةُ للماسونيةِ من بدايةِ فصولِ الروايةِ، وذلكَ من خلالِ ما يشرحُهُ (كريم)، لـ(نصيف) عنْ أهدافِ العشيرةِ، يقول (كريم): "عشيرتُنا يا (نصيف) تختصُ بأدبِ الملوكِ، وتذكّرْ دومًا أننا لا نقبلُ بأقلَّ منَ امتلاكِ البشريةِ، وإخضاعِها لسلطانِنا"[1].

فالماسونيةُ تسعى للسيطرةِ على العالمِ من خلالِ حكومةٍ خفيةٍ سريةٍ. وقدَ جاءَ ذلكَ في بيانِ المؤتمرِ الماسونيِّ العالميِّ الذي عُقدِ في باريسَ سنةَ ١٩٠٠م في الصفحةِ السابعةِ والتسعينَ: "إنَّ هذهِ الماسونيةَ هي تكوينُ جمهوريةٍ لا دينيةٍ عالميةٍ"[2].

ويطّلعُ (نصيف) على الأوراقِ التي عرضَها عليهِ (كريم)، فيجدُ طلبًا لإنشاءِ معبدٍ جديدٍ في مدينةِ طنجةِ في المغربِ، وتظهرُ في ثنايا الطلبِ أهدافُ الماسونيةِ العالميةِ، يقولُ (نصيف) واصفًا الطلبَ: "لقد هزَّتْنا عواطفُ الرغبةِ، وقامتْ بنا عواملُ الشوقِ إلى أن نشتغلَ بكاملِ الانتظامِ، ونظامِ الكمالِ بما يعودُ بالفخرِ والجلالِ على الماسونيةِ العالميةِ سيدةِ الأرضِ وسلطانِ العالمِ، ويكونُ خيرًا لبني الإنسانِ، ولذلكَ جئنا لائذينَ بحماكُمْ إخوانَنا في عشيرةِ البنائينَ الأحرارِ بالديارِ المصريةِ

([1]) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ٦٠.

([2]) يُنظر: محمد إبراهيم البدري، بين البهائية والماسونية نسب، مرجع سابق، ص٣١.

المحروسةِ؛ قاصدينَ أن تتفضلوا بقَبولِ منحِنا التصريحَ اللازمَ لتأسيسِ معبدٍ جديدٍ سيكونُ مركزُهُ في مدينةِ طنجة"[١].

وتعملُ (أميرة) جاهدةً على إظهارِ قوةِ العشيرةِ الماسونيةِ لضمانِ استمراريةِ نشاطِ (نصيف) ضمنَ العشيرةِ، وذلك بعدما تعرضَ لصدمةٍ فكريةٍ ونفسيةٍ عميقةٍ بعدما قرأَ بعضَ الكتبِ التي تُناهضُ الماسونيةَ، وتعريها منَ الداخلِ، مثل كتابِ (الأخوةُ الزائفةُ)[٢]. فتتفاخرُ (أميرة) بالماسونيةِ وقوتِها العالميةِ قائلةً: "فالحملةُ الفرنسيةُ ثمرةُ الثورةِ الفرنسيةِ الكبرى المجيدةِ العظيمةِ، فنحنُ صناعُها كما صنعَ أجدادُنا العِظامُ من بعدِها الثورةَ البلشفيةَ، وأقاموا الاتحادَ السوفيتيَّ العظيمَ بفضلِ عظمةِ صبرِهِمْ وتخطيطِهِمْ وإيمانِهِمْ بأهدافِهِمْ، ماذا تظنُّ (نصيف)؟ إنكَ ابنُ أعظمِ عشيرةٍ في التاريخِ"[٣].

واتبعتِ الماسونيةُ طريقةً خاصةً في إشعالِ الثوراتِ والانقلاباتِ السياسيةِ، فكانتْ تدعمُ الثورةَ والنظامَ القائمَ معا، وذلكَ من أجلِ إدامةِ الحروبِ والخرابِ والدمارِ. ولهذهِ الجمعيةِ الأثرُ العظيمُ في الانقلاباتِ السياسيةِ التي حصلتْ في أوروبا، ومنها الثورةُ الفرنسيةُ والانقلابُ العثمانيُّ[٤]. ويتضحُ ذلك فيما يشيرُ إليهِ (نصيف) بعد هضمِهِ للكتبِ التي تحاربُ الماسونيةَ، حيثُ يقولُ: "أشارَ (جاك تيني) من خلالِ قراءةٍ تاريخيةٍ متأنيةٍ لمجموعةِ حوادثَ تُبينُ أنَّ قسمًا منَ الماسونِ كانَ يُموِّلُ حكوماتٍ أمميةً، وقسمًا آخرَ يدعمُ ويموِّلُ حكوماتٍ معاديةً، بهدفِ إشعالِ الحروبِ، والحفاظِ على لهيبِها يحرقُ ويدمرُ؛ لاستنزافِ المواردِ ومنْ ثمَّ إخضاعُ الجميعِ تمهيدًا لربطِهِمْ بذيلِ العشيرةِ"[٥]. ويصلُ (نصيف) لقناعةٍ تامةٍ بأنَّ الماسونيةَ تتحكمُ بمصائرِ الشعوبِ والثوراتِ، يقولُ: "توزيعُ الأدوارِ واللَّعِبِ بكلِّ الخصومِ والفرقاءِ أحدُ أهمِّ مزايا العقيدةِ الماسونيةِ التي تتقاسمُ المهامَ على كلِّ الجبهاتِ، وتتمركزُ في خطوطِ النارِ، كما في السياسةِ والإدارةِ وخلفَ المكاتبِ في المصانعِ والشركاتِ والكاميراتِ والبنوكِ"[٦].

وتتحكمُ الماسونيةُ بالقوى الاقتصاديةِ العالميةِ، وتُسيطرُ على مفاصلِ الاقتصادِ ورأسِ المالِ العالميِّ؛ لما للاقتصادِ والمالِ من أهميةٍ في صنعِ القرارِ السياسيِّ، فمن يملكُ المالَ يملكُ القرارَ والسيادةَ، وفي ذلكَ يقولُ (نصيف) مخاطبًا (نجيب): "إنَّنا نحترفُ اقتحامَ عوالمِ الإنسانِ منْ خلالِ

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ٩٠.

(٢) صدر هذا الكتاب سنة ١٩٥٣م، وتُرجم إلى العربية سنة ١٩٧٩م، لمؤلفه (جاك تني) عضو مجلس الشيوخ الأمريكي عن ولاية (لوس أنجلوس).

(٣) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ١٨٣.

(٤) يُنظر: أحمد عبد الله، الماسونية سرطان الأمم، مجلة دعوة الحق، ع: ٧، القاهرة، ديسمبر ١٩٨٧م، ص١٠.

(٥) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ٢٠٩.

(٦) المصدر السابق، ص ٢١٢.

معرفةِ مكامنِ ضعفِهِ لأنَّ الطبيعةَ البشريةَ تؤكدُ أنَّ المصالحَ بأوسعِ معانيها هي التي تقودُ مسارَ الفردِ والمجتمعِ؛ لذلكَ شدّدْنا على الشقِّ الاقتصاديِّ، وها همْ رجالُ المصارفِ الماسونِ يُحكمونَ سيطرتَهُمْ على الاقتصادِ العالميِّ مما يسهلُ لهمْ بسطَ نفوذِهِمْ على القرارِ السياسيِّ"(١).

وبعدَ أنْ تقودَ الماسونيةُ جملةً منَ الحملاتِ ضدَّ القيمِ والمبادئِ والأخلاقِ، يكشفُ (نصيف) أنّ الماسونيةَ هي التي تنفذُ ذلكَ الفسادَ والانحلالِ بالرغمِ من ادعائِها دعمَ الأخلاقِ الحميدةِ والمبادئِ الإنسانيةِ القائمةِ على الإخاءِ والمساواةِ والحريةِ، يقول (نصيف): "ثمَّ نحنُ –أعني عشيرتَنا– يومَها مَنْ حرّكتْ أذنابَها فليستْ بحاجةٍ لأنيابٍ لفضحِ ما جرى؛ فيتَزَلْزَلَ البنيانُ المعنويُّ للأخلاقِ، ويَهْوي إلى أسفلِ سحيقٍ، مؤسسًا هذا الخرابُ لخطوةٍ قادمةٍ تحصدُ الثمرَ، أما المالُ فما أوفرُهُ! فوحدَهُمُ اليهودُ الماسونُ كما أدركتُ هم أباطرةُ وسدنةُ الثروةِ الماليةِ العالميةِ"(٢).

وكما يتضحُ؛ فالماسونيةُ تستغلُ قوتَها الاقتصاديةَ في فرضِ أفكارِها ومبادئِها، وتنتهجُ طرائقَ مخصصةً للولوجِ إلى عالمِ النفسِ البشريةِ من خلالِ مواطنِ الضعفِ تارةً، وبالإغراءِ الماليِّ تارةً أخرى، فهمْ مَنْ يتحكمونَ بمصادرِ المالِ العالميِّ، ويوظفونَهُ لخدمةِ مصالحِهِمُ التي تهدفُ إلى هدمِ الأخلاقِ تمهيدًا لنشرِ أفكارِ العشيرةِ الخبيثةِ الدنيئةِ.

ويُرجعُ (نصيف) نجاحَ الماسونيةِ في إشعالِ الثورةِ البلشفيةِ، وقلبِ النظامِ الحاكمِ في روسيا، وإغراقِ الإمبراطوريةِ بالفوضى والخراب، إلى التخطيطِ المحكمِ، وينقلُ ذلكَ عن كتابِ "جاك تيني" قائلًا: "كلُّ ذلكَ بفضلِ الدهاءِ والذكاءِ والتخطيطِ بعيدِ المدى المحكمِ المتقنِ، والأهمُّ طبعًا بفضلِ أباطرةِ المالِ العالميِّ اليهوديِّ في روسيا أمثالَ (آل تروتسكي) و(آل يعقوب) و(آل كوهين) الذينَ دعموا الجيشَ الأحمرَ في الاتحادِ السوفيتيِّ وأسَّسوا في الوقتِ نفسِهِ مصارفَ جديدةً في أمريكا وأوروبا"(٣).

وبذلكَ يكشفُ عن دورِ العائلاتِ الثريةِ في العالمِ، وارتباطِها بمشاريعِ الماسونيةِ الاقتصاديةِ والسياسيةِ.

وعلاقةُ الماسونيةِ بالصهيونيةِ علاقةُ ارتباطٍ بالمبدأِ والمنشأِ والوسيلةِ والهدفِ، فهُما وجهانِ لعملةٍ واحدةٍ، فالماسونيةُ يهوديةٌ في نشأتِها، وحقيقتِها، ومصادرِها الفكريةِ، وتعاليمِها، ودرجاتِها، وأهدافِها السياسيةِ والاقتصاديةِ والعالميةِ. يقولُ الماسونيُّ السابقُ الدكتورُ محمد علي الزعبي مؤلفُ كتابِ "الماسونيةُ مُنْشِئَةُ مُلْكِ إسرائيلَ": "لقدْ وُلدتِ الماسونيةُ في بيتِ إسرائيلَ، وراهقتْ في كنفِهِ، وشبَّتْ

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ٢٠٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠٩.

تحت رعايتِهِ، وشاختْ في خدمتِهِ"[1]. وهذا "هرتزل" أحدُ حكماءِ الصهاينةِ الأوائلِ يقولُ: "إنَّ المحافلَ الماسونيةَ المنتشرةَ في كلِّ أنحاءِ العالمِ تعملُ في غفلةٍ- كقناعٍ لأغراضِنا- وإن النصارى المنحطينَ ليساعدونا على استقلالِنا، وإن وكلاءَنا من غيرِ اليهودِ ليحققوا لنا كثيرًا من السعادةِ"[2].

وهذا ما أماطَ لثامَهُ الكاتبُ خلوصي عويضة في إشارتِهِ إلى أهدافِ الماسونيةِ كما جاءتْ في الكتبِ التي تكشفُ أسرارَها، يقولُ الكاتب على لسانِ (نصيف) شخصيتِهِ الرئيسةِ في الروايةِ: "ويُنسبُ للماسونيةِ كلُّ شرورِ الأرضِ بوصفِها منظمةً سريةً هدامةً ومحكمةَ التنظيمِ، تهدفُ إلى ضمانِ سيطرةِ اليهودِ تحديدًا على العالمِ، باعتبارِهِمُ القيادةَ التي تمسكُ بزمامِ ومفاصلِ العشيرةِ على المستوى الدوليِّ، مستشهدًا لتدعيمِ زعمِهِ بسؤالٍ وُجِّهَ لأحدِ قادةِ مملكةِ بني إسرائيلَ كما تُسمّيها (أميرة) عن الماسون، فأجابَ: إنهم الأبطالُ الذين يديرونَ المملكةَ اليهوديةَ العالميةَ في الخفاءِ"[3].

وتُظهرُ أحداثُ الروايةِ مدى الارتباطِ بينَ الماسونيةِ والصهيونيةِ، فمعَ قيامِ الثورةِ الفرنسيةِ لم يتعرضِ اليهودُ حينَها لأيِّ خطرٍ، وفي ذلك دليلٌ على افتعالِهِمُ الثورةَ، وقيادتِها، يقولُ (نصيف) ناقلًا ما اطَّلَعَ عليهِ في كتابِ "جاك تيني" ومخاطبًا (نجيب): "لم يجرؤْ أحدٌ على التعرضِ أوِ المسِّ بأغنياءِ فرنسا اليهودِ الذينَ نَعِموا وتمتعوا بحمايةِ الثورةِ، بعدما عمِلوا ببراعةٍ على خلقِ هُوَّةٍ سحيقةٍ بينَ القصرِ الملكيِّ والرعيةِ؛ لتشويهِ صورةِ نظامِ الحكمِ المعتمدِ على قوةِ الكنيسةِ، فأغرقوا القصرَ بالمالِ الربويِّ، بينما الشعبُ يموتُ جوعًا، وفي الوقتِ نفسِهِ دعموا الثوارَ ماليًّا، ونشروا فضائحَ القصرِ، أيْ مساعدةُ العدوّينِ في الخفاءِ"[4]. ويكملُ: "ثم يضربُ أمثلةً عن تغلغلِ العائلاتِ اليهوديةِ الثريةِ في مراكزِ عصبِ الدُّوَلِ التي كانتْ تُقرضُها، كحكوماتِ بريطانيا، وفرنسا، وإسبانيا، وألمانيا، وروسيا، ومنْ أشهرِ تلكَ العائلاتِ (آل لازرد)، و(آل شتيرن)، و(آل سبير)، و(آل وربرغ) الذينَ استطاعَ عمدتُهُمْ أنْ يتبوأَ منصبَ رئيسِ مجلسِ حكامِ الاحتياطيِّ الاتحاديِّ المركزيِّ الأمريكيِّ"[5].

ويستمرُ (نصيف) في كشفِ أسرارِ الماسونيةِ، ومدى ارتباطِها بالصهيونيةِ، ودورِها في إسقاطِ الخلافةِ العثمانيةِ، فقد كانَ من أهمِّ أهدافِ الصهيونيةِ حتى تُقامَ دولتُهم في فلسطينَ هو إسقاطُ الدولةِ العثمانيةِ، وكانَ لهمْ ذلكَ بمساعدةِ الماسونيةِ لليهودِ في تركيا، ويظهرُ ذلكَ في حوارِ (نصيف) معَ (نجيب): "ضمنتِ الماسونيةُ هزيمةَ روسيا القيصريةِ لصالحِ اليهودِ الخزرِ زعماءِ وحكامِ الاتحادِ

---

(1) محمد علي الزعبي، الماسونية منشئة ملك إسرائيل، د.ط، مؤسسة مطابع معتوق، بيروت، ١٩٧٨م، ص٩.

(2) صالح الرقب، واقعنا المعاصر والغزو الفكري، مرجع سابق، ص٢٢٢.

(3) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ٢٠٧.

(4) المصدر السابق، ص ٢٠٩.

(5) المصدر السابق، ص ٢٠٧.

السوفيتيِّ، مثل (كارل موردخاي) المعروفِ بـ(ماركس) و(لينين)، وغيرِهما من كبارِ مناصري ومروجي الحركةِ الصهيونيةِ التي ترتبطُ برأيِ المؤلفِ ارتباطًا عضويًّا وروحيًّا بالحركةِ الماسونيةِ، ولتأكيدِ ذلكَ يوردُ (جاك تيني) شواهدَ، ويربطُ حوادثَ تؤكدُ تعاونَ الصهيونيةِ مع عشيرتِنا في الإجهازِ على الخلافةِ العثمانيةِ من خلالِ يهودِ (سالونيك) و(تركيا الفتاة)"[١].

وفي حوارِ (نصيف) معَ الشيخِ الذي جاورَهُ في رحلتِهِ، يتخفى الكاتبُ خلفَ شخصيةِ الشيخِ؛ ليبرزَ رأيَهُ في الجمعياتِ السريةِ، التي تدّعي انتماءَها للمجتمعِ العربيِّ كما يُروِّجُ لها قادتُها في تلك البلدان، وذلكَ لجذبِ العقولِ إلى حقلِها، ويسوِّغُ الشيخُ سببَ العداءِ لتلكَ المنظماتِ بعدَ سؤالِ (نصيف):

"– لماذا العداءُ؟

– لأنهمْ أوثقُ حلفاءِ الصهاينةِ مغتصبي فلسطينَ الطاهرةِ"[٢].

وتأكيدًا لتحالفِ الماسونيةِ معَ الدولةِ العبريةِ، نرى أنَّ أعضاءَ العشيرةِ يدافعونَ عنِ اجتياحِ الاحتلالِ الإسرائيليِّ للبنانَ وصولًا إلى العاصمةِ بيروتَ سنةَ ١٩٨٢م، بحجةِ دفاعِها عنْ أمنِها ومواطنيها الأبرياءِ، هذه الحجةُ الواهيةُ تدفعُ (نصيف) للبحثِ خارجِ دائرةِ العشيرةِ؛ لأنَّ الشكَ ينازِعُهُ حولَ أفكارِهِمْ ومبرراتِهِمْ، يقولُ: "وحاولتُ أنْ أبحثَ عنِ المعلومةِ خارجَ إطارِ ما يرددُهُ (رباح) وزائروهُ من دعوى حقِّ الدولةِ العبريةِ الصديقةِ في أنْ تحفظَ أمنَها، وتدافعَ عنْهُ، وتضعَ حدًّا للأعمالِ التخريبيةِ التي تستهدفُ حياةَ مواطنيها العزلِ الأبرياءِ"[٣].

ولا يمكنُ بحالٍ منَ الأحوالِ إغفالُ دورِ الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ في احتضانِ الماسونيةِ ورعايتِها، فقدْ كانَ لها دورٌ واضحٌ في تدعيمِ العشيرةِ، وإنْ كانتِ الماسونيةُ هي منْ تُوظفُ نفوذَها السريَّ داخلَ أروقةِ الحكمِ؛ للضغطِ على الساسةِ وصُناعِ القرارِ بما يتناسبُ معَ مصالِحِها. وقد وُصفتِ الولاياتُ المتحدةُ بأنها ديمقراطيةُ جماعاتِ الضغطِ، ولا بدَّ أنَّ الماسونيةَ تُشكلُ إحدى هذهِ الجماعاتِ التي تعملُ داخلَ النظامِ[٤].

وهذا ما تعرضُهُ أحداثُ الروايةِ، وتُجَلِّيهِ فكريّا، في موقفِ (كريم) عندما خَشِيَ المماطلةَ في إنشاءِ معبدٍ جديدٍ في مدينةِ طنجةَ المغربيةِ، فنراهُ يستندُ إلى دورِ (أميرة) وثقةِ قيادةِ الماسونيةِ العالميةِ

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ٢٠٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٤٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١١.

(٤) يُنظر: عبد الوهاب المسيري، الجمعيات السرية في العالم، مرجع سابق، ص ١٠٦.

في أمريكا بدورِها، يقول (كريم): "وإنْ حدثَ تباطؤٌ فـ(أميرة) ومنْ معَها سيتصرفونَ بسرعةٍ، فُهُمُ الآنَ في طريقِهِمْ إلى أمريكا، حيثُ القيادةُ العالميةُ، وهي موضعُ ثقتِهِمْ وتقديرِهِمْ"[1].

هذهِ المقتطفاتُ التي يوردُها الكاتبُ في روايتِهِ التي تدورُ رَحاها بينَ (نصيف) و(نجيب)، أو الشخصياتِ الأخرى، تُظهرُ لنا صورةً واضحةً لعمليةِ التعبئةِ الأيديولوجيةِ لـ(نصيف)، الذي تنبَّهَ بدورِهِ إلى مخاطرِ الماسونيةِ، وانسلخَ عنها، ودفعَ حياتَهُ ثمنًا لذلكَ، فالكاتبُ يتَخَفّى خلفَ شخصياته، ويعكسُ لنا رؤيتَهُ الشخصيةَ تجاهَ الماسونيةِ، ويبرزُ دورَها المركزيَّ في تحريكِ الأنظمةِ والقوى العالميةِ، والتأثيرِ على صناعِ السياسةِ والقرارِ.

المحورُ الثالثُ– مخاطرُ الماسونيةِ:

مما لا شكَّ فيه أنَّ منظمةَ الماسونيةِ تشكلُ خطرًا وتحديًّا كبيرينِ للمنظومةِ الأخلاقيةِ والدينيةِ والمجتمعيةِ، ومهما أخفتْ خطرَها المسمومَ تحتَ مظلةِ الإخاءِ الإنسانيِّ المزعومِ، فإنَّها باتتْ مكشوفةً لكلِّ ذي عقلٍ وبصيرةٍ.

وهنا يتبادرُ للباحثِ هذا السؤالُ، لماذا تحيطُ الماسونيةُ عملَها بالسريةِ والكتمانِ، وهي تُنادي ببناءِ المجتمعاتِ باسمِ الحريةِ والمساواةِ والإخاءِ؟ أليسَ في ذلكَ غايةٌ مريبةٌ؟ تدعو للشكِّ بكلِّ ما يصدرُ عنها. وهذا ما يشيرُ إليه الباحثونَ في شأنِها، "أنه وبالرغمِ منَ التزامِ الماسونيةِ جانبَ الحيطةِ والكتمانِ واصطناعِ السريةِ في طقوسِها وبرامجِها ومحافلِها، فإنَّ كثيرًا من أصولِ تلكَ المحافلِ وطقوسِها، بل وفي سلوكِ المنتسبينَ إليها ما يدفعُنا للريبةِ والشكِّ" [2].

يوحي عنوانُ الراويةِ "الأفعى تطوقُ الأرض" إلى الخطرِ الذي تُشكلُهُ الماسونيةُ، فالكاتبُ وصفَها بالأفعى لشكلِها الخارجيِّ الجذاب، وهوَ ما يتطابقُ معَ الماسونيةِ من حيث مظهرِها الخارجيِّ ومبادئِها الإنسانيةِ المُعلنةِ، أمَّا فحواها ومكنونُها الداخليُّ فإنه يضمرُ السمومَ والشرَّ للبشريةِ في كلِّ مكانٍ على وجهِ الأرضِ، وهذا ما أرادَ الكاتبُ إيصالَهُ لنا من خلالِ أحداثِ روايته وشخصياتِها، وقد حملَ العنوانُ استباقًا للأحداثِ، وفي ذلكَ يقولُ (نجيب) بعد حادثةِ إعدامِ (نصيف): "أولُ ما بدأتُ به حياتي بعدَ التقاعدِ أنْ باشرتُ محاولةَ نشرِ روايتِهِ، وتعثرتْ محاولتي مرارًا، واحترتُ بمَ أعنونُها؟ وفي لحظةِ استغراقٍ عميقٍ فائقِ الحزنِ حتى النخاعِ مروعِ الوحشةِ والأسفِ، مرّ طيفُهُ من أمامي؛ فكأنَّهُ همسَ بروعي سمِّها يا (نجيب) –الأفعى تطوقُ الأرض–"[3].

([1]) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ٩٠.

([2]) وائل يوسف، الماسونية في العالم العربي، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٩.

([3]) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ٣٩٤.

وكشفتْ أحداثُ الروايةِ أبعادَ هذهِ المخاطرِ، وذلكَ بما يدورُ بينَ الشخصياتِ من حواراتٍ وأدوارٍ، فقد عملتِ الماسونيةُ على القضاءِ على الروابطِ الأسريةِ والاجتماعيةِ منْ خلالِ نشرِ الانحلالِ والإباحيةِ وامتهانِ جسدِ المرأةِ، وكانَ منْ أخطرِ المبادئِ الأساسيةِ للعشيرةِ الماسونيةِ نشرُ الزِّنا والفاحشةِ تحت شعارِ الحريةِ، واتخاذُهُ طريقةً للإغواءِ والإسقاطِ، يقولُ (نصيف): "أدركتُ شيئًا من ملامحِ المعنى بعد عودَتي لمصرَ بثلاثةِ أعوامٍ، فأحدُ مبادئِ العشيرةِ السريةِ ينصُّ على أنَّ الزنا لغةُ الطبيعةِ الأمِّ، وشريعتُها، ولو بقيَ البشرُ على سذاجةِ وأصلِ طبيعتِهِمُ النقيةِ التي حرفتْها عنْهُمُ الأديانُ لكانتِ النساءُ كلُّهُنَّ مشتَرَكاتٍ بينَ الرجالِ كلِّهِمْ"(١). فهذا المبدأُ يوضِّحُ خطرَ الماسونيةِ، ويؤكدُ ذلك (نصيف): "من هنا ينبعُ العزمُ على تحقيقِ هدفٍ يتربعُ على سلمِ الأولوياتِ، ولو بوسائلَ تؤدي لفناءِ البشريةِ، فلا مناصَ منْ تفكيكِ، بل تمزيقِ الروابطِ المجتمعيةِ، وهدمِ نظامِ الأسرةِ من أساسِهِ، والأدواتُ المتاحةُ لا حصرَ لها؛ أولُّها وأهمُّها سلعةٌ رخيصةٌ اسمُها المرأةُ"(٢).

ومنَ الأساليبِ التي تنتَهِجُها الماسونيةُ في محاربةِ أخلاقِ المرأةِ، استغلالُها للنقاشاتِ الجامعيةِ بينَ الشبابِ؛ لتمريرِ أفكارِها الهدامةِ تحتَ مسمياتِ الحريةِ الفكريةِ، ويكشفُ (نصيف) عن تكليفِ (مكرم) لهُ بذلكَ: " فكلَّفَنا شفويًّا بطرحِ موضوعِ حقِّ المرأةِ في الإجهاضِ، كانَ المطلوبَ أنْ أُلقيَ القنبلةَ الفكريةَ، ثمَّ أراقبُ عنْ كثبٍ ومنْ مسافةٍ كافيةٍ تفاعلاتِ ما يدورُ من نقاشاتٍ، معَ التشديدِ الأكيدِ على ربطِ القضيةِ المثارةِ بالحريةِ وحمايةِ حقوقِ الإنسانِ منْ جهةٍ، واعتبارِ رأيِ المشاركِ بالنقاشِ ومدى تقديسِهِ لحريةِ المرأةِ مؤشرًا على سعةِ ثقافتِهِ وصونِهِ للحرياتِ الفرديةِ ودفاعِهِ عنْها"(٣).

ويستمرُ مسؤولو (نصيف) في دفعِهِ لإثارةِ مواضيعِ حريةِ المرأةِ، وتخليصِها منْ قيودِ الدينِ والمجتمعِ والأخلاقِ، تطبيقًا لما يريدُهُ (كريم) رئيسُ المحفلُ المصريُّ، وليضمنَ التعبئةَ الفكريةَ والأيديولوجيةَ لـ(نصيف)، ولكيَ يأمنَ بوائقَهُ بعدَ ذلكَ؛ خشيةً منَ اكتشافِ أمرِ اغتيالِهِ لوالديْهِ، وليتأكدَ كبارُ العشيرةِ من إخلاصِ (نصيف) للعشيرةِ وأهدافِها، يطلبونَ منهُ الاستمرارَ في طرحِ المواضيعِ الفكريةِ بين طلبةِ الجامعةِ التي يدرسُ فيها، يقول (نصيف): "قمتُ وآخرونَ بالضربِ مُجَدَّدًا فوقَ وتحتِ الحزامِ الفكريِّ والنفسيِّ؛ فأثرْنا مواضيعَ تعتبرُ مكملةً لقضيةِ الإجهاضِ، معَ التركيزِ الشديدِ أنْ تدورَ في فلكِ الغرائزِ المثيرةِ، فجهَّزْنا استبيانًا مكوَّنًا منْ مجموعةِ أسئلةٍ، تولّى (مكرم) طباعتَها بمعرفتِهِ، وتتلخصُ أو تتركزُ في جوهرِها حولَ المرأةِ بالمقامِ الأولِ، والفكرِ المتحررِ من كلِّ قيدٍ، وصيغَتْ الأسئلةُ مراعيةً أنْ يشكلَ كلُّ سؤالٍ على حدةٍ قنبلةً بذاتِهِ متصلًا بما قبلَهُ وبعدهُ، أذكرُ منها:

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ٨٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٧.

- ما رأيُكَ في قيودِ الزواجِ التقليديِّ، وتبعاتِهِ المرهقةِ؟
- ما رأيُكَ في الحبِّ الحرِّ؟
- هل أنتَ مثقفٌ يدعمُ حقوقَ المرأةِ كاملةً دونَ قيدٍ أو شرطٍ؟
- هل أنتَ معَ الحريةِ الفرديةِ المقدسةِ للرجلِ والمرأةِ على السواءِ؟"(١).

هذهِ الأسئلةُ التي يطرحُها (نصيف) سرعانَ ما تتحولُ إلى قضيةِ رأيٍّ عامٍّ، وتصبحُ حديثَ الناسِ والمجتمعِ، ولا يكونُ ذلكَ إلا بجهودِ أبناءِ العشيرةِ مجتمعينَ! يقولُ الراوي: "وكانَ أخرُ مراحلِ الهجومِ هو تَحَرُّكُ أذرعٍ ماسونيةٍ تعملُ في مراكزَ مختصةٍ بالإحصاءِ والدراساتِ المجتمعيةِ، فقدمتْ وقتَها في الصحفِ والمجلاتِ نماذجَ رائعةً لقصصِ نجاحٍ في مجالاتِ إبداعٍ متعددةٍ حقَّقَها أناسٌ مميّزونَ داخلَ الوطنِ وخارجِهِ؛ لأنهم تحرروا من سجنِ الدينِ فتَتَداعى حينَها كلُّ مقوماتِ السباحةِ ضدَّ التيارِ، ويَعُمُّ الطوفانُ"(٢).

ويرى الباحثُ أنَّ مراكزَ صنعِ القرارِ في الماسونيةِ ركزتْ على محاربةِ المجتمعاتِ العربيةِ المحافظةِ من الداخلِ، وذلك بتدجينِ المجتمعِ بالأفكارِ الهدامةِ تحتَ مسمياتِ الفكرِ الحرِّ، أو ضرورةِ التبعيةِ للغربِ في أفكارِهِ ومعتقداتِهِ. فكانتْ تياراتُ الإلحادِ والتكفيرِ تنحدرُ إلينا من عواصِمِ الغربِ، وتُرسِلُ موجاتِ الفسقِ والمعصيةِ؛ لتَلْطُمَ مجتمعَنا المحافظَ بإصرارٍ، وكانتْ تتحسَّسَ السدودَ الضعيفةَ، لتنسابَ منها كيْ تُفسدَ علينا دينَنا وتاريخَنا(٣).

وهذهِ هيَ الطريقةُ في الاجتماعاتِ السريةِ للعشيرةِ التي يقودُها (الدكتور رؤوف) معَ أعضاءِ العشيرةِ ومنْ بينِهِمْ (نصيف)، فتارةً يهاجمُ الأديانَ، وأخرى يهاجمُ الأخلاقَ، وتارةً يطالبُ بحقوقِ المرأةِ المسلوبةِ، وأخرى يصفُ المجتمعَ المتمسكِ بعاداتِهِ الأصيلةِ بالتخلفِ والرجعيةِ، يقول: "كيفَ أنَّ أغلبَ دولِ الشرقِ تتوسلُ وتتسولُ الإعانةَ من الغربِ، فإذا كانَ قمحُ الرغيفِ، والمالُ، والعلمُ، والرقيُّ يأتي كلُّهُ منْ هناكَ، فماذا لدينا سوى التخلفِ، والانحطاطِ لأسبابٍ باتَ الصغيرُ قبلَ الكبيرِ يعلمُها"(٤).

فبهذا المنطقِ البغيضِ يرفعُ قيمةَ الغربِ، الذي سلبَنا خيراتِ بلادِنا، ونهبَ مقدراتِنا، ويدعو لاتباعِهِ وانحطاطِهِ، وللأسفِ هذه الدعواتُ نفذتْ إلى كثيرٍ منَ العقولِ في مجتمعاتِنا، تطالبُ بها جماعاتُ التنويرينَ الذينَ همُ الجيلُ الجديدُ منَ الماسونيينَ.

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ٩٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٢.

(٣) محمد الغزالي، الاستعمار أحقاد وأطماع، مرجع سابق، ص١٢، بتصرف.

(٤) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ٢٦٢.

وتنطلقُ شخصياتُ الروايةِ لتنفيذِ هذهِ الأفكارِ الهدامةِ، التي تهاجمُ المجتمعاتِ الشرقيةَ المحافظةَ، فهذا (نصيف) يحاورُ جموعَ الطلبةِ والمثقفينَ قائلًا: "بماذا أو كيفَ بوسعِكَ كمثقفٍ أنْ تُسْهِمَ بوقفِ نزيفِ التخلفِ المجتمعيِّ المتمسكِ بعاداتٍ وتقاليدَ باليةٍ تافهةٍ؟"(١).

وبعدَ سلسلةِ النجاحاتِ التي حققَها (نصيف) برفقةِ أعضاءِ العشيرةِ في النقاشاتِ والحواراتِ الجامعيةِ، يدعوهُمْ مساعدُ نائبُ الأستاذِ الأعظمِ (بشير) إلى التطبيقِ العمليِّ للأفكارِ التي طرحوها وروجوها من خلالِ ما يمليهِ عليهمْ قادةُ العشيرةِ، يقولُ (نصيف) على لسانِ (بشير): "فدعا إلى المبادرةِ لإقامةِ حفلاتٍ في البيوتِ، والدعوةِ إلى رحلاتٍ جماعيةٍ، وتنظيمِ مهرجانٍ ثقافيٍّ تُعرضُ خلالَهُ مسرحياتٌ وأفلامٌ معينةٌ، يرشحها مختصون، ويساهمونَ في تنفيذِها"(٢).

لذا ليسَ من الغريبِ أنْ نرى الأفكارَ الماسونيةَ تغلغلُ في الأعمالِ الفنيةِ والتلفزيونيةِ والإعلاميةِ على اختلافِ أشكالِها، فمعظمُ الوجوهِ الإعلاميةِ تنتمي إلى العشيرةِ، يقولُ (نصيف): "ثمّ أوعزتِ العشيرةُ إلى أبنائِها المخلصينَ من ممثلينَ وممثلاتٍ ومنتجينَ ومخرجينَ لصناعةِ أفلامٍ تُعزّزُ في الوجدانِ هذا المعنى؛ ليحدثَ الإيمانُ، أيِ الاستسلامُ التامُّ بالهزيمةِ النفسيةِ والشعورِ باستحالةِ النهوضِ إلا بتحطيمِ قيودِ الدينِ والأخلاقِ"(٣).

ومنْ مخاطرِ الماسونيةِ الخبيثةِ أنَّها عملتْ على استقطابِ العقولِ الفذةِ. وحرصتْ على اختيارِ المنتسبينَ إليها من ذوي المكانةِ المرموقةِ في مجتمعاتِهِمْ، وأصحابِ النفوذِ الماليِّ أوِ السياسيِّ أو الاجتماعيِّ أو العلميِّ، أو أيةِ مكانةٍ يمكنُ أن تستغلَ نفوذَها في مجتمعاتِهِمْ(٤).

وكانتْ مهمةُ التواصلِ والاتصالِ من ضمنَ المهامِ التي كُلِّفَ بها (نصيف)، يقولُ: "لقدْ كانَ أحدُ أهمِّ المهامِ المكلفِ بها تدعيمَ روابطِ التعارفِ، ولكنْ معَ أشخاصٍ بعينِهِمْ، تُرْصَدُ توجهاتُهُمْ الفكريةُ، ودراسةُ سماتِهِمُ الشخصيةِ؛ لاستكشافِ الآفاقِ، أيْ معرفةُ أيِّ نوعٍ منَ المستقبلِ ينتظرُهُمْ"(٥).

ومَنْ ثمَّ تُنظمُ العشيرةُ المؤتمراتِ والندواتِ لبثِّ سمومِها ونشرِ أفكارِها، خلفَ مسمياتٍ وهميةٍ مثلَ المؤتمراتِ السياحيةِ، وتدعو من يجري استقطابُهُمْ، وتعملُ على ضمِّهِمْ للعشيرةِ، من خلالِ هذهِ المؤتمراتِ، وتنظمُ الرحلاتِ السياحيةِ لهُمْ، وكانتْ تتابعُ العشيرةُ كلَّ ذلكَ عن كثبٍ، وتُوزعُ المهامُ بينَ أعضائِها، ويشيرُ (نصيف) إلى ذلكَ قائلًا: "أما المَهَمَّةُ الأولى، والغايةُ، فمن شِقَيْنِ؛ الأولُ: المتابعةُ

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ٩٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٦٢.

(٤) يُنظر: صالح الرقب، واقعنا المعاصر والغزو الفكري، مرجع سابق، ص ٢١٩.

(٥) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ٩٦.

والمراقبةُ عن كثبٍ لما يدورُ بين رؤساءِ وأفرادِ الوفودِ المشاركةِ خلفَ الكواليسِ، وتدوينُ تقاريرَ مدعمةٍ بالصورِ تُرْفَعُ عبر (رمزي) إلى (مكرم) الذي يقدمُ نسخةً عنها للمسؤولينَ عنهُ، ونسخةً لجهاتٍ أمنيةٍ داخليةٍ، أما الثاني: فمعرفةُ ورصدُ مدى موائمةِ مناخِ المؤتمرِ من حيثُ موضوعِهِ ونوعيةِ المشاركينَ فيه للتبشيرِ بفكرِ العقيدةِ الماسونيةِ، وإنشاءُ قنواتِ اتصالٍ ومتابعةٍ معهمْ؛ لدراسةِ إمكانيةِ التعاونِ بعدَ بناءِ أساسِ العلاقةِ، وجسُّ النبضِ تمهيدًا لغزوِ مساحاتٍ جديدةٍ منَ الأوطانِ"(١).

وفي جانبٍ مضادٍّ كانَ هناكَ الكثيرُ من الكُتّابِ والمفكرينَ ورجالِ السياسةِ يعملونَ على فضحِ مخططاتِ الماسونيةِ، وكشفِ خطرِها للعوامِ، مثلَ عضوِ مجلسِ الشيوخِ الأمريكيِّ "جاك تني" الذي قالَ في مطلعِ كتابِهِ "الأُخُوَّةُ الزائفةُ": "إنَّ هذا الكتابَ ليسَ إلا صرخةً لأبناءِ الولاياتِ المتحدةِ والغربِ والعالمِ أجمعَ، يحذرُهُمْ منَ الصهيونيةِ الخفيةِ التي تسعى للسيطرةِ على البلادِ وتغييرِ معالمِها، وتدميرِ الأممِ والقضاءِ على كافةِ الأديانِ"(٢).

وفجَّرَ هذا الكتابُ "الأخوةُ الزائفةُ" زلزالًا هزَّ عرشَ العشيرةِ بكلِّ مكوناتِها، وعملتِ الماسونيةُ بكل جهدِها لجمعِ نسخِهِ وحرقِها والخلاصِ منها، أو حتى تأليفِ الكتبِ للردِّ على ما جاءَ فيهِ منَ اتهاماتٍ وأباطيلَ حسبَ قولِ العشيرةِ، يصورُ الروائي خلوصي عويضة ذلكَ من خلالِ حوار يدور بين (رؤوف) و(بشير) مساعدَ نائبِ الأستاذِ الأعظمِ: "لقد حددْنا عددَ المكتباتِ التي يتوفرُ بها الكتابُ المطلوبُ إعدامُهُ على مستوى العاصمةِ، أما الأقاليمُ فهناكَ من يتابعُ الأمرَ بتكليفٍ من نائبِ الأستاذِ الأعظمِ كليِّ الاحترامِ في الأريافِ، وأعددتُ قائمةً، عفواً قوائمَ جغرافيةً للمناطقِ وسنقومُ الآنَ بتوزيعِ المهامِ لجمعِ الكتابِ وحرقِهِ معَ التأكدِ منْ عددِ النسخِ المسربةِ خاصةً للجامعاتِ والمكتباتِ العامةِ، وتكليفِ جهةِ الاختصاصِ بإعدادِ وعملِ اللازمِ للردِّ على الأباطيلِ التي وردتْ بهِ إنِ احتاجَ الأمرُ، فنكونُ بذلكَ مستعدينَ لجميعِ الاحتمالاتِ، وهذهِ هيَ القوائمُ"(٣).

ويصورُ الروائي خلوصي عويضة ردةَ فعلِ (بشير) على عنوانِ الكتابِ "الأخوةُ الزائفةُ" ومضمونِهِ، فقد كانَ قلِقًا وفزِعًا، وانتابُهُ الخوفُ من انتشارِهِ، وعلَّقَ قائلًا: "ابنُ الكلبِ هذا لمْ يجدْ غيرَ هذا العنوانِ ليجذبَ اهتمامَ الناسِ "الأخوةُ الزائفةُ" مجردُ الِاسْمِ مقلقٌ، مفزعٌ، بل مرعبٌ ومقرفٌ، طبعًا فحولَنا هنا سيتابعونَ أمرَ المرتزقِ الصعلوكِ الذي ترجمَهُ إلى العربيةِ، ودارَ النشرِ، أمّا المؤلفُ الضالُّ المنحرفُ المعتوهُ الأخرقُ (جاك تني) الأمريكيُّ؛ فأمرُهُ قيدَ البحثِ والدراسةِ، ومحافلُنا في أمريكا والغربِ تعرفُ

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ٢٨٨.

(٢) جاك تني، الإخوة الزائفة، ترجمة أحمد اليازوري، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٨٦م، ص١.

(٣) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ١٦٢.

جيدًا ما المطلوبُ فعلُهُ لصرفِ الأنظارِ عن كتابِهِ المدسوسِ المسمومِ، فإنْ لم يُجْدِ نفعًا فماذا يكونُ هذا الحشرةُ بجوارِ (جون كنيدي)؟"[١].

أما عنِ الرسالةِ والغايةِ التي أرادَها الكاتبُ خلوصي عويضة من عملِهِ الروائيِّ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، فقد تلخصتْ في التحولِ الفكريِّ والانقلابِ الجذريِّ عندَ بطلِ روايتِهِ (نصيف)، الذي تَنَبَّهَ لكلِّ هذا الزيفِ المسمى بالماسونيةِ، ونرى ذلكَ في منطوقِ الشخصياتِ وحوارِها الداخليِّ والخارجيِّ.

ونلحظُ ذلكَ في حوارِ (نصيف) معَ (نجيب)، حيثُ يقولُ: "وكأني منْ مكانٍ ما منْ أعماقِ غورِ الباطنِ مقموعُ الضجيجِ سمعتُ صدى شيءٍ يرددُ اللعنةَ على هذهِ الحثالةِ القمامةِ المُسَمّاةِ العشيرةِ، اللعنةُ على هذهِ الحياةِ المهينةِ الغريبةِ"[٢].

ويُعزو (نصيف) انخراطَهُ في العشيرةِ منذُ الصغرِ، إلى أنَّ كلَّ المحيطينَ بهِ همْ أعضاؤُها، ولمْ يكنْ ذلكَ من فراغٍ؛ لأنَّ قادةَ العشيرةِ ارتكبوا جريمةَ تصفيةِ والديْهِ، فأرادوا أنْ يقعَ مثلَهُمْ في شراكِ الماسونيةِ، فلا يستطيعُ الخلاصَ من شرِّها، ليصلَ في النهايةِ لقناعةٍ تامةٍ بزيفِ هذهِ العشيرةِ، فما هي إلا خدعةٌ كبيرةٌ تتستَّرُ بأقنعةِ التمدنِ والتطورِ والرقيِّ، يقولُ (نصيف) واصفًا ذلكَ: "فما أبصرتُ غيرَهُمْ يحيطونَ بحياتي، يزرعونَ بأرضِها الخصبةِ شتلَ شجرٍ خبيثٍ يروونَهُ بالأباطيلِ عنِ الحريةِ بلا قيدٍ، بلِ الحريةُ قناعٌ مغلفٌ بدواعي الرقيِّ والتمدنِ والتحضرِ الزائفِ، فإذا الثمرُ حياةٌ بلا شمسٍ، نفسٌ حائرةٌ تتخبطُ في متاهاتٍ لا نهايةَ لها، كأنَّها تُنازِعُ أصلَ فطرتِها وفطرةِ الأشياءِ، هواءٌ ملوثٌ بقاذوراتٍ تخنقُ الأنفاسَ، ما حاجةُ العشيرةِ لقتلِ أيِّ ذرةِ كرامةٍ في نفوسِ أبنائِها؟! ما حاجتُها لإغراقِهِمْ في كلِّ رذائلَ وموبقاتِ الحياةِ؟ ما حاجتُها لهدمِ كلِّ خُلقٍ كريمٍ ومسلكٍ قويمٍ؟ منِ الذي اخترعَ كابوسَ جحيمِ الصورِ لتكونَ أداةَ ابتزازٍ عنيفِ اللعنةِ يُخضعُ الإنسانَ، وقد جرَّدَهُ من آدميتِهِ؟!"[٣].

هذهِ التساؤلاتُ البريئةُ التي تطرقُ ذهنَ (نصيف)، وتجعلُهُ يحاورُ نفسَهُ هذا الحوارَ الداخليَّ العميقَ؛ تدفعُهُ لقلبِ الطاولةِ على كلِّ مَنْ حولَهُ، ورفضِ كلِّ ما لا يتلاءمُ مع طبيعةِ الإنسانِ السويةِ وفطرتِهِ السليمةِ، فالنفسُ حائرةٌ متخبطةٌ، والعشيرةُ ما فتِئَتْ تحاصرُهُ وتهددُهُ بأساليبِها المقززةِ المُذِلَّةِ.

ويصلُ (نصيف) لحالةِ ندمٍ شديدٍ على ما بذلَهُ من جهودٍ أثناءَ عملِهِ ضمنَ إطارِ العشيرةِ، مُبْدِيًا حزنَهُ وأسفَهُ، يقولُ: "ولئِنْ كنتُ نادمًا، ولطالما عضَّني بشغفٍ شهيةُ نابِ الندمِ المقدسِ أوِ المدنسِ، لا أدرى! فبالأخصِ على ما جنيتُهُ في صفوفِهِمْ؛ أبِثُّ الأكاذيبَ، وأزرعُ الفتنَ، وأسعى في دمارِ العقولِ ونسفِ القيمِ"[٤].

([١]) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ١٦٢.

([٢]) المصدر السابق، ص ٢٦٧.

([٣]) المصدر السابق، ص ٣٢٦.

([٤]) المصدر السابق، ص ٣٩٠.

ويصل الكاتب بمتلقيه إلى اللحظة التي يُحْكَمُ على (نصيف) بالإعدامِ لقتلِه (كريم) الذي كانَ يَدَّعي أنهُ أبٌ له، وذلك لأنَّهُ قتلَ والديْهِ، وأرادَ أنْ يخفيَ عنهُ ذلكَ من خلالِ تبنّيهِ وتربيتِهِ وادعاءِ أُبُوَّتِهِ، واستطاعَ ذلكَ حتى جاءتْ لحظةُ الحقيقةِ عندما اكتشفَ أنَّ (كريم) مُخَنَّثٌ بمحضِ الصدفةِ، فيقرُّ (كريم) بالحقيقةِ المخفيةِ، ويعترفُ بقتلِهِ لوالديْ (نصيف)، فينهالُ عليهِ ضربًا حتى يرديَهِ قتيلًا، ثمَّ يُعتقلُ ويسجنُ.

ثم يعرضُ لنا الكاتبُ خلوصي عويضة اللحظاتِ الأخيرةِ التي تتناولُ كتابةَ (نصيف) لقصةِ صراعِهِ تلكَ في الفترةِ الممتدةِ منْ نطقِ الحكمِ عليهِ حتى تنفيذِ الإعدامِ، يقول في ذلك: "لكنْ يحدوني الرجاءُ والأملُ أن تؤهلُني أوراقي لأكونَ مِمّن قالَ عنهُمْ (جاك تيني) مؤلفُ "الأخوةُ الزائفة"، فبعدما أشارَ إلى أنَّ الماسونيةَ ليستْ مجردَ حركةٍ يمكنُ فهمُها ومواجهتُها بالتمنّي، بل هي حربٌ طاحنةٌ، وهجومٌ صاعقٌ دائمٌ، لا يهدأُ لحظةً، نوَّهَ لحتميةِ ناموسِ الخلقِ والحياةِ قائلًا "وسيظلُّ هناكَ مَنْ يحاولُ وسيحاولُ فضحَ مخططاتِهِمُ الجهنميةِ وكشفَها "، فأملي الآنَ أنْ أكونَ من هؤلاءِ، بعدما كنتُ يومًا مع أولئكَ الأوغادِ الأباعدِ، فروحي التي تملكُ زمامَ قلمي معَ هؤلاءِ المحاولينَ"[1].

ممَّا سبقَ يظهرُ لنا رَأيُ الكاتِبِ خلوصي عويضة في مُنظَّمةِ الماسونيَّةِ العالميَّةِ، وَمدى اختلافهِ معها وتحذيرِهِ الشَّديدِ مِنْ مخاطِرِها وأساليبِها الهدّامةِ ، وذلكَ منْ خلالِ الأَفكارِ والأَيديولوجيّاتِ الَّتِي حمَّلها لِشَخصيّاتِهِ وصِراعِها معَ أصحابِ الرُّؤَى المُختلِفَةِ، حيثُ كَثَّفَ مِنْ تسليطِ الأَضواءِ على أَهدافِها وَخُطواتِها وَسُبُلِها في تَضليلِ العالَمِ وَطَمْسِ هُوِيَّتِهِ.

وهذا مَا قَدْ يرَاه بعضُ النُّقّادِ أَنَّه مُبالغةٌ في وصفِ الكاتبِ للماسونيَّةِ ومُخَطَّطاتِها، فهوَ ينسَبُ كُلَّ شرٍّ في العالَمِ لها، ويرى أَنَّ شَرَّها يُطوِّقُ الأَرضَ مِنْ شَرْقِها لِغَربِها، ومِن شَمالِها لِجَنوبِها.

وهكذا يتضحُ لنا أنَّ الكاتبَ يقدمُ من خلالِ هذهِ الذروةِ المتناميةِ من الأحداثِ التي كشفتْ حقيقةَ الماسونيةِ وخطرَها الكبيرَ فكرًا سياسيًّا طرحَ قضيةً قلَّما يتناولها الروائيونَ خوفًا أو جهلًا.

ويخلصُ الباحثُ إلى أنَّ المتتبعَ للنسقِ العامِ للقضايا السياسيةِ التي تناوَلَها الكاتبُ خلوصي عويضة يلحظُ سطوعَ الرؤيةِ الأيديولوجيةِ التي ينطلقُ منها الكاتبُ ويتخفى بها خلفَ شخصياتِهِ عبرَ تقديمِ عرضٍ دراميٍّ متسارعِ الأحداثِ والمواقفِ الروائيةِ.

ويرى الباحثُ أنَّ روايتي "المباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ" جاءتا انعكاسًا لروحِ الكاتبِ وأفكارِهِ، وتجسيدًا لرؤيتِهِ الواقعيةِ، التي تستندُ إلى الصراعِ الروائيِّ الذي يدمجُ بينَ الأحداثِ الواقعيةِ والخياليةِ في بعضِ المشاهدِ، وقد حاولَ الكاتبُ بفنيةٍ عاليةٍ، وحرفيةٍ لغويةٍ نقلَ تجربَتَهُ ومعالجتَهُ الأدبيةَ للوقائعِ التاريخيةِ التي تتعلقُ بمحيطِهِ العربيِّ والعالميِّ التي أطلقتْ له العنانَ محلقًا ومغردًا في أفانينَ جديدةٍ، فلمْ يقفْ عند حدودِ المحليةِ التي تستنزفُ مخزونَهُ الإبداعيَّ.

---

(1) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ٣٩٠.

الفصلُ الثالثُ

بنيةُ الشخصياتِ

في روايتيِ "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"

- ❖ المبحثُ الأولُ- العلاقَةُ بينَ الشَّخصيَّةِ وعناصرِ السَّردِ الروائيِّ، والأيديولوجيا.
- ❖ المبحثُ الثَّانِي- أنواعُ الشخصياتِ.
- ❖ المبحثُ الثّالِثُ- وَصَفُ الشخصياتِ وتقديمها.
- ❖ المبحثُ الرّابعُ- وَظيفةُ الشخصياتِ وتَقويمها.

توطئة:

عندما عَجَزَتِ الفنونُ الأدبيةُ أنْ تستوعبَ الواقعَ الجديدَ بعدَ الثورةِ البرجوازيةِ، ظهرَ الفنُّ الروائيُّ، وكانَ لهُ القدرةُ على احتواءِ ذلكَ الواقعِ بمعضلاتِهِ وتناقضاتِهِ، فـ: "الروايةُ فنٌّ حديثٌ لهُ بناؤُهُ الخاصُّ، ونسيجُهُ اللغويُّ، ووظيفتُهُ المتميزةُ عنْ غيرِهِ مِنَ الفنونِ القصصيةِ ذاتِ السماتِ الفكريةِ والفنيةِ"(1). وللفنِّ الروائيِّ أسسُهُ، وعناصرُهُ التي تَرْقى بالبناءِ، والشكلِ، والغرضِ؛ لتنقلَ لنا رؤيةَ الكاتبِ ممّا يدورُ حولَهُ من قضايا وأفكارٍ، أو منْ أحداثٍ ووقائعَ تاريخيةٍ ومصيريةٍ.

وأهمُّ العناصرِ المُؤَسِّسَةِ للفنِّ الروائيِّ: السردُ وتقنياتُهُ، والحدثُ، والشخصياتُ، والزمنُ، والمكانُ، واللغةُ، والمغزى. كلُّ هذهِ العناصرِ وغيرِها تتضافرُ جميعًا لتكوّنَ لنا جسمًا وفنًّا أدبيًّا، يستمدُ كلُّ عنصرٍ فيه قوته وحضورهُ؛ نتيجةَ تفاعلِهِ معَ العناصرِ الأخرى.

مرتِ الروايةُ بتطوراتٍ كبيرةٍ وبتشكيلاتٍ فنيةٍ متعددةٍ، فكانتِ الروايةُ التاريخيةُ والعبثيةُ، أما في وقتِنا المعاصرِ فإنَّ التركيزَ ينصبُ على الأحداثِ والأفكارِ والقضايا التي يسعى الروائيونَ إلى نشرِها أو معالجتها، فأصبحْنا نطالعُ تجاربَ روائيةً مختلفةً من كاتبٍ لآخرَ.

نلاحظُ أنَّ روايتي الكاتبِ خلوصي عويضة جاءتِ انعكاسًا لواقعٍ مليءٍ بالمتناقضاتِ، حيثُ استطاعَ أنْ يُجسدَ بعض قضايا الواقعِ المحليِّ والعربيِّ والعالميِّ بدقةٍ متناهيةٍ.

سارتِ روايتا الكاتبِ خلوصي عويضة على نمطٍ محدثٍ، فروايةُ "المباهلةِ" بُنيتْ على تقنيةٍ حديثةٍ هي تقنيةُ تعددِ الأصواتِ، أو تعددِ الرواةِ، وذلكَ لخدمةِ تباينِ الأفكارِ الأيديولوجيةِ التي تعالجُها الروايةُ، أما روايةُ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" فبُدئتْ من نهايتِها، ثم عادَ الكاتبُ يسترجعُ الأحداثَ؛ حتى وصلَ إلى نقطةِ البدايةِ، معَ توظيفِهِ لكلِّ التقنياتِ الفنيةِ منْ حوارٍ داخليٍّ وخارجيٍّ، ووصفٍ للمكانِ والزمنِ، وتسارعِ الأحداثِ، وإبطائِها، والتحكمِ بوتيرةِ السردِ بفنيةٍ عاليةٍ.

والروايتانِ من حيثُ بنائِهما الفنيِّ لا تبتعدانِ عن مكوناتِ العملِ الفنيِّ الروائيِّ، فهما إلى جانبِ لغتِهما الأدبيةِ الرفيعةِ تشتملانِ على عناصرِ البناءِ الروائيِّ بمجملِها.

إنَّ المتأملَ في روايتي الكاتبِ خلوصي عويضة يجدُ معمارًا فنيًّا متجددًا، يسعى إلى تشييدِ بناءٍ فنيٍّ حديثٍ ضمنَ شبكةٍ منَ العلاقاتِ والتفاعلاتِ بينَ عناصرِ البناءِ الفنيِّ الروائيِّ، وباستخدامِ تقنياتٍ فنيةٍ متنوعةٍ.

---

(1) ميخائيل باختين، الملحمة والرواية، ترجمة جمال شحيد، ط1، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٢م، ص٢٥.

تعتمد روايتا "المباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ" في شكلِهما الخارجيِّ على أسلوبِ التقطيعِ في سردِ الأحداثِ؛ فكانتا مقسمتينِ على فصولٍ ومقاطعَ متساويةٍ في الطولِ والحجمِ، وكانتِ العلاقةُ التكوينيةُ بينَ المقاطعِ متسلسلةً ومترابطةً على مستوى الحدثِ، وعلى مستوى الزمنِ والمكانِ والشخوصِ، وتكادُ تمثلُ شخصيةُ البطلِ في الروايتينِ الحبلَ السُّريَّ الذي يُغَذي هذهِ الفصولَ والمقاطعَ مجتمعةً، وتربطُها ببعضِها بعضًا الحكاياتُ الفرعيةُ التي ضمَّنَها الكاتبُ في روايتيْهِ؛ بغرضِ تعزيزِ الأفكارِ الأيديولوجيةِ، والرؤى التي ينطلقُ من خلالِها في توليدِ الأحداثِ، ونموِّها.

والكاتبُ عندما يبني روايتَهُ على نظامِ المقاطعِ السرديةِ، فإنه يتساوقُ بذلكَ معَ متغيراتِ الشخوصِ وتباينِ الرؤى واختلافِها، كذلك يتناسبُ نظامُ المقاطعِ معَ متغيراتِ الزمنِ والمكانِ والأحداثِ، فعلى سبيلِ المثالِ كان مطلعُ الفصلِ الثاني في روايةِ "المباهلة" إيذانًا بالتحولِ الفكريِّ للبطلِ (أسعد)، وبإعطائِهِ البيعةَ والانضمامِ إلى المقاومةِ المسلحةِ للاحتلالِ، وكذلكَ يشيرُ الفصلُ الثاني إلى التحولِ الجذريِّ لـ(هادي) صاحبِ الشخصيةِ الرئيسةِ الثانيةِ في الروايةِ نفسها، إلى أنْ ينتقلَ الكاتبُ إلى هدفِهِ ومغزاهُ في الفصلِ الثالثِ والأخيرِ، وهوَ فصلُ المُباهلة الذي حملَ عنوانَ الروايةِ.

ركَّزَ الباحثُ في دراسته للبناء الفنيِّ على الشخصياتِ والزمنِ والمكانِ؛ لما لهذه العناصرِ من أهميةٍ كبيرةٍ في تشكيلِ المعمارِ الفنيِّ لأيِّ روايةٍ أدبيةٍ. وهنا تجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ البناءَ الفنيَّ للروايتينِ يحتاجُ إلى دراسةٍ مستقلةٍ بذاتِها.

وفي هذا الفصلِ سيتناولُ الباحِثُ بِنيةَ الشَّخصِيَّاتِ مقسمًا الفَصلَ إلى أربعةِ مباحثَ: في المبحَثِ الأوَّلِ يتحدثُ عن علاقَةِ الشَّخصيَّةِ بعناصرِ السَّردِ الروائيِّ، والأَيديولوجيا، ثُمَّ يتناولُ في المبحثِ الثَّاني أَنواعُ الشَّخصيَّاتِ في روايتي "المُباهَلَةِ" و"الأفعى تُطوِّقُ الأرضَ"، وفي المبحثِ الثّالثِ وصفَها وتَقديمها، أَمَّا في المبحثِ الرّابِعِ فيَكونُ لوَظيفةِ الشَّخصيَّاتِ وَتقويمها.

المبحثُ الأولُ– العلاقةُ بينَ الشخصيةِ وعناصرِ السردِ الروائيِّ، والأَيديُولوجيا:

تعدُ الشخصياتُ من أهمِ عناصرِ العملِ الروائيِّ، لأنَّها ترتبطُ بشكلٍ مباشرٍ بما يجري من أحداثٍ، ولا يمكنُ للأحداثِ أنْ تسيرَ بدونِها، فهيَ التي تُسَيِّرُها وتدفعُها إلى الأمامِ، وتمثلُ الركيزةَ الأساسيةَ، وهيَ منَ مقوماتِ الروايةِ التي لا تتجسدُ إلا بِها، وكثيرًا ما ينجذبُ المتلقي نحوَ الشخصياتِ الروائيةِ، ويعايشُها، ويتغلغلُ في مكوناتِها النفسيةِ والعاطفيةِ والفكريةِ، وبعضُ الشخصياتِ قد تستقطبُ القارئَ وبعضُها قد تنفِّرُهُ، لذا تحتلُ الشخصيةُ مساحةً كبيرةً من الاهتمامِ؛ ربما أكثرَ منَ العناصرِ الأخرى التي تُوظفُ في العملِ الروائيِّ؛ ونجدُ بعضَ النقادِ يعرِّفونَ الروايةَ بقولِهِمْ: "الروايةُ شخصيةٌ"[1].

ونجاحُ أيِّ كاتبٍ في أيِّ روايةٍ يقومُ على دقةِ اختيارِهِ للشخصياتِ ودورِها ودلالتِها، فيهتمُ بها ويظهرُها بشكلٍ خاصٍّ، إذْ: "تعدُ الشخصياتُ منْ أهمِّ عناصرِ القصةِ، كما تعدُ القصةُ التي تكونُ فيها السيادةُ للشخصياتِ الإنسانيةِ أعلى من مستوى غيرِها منَ القصصِ التي قدْ تكونُ السيادةُ فيها للحادثةِ مثلًا"[2].

ويستندُ الكاتبُ في عملِهِ الروائيِّ على شخصياتٍ بعينِها، لتأديةِ الدورِ والوظيفةِ المنوطةِ بها فقدْ تكونُ الشخصيةُ "عنصرًا تزويقيًّا، أو العنصرَ القائمَ بالحدثِ أو الناطقَ بلسانِ المؤلفِ، أو كائنًا بشريًّا خياليًّا مزودًا بكيفيةٍ معينةٍ في الوجودِ والإحساسِ، وفي إدراكِ الآخرينَ والعالمَ"[3].

ركزتِ الروايةُ التقليديةُ على الشخصياتِ وعدَّتْها العنصرَ الأساسيَّ الرئيسَ، وركزتْ على تحديدِ ملامحِها الجسمانيةِ، وسلطتِ الضوْءَ على طريقةِ تفاصيلِ حياتِها الدقيقةِ. وكانَ الروائيُّ التقليديُّ يلهثُ وراءَ الشخصياتِ ذاتِ الطبائعِ الخاصةِ؛ لكي يبلورَها في عملِهِ الروائيِّ؛ فتكونَ صورةً مصغرةً للعالمِ الواقعيِّ، وقدْ كانَ الروائيونَ يعتقدونَ أنهم قادرونَ على منافسةِ المؤرخينَ الذينَ يكتبونَ عن واقعِ الناسِ، ووقائعِهِمْ أيضًا[4].

أما الروايةُ الحديثةُ فكانتْ نظرتُها للشخصيةِ تختلفُ عنِ الروايةِ التقليديةِ، حيثُ بَنى الروائيونَ الحداثيونَ شخصياتِهِمْ من خلالِ المزجِ بينَ الواقعِ والخيالِ، لإضفاءِ الواقعيةِ والصدقِ للنماذجِ التي

---

(1) شكري الماضي، فنون النثر العربي، ط ١، جامعة القدس المفتوحة، عمان، ١٩٩٦م، ص ٣٠.

(2) محمد نجم، فن القصة، ط ١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩م، ص ١٨.

(3) رولان بورونوف، وريال أوئيليه، عالم الرواية، ترجمة نهاد التكرلي، ط ١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩١م، ص ١٤٣.

(4) يُنظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، سلسلة شهرية صادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، عدد (٢٤٠)، الكويت، ١٩٩٨م، ص٧٣، بتصرف.

تتجسدُ في متونِهِمْ الروائيةِ، ولعلَّ أغلبَ الشخصياتِ في الروايةِ الحديثةِ من الوحيِّ والإبداعِ والخيالِ الخصبِ للكاتبِ، لأنها "ليستْ كائناتٍ حقيقةً، بل كائناتٌ منْ ورقٍ"(١)، كما يقولُ رولان بارت.

اختلفَ النقادُ في تحديدِ مفهومٍ موحدٍ للشخصيةِ، وكانَ سببَ ذلكَ اهتمامُ العلومِ المختلفةِ بالشخصيةِ، كعلمِ النفسِ وعلمِ الاجتماعِ، وتداخلِ ذلكَ بالأدبِ، ونحن هنا يعنينا المصطلحُ المتعلقُ بالعملِ الأدبيِّ والروائيِّ على وجهِ الخصوصِ.

هناكَ من عرَّفَها بأنَّها "عنصرٌ مصنوعٌ ككلِّ عناصرِ الروايةِ، وتتكونُ من مجموعِ الكلامِ الذي يصفُها، ويصورُ أفعالَها، وينقلُ أفكارَها وأقوالَها"(٢)، أيْ أنَّها تكتسبُ أهميتَها ووجودَها منْ تسلسلِ قضيتِها داخلَ النصِّ السرديِّ.

ويَعُدُّ عبد المالك مرتاض الشخصيةَ فاعلًا ومحركًا للحدثِ القصصيِّ، ويعلقُ على ذلكَ بقولِهِ: "لا يوجدُ فعلٌ بدونِ فاعلٍ، ولا يوجدُ سردٌ بدونِ شخصياتٍ فهيَ تشملُ بصفةٍ عامةٍ الأفرادَ الواقعيينَ أو الخياليينَ الذينَ تدورُ حولَهُمْ أحداثُ الحكايةِ أو القصةِ"(٣).

بينما عرَّفَها الناقدُ حسن بحراوي بأنّها: "محضُ خيالٍ يبدعُهُ المؤلفُ لغايةٍ فنيةٍ محددةٍ، يسعى إليها؛ فالشخصياتُ لا وجودَ لها خارجَ الكلماتِ لأنها ليستْ سوى كائناتٍ من ورقٍ"(٤). وهوَ بهذا التعريفِ يتفقُ معَ تعريفِ الناقدِ الغربيِّ رولان بارت الذي اعتبرَ الشخصياتِ كائناتٍ من ورقٍ.

وعرَّفَها جيرالد برنس في كتابِهِ "قاموسُ السردياتِ" بأنَّها: "كائنٌ له سماتٌ إنسانيةٌ، ومنخرطٌ في أفعالٍ إنسانيةٍ، ويمكنُ أنْ تكونَ رئيسةً أو ثانويةً، ديناميكيةً أو ثابتةً، متسقةً أو غيرَ متسقةٍ، مسطحةً أو مستديرةً، ويمكنُ كذلكَ تحديدُها على أساسِ أعمالِها وأقوالِها ومشاعرِها، وطبقًا لاتساقِها معَ الأدوارِ المعياريةِ، أو طبقًا لاتفاقِها معَ مجالاتٍ محددةٍ منَ الأفعالِ، أو تجسيدِها لبعضِ العواملِ"(٥). ويعدُّ تودوروف الشخصيةَ: "ذاتَ طبيعةٍ مطاطيةٍ جعلتَها خاضعةً لكثيرٍ منَ المقولاتِ دونَ أنْ تستقرَ على واحدةٍ منْها"(٦).

---

(١) رولان بارت، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ترجمة: منذر عياشي، ط ١، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، ١٩٩٣م، ص٧٢٢.

(٢) لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ٢٠٠٢م، ص١١٤.

(٣) عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، مرجع سابق، ص٣٨.

(٤) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص٢١٣.

(٥) جيرالد برنس، قاموس السرديات، ترجمة السيد إمام، ط١، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٣٠.

(٦) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص٢٠٧.

وترى يُمنى العيد أنَّ "الشخصيةَ الروائيةَ ليستْ مجردَ نسيجٍ منَ الكلماتِ بلا أحشاءٍ؛ لذا يبدو اعتمادُ التأويلِ في تحليلِ الخطابِ الروائيِّ اختيارًا يعيدُ للشخصيةِ الروائيةِ طابعَ الحياةِ، كما يحافظُ عليها ككائنٍ حيٍّ"[1].

واستنادًا على المفاهيمِ السابقةِ للشخصيةِ، فإنَّ الباحثَ يرى أنها عمودٌ فقري للجسمِ الروائيِّ، وأحدُ أهمِ العناصرِ الفنيةِ، وأكثرُ ما يثيرُ المتلقي ويشدُّهُ، خاصةً عندما تكونُ قريبةً منه، ويشعرُ أنَّ واقعيةَ شخصياتِ الروايةِ تفوقتْ على التقنياتِ الأخرى، وذلكَ "لكونِ الشخصيةِ قادرةً على تعريةِ أجزاءٍ منّا كانتْ مجهولةً، فيمكنُها تعريةَ أيِّ نقصٍ، وإظهارَ أيِّ عيبٍ يعيشُهُ أفرادُ المجتمعِ"[2]. فكثيرًا ما يجدُ القارئُ نفسَهُ وجهًا لوجهٍ معَ شخصيةٍ تماثلُهُ وتقاربُهُ وتحاورُهُ.

ويرى الباحثُ أنَّه بالرغمِ منَ الاختلافِ وتعددِ مفاهيمِ الشخصيةِ ومصطلحاتها؛ إلا أنها لا تبتعدُ عن جوهرِ كينونتِها، وحضورِها في الأعمالِ الروائيةِ.

وتنبعُ أهميةُ العلاقةِ بين الشخصيةِ وبينَ عناصرِ السردِ الروائيِّ من استحواذِ الشخصيةِ على الوجودِ الروائيِّ، ومن قيادتِها للأحداثِ وتنظيمِها للأفعالِ وردّاتِها، فالشخصيةُ هيَ منْ تعطي القصةَ بعدَها الحكائيَّ، وهي العنصرُ الوحيدُ الذي تتقاطعُ معَهَ عناصرُ العملِ الروائيِّ كافةً، وهي التي تنهضُ بالسردِ، وتغدو اللغةُ طوعًا لأمرِها، ولا وجودَ للحدثِ إلا بتأثيرٍ منْها، ولا يكونُ المكانُ إلا ليحتويَها، ولا الزمنُ إلا لتتنقلَ فيهِ.

ولما كانَ جوهرُ الصياغةِ الروائيةِ يكمنُ في طبيعةِ علاقةِ الراوي بالشخصياتِ، ومدى احاطتِهِ بالوقائعِ والأحداثِ التي يتكونُ منها العالمُ الروائيُّ، فقدِ اهتمَ النقادُ بتحديدِ هذهِ العلاقةِ وقسموها إلى أنواعٍ؛ فهناكَ ساردٌ أكبرُ منَ الشخصيةِ يُسمى ساردًا كليَّ العلمِ، وهناكَ ساردٌ مساوٍ للشخصيةٍ يعلمُ ما تعلمُهُ الشخصيةُ، ولا يعرفُ إلا ما تعرفُهُ الشخصيةُ، وساردٌ أقلُّ منَ الشخصيةِ، فلا يسردُ إلا ما يراهُ، أما ما يجري بعيدًا عن رؤيتِهِ فهوَ لا يعرفُهُ.

وترتبطُ الشخصيةُ بالأحداثِ الروائيةِ، وتسهمُ في بنائِها، وكذلك تُسهمُ الأحداثُ في تكوينِ الشخصياتِ ورسمِها، فالعلاقةُ بين الشخصية وبينَ الأحداثِ علاقةٌ تبادليةٌ، وتطورُ الأحداثِ يعني بالضرورةِ تطورَ الشخصياتِ، ومواكبتِها لهذهِ التغيراتِ. و"ترتبطُ الشخصيةُ معَ الزمنِ بعلاقةٍ جدليةٍ يتأثرُ كلٌّ منها بوجودِ الآخرِ"[3]. فالروائيُّ عندما يخلقُ شخصياتِهِ فهوَ يحددُ الزمنَ الذي تسيرُ فيهِ

---

(1) يمنى العيد، دلالات النمط السردي في الخطاب الروائي، تحليل (رحلة غاندي الضمير)، ملتقى السيميائية والنص الأدبي، عنابة، ١٩٩٥م، ص٢٣٨.

(2) المرجع السابق، ص٧٩.

(3) مها قصراوي، الزمن في الرواية العربية، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٤م، ص١٤٩.

تلكَ الشخصياتُ؛ حتى يضفيَ عليها الصدقَ والواقعيةَ.

للمكانِ أهميةٌ كبيرةٌ في بناءِ الشخصيةِ الروائيةِ، فلا يمكنُ أنْ تُوجدَ شخصيةٌ بدونِ مكانٍ، لأنهُ فضاؤُها وحيزُها الذي تتحركُ فيهِ، وهوُ لا يقلُّ أهميةً عنِ دورِ الزمنِ، فهما متلازمانِ ومتصلانِ، وهما بمثابةِ الوعاءِ الذي تتحركُ فيه الشخصيةُ. والمكانُ لا يكونُ في معزلٍ عن غيرِهِ من بقيةِ عناصرِ السردِ كالشخصياتِ والزمنِ والأحداثِ، فهوَ دائمًا في تفاعلٍ معَها ولهُ علاقاتٌ متكاملةٌ ومتعددةٌ[1]. فلا يمكنُ لها أنْ تعيشَ خارجَ إطارِ المكانِ الذي ولدتْ وترعرعتْ فيهِ، وتأثرتْ بأحداثِهِ وتفاصيلِهِ الزمنيةِ والمكانيةِ.

يرى الباحثُ أنّه لا يمكنُ بحالٍ من الأحوالِ إغفالُ أهميةِ الشخصياتِ ودورِها في العملِ الروائيِّ، فهيَ بمثابةِ العمودِ الفِقْرِي الذي تستندُ عليهِ عناصرُ السردِ، حيثُ تتفاعلُ معَ مكوناتِ العملِ السرديِّ وتقنياتِهِ، لتنتجَ للقارئِ فنًّا أدبيًّا معبرًا عنِ الواقعِ المَعيشِ، وهيَ بمثابةِ المعادلِ الموضوعيِّ للشخصيةِ الواقعيةِ؛ تجسدُها قدرةُ الروائيِّ على رسمِ ملامحِها وإعطائِهِ الحيويةَ والحياةَ من روحِهِ وأفكارِهِ وخيالِهِ، وهذا ما يلمسُهُ المتبحرُ في روايتِي الكاتبِ خلوصي عويضة، فقدِ استمدَ شخصياتِهِ من واقعِهِ ودمجَ هذهِ الشخصياتِ معَ الأحداثِ وحرَّكَها في الفضاءاتِ المكانيةِ المختلفةِ، فحلَّقَ بها في محيطِ الوطنِ وخارجِهِ، واعتمدَ بشكلٍ ملحوظٍ على الأحداثِ والوقائعِ التاريخيةِ المعاصرةِ، ومزجَها بقصصٍ خياليةٍ حتى يعطيَها الصورةَ الأدبيةَ الفنيةَ الراقيةَ، والمغايرةَ للروايةِ التقليديةِ.

عندما يبدأُ أيُّ كاتبٍ في كتابةِ عملِهِ الروائيِّ، فإنه يريدُ أنْ يعبرَ بالضرورةِ عنْ أفكارِهِ التي تجولُ في خاطرِهِ، ويريدُ أنْ ينقلَها لغيرِهِ، فينسجَ معمارَهُ الفنيَّ، ليدفعَ القارئَ لمتابعةِ القراءةِ بشغفٍ ونهمٍ، وليتأملَ حركةَ الشخصياتِ ويقف على فكرِها، فـ: "الشخصياتُ هيَ أداةُ الكاتبِ للتعبيرِ عنِ الأفكارِ والقضايا المتعددةِ التي قد يتفقُ أو يختلفُ معَها"[2].

والكاتبُ المتمكنُ يستمدُ شخصياتِهِ من واقعِهِ المعيشِ، ويُحَمِّلَها أفكارَهُ ورؤاهُ الأيديولوجيةَ، فـ: "الأشخاصُ في القصةِ مدارُ المعاني الإنسانيةِ، ومحورُ الأفكارِ والآراءِ العامةِ، ولهذِهِ المعاني والأفكارِ المكانةُ الأولى في القصةِ منذُ انصرفتْ إلى دراسةِ الإنسانِ وقضاياهُ"[3]. ومنْ خلالِ الشخصياتِ ودورِها المرصودِ في المتنِ الروائيِّ، واحتكاكِها معَ الأحداثِ والشخصياتِ الأخرى

([1]) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص٣٢.

([2]) حنين معالي، البُعدُ الأيديولوجي في روايتي موسم الحوريات وأبناء الريح، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، م: ٤٤، ع: ١، ٢٠١٧م، ص١٠٧.

([3]) محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، د.ط، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٥٢٦.

تتجسدُ رؤيةُ الكاتبِ. والأفكارُ تحيا منْ الشخصيةِ وتأخذُ طريقَها للمتلقي عبرَ أشخاصٍ معينينَ لهمْ أراؤُهُمْ واتجاهاتُهُمْ وتقاليدُهُمْ في مجتمعٍ معينٍ[١].

ومن البَدَهِيِّ أنْ تختلفَ الأفكارُ وتتباينُ بينَ الشخصياتِ. حيثُ تختلفُ الشخصياتُ وتتعددُ بتعددِ الأهواءِ والأيديولوجياتِ والثقافاتِ والحضاراتِ والهواجسِ البشريةِ المختلفةِ[٢]. والروايةُ إذا اشتملتْ على عددٍ كبيرٍ من الشخصياتِ فهذا معناهُ أنَّ كلَّ شخصيةٍ تقدمُ تجربَةً خاصةً، تختلفُ أو تقتربُ منْ غيرِها داخلَ العملِ الروائيِّ والمتنِ الحكائيِّ، ولأنَّ التجارِبَ الإنسانيةَ في العملِ الروائيِّ أوسعُ بكثيرٍ من غيرِهِ منَ الأعمالِ الأدبيةِ الأخرى كالشعرِ والقصةِ مثلًا؛ لذا نجدُ أنَّ عددَ الشخصياتِ في الفنِّ الروائيِّ أكثرَ منْ غيرِهِ، ومنْ هذا الاختلافِ والتعددِ ينتجُ الصراعُ ويتنامى مع تصاعدِ الأحداثِ وتأزمِها.

ولا ينظرُ إلى تطورِ الشخصياتِ باعتبارِ تأثرِها بالواقعِ فقطْ، إنما بما يسعى الروائيَّ إليهِ، لذلكَ فهيَ: "تخضعُ لصرامةِ الكاتبِ، وتقنياتِ إجراءاتِهِ، وتصوراتِهِ، وأيديولوجيتِهِ" فهو ينظرُ إليها على أنَّها شخصٌ يحملُ فكرةً معينةً[٣]. والكاتبُ البارعُ هو الذي يواري ويخفي أيديولوجيتَهُ خلفَ شخصياتِهِ وما تقدمُهُ في الروايةِ، وهذا يمنحُها الموضوعيةَ.

مما لا شكَّ فيهِ أنَّ الفكرةَ والمغزى هما الهدفُ في العملِ الروائيِّ، وما يدورُ بينَ الشخصياتِ من صراعاتٍ حول قضايا معينةٍ هو جوهرُ العملِ الروائيِّ، وتحاولُ الروايةُ أنْ تقدمَ هذهِ التجاربَ وتنقلَها في ثوبٍ حكائيٍّ، من خلالِ الاحتكاكِ بين الشخوصِ وما يدورُ بينَها منْ أحداثٍ وخلافاتٍ وما شابَهَ ذلكَ.

لقدِ استطاعَ الروائيونَ الحداثيونَ تخطي النزعةَ الفرديةَ البعيدةَ عنِ الواقعِ التي طغتْ على أغلبِ الأعمالِ الروائيةِ، وانتقلوا إلى مرحلةِ النضجِ، وتناولِ القضايا الواقعيةِ والمصيريةِ. وكانتِ الروايةُ الفلسطينيةُ من أكثرِ الرواياتِ الواقعيةِ المعبرةِ عن التحدياتِ والقضايا التي برزتْ على السطحِ[٤]. ويرجعُ السببُ إلى الظروفِ السياسيةِ والاجتماعيةِ التي خلفَها الاحتلالُ، وما أعقبَهُ من قتلٍ وتشريدٍ، فلمْ يستطعِ الروائيُّ كتمَ أنفاسِهِ عنْ قلمِهِ، فعبَّرَ عن همومِ مجتمعِهِ وقضايا وطنِهِ.

---

(١) يُنظر: عثمان عبد الفتاح، بناء الراوية، د.ط، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٢م، ص١٧.

(٢) يُنظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، مرجع سابق، ص٧٣، بتصرف.

(٣) عبد الملك مرتاض، في نظرية الراوية، مرجع سابق، ص٧٦.

(٤) بسام فرنجية، الاغتراب في الرواية الفلسطينية، د.ط، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، ١٩٨٩م، ص٢٥. بتصرف.

ومعَ تطورِ الأحداثِ السياسيةِ والاقتصاديةِ والفكريةِ في الوطنِ العربيِّ، وخاصةً القضيةَ الفلسطينيةَ، التي أحدثتْ خلخلةً في القيمِ الاجتماعيةِ والسياسيةِ السائدةِ، هَيمنتِ الأيديولوجيا على النِتاجِ الروائيِّ العربيِّ، ونتجتِ الروايةُ الواقعيةُ "التي تهتمُ بالواقعِ وقضاياهُ، إذ عالجتِ الواقعَ الاجتماعيَّ والسياسيَّ والقوميَّ، معَ تغليبِ إحدى الصورِ على غيرِها"(١). فلمْ تعدِ الرواياتُ السابقةُ قادرةً على التعبيرِ عنِ الواقعِ وتحليلِهِ، والتفاعلِ معَهُ وتفسيرِهِ، نظرًا لتبدلِ العلاقاتِ داخلَ المجتمعِ الواحدِ، وبينَهُ وبينَ غيرِهِ، فلمْ تعدِ الفضائلُ والرذائلُ ركيزةَ العملِ الروائيِّ، إنما تعدى ذلكَ إلى الفرديةِ، والسيطرةِ الخارجيةِ، والانشقاقِ الداخليِّ بينَ أفرادِ المجتمعِ الواحدِ، فضلًا عنِ الأوضاعِ الاجتماعيةِ، من فقرٍ وبطالةٍ وفسادٍ، وغيرِها منَ الأمورِ التي تصورُ أزمةَ الإنسانِ في ظلِّ الواقعِ الذي يحياهُ.

تجدرُ الإشارَةُ إلى أنَّ الكاتبَ خُلوصي عويضةَ استطاعَ بِفنيَّةٍ عاليةٍ أن يوازنَ بينَ الأيديولوجيا كمضمونٍ ومُكوِّنٍ لرواياتِهِ والعملِ الرِّوائيِّ كفنٍ أدبيٍّ لهُ خَصائِصُهُ وَطَرائِقُهُ؛ وذلكَ لأَنَّ الكِتابَةَ بِرُؤيَةٍ عميقَةٍ تتطلَّبُ الإيغالَ في النَّصِّ بدُربةٍ وذكاءٍ، دونَ السُّقوطِ في فخِّ الأيديولوجيا الصّارِمَةِ، وهيَ عمليَّةٌ تُشبهُ المشيَ على خَيطٍ رفيعٍ، ومن عُلوٍّ شاهقٍ، معَ المُحافظةِ على التَّوازُنِ الفَنّيِّ والفِكريِّ، فكثيرٌ من الأَعمالِ الرِّوائيَّةِ تُبهرُ الجميعَ في البداياتِ الفنيَّةِ القويَّةِ، ثُمَّ لا يلبثُ الكاتبُ اَلمُؤَدلَجُ أن يتدخَّلَ بِشكلٍ مُقلقٍ في عملِهِ الرِّوائيِّ وينسى أنَّهُ يكتبُ في مِضمارِ الأدبِ الرِّوائيِّ لِتتحوَّلَ الرِّوايَةُ إلى خِطابٍ أَيديولوجيٍّ بَحتٍ.

يرى الباحثُ أنَّ ارتباطَ الشخصياتِ بالأيديولوجيا في روايتي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ" كانَ وثيقًا وعميقًا ومتماسكًا، واتخذ الروائيَّ من تقنيةِ تعددِ الأصواتِ سبيلًا لبناءِ المتنِ الروائيِّ في روايةِ "المُباهلةِ"، وأظهرتْ روايةُ "الأفعى تطوق الأرض" تباينَ أفكارِ الشخصياتِ واختلافِ أيديولوجياتِها، مما أتاحَ لكلِّ شخصيةٍ أن تبوحَ بفكرِها ورأيِها في القضايا والأفكارِ المتعددةِ، وهَذا يعْنِي أنَّ الكاتِبَ استطاعَ أن ينقلَ أفكارَهُ وأيديولوجيّاتِهِ من خلالِ شخصياتِهِ ومواقِفِها، إلى درجةِ إلباسِهِم معاطِفَ أيديولوجيَّةً تَتَنَاسبُ معَ أدوارِهِم.

المبحثُ الثاني- أنواعُ الشخصياتِ في روايتي "المُباهلةِ" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ":

تعملُ الشخصيةُ كمحركٍ أساسٍ للعملِ الأدبيِّ، وتمثلُ البؤرةَ الأساسيةَ التي يُبنى عليها السردُ الروائيُّ، فهيَ القطبُ الذي يتمحورُ حولَهُ الخطابُ السرديُّ، وتختلفُ باختلافِ طبيعةِ الروايةِ، والزمنِ والمكانِ، والثقافةِ والظروفِ التي تحيطُ بالعملِ الأدبيِّ، وكذلكَ تعدُّ عمليةُ اختيارِ

(١) إبراهيم السعافين، تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام، ط٢، دار المناهل، لبنان، ١٩٨٧م، ص٣١٧.

الشخصياتِ وتصنيفِها أهمَّ أدواتِ الكاتبِ لتصويرِ الحوادثِ الروائيةِ.

تؤدي الشخصيةُ دورًا رئيسًا ومهمًّا في تجسيدِ فكرةِ الروائيِّ، وهيَ منْ غيرِ شكٍّ عنصرٌ مؤثرٌ في تحريكِ أحداثِ العملِ الروائيِّ. "إذْ منْ خلالِ الشخصياتِ المتحركةِ ضمنَ خطوطِ الروايةِ الفنيةِ، ومن خلالِ تلكَ العلاقاتِ الحيةِ التي تربطُ كلَّ شخصيةٍ بالأخرياتِ، يستطيعُ الكاتبُ مسكَ زمامِ عملِهِ وتطويرِ الحدثِ من نقطةِ البدايةِ حتى لحظاتِ التنويرِ في العملِ الروائيِّ، وهذا لا يتأتى –بطبيعةِ الحالِ– من غيرِ العنايةِ وبصورةٍ مدققةٍ وسليمةٍ في رسمِ كلِّ شخصيةٍ، وبتبني أبعادَها وجزئياتِها[1].

شغلتْ مسألةُ تصنيفِ الشخصياتِ وأنواعِها النقادَ والمنظرينَ مدةً طويلةً؛ لأنها: "تعتمدُ على كثيرٍ منَ التحديداتِ الدقيقةِ المرتبطةِ بكيفيةِ بناءِ الشخصياتِ ووظيفتِها داخلَ السردِ"[2].

سارَ معظمُ الكُتّابِ والروائيينَ في بناءِ أعمالِهِمُ الروائيةِ على تقسيمِ (تودروف) الشهيرِ، حيثُ قسّمَ الشخصياتِ بناءً على وظائفِها[3]، فكانتِ الشخصياتُ العميقةُ، التي تتشابَهُ بشكلٍ كبيرٍ معَ الشخصياتِ الديناميةِ، وهناكَ منْ يسميها بالرئيسةِ، أو الناميةِ المتطورةِ، أو المحوريةِ، وهي التي تؤدي الأدوارَ الفاعلةَ والرئيسةَ في سيرِ الأحداثِ الدراميةِ وتطورِها، وتقودُ المتلقي لتتبعِ العملِ الروائيِّ، وليسَ منَ الضروريِّ أنْ تؤديَ الشخصياتُ الرئيسةُ دورَ البطولةِ في العملِ الروائيِّ، فالكاتبُ يحتاجُ إلى بعضِ الشخصياتِ المحوريةِ المؤثرةِ التي تصنعُ الأحداثَ وتُحركُها.

وكانتِ الشخصياتُ المسطحةُ، التي تتميزُ بسمةِ السكونِ والثباتِ، والتي تُسمى بالثابتةِ التي لا تتغيرُ، تؤدي دورًا مهمًّا ومساندًا للشخصياتِ الرئيسةِ، وقد تظهرُ في بعضِ المشاهدِ وقد تختفي في أخرى، وعلى الرغمِ منَ الدورِ الثانويِّ للشخصياتِ المسطحةِ أوِ الثانويةِ فإن لها أهميةً في العملِ الروائيِّ، ولا يمكنُ أنْ نستغنيَ عنها لأنها تضيءُ جوانبَ معتمةً عندَ الشخصياتِ الرئيسةِ التي نعتمدُ عليها، أو تفسرُ لنا أحداثًا ومواقفَ روائيةً تحتاجُ إلى توضيحٍ أو تفسيرٍ، وهناكَ الكثيرُ من الخفايا نفهمُها من خلالِ دورِ الشخصياتِ المسطحةِ.

نوَّعَ الكاتبُ خلوصي عويضة في أنواعِ شخصياتِهِ في روايتي "المباهلة"، "والأفعى تطوقُ الأرضَ"، سيتناولُ الباحثُ فيما يلي أنواعَ الشخصياتِ في كلِّ روايةٍ بشكلٍ مستقلٍ:

---

(1) نصر الدين محمد، الشخصية في العمل الروائي، مجلة الفيصل، دار الفيصل الثقافية للطباعة، السعودية، ع٣٧، مايو ١٩٨٠م، ص٢٠. بتصرف.

(2) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص٢١٥.

(3) يُنظر: المرجع السابق، ص٢١٥-٢١٦.

أولًا- روايةُ "المباهلة":

١- شخصيةُ (أسعد):

شخصيةُ (أسعد) هيَ الشخصيةُ المحوريةُ الأولى، التي تركزُ عليها الروايةُ بشكلٍ خاصٍّ إلى جانبِ الشخصياتِ المحوريةِ الأخرى، لكنْ ما يميزُ شخصيةَ (أسعد) أنها شخصيةٌ ناميةٌ متطورةٌ فاعلةٌ، واحتلتْ صفةَ البطولةِ من بدايةِ الروايةِ حتى نهايتِها.

تبدأُ قصةُ (أسعد) من طفولتِهِ، وهوَ منْ مواليدِ الخليلِ سنةَ ١٩٨٣م، وينشأُ في كنفِ جدِّه ويرعاهُ، وذلك بسببِ سفرِ والدِهِ (أنور) إلى الولاياتِ المتحدةِ، يقولُ (أسعد): "تقفزُ الكلماتُ منْ فمي الصغير متعبةً متراخيةً: بطني يؤلمُني منَ الجوعِ، سآكلُ كلَّ الطعامِ، لماذا غابتِ الشمسُ ثمَّ عادتْ؟ يضحك جَدّي، ويدُهُ الحانية تُمسّدُ شعري المتدلي لأسفلِ شحمةِ الأذنينِ، ثم يمسكُ بيدي يفركُها بينَ يديهِ قائلًا: جيدٌ أنْ تتمرنَ على الصبرِ؛ لتعتادَهُ في قادمِ أيامِكَ، أنعمْ بهِ منْ دواءٍ لكلِّ داءٍ، أمّا الشمسُ فلنْ تغيبَ قبلَ وقتِها فلكلِّ شيءٍ أجلٌ"(١).

وعمدَ الكاتبُ في رسمِ ملامحِ شخصيةِ (أسعد) على طرقٍ عديدةٍ، منها طريقةُ الإخبارِ، وجاءَ ذلكَ على لسانِ (أسعد): "كنتُ ولا زلتُ حادَّ البصرِ والسمعِ، حواسي كلُّها دومًا يقظةٌ، لا تغفو بعدَ أنْ نشأتْ لديَ حالة استشعارِ خطرٍ ما يُحْدِقُ بي، متربصًا بخاصة من الوجوهِ التي لا آلفُها، حينَ أراها لأولِ مرةٍ ينتابني الهاجسُ: أنني أقفُ أمامَ عدوٍ محتملٍ"(٢).

وكشفَ المؤلفُ عنْ سماتِ شخصيةِ (أسعد) التي كانَ يتسمَ بها في مراحلِ طفولتِهِ الأولى، يقولُ (أسعد): "حسمتُ أمري أريدُ القضاءَ على ضعفي وخوفي إلى الأبدِ، يجبُ أنْ أصبحَ قويًّا، أريدُ أنْ أكونَ قويًّا، لا أخافُ أحدًا أو شيئًا"(٣). التي سرعانَ ما تغيرتْ إلى النقيضِ بفعلِ الأحداثِ المؤلمةِ ووقعِ المجزرةِ في نفسِهِ، وحديثِهِ الدائمِ عنِ الثأرِ لجدِّهِ وأمِّهِ.

كانَ (أسعد) شخصيةً مغامرةً، يسافرُ ويتنقلُ بينَ المدنِ، فانتقلَ إلى غزةَ بالرغمِ منْ صغرِ سنِّهِ، ثم يسافرُ إلى العراقِ مرافقًا لجدتِهِ بعدما زرعتْ فيهِ بذرةَ الرجولةِ التي كانَ يتغنى بها (أسعد) بعدَ حصولِهِ على بطاقةِ الهويةِ الشخصيةِ.

وتتطورُ شخصيةُ (أسعد) ويستطيعُ إقناعَ والدِهِ بالبقاءِ في العراقِ بالرغمِ مما وصلَ إليهِ من سوءِ الأحوالِ، وانتشارِ القتلِ والدمارِ بسببِ الحربِ والعدوانِ عليهِ، فيطلبُ منهُ والدُهُ (أنور) مغادرةَ العراقِ

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٢.

(٢) المصدر السابق، ص٤٢.

(٣) المصدر السابق، ص٤٤.

والسفرَ معه إلى الولاياتِ المتحدةِ، لكنَّ (أسعد) يُصرُّ على البقاءِ، وتظهرُ قوةُ شخصيتِهِ وحجتُهُ في قولِهِ: "منْ فضلِكَ يا أبي لا تضغطْ أكثرَ من ذلكَ، أتفهمُ مخاوفَكَ؛ لكنَّ قراري بالبقاءِ هنا جاءَ بعدَ تفكيرٍ عميقٍ، عمي (فؤاد) سيقومُ باللازمِ لأحصلَ على الثانويةِ العامةِ ببغدادَ، بعدها سألتحقُ بإحدى الجامعاتِ العراقيةِ، ثم أفكرُ بعدَ التخرجِ أينَ سأستقرُ، غالبًا سأعودُ للضفةِ، فلا رغبةَ لي بالقدومِ لأمريكا، أما (أسماء) فالأمرُ لكَ" [1].

ومعَ اشتدادِ الحربِ والهجماتِ على الاحتلالِ الأمريكيِّ، واشتعالِ الصراعِ الطائفيِّ في العراقِ يلتحقُ (أسعد) بالمجموعاتِ المسلحةِ، ويشاركُ بقوةٍ في أتونِ المواجهاتِ الداميةِ، ويقعُ أسيرًا في قبضةِ الجيشِ الأمريكيِّ، يقولُ واصفًا ذلكَ: "مضيتُ باتجاهِ مجمعِ البلدياتِ، وعن بعدٍ أدركتُ أنَّ الحصارَ ما زالَ مفروضًا، فابتعدتُ وقفلتُ راجعًا إلى أصحابي، وفي الطريقِ وقعتِ السيارةُ وأنا أحدُ ركابِها في كمينٍ مباغتٍ وسريعٍ للجيشِ الأمريكيِّ ومليشياتٍ مسلحةٍ بوجوهٍ مقنعةٍ، فلمّا فتشوني وجدوا مسدسَ (هاشم)، فأمسيتُ ليلتي في أقبيةِ التحقيقِ بمعتقلِ –أبو غريب–" [2].

وبعدَ رحلةِ صراعٍ عقليٍّ معَ رفاقِهِ (هادي) و(عادل)، بعدما طلبَ منه جدُّهُ العدولَ والعودةَ إلى فلسطينَ، واستخدامِ المباهلةِ كحلٍّ ربانيٍّ لمشاكلِ الأمةِ، يستطيعُ الشيخُ اليثربيُّ إقناعَ الرفاقَ الثلاثةَ بالعودةِ إلى فلسطينَ، فهيَ الأحقُّ بجهادِهِمْ وقتالِهِمْ، والعدوُّ فيها معروفٌ لا لبسَ فيه، يعزمُ الرفاقُ الثلاثةُ على تصحيحِ أخطاءِ الماضي من خلالِ عمليةٍ فدائيةٍ مشتركةٍ ضدَّ الاحتلالِ الصهيونيِّ في منطقةِ الجولان، وذلكَ بعدَ الانسحابِ من جبهةِ الاقتتالِ والصراعِ الطائفيِّ في العراقِ والشامِّ، وتركِ الجماعاتِ المتشددةِ، يقولُ الراوي: "وأزفتْ ساعةُ المواجهةِ، أدّوا فريضةَ ربِّهِمْ، وتعانقوا مطولًا، ثم امتشقوا سلاحَهَمْ، وقد تزيّنتْ أجسادُهُمْ الطاهرةُ بالأحزمةِ الناسفةِ وانّطلقوا تحتَ جنحِ الظلامِ متخذينه ستارًا، وقدْ تولى المغاويرُ الذينَ أضافوهم حمايةَ ظهورِهِمْ والتعمّيةِ عليهمْ"[3].

ويظهرُ لنا أنَّ شخصيةَ (أسعد) شخصيةٌ متغيرةٌ متطورةٌ، تتفاعلُ معَ الأحداثِ والمواقفِ التي تمرُّ بها، وظلتْ شخصيتُهُ متماسكةً حتى نهايةِ الروايةِ، على الرغمِ منَ التحدياتِ والمواقفِ السوداويةِ التي مرتْ بها، وظلَّ يبحثُ عن هدفِهِ حتى تحققَ له ذلكَ.

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٠٧.

(٢) المصدر السابق، ص١٧٦.

(٣) المصدر السابق، ص٣٩٠.

٢- شخصيةُ (هادي):

شخصيةٌ ناميةٌ متطورةٌ، ويعدُّ بطلَ الروايةِ الثاني معَ شخصيتيْ (أسعد) و(أنور)، تبدأُ حكايتُهُ معَ (أسعد) بعدَ إصابتِهِ في مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ، فيتعرفُ إليهِ وتتعمقُ الصداقةُ بينَهُما لتصلَ إلى ذروتَها بعدما يطلقُ اسمَ (أسعد) على مولودِهِ تيمُّنًا وحبًّا بصديقِهِ (أسعد).

يكونُ للدكتورِ (هادي) الأثرُ الكبيرُ في شخصيةِ (أسعد)، فكانَ د. (هادي) يعملُ جاهدًا على التخفيفِ من وطأةِ المجزرةِ على نفسِ (أسعد)، ويزرعُ فيه التفاؤلَ والسلامَ.

تتعرضُ شخصيةُ (هادي) لحالةِ صراعٍ ذاتيٍّ عصيبٍ بينَ ما كانَ يؤمنُ بهِ منْ مبادئَ تتعلقُ بعملِهِ كطبيبٍ نفسيٍّ، يركزُ على أهميةِ الصحةِ النفسيةِ والتفاؤلِ والسلامِ، والواقعِ الصعبِ الذي يحياهُ شعبُهُ، بالرغمِ منْ أنه يعيشُ في نطاقِ مدنِ الداخلِ المحتلِ أو ما يعرفُ بأراضي ١٩٤٨م، يقولُ (هادي): "لكنَّ عقلي المشاكسَ بدأ لا يكفُّ عنِ السؤالِ: كيفَ للسعادةِ ومشتقاتِها من فرحٍ ومرحٍ وهناءٍ وسرورٍ أن تتحققَ في غيابِ العدلِ والأمنِ، وسيطرةِ الخوفِ، وغيابِ الحبِّ، واستحواذِ الكراهيةِ، وغيابِ السلامِ وانتصارِ الحربِ؟"[١].

تصلُ شخصيةُ (هادي) إلى طريقٍ مسدودٍ معَ ما كانَ يؤمنُ بهِ ويعملُ فيه منْ أفكارٍ ومبادئَ حولَ التعايشِ معَ الإسرائيليينَ في مجتمعٍ واحدٍ، ويحدثُ التحولُ الجذريُّ لشخصيتِهِ، وتتطورُ بشكلٍ معاكسٍ، وينفذُ عمليةَ قتلٍ صامتةٍ ضدَّ جنودِ الاحتلالِ، بعدما يُدعى إلى سهرةٍ معَ أصدقاءِ دراستِهِ في الجامعةِ، وكلُّهُمْ منَ اليهودِ، وبعضُهُمْ يعملُ في الجيشِ الصهيونيِّ، ثم تدفعُهُ هذهِ العمليةُ إلى الهروبِ والانتقالِ إلى غزةَ، ثمَّ سوريا، وينضمُ للسلفيةِ الجهاديةِ ويتعمقُ في العلومِ الدينيةِ، ثمَّ يصبحُ قائدًا للمقاتلينَ في تنظيمِ الدولةِ، وبعدَ عناءٍ وجهدٍ كبيرينِ يقتنعُ بالمباهلةِ، ويتركُ ساحةَ القتالِ في سوريا ليتوجَهَ إلى تنفيذِ عمليتِهِ الفدائيةِ معَ (أسعد) و(عادل) ضدَّ الاحتلالِ الصهيونيِّ، يقولُ الراوي: "وسمعَ (هادي) أحاديثَهُمْ؛ أنهم بصددِ سحبِ جثثِهِمْ... عندها تهيؤوا لملاقاةِ ربِّهِمْ، وقد وضعَ كلُّ واحدٍ إبهامَهُ على زرِّ التفجيرِ، فلمّا أحاطَ بهمُ الجنودُ والقادةُ ... طارتِ الأجسادُ وحلقتِ الأرواحُ صاعدةً إلى السماءِ تطمعُ بعفوِ ربِّها، ولقاءِ الأحبةِ"[٢].

٣- شخصيةُ (أنور):

شخصيةٌ متطورةٌ وناميةٌ، وهوَ البطلُ الثالثُ من أبطالِ الروايةِ، يتفاعلُ معَ الأحداثِ من بدايتِها، يعملُ ميكانيكيًّا للسياراتِ، ويتصفُ بإتقانِهِ للعملِ، مما يؤهلُهُ للسفرِ إلى الولاياتِ المتحدةِ، ويتطورُ في عملِهِ حتى يصبحَ مسؤولًا ومشرفًا من كبارِ المسؤولينَ في الشركةِ.

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٥٠.

(٢) المصدر السابق، ص٣٩١.

وهناك انخرطَ في عملِهِ الجديدِ، ونحّى حبَّهَ وشوقَهُ لبلادِهِ وأهلِهِ وأولادِهِ جانبًا، ثم لا يلبث أن وقع في فخِّ جهازِ المخابراتِ الأمريكيةِ عن طريقِ (إيزابيل) التي تعملُ في الجهازِ، وتغويهِ بأساليبِها الخبيثةِ، وتطلبُ منهُ السفرَ إلى باكستانَ لتنفيذ مهمةٍ استخباراتيةٍ مغلفةٍ بهدفٍ إنسانيٍّ، فيعترضُ (أنور) على ذلكَ قائلًا: إنكمْ تصنعونَ مني (أنور) آخرَ... أنا لستُ أنا، هكذا أصبحُ عميلًا مخضرمًا، مطلوبًا منهُ اختراقُ خطوطِ دفاعاتِ العدوِّ والولوجِ إلى حصونِهِ وكهوفِهِ وقلاعِهِ على اعتبارِ أني واحدٌ منْهُمْ!! حتى مظهري الخارجيُّ تريدونَ تغييرَهُ!... يا لها من خطةٍ حمقاءَ، أتظنونَهُمْ بلهاءُ سُذَّجٌ؟[1]. ولكنه في نهايةِ الأمرِ ينفذُ خطةَ المخابراتِ الأمريكيةِ، ثمَّ يُكتَشفُ أمرُهُ على يدِ قائدِ الجماعةِ الإسلاميةِ المتشددةِ (أمير أغا)، ولكيْ يُكفرَ عن عمالتِهِ يقررُ الانتقامَ منْ (إيزابيل) و(وليام)، فيعودَ إلى الولاياتِ المتحدةِ.

وفي نهايةِ المطافِ يطلبُ من (إيزابيل) لقاءَ العميدِ (وليام) الذي يشرفُ على المهامِ السريةِ في جهازِ المخابراتِ الأمريكيةِ، وفي غمرةِ اللقاءِ ينقضُ كالأسدِ على مسدسِ العميدِ (وليام)؛ فيسحبُهُ، ويطلقُ منه الرصاصَ على (وليام) و(إيزابيل)، فيعاجلُهُ الحراسُ بالرصاصِ ويسقطُ مغشيًّا عليه، يصفُ الراوي ذلكَ بقولِهِ: "سقطَ المسدسُ منْ يدِ (أنور)، وقدْ مزّقَ الرصاصُ جسدَهُ، فتكومَ صريعًا فوقَ العميدِ المهشّمِ الرأسَ، وغيرَ بعيدٍ عن (إيزابيل) الشاخصةِ ببصرِها نحوَ الفضاءِ، وقدْ سالتْ دماءُ الثلاثةِ متفرعةً إلى جداولَ دمْ، تبتعدُ ولا تمتزجُ... دمُ المسلمِ والمسيحيِّ واليهوديةِ"[2].

٤- الحاجُ (أبو فؤاد النمري) جدُّ (أسعد):

شخصيةٌ مسطحةٌ قدمَها المؤلفُ كنموذجٍ للإنسانِ المثقفِ الذي يؤثرُ في غيرِهِ، يزرعُ الجدُّ في شخصيةِ حفيدِهِ (أسعد) الفطرةَ السليمةَ، ويعززُها، ويركزُ على الجانبِ الدينيِّ منذُ نشأةِ (أسعد)، وذلكَ نابعٌ من فطرةِ الجدِّ، وسجيتِهِ.

وتمتلكُ شخصيةُ الجدِّ قدرًا منَ الثقافةِ الدينيةِ والأدبيةِ جعلتْهُ موضعَ احترامَ منْ جميعِ أفرادِ الأسرةِ والمجتمعِ، فكانَ له درسٌ دعويٌّ للمصلينِ، ويحفظُ منَ الشعرِ الكثيرَ، وكانَ منَ القلائلِ منْ أبناءِ جيلِهِ الذينَ يجيدونَ القراءةَ والكتابةَ[3].

واستطاعَ الجدُّ الذي سقطَ شهيدًا في مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ بما يمتلكُهُ منْ مكانةٍ ومهابةٍ في نفسِ حفيدِهِ (أسعد) بعدَ ذلكَ التأثيرِ على (أسعد)، عندما زارَهُ في المنامِ معَ سيدنا الخليلِ إبراهيم عليه السلام بالعودةِ والرجوعِ إلى الوطنِ، واستخدامِ المباهلةِ كعلاجٍ وحلٍّ ربانيٍّ لمشاكلِ الأمةِ، وتركِ ساحاتِ

---

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٨٣.

(2) المصدر السابق، ص٢٩٦.

(3) يُنظر: المصدر السابق، ص١٨.

الصراعِ والاقتتالِ الطائفيِّ في سوريا والعراقِ، والتوجهِ نحوَ فلسطينَ، يقولُ الجدُّ: "النورُ الذي رأيتُ أبو الأنبياءِ، أبو الأنبياءِ، سيسقيكَ منْ زمزمِ هاجرَ وإسماعيلَ يومَ اللقاءِ... ارجعْ، ارجعْ، ارجعْ"[1].

٥- (سامي):

شخصيةٌ ثانويةٌ، ولكنه يضيءُ الكثيرَ منَ الأحداثِ المهمةِ في الروايةِ، يهاجرُ معَ والدِهِ إلى الولاياتِ المتحدةِ، بعدما يتركُ والدُهُ (أنور) والدتَهُ بعدما استفحلَ الخلافُ بينهما ووقعَ الطلاقُ.

كانتْ علاقةُ (سامي) معَ والدِهِ باردةً جدًّا، لأنه لمْ ينسجمْ معَ طبيعةِ المجتمعِ الأمريكيِّ، وكانَ يميلُ إلى العزلةِ والتعصبِ والتشددِ، والذي تحققَ فيما بعدُ عندما صارَ ينخرطُ معَ مجموعةٍ منَ الأصدقاءِ المتدينينَ، ويتأثرُ بهمْ كثيرًا، وتصلُ علاقتُهُ مع والدِهِ لمرحلةٍ متأزمةٍ بعدما اعترضَ (سامي) على علاقةِ والدِهِ المشبوهةِ معَ (إيزابيل)، ثم يتعرفُ ورفاقَهُ إلى الشيخِ (محسن)، فيسحبُهُمْ لمستنقعِهِ المزدوجِ، فقد كانَ الشيخُ (محسن) يدَّعي التدينَ، وينتحلُ شخصيةَ الشيخِ، وفي نفسِ الوقتِ يعملُ ضمنَ جهازِ المخابراتِ الأمريكيةِ، فيوقعُ بالشبابِ في كمينٍ مطوَّلٍ، ويقررُ (سامي) ورفاقُهُ السفرَ إلى باكستانِ، لأنَّ مجتمعَها يتناسبُ معَ ميولِهِمْ وتشددِهِمْ.

وبعدَ وصولِ (سامي) إلى المطارِ يُقبضُ عليه، ويُمضي سنواتِ عُمُرِهِ أسيرًا في سجنِ غوانتنامو الشهيرِ، يقولُ الراوي على لسانِ ضابطةِ المخابراتِ الأمريكيةِ: "سيدُ (سامي) تفضلْ لو سمحتَ معي سترافقُني لمقابلةِ مسؤولِ جهازِ F.b.I، أما الآخرانِ فيمكنُهما متابعةُ سفرِهِما"[2].

جاءَ ظهورُ شخصيةِ (سامي) على هذا النحوِ ليخدمَ الأفكارَ الدينيةَ المتشددةَ والصراعَ بينَ الشخصياتِ، وطرقَ المخابراتِ الأمريكيةِ في التعاملِ معَ المسلمينِ، واستغلالَها لحاجاتِهِمْ الإنسانيةِ من أجلِ خدمةِ مصالحِها الخاصةِ.

٦- (باروخ غولدشتاين):

شخصيةٌ مسطحةٌ، يُصورُ الكاتبُ مراحلَ حياتِهِ منذُ نشأتِهِ حتى اقترافِهِ المجزرةَ المروعةَ في الحرمِ الإبراهيميِّ، وقتلَهُ على أيدي المصلينَ داخلَ الحرمِ، يقولُ الراوي: "نشأَ -بنيامين- طفلًا صغيرًا لعائلةٍ يهوديةٍ أرثوذكسيةٍ متزمتةٍ، جمعتْ بينَ التعصبِ الأعمى حدَّ التطرفِ المقيتِ والانغلاقِ على الذاتِ... إنها عائلةُ (غولدشتاين) الأمريكيةُ اليهوديةُ الصهيونيةُ، وقدِ اعتادَ أبوا الطفلِ على معاملتِهِ بقسوةٍ بالغةٍ، وضربِهِ، وتعنيفِهِ لأتفهِ سببٍ، وتنوعتْ أساليبُ العقابِ، حتى طالتْ حرمانَهُ منَ اللعبِ

([1]) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٣٨.

([2]) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

واللهوِ معَ أقارنِهِ من الصغارِ، وهكذا نشأَ لأبوينِ يكرهانِ الحياةَ ذاتَها، فحرَصا على تسميمِ قلبِهِ، وغرسِهِ ببذورِ الحقدِ"(١).

يتعرفُ (باروخ) إلى الحاخامِ الصهيونيِّ (كاهانا)، والذي بدورِهِ يزرعُ فيه الحقدَ الدينيَّ تجاهَ الفلسطينيينَ، ويصلُ لذروتِهِ، مما يدفعُهُ لارتكابِ مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ بعدَ ذلكَ، يقولُ الراوي: "وفي إحدى الندواتِ جرى فيها التعارفُ بين الحاخامِ و(غولدشتاين)، تصافَحا وتعانَقا بمودةٍ كبيرةٍ، فالهدفُ واحدٌ، والطريقُ إليهِ متفقٌ عليهِ، وتكررَ اللقاءُ، وتعززتِ الصداقةُ، حتى أضحى قائدُ –كاخ– الأبَ الروحيَّ لطالبِ الجامعةِ الذي اعتبرَ نفسَهُ امتلكَ كنزًا بهذهِ العلاقةِ، فقدْ كانَ تواقًا لأنْ يرى قدوةً عمليةً، وجسدًا حيًّا يضعُهُ على أولِ الطريقِ لتنفيذِ حُلُمِ أرضِ الميعادِ بعدَ أنْ شبعَ منَ النصوصِ، وأتمَّ حفظَها، واشتاقَ لتطبيقِها"(٢).

ومنْ ناحيةٍ أخرى نلاحظُ تطابقَ سماتِ الشخصياتِ معَ الرؤيةِ الأيديولوجيةِ التي تتبناها، فالروايةُ الصهيونيةُ التي ادعتْ جنونَ (باروخ)، وكأنها مسوِّغٌ للمجزرةِ المروعةِ؛ نراها على لسانِ (إيزابيل) في وصفِها لـ(غولدشتاين)، وذلكَ في حوارِها معَ (أنور)، فتقولُ في ذلكَ: "أعني ربما تخشى عليهِ منْ أشياءَ أخرى، مثلا ذكرياتِ الحادثِ البشعِ الذي وقعَ في المسجدِ على أيدي المجنونِ المعتوهِ (غولدشتاين)"(٣).

٧- (أسماء):

شخصيةٌ هامشيةٌ، تتعرضُ لصدمةٍ نفسيةٍ شديدةٍ بعدَ استشهادِ أمِّها وجدِّها، وإصابةِ شقيقِها (أسعد)، وتبقى في رعايةِ الجيرانِ أثناءَ علاجِ أخيها في المستشفى، وفيما بعدُ تسافرُ إلى الولاياتِ المتحدةِ بعدما أقنعَها والدُها (أنور) بذلكَ، وتشاءُ الأقدارُ أنْ تصابَ في أحداثِ الحادي عشرَ من سبتمبر– أيلول، مما يزيدُ منْ تأزمِ الأحداثِ والمواقفِ المضادةِ في الروايةِ، وتمكثُ في مصحةِ العلاجِ النفسيِّ عامينِ، بعدما تأكدتْ إصابتُها بشللٍ في قدميْها، مما أجبرَها على استخدامِ الكرسيِّ المتحركِ.

ويظهرُ حبُّها وحرصُها على شقيقِها (سامي) بعدَما وقعَ الخلافُ بين (سامي) ووالدِها، وتركِ (سامي) للبيتِ، ويظهرُ ذلكَ في حوارِها معَ والدِها: "انتبهَ لصوتِ (أسماء) تسألُهُ: ألنْ تبحثَ عن (سامي)؟ أنا قلقةٌ عليهِ، قالتْ (أسماء) بحيْرةٍ: واضحٌ أنه غيَّرَ رقمَهُ، فقدْ حاولتُ الوصولَ إليه دونَ جدوى"(٤). وفي ذلكَ تظهرُ عاطفتُها الحانيةُ نحوَ أخيها (سامي).

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٥.

(٢) المصدر السابق، ص٣٠.

(٣) المصدر السابق، ص١١٤.

(٤) المصدر السابق، ص١٤٦.

٨- (عادل):

شخصيةٌ مسطحةٌ، وهوُ ابنُ الجدِّ الثالثِ لـ(أسعد)، ويكبرُهُ بعشرِ سنواتٍ، يبدأُ بالحضورِ الفعليِّ في الروايةِ بعدَ زيارةِ (أسعد) للعراقِ.

وتتعمقُ صحبةُ (عادل) ببطلِ الروايةِ (أسعد)، ويعوضُهُ عنْ غيابِ (هادي)، ويلتحقُ (عادل) بالمقاومةِ العراقيةِ بعدَ الاحتلالِ الأمريكيِّ، ويصلُ لمراتبَ عاليةٍ في المقاومةِ، ويذيعُ صيتُهُ في العراقِ وخارجِها، حتى يصلَ إلى باكستانَ، يقولُ (أمير أغا) في حوارِهِ معَ (أنور): "إن لكَ قريبًا من أبطالِ المقاومةِ في العراقِ اسمُهُ (عادل)... فصرخَ (أنور) مهتاجًا :ابنُ عمّي، فهزَّ (أمير) رأسَهُ"[١].

وتظهرُ شخصيتُهُ القياديةُ في التأثيرِ على (أسعد) عندما اشتدَ الاقتتالُ الطائفيُّ بينَ الشيعةِ والسنةِ، نرى أنَّ (عادل) يُعرِضُ عنِ الخوضِ في الأعراضِ، ويطلبُ من (أسعد): "توقفْ، كفى، لن نهبطَ إلى قعرِ الرذيلةِ، لنْ نفعلَ فعلَهُمْ، وننتهكَ أعراضًا محرمةً، وإلا ما الفرقُ بينَنا وبينَهُمْ؟ أجبْني، اسمعْ، وافهم، سنقتلُ الأنذالَ، ونطعمُ الكلابَ جيفَهُمْ، أما الأعراضُ؛ فَلا"[٢].

وبعدَ رحلةٍ طويلةٍ منَ المقاومةِ ومقارعةِ الاحتلالِ الأمريكيِّ، والخوضِ في الصراعِ الطائفيِّ في العراقِ، يقررُ المشاركةَ معَ (أسعد) و(هادي) في العمليةِ البطوليةِ ضدَّ الاحتلالِ الصهيونيِّ في الجولانِ المحتلِ، ويرتقي شهيدًا معَ رفاقِهِ [٣].

٩- الشيخُ (محسن):

شخصيةٌ ثانويةٌ، تلعبُ دورًا مزدوجًا، ينتحلُ شخصيةَ شيخٍ متدينٍ متعمقٍ في العلومِ الدينيةِ ويعملُ أمينًا لمكتبةٍ تجاريةٍ، ويتعرفُ إلى (سامي) ورفاقِهِ (راجي) و(طاهر)، يقولُ الراوي: " خرجَ ثلاثتُهُمْ في فتراتٍ متقاربةٍ، وكانوا قدْ تواعدوا على اللقاءِ والتواصلِ، فصلّوا يومَ جمعةٍ في مسجدِ بلالٍ، وهناكَ التقى بهمُ الشيخُ (محسن) الذي صافحَ (سامي) بحرارةٍ لافتةٍ، وتعرّفَ إلى صديقيْهِ، ثم دعاهُمْ إلى منزلِهِ، حيثُ تحدثوا بانسجامٍ وألفةٍ وأريحيةٍ عنْ حياتِهِمْ وتطلعاتِهِمْ"[٤].

ويستطيعُ الشيخُ (محسن) التأثيرَ على (سامي) ورفاقِهِ، وينصّبُ نفسَهُ أميرًا عليهم، وذلكَ بطلبٍ من جهازِ المخابراتِ الأمريكيةِ، ثم يوجهُ (سامي) ورفاقَهُ للسفرِ إلى باكستانِ، فيُعتقلُ (سامي) في المطارِ، أما (راجي) و(طاهر) فيسافرانِ إلى باكستانِ، وفي المرحلةِ نفسِها يسافرُ الشيخُ (محسن) إلى العراقِ، وينخرطُ في جماعاتِ المقاومةِ، ويصبحُ أميرًا لمجموعةٍ مسلحةٍ، ويُكنى بأبي قتادةَ

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ٢٣٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤١.

(٣) يُنظر: المصدر السابق، ص٣٩٠.

(٤) المصدر السابق، ، ص٧٧.

البغداديِّ، ويبايعُهُ (أسعد) و(عادل)، ويطلبُ منهما التركيزَ على قتالِ الشيعةِ أولًا، قبلَ قتالِ الاحتلالِ الأمريكيِّ؛ وذلكَ تنفيذًا للخطةِ الأمريكيةِ بنشرِ الاقتتالِ الطائفيِّ والصراعِ الدمويِّ بينَ أبناءِ العراقِ، وتظهرُ معرفتُهُ السابقة بـ(أسعد) منْ خلالِ جهازِهِ الذي يعملُ بهِ.[1]

وتشاءُ الأقدارُ أن يُكتشفُ أمرُ الشيخِ (محسن)، فيقتلُ شرَّ قِتلةٍ، يقولُ (أسعد) واصفًا ذلكَ: "وقبلَ أنْ ينتهيَ العامُ، وفي ظروفٍ ملتبسةٍ كثيفةِ الغموضِ والتعقيدِ تَصعَقُ العقولَ سقطَ قناعُ العمالةِ عن هذا الأميرِ المزيفِ، القادمِ من أمريكا مرورًا بباكستانَ وأفغانستانَ، منتحلًا شخصيةً لا تمتُّ لهُ بصلةٍ، مساهمًا بإيقاعِ العشراتِ منَ المجاهدينَ بينَ قتيلٍ وجريحٍ وأسيرٍ، منهم أخي (سامي)، فتوليتُ بعدَ اعترافِهِ سحقَ عظامِهِ، ونثرَ رمادِهِ في حفرةٍ أظنُّها اشتعلتْ عليهِ نارًا[2].

١٠- (إيزابيل):

شخصيةٌ ثانويةٌ، لكنَّ لها دورًا واضحًا في إضاءةِ الأحداثِ المهمةِ في حياةِ (أنور) و(سامي) تحديدًا، تعملُ في جهازِ المخابراتِ الأمريكيةِ، تتسللُ إلى حياةِ (أنور) من خلالِ صديقِهِ (إدوارد)، وتلعبُ دورَ المرأةِ العاشقةِ للرجلِ الشرقيِّ، فتوقعُ (أنور) في شراكِها وغوايتِها، ويسقطُ (أنور) في وحلِ العمالةِ والعملِ تحتَ الضغطِ، وتشاركُ في اعتقالِ (سامي)، وتوهمُ والدَهُ بأنه سافرَ إلى باكستانَ، وتصارحُ (أنور) بقولِها: "رائعٌ، عظيمٌ، صلبُ الموضوعِ هو الآتي: (إيزابيل) تعملُ لصالحِ أمنِ بلادِها، تتعاونُ في سبيلِ استمرارِ تربعِها على عرشِ قيادةِ العالمِ المحبِّ والكارهِ على السواءِ، (إيزابيل) تحافظُ على سلامتِهِ وتدفعُ عنه السوءَ والأذى، وتتصدى... نعم تتصدى لكلِّ منْ يحاولُ الاجتراءَ على سيدةِ الكونِ أمريكا العظيمةِ"[3].

بقي أنْ نشيرَ إلى أنَّ روايةَ "المُباهلة" قد ضمتِ الكثيرَ منَ الشخصياتِ الثانويةِ الأخرى، كشخصياتِ أسرةِ (أسعد)، مثلَ: أمِّهِ، وجدتِهِ، وعمِّهِ (محمود)، وأسرةِ جدِّهِ الثاني في العراقِ، مثلَ: عمِّهِ (أبو أحمد)، وبناتِهِ (شهد) و(ليلي)، وابنِهِ (أحمد)، وجدِّهِ الثالثِ أبو (عادل)، ووالدةِ (هادي) وزوجتِهِ، و(أمير أغا)، و(الشيخ اليثربي)، والشخصياتِ التي تمثلُ المكونَ الشيعيَّ، مثلَ: (أبو لؤلؤة)، و(نوري)، و(هاشم)، والشخصياتِ اليهوديةِ، مثلَ: (زخاريا)، و(شلوميت)، و(إيليا)، و(عوفاديا)، و(أهارون)، و(ليئا)، و(تمارا) و(تسيفني)، والشخصياتِ الأمريكيةِ، مثل (إدوارد) و(مايكل) و(وليام).

---

(١) يُنظر: خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٦٤.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) المصدر السابق، ص١٥٢.

فالشخصياتُ المسطحةُ ما هي إلا وسيلةٌ لتمطيطِ أحداثِ الروايةِ، وتوليدِها، كي يلجَ الكاتبُ من خلالِها إلى عوالمِ الشخصياتِ بنماذجِها الإنسانيةِ المتعددةِ، والكشفِ عن أسرارِها وخفاياها، وأشكالِ الصراعِ الدائرِ بينَها.

يلاحظُ الباحثُ أنَّ الكاتبَ خلوصي عويضة قد وُفّقَ في مُلاءَمتِه بينَ الشخصياتِ ولغاتِها، فالشخصيةُ المثقفةُ لها لغتُها وأسلوبُها الذي يختلفُ عنِ الشخصيةِ غيرِ المثقفةِ، وظهرَ التفاوتُ اللغويُّ بشكلٍ صريحٍ بينَ شخصياتِهِ، فلغةُ جدةِ (أسعد) تتميزُ ببساطتِها وعاميتِها، وينجحُ الكاتبُ في مناسبةِ لغتِها معَ دورِها وطبيعةِ شخصيتِها، ويظهرُ ذلكَ في حوارِها معَ (أسعد):

"-يا ستي: شو رأيكْ ترافقْني؟

- أنا؟!

-أيوا إنتَ.. مشْ بتقولْ صرتْ رِجّالْ، وعندكْ إجازة، شهرين ونعاود يا ستي"[1].

أما لغةُ زوجِها الحاجُّ (أبو فؤاد) فتميزتْ بالفصاحةِ والجزالةِ، لتتناسبَ معَ طبيعةِ شخصيتِهِ المثقفةِ ودورِهِ في الأحداثِ، ويظهرُ ذلكَ في حواراتِ الجدِّ معَ زوجتِهِ (أمّ فؤاد) وحفيدِهِ (أسعد)، ومنها قولُهُ لـ(أسعد) عندما طلبَ منهُ تركَ الاقتتالِ الطائفيِّ والعودةِ إلى فلسطينَ، والتوبةَ إلى اللهِ: "توقفْ عنِ التبريرِ، وانظرْ كيفَ ستعتذرُ لخالقِكَ عمّا جنيتَ منْ أهوالٍ، ثمَّ إياكَ والقنوطَ منْ رحمتِهِ، وإن بلغتْ ذنوبُكَ عنانَ السماءِ، وفاقتْ زبدَ البحرِ، فلا يتعاظمُ ذنبٌ معَ عفوِ اللهِ، أريدُ منكَ عهدًا بتوبةٍ نصوحٍ؛ إقلاعٍ وندمٍ وعزمٍ على الكفِّ عنْ دماءِ المسلمينَ"[2].

والشخصياتُ المتشددةُ كانتْ لها لغتُها الملائمةُ لطبيعتِها وتكوينِها، وواءمَ الكاتبُ في الربطِ بينَ دورِها ولغتِها، وظهرَ ذلكَ في نماذجَ عديدةٍ؛ منها شخصيةُ (سامي) و(راجي) و(عادل) و(هادي) و(أمير أغا) وغيرِهِمْ منْ شخصياتِ الجماعاتِ المتشددةِ، ونلاحظُ ذلكَ في قولِ الشيخِ (محسن) لـ(أسعد) ورفاقِهِ: "ليكنْ هدفُكُمُ الأولُ أبناءَ الرافضةِ وأشباهِهِمْ، لتنظيفِ ساحتِنا الداخليةِ منَ العملاءِ والخونِ"[3].

---

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٩٦.

(2) يُنظر: المصدر السابق، ص٣٤٥.

(3) المصدر السابق، ص١٦٤.

وكانت الشخصياتُ المتحررةُ لها لغتُها التي تعبرُ عنِ الانفتاحِ والتحررِ، وتمثّلَ ذلكَ في شخصيةِ (أنور)، فكانتْ لغتُهُ مطابقةً لما كانَ يؤمنُ بهِ عندما جمعتْهُ علاقةٌ حميميةٌ معَ (إيزابيل)، وكانَ يدافعُ عنها قائلًا: "لا عيبَ ولا حرامَ، إنها مجردُ صديقةٍ"(١).

مما سبقَ يلاحظُ الباحثُ عمليةَ التمايزِ اللغويِّ بينَ الشخصياتِ، وكيفَ نجحَ فيها الكاتبُ في منحِ كلِّ شخصيةٍ لغتَها المناسبةَ معَ دورِها في حركةِ الأحداثِ، وأيديولوجيتِها، وبالتالي مكنتْ هذهِ العمليةُ الكاتبَ من تقديمِ أيديولوجياتِهِ وأفكارِهِ عبرَ بساطِ اللغةِ، وتحميلِها لأبطالِ روايتيْهِ. وذلكَ لأنَّ الروائيَّ المبدعَ هو الروائيُّ الذي يعرفُ كيف يتعاملُ معَ لغتِهِ، بحيثُ تأتي موزعةً على مستوياتٍ تتناسبُ معَ قدراتِ شخوصِهِ، ومكانتِهِمُ الثقافيةِ والاجتماعيةِ(٢).

ثانيًا– رواية "الأفعى تطوقُ الأرضَ":

١- (نصيف):

شخصيةُ (نصيف) هيَ الشخصيةُ الرئيسةُ المحوريةُ الناميةُ في الروايةِ، وتمثلُ شخصيةَ البطلِ، ويعدُّ محورَ الأحداثِ وقطبَها، تبدأُ قصتُهُ من نهايتِها، وذلكَ باعترافِهِ أمامَ القضاةِ في قاعةِ المحكمةِ بقتلِهِ لـ(كريم) انتقامًا لقتلِهِ والديْهِ، والذي كانَ يدَّعي أنه والدُهُ ويخفي عليهِ ذلكَ، وهوَ خالُهُ في الحقيقةِ. ويُحكمُ عليه بالإعدامِ، ويكتبُ قصتَهُ في الفترةِ المتبقيةِ قبلَ تنفيذِ الحكمِ، يقولُ: "صباحَ اليومِ عُقدتْ جلسةُ الاستماعِ للنطقِ بالحكمِ، وعدتُ بعدَ الظهيرةِ إلى قسمِ المحكومِ عليهِمْ بالإعدامِ محتميًا بشعورِ الخواءِ"(٣).

وكشفَ الكاتبُ عن سماتِهِ واهتماماتِهِ، فهوَ مثقفٌ وعلى درجةٍ عاليةٍ من الثقافةِ والمعرفةِ، وعلى اطلاعٍ بالأدبِ العالميِّ والعربيِّ تحديدًا.

تبدأُ معاناةُ (نصيف) منذُ مراحلِ حياتِهِ الأولى، فهوَ لا ينتمي إلى وطنٍ بعينِهِ، ولا تهمُّهُ مسألةُ الانتماءِ الوجدانيِّ لمكانٍ أو وطنٍ محددٍ، ويدركُ مؤخرًا أنّ ذلكَ كانَ مخططًا ومقصودًا.(٤).

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٤٥.

(٢) يُنظر: عباس دويكات، من مقال إلكتروني بعنوان مناقشة رواية "ربيع حار" لسحر خليفة، وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية وفا، منشور بتاريخ ٢٠١٦/٣/١٠م، التعريف الرقمي للموقع: https://bit.ly/3zUtkwQ

(٣) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٥.

(٤) يُنظر: المصدر السابق، الصفحة نفسها.

ويدخلُ (نصيف) في حالةٍ منَ الصراعِ النفسيِّ والغربةِ الذاتيةِ، وذلكَ بعدَ إفصاحِ (كريم) و(أميرة) لهُ بأنه من أعضاءِ الماسونيةِ العالميةِ، ويطلبانِ منهُ الاهتمامَ بالعملِ ضمنَ العشيرةِ، وعدمَ الفتورِ والضَّعفِ، والتوقفَ عنِ الثرثرةِ والجدالِ، ويرسمانِ له مستقبلًا باهرًا داخلَ العشيرةِ.

وبعدَ رحلةِ حياتِهِ الطويلةِ التي يسترجعُها أثناءَ سجنِهِ، يذكرُ اعتناقَهُ للإسلامِ في نهايةِ الأمرِ، ويُدفنَ في مقابرِ المسلمينَ، يقولُ الضابطُ الذي أشرفَ على متابعةِ أمرِهِ داخلَ السجنِ: "أعدتُ على مسامعِهِ قولَ الحقِّ من سورةِ الزمرِ فردّدَها خلفي بصوتٍ مسموعٍ، ثم سألني ماذا أقولُ لأكونَ مسلمًا؟ فنطقَ الشهادتينِ، وفي عينيه غصّتْ دموعٌ مسحَها بكمِّهِ قبلَ أنْ يتوارى عنّي وجهُهُ الباكي الجميلُ إلى الأبدِ، إذ لمْ أستطعِ النظرَ إليهِ ميتًا، ثمَّ سعيتُ وبعضُ زملائي حتى وُفِّقنا إلى دفنِهِ في مقابرِ الصدقةِ الخاصةِ بفقراءِ موتى المسلمينِ"(١).

ظلتْ شخصيةُ (نصيف) متماسكةً حتى النهايةِ، على الرغمِ مما ألمَّ بها من مواقفَ مأساويةٍ، وسجنٍ، وعذابٍ، وحالةِ صراعٍ نفسيٍّ، ظلَ يبحثُ عن سرِّ اختفاءِ والديْهِ، وكينونتِهِ، حتى استطاعَ الوصولَ لذلكَ في آخرِ الأمرِ.

٢- (كريم):

شخصيةٌ محوريةٌ، يحتلُ مكانةً مرموقةً في الماسونيةِ، ويشغلُ منصبَ كاتمِ السرِّ الأعظمِ للمحفلِ الماسونيِّ في الشرقِ، يقترفُ جريمةَ قتلِ والديْ (نصيف)، وأختِه (سامية)، وخالتِهِ (ندى)، ويتحكمُ بكلِّ ما يتعلقُ بـ(نصيف)، بعدما يُوهمُهُ بأنهُ والدُهُ، وذلكَ خشيةً من معرفةِ (نصيف) بسرِّ مقتلِ والديْهِ، ويتبنى (نصيف)، ويرعاهُ من بدايةِ مراحلِ طفولتِهِ، حتى دراستِهِ الجامعيةِ، وما بعدها، ويحرِصُ على قمعِ عواطفِهِ، ويحاصرُهُ بالتعليمِ المنزليِّ. ويضطرُ بعد بلوغِهِ الثامنةَ عشرَ عامًا لتعميدِهِ مبكرًا، وإلحاقِهِ بالماسونيةِ كيْ يضمنَ ولاءَهُ. وكانَ يغرسُ في نفسِ (نصيف) الوصولَ إلى منصبٍ مرموقٍ في الماسونيةِ العالميةِ، ويسعى بكلِ الطرقِ منْ أجلِ ذلكَ الهدفِ، يقولُ (كريم): "إياكَ أنْ يقفَ طموحُكَ يومًا عندَ هكذا صغائرَ وتوافهَ، أنتَ خُلقتَ لتكونَ أعظمَ من ذلكَ بكثيرٍ، بل مسؤولياتُكَ القادمةُ تضاهي الملكَ والزعيمَ"(٢). ويسعى جاهدًا لإبعادِ الهويةِ الدينيةِ عن نفسِ (نصيف)، وذلكَ بوصفِهِ للأديانِ بأوصافِ الجهلِ والخرافةِ، يقولُ: "اسمعْ أنتَ حرٌّ من الآنَ باختيارِ أيِّ دينٍ تشاءُ، أو تكونَ مثلي؛ فتلقيَ خرافاتِ الأديانِ كلِّها وراءَ ظهرِكَ، ولا تعرْها أيَّ اهتمامٍ"(٣).

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٣٩٣.

(٢) المصدر السابق، ص٥١.

(٣) المصدر السابق، ص٥٥.

وبعدَ رحلةٍ شاقةٍ منَ العذابِ النفسيِّ التي يفرضُها (كريم) على (نصيف)، يصلانِ إلى اللحظةِ الحاسمةِ، وفي المشهدِ الأخيرِ يكتشفُ (نصيف) أنَّ (كريم) مخنثٌ، ويعترفُ (كريم)، ويقولُ: "أنتَ خطأُ عمري، كارثةُ حياتي، ولعنةُ وجودي، لم أنتبهْ لفظاعةِ ما جنيتُ إلا بعدَ تعميدِكَ، فمنْ يومِها والصورةُ تتضحُ والأحاسيسُ تطغى؛ أنكَ منَ الباطنِ مختلفٌ، لكنْ عزَّ عليَّ جهودُ سنواتٍ في تنشئتِكَ وتربيتِكَ، وظلَّ طيفُ أملٍ يراودُني: أنكَ ستعودُ، لتصبحَ كما أردتُكَ ابنًا ظاهرًا وباطنًا نسخةً عنّي، وفعلتُ المستحيلَ كيلا تأتيَ هذهِ اللحظةُ، وها هيَ تأتي، ارفعْ قدمَكَ التي تؤلمُني كثيرًا"[١].

ومهما اختفتِ الحقيقةُ دهرًا، فإنَّ جهودَ (نصيف) في الوصولِ إليها لم تفشلْ، وتحتَ الضغطِ والتهديدِ، يدورُ الحوارُ التالي بينَ (نصيف) و(كريم):

" – تكلمْ الآنَ ابنُ منْ أنا؟ منْ أبي؟ منْ أمّي؟ وأينَ هما؟ منْ أنا؟ ومنْ أنتَ؟

- أنا خالُكَ، وأبوكَ وأمُّكَ ماتا خنقًا ف....
- قتلتَهُما خنقًا... خنقًا.. خنقًا.. هكذا... هكذا.. هكذا.

وأطبقتْ جحيمَ قبضتيَّ كمخالبِ الباشقِ حولَ عنقِهِ الهزيلِ، حتى عصرتُ أنفاسَهُ فخمدتْ"[٢].

٣- (أميرة):

شخصيةٌ محوريةٌ، امرأةٌ تؤدي دورَ الأمِّ لـ(نصيف)، كما تطلبُ منها منظمةُ الماسونيةِ، تتمتعُ بمكانةٍ مرموقةٍ في المحفلِ الماسونيِّ، تعملُ على متابعةِ أمورِ (نصيف) بحذافيرِها وتفاصيلِها، فتقولُ لـ(نصيف): "المهمُ عندي راحتُكَ، بل أنا موجودةٌ هنا فقطْ لأجلِكَ"[٣].

وهيَ شخصيةٌ مثقفةٌ، لكنّها تعتنقُ البهائيةَ كديانةٍ ورثتَها عن أجدادِها، وعلى قدرٍ منَ الجمالِ وقوةِ الشخصيةِ.

ومهما ادعتْ حبَّها وعاطفتَها تجاهَ (نصيف)؛ فإنها تصارحُهُ بوظيفتِها التي أوكلَها لها (كريم): "أنا أنفذُ توصياتِهِ، بل أوامرَهُ"[٤]. وعندما يتعرفُ (نصيف) إلى صديقِ دراستِهِ (رمزي)، لا يروقُ هذا الأمرُ لـ(كريم) و(أميرة)، فتفرضُ عليه رقابةً شديدةً، وتطلبُ منه تفسيرَ هذهِ العلاقةِ والصداقةِ المفاجئةِ لهمْ؛ لطلبِهِمْ منه بعدمِ الانفرادِ بأيِّ شخصٍ دونَ علمٍ مسبَّقٍ منهمْ.

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٣٨٦.

(٢) المصدر السابق، ص٣٨٧.

(٣) المصدر السابق، ص٢٥.

(٤) المصدر السابق، ص٤٢.

ومعَ إصرارِ (نصيف) لمعرفةِ كينونتِهِ وهويتِهِ، وذلكَ بسببَ صراعِهِ النفسيِّ الشديدِ، وتحتَ الضغطِ والحوارِ المحتدمِ بينَهُما، تخبرُه: "مرةً وللأبدِ افهمْ... ليسَ مصرحًا لنا أنْ نحيطَكَ علمًا بشيءٍ قبلَ بلوغِكَ تمامَ الثامنةَ عشرَ، ولعلمِكَ... هذا استثناءٌ خاصٌّ لمكانةِ البابا، فالأصلُ أنْ تُتمَّ الحاديةَ والعشرينَ، حبيبي (نصيف) اهدأْ منْ فضلِكِ، فقطْ أمامَكَ حتى تنتهيَ منْ هذا العامِ الدراسيِّ، ثمَّ تسافرُ إلى مصرَ، لتبدأَ أهمَّ وأدقَّ مرحلةٍ في حياتِكَ، عليها المعولُ ليبرزَ ويسطعُ نجمُكَ، ألا تلاحظُ أنكَ تقسو وتضغطُ علينا، شهورٌ... شهورٌ فقطْ، وتولدُ من جديدٍ"[١].

تستطيعُ (أميرة) بشخصيتِها المحنكةِ أنْ تحركَ الأحداثَ وتحيكَ المؤامراتِ، بلْ تسافرُ للولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ لطلبِ المساعدةِ في إنشاءِ المحافلِ الماسونيةِ في بلادِ المشرقِ العربيِّ، وتُنشئُ علاقاتٍ جنسيةً متعددةً معَ (نصيف) و(رمزي) و(مروان)، وذلكَ تنفيذًا لمطالبِ الماسونيةِ.

وفي نهايةِ الروايةِ وعندما يعترفُ (كريم) بماهيةِ (أميرة) ووظيفتِها، يقررُ (نصيف) الانتقامَ منها، يقولُ: "(بنتُ رباح) هكذا إذنْ، اطمئنْ يا عديمَ الاحترامِ، فهذهِ الكلبةُ المجرمةُ التي قضتْ حياتِها في القاذوراتِ والمؤامراتِ مثلُكَ لنْ تفلتَ منْ يدي"[٢].

٤- (ندى):

شخصيةٌ ثانويةٌ، تلعبُ دورَ المدبرةِ المنزليةِ لـ(نصيف)، ويقدمُها (نصيف) بقولِهِ: "واكتفتِ السيدةُ التي تولّتْ مهمةَ الاعتناءِ بي بإجابةٍ محددةٍ عن سؤالِ طفلٍ جاوزَ السابعةَ: أينَ بابا (كريم)؟ قالتْ بفرنسيةٍ ركيكةٍ: سيعودُ حالما يستطيعُ، أنا هنا لخدمتِكَ، اسمي (ندى)، ماما (ندى)"[٣].

وهي خالتُهُ الحقيقيةُ، ولكنّها تُخفي عليهِ ذلكَ بطلبٍ منْ (كريم) وأعضاءِ الماسونيةِ في مصرَ، وكانتْ تؤدي دورَها على أكملِ وجهٍ، وذلكَ لعاطفتِها وحبِّها لابنِ شقيقتِها.

ولقربِها الشديدِ من (نصيف) واطمئنانِهِ لوجودِها وصدقِ حبِّها لهُ، يحاورُها (نصيف) بشأنِ الدينِ، فتقولُ: "الدينُ يا ماما وراثةٌ، وهؤلاءِ ورثوا دينَ آبائِهِمْ، وأنتَ غدًا سترثُ دينَ آبائِكَ وأجدادِكِ العظامِ، ألا تحبُّني وتثقُ بي؟ فأجابَها الصغيرُ صاغرًا:

- أحبُّكِ كثيرًا، لكنْ هلْ بابا (كريم) والمعلمونَ وأنتِ مثلي، أعني سأكونُ مثلُكُمْ؟

- أجلْ يا حبيبي، وأنتَ ينتظرُكَ مستقبلٌ كبيرٌ"[١].

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٥٢.

(٢) المصدر السابق، ص٣٨٧.

(٣) المصدر السابق، ص١٣.

وعلى الرغمِ منْ قرابةِ الدمِ التي تربطُها بـ(نصيف) فإنها تخفي عنهُ الحقيقةَ، وذلكَ خوفًا على نفسِها منَ القتلِ على يدِ الماسونيةِ، ويُطلب منها أنْ تنفذَ الأوامرَ التي تصلُها منَ الماسونيةِ، فتتركَ شقةَ الزمالك في القاهرةِ، وتنتقلُ إلى الإسكندريةِ.

وعندما يشعرُ أعضاءُ الماسونيةِ بخطرِ (ندى) أو توقعِهِمْ كشفَها لسرِّ اختفاءِ والديْ (نصيف)، تقررُ الخلاصَ منها، فيقتلُ (مكرم) بأمرٍ منْ (كريم) (ندى) بطريقةٍ خاصةٍ، وادّعاءِ موتِها منتحرةً للتغطيةِ على الجريمةِ.

٥- (رمزي):

شخصيةٌ ثانويةٌ، لكنها ناميةٌ، تربطُهُ صداقةُ الطفولةِ والدراسةِ القويةِ معَ (نصيف)، واستطاعَ أنْ يكسرَ حدةَ الرهبةِ والعزلةِ المفروضةِ على نصيف باختراقِهِ لها، ويتقاربانِ، وتقوى علاقتُهما، وتكونُ علاقتُهُ بـ(نصيف) مدخلَ الماسونيةِ لأسرتِهِ، فيستغلُ (كريم) ذلكَ منْ خلالِ التعرفِ إلى (يوسف) والدِ (رمزي)، ويقاسمُهُ بعضَ أملاكِهِ وعقاراتِهِ التجاريةِ، ثمَّ يضمُّ الأسرةَ كلَّها ما عدا (عماد) لمستنقعِ الماسونيةِ، فتتغللُ الماسونيةُ في أسرتِهِ، وبعدَ تخرجِهِ يلتحقُ بالعملِ في إطارِها، وتربطُهُ علاقةٌ حميمةٌ ب(أميرة).

وتتطورُ شخصيةُ (رمزي) مع تطورَ الأحداثِ، وتبرزُ مكانتُهُ بينَ أعضاءِ العشيرةِ، ويتقلدُ منصبًا رفيعًا في مكتبٍ من مكاتبِ الماسونيةِ في المغربِ، ويشرفُ على عددٍ منَ الأعضاءِ منْ بينهِمْ (نصيف).

وفي فترةِ انخراطِ (نصيف) في العملِ ضمنَ فريقٍ يقودُهُ (رمزي) ويشرفُ عليهُ، وتظهرُ فيهِ شخصيةُ (رمزي) التسلطيةِ والمتعاليةِ على (نصيف).

وفي ذلك تظهرُ التغيراتُ في شخصيةِ رمزي، وتحولُها منَ الصداقةِ الحميمةِ مع رمزي إلى العداءِ والكيدِ والتطاولِ، وهذا يُعزى إلى تأثيرِ الماسونيةِ في جعلِ أفرادِها وأتباعِها ذئابًا بشريةً، تدوسُ على المشاعرِ الصادقةِ، وتحطمُ العلاقاتِ النبيلةِ، كيْ تحققَ أهدافَ الحركةِ الخطيرةِ، وتنشرَ تعاليمَها الباطنيةَ المغلفةَ باسمِ الحريةِ والعدلِ والمساواةِ، لكنها في حقيقتِها تسعى إلى إخضاعِ البشر ومسخِهِمْ وجعلِهِمْ عبيدًا تحتَ سطوةِ نفوذِها وتغلغلِها في أعماقِ المجتمعاتِ.

([1]) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٣٤.

٦- (مكرم):

شخصيةٌ مسطحةٌ، تكلفُهُ الماسونيةُ بالتواصلِ والإشرافِ على أعمالِ (نصيف)، ومتابعةِ تحركاتِهِ، والتنسيقِ معَهُ ضمنَ إطارِ أنشطةِ الماسونيةِ داخلَ الجامعاتِ. ويشرفُ على مهامِ (نصيف) داخلَ إطارِ الماسونيةِ، وكذلكَ يوجهُهُ لإدارةِ أنشطةِ الماسونيةِ بينَ طلبةِ الجامعاتِ، ويزودُهُ بالمعلوماتِ والقضايا الثقافيةِ التي يُطلبُ من (نصيف) طرحُها للنقاشِ بينَ جموعِ الطلابِ الجامعيينَ المثقفينَ، يقولُ (نصيف): "فلمّا تحققَ (مكرم) من تمامِ الهضمِ استدعاني لأولِ لقاءِ عملٍ حضرَهُ (مفيد)"[١].

٧- (رباح):

شخصيةٌ ثابتةٌ مسطحةٌ، يقدمُ الكاتبُ شخصيتَهُ منْ خلالِ الإخبارِ، فيصفُهُ (نصيف) بقولِهِ: "كهلٌ قاربَ الستينَ بشوشُ الوجهِ حسنُ الملامحِ بالرغمِ من سمرتِهِ الداكنةِ"[٢]. يكلفُهُ (كريم) بمراقبةِ (نصيف) في مكانِ إقامتِهِ في شقةِ الزمالك، "أخبرني (رباح) أنه سيجاورُني في المعيشةِ لأجلٍ لا يعلمُهُ، وسيعملُ على راحتي"[٣]. وكانَ يتوخى الحذرَ في حديثِهِ معَ (نصيف)، يقولُ (نصيف): "بدأَ الحوارُ معَ (رباح) يتسعُ ويمتدُّ، فحدثني عن نفسِهِ متوخيًا الحذرَ، فكانَ يركزُ على جوانبَ ويهملُ أخرى، كعائلتِهِ وعلاقتِهِ بالعشيرةِ"[٤].

وعلى الرغمِ منَ القيودِ المفروضةِ على (رباح) بعدمِ الحديثِ عنِ الماسونيةِ أمامَ (نصيف)، إلا أنهُ ينصحُهُ قائلا: "اسمعْ يا بني: لو تدري كيفَ تشقُّ هذهِ الكلمةُ القلبَ شقًّا منغرسةً بينَ ضلوعِهِ، كلانا أبناءُ عشيرةٍ واحدةٍ بالرغمِ منْ مكانتِكِ، فأنتَ ابنُ الأستاذِ الأعظمِ لمحفلِ شمالِ أفريقيا، لكني أكبرُ منكَ سنًّا، وأكثرُ خبرةً بالعشيرةِ والناسِ، لذلكَ تقبلْ مودتي قبلْ نصيحتي، وتغاضَ عنْ جهامةِ (مكرم) وعنتريتِهِ –تعالْ على نفسك_، ففي أيةِ لحظةٍ يمكنُ أن يحلَّ غيرُهُ مكانَهُ، وينتهيَ دورُهُ معَكَ فالرجلُ عصبيٌّ، حادٌّ لا يرعى حرمةً لأحدٍ، لأنه مسنودٌ من فوقَ أعني"[٥].

٨- (سامية):

شخصيةٌ ثابتةٌ، لكنَّها تساعدُ في وصولِ شقيقِها (نصيف) إلى الحقيقةِ، تعيشُ حالةً منَ الصراعِ والعذابِ النفسيِّ بعد اختفاءِ والديْها واغتيالِهِما خنقًا بالغازِ، تُخفي الماسونيةُ بقيادةِ (كريم) و(أميرة) سرَّ

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٩٧.

(٢) المصدر السابق، ص٩٢.

(٣) المصدر السابق، ص٩٣.

(٤) المصدر السابق، ص٩٤.

(٥) المصدر السابق، ص١١٠.

قربِها من (نصيف)، وكذلكَ الأمرُ بالنسبةِ لـ(نصيف)، فلا يعرفُ أنها شقيقتُهُ إلا في نهايةِ الروايةِ، تحركُها العاطفةُ الأخويةُ لزيارةِ (نصيف)، فتذهبُ لزيارتِهِ ورؤيتِهِ.

ويبادلُها (نصيف) الشعورَ نفسَهُ، ولكنْ بدرجةٍ أقلَّ، ويتأثرُ بمقتلِ والديْها، ولا يعلمُ بأنَّهُما والداهُ، وتبلغه بوفاة خالتها (ندى)، فيتأثر (نصيف) قائلا: "ليتني عرفتُكِ في ظروفٍ أفضلَ، اسمحي لي أنَّ أعبّرَ عن تأثري الشديدِ بمصابِكِ البليغِ، وهو أيضًا مصابُنا، فماما (ندى) لا تكفيها الكلماتُ، وكمْ أشعرُ بالخجلِ لتقصيري بالسفرِ إليها لحظةَ وصولي"[1].

وعندما تقتربُ (سامية) منَ اكتشافِ سرِّ مقتلِ والديْها على يدِ (كريم) و(مكرم) و(مروان)؛ يعاجلُها (كريم) بالقتلِ، وتختفي حتى لا تفصحَ لشقيقِها (نصيف) عنِ الحقيقةِ.

٩- (مروان):

شخصيةٌ مسطحةٌ، تولّى مهمةَ المرافقِ الشخصيِّ الدائمِ لـ(كريم) في حلِّهِ وترحالِهِ، وهو الأخُ غيرُ الشقيقِ لـ(مكرم)، ويتخذهُ (كريم) للمتعةِ الجسديةِ.

وعندما يكتشفُ (نصيف) ارتكابَ (مروان) الفاحشةَ معَ (كريم) وبعلمِهِ وبرضاهُ وطلبِهِ، يطلبُ (كريم) من (مكرم) قتلَ شقيقَهُ (مروان) حتى يتسترَ على الفاحشةِ، ويكشفُ ذلكَ (نصيف) في حوارِهِ معَ (فيروز) حولَ مقتلِ (ندى) و(مروان)، ويستطيعُ أن يسحبَ الكلامَ من (فيروز) بطريقةٍ ذكيةٍ[2].

وتكونُ هذهِ الحادثةُ -حادثةُ المتعةِ الجسديةِ بينَ (كريم) و(مروان)- هيَ السرَّ في كشفِ خيوطِ الجرائمِ التي اقترفَها (كريم)، وأعضاءُ الماسونيةُ، وذلكَ من خلالِ سعيِ (نصيف) للوصولِ إلى أسبابِها، ودوافعِ (كريم) الشهوانيةِ التي جعلتْهُ يقعُ في المحظورِ، وتصلُ بنا إلى حبكةِ العملِ الروائيِّ.

١٠- (نجيب):

شخصيةُ القارئِ المحاورِ لبطلِ الراويةِ (نصيف)، وهيَ شخصيةٌ متخيلةٌ، وظفَها الكاتبُ في روايتِهِ، ويصرحُ بذلكَ في مطلعِ الروايةِ على لسانِ (نصيف): "إليكَ (نجيب) وإلى كلِّ (نجيب) و(نجيبة)"[3]. يقولُ (نصيف) محددًا ماهيةَ شخصيةِ (نجيب) : "ولأنني طالَما اشتهيتُ منْ أعماقِ قلبي أنْ يكونَ لي أخٌ اسمُهُ (نجيب)، فسأعتبرُ قارئي هوَ (نجيب) الذي سيكتوي بنارِ كلماتي القادمةِ، ولعلي في لحظاتِ شطحاتِ الخيالِ لا أكتفي بكَ قارئًا من الداخل، بلْ أطمعُ لأنْ تعيشَ معي رحلةَ استدعاءِ غابرِ الأيامِ،

---

(1) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص١٠٢.

(2) يُنظر: المصدر السابق، ص٣٣٩.

(3) المصدر السابق، ص٣.

رافقْني بالخيالِ والإحساسِ وأنا استدعي الماضي، وأُعطي لمحةً للقادمِ، وأعودُ للحاضرِ، ثمَّ أخترقُ جدارَ الماضي مجددًا، سأدعُكَ تدخلُ عالمَ أحاسيسي الداخليةِ لتعيشَ مشاعري"[١].

ومعَ دورانِ الأيامِ وسيرِ الأحداثِ، ومعَ بدايةِ أو نهايةِ كلِّ فصلٍ يعودُ (نصيف) لحوارِهِ معَ (نجيب) ويحاورُهُ جاعلا منه رفيقًا محاورًا ومشاركًا، وشاهدًا معايشًا[٢].

وتظلُّ شخصيةُ (نجيب) حتى النهايةِ، ويودعُهُ (نصيف) قبلَ تنفيذِ حكمِ الإعدامِ قائلًا: "وداعًا (نجيب)، إلى اللقاءِ في جحيمٍ لا طعنَ فيه، ولا غدرَ، ولا كذبَ، فذاك نعيمٌ حُرمتُهُ في الحياةِ، أو بلا لقاءٍ، فحسبُكَ جحيمُ بعضَ ما عايشتُهُ معي، وقد بقيَ الكثيرُ معلقًا حائرًا تائهًا"[٣].

تجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ روايةَ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، ضمتِ العديدَ منَ الشخصياتِ الثانويةِ الأخرى، مثلَ: (رامون)، و(جلال)، و(مانويلا)، و(مفيد)، والدكتور (رؤوف)، و(بشير)، و(شيرين)، و(فيروز)، و(عماد)، والشيخ (عاصم)، و(سامر)، والضابطُ المشرفُ على السجنِ، و(سيرجين دي لاموند)، و(يوسف)، و(نجوى)، والكاهن (جيوفاني باتروس).

ويرى الباحثُ أنَّ الكاتبَ قد وُفِّق في المزجِ بينَ أدوارِ الشخصياتِ الرئيسةِ والثانويةِ، والمدورةِ والمسطحةِ الهامشيةِ، وكانَ لكلِّ شخصيةٍ دورُها في إغناءِ الأحداثِ، وبناءِ المعمارِ الروائيِّ، وتجسدتِ الشخصياتُ على أبعادٍ مختلفةٍ، وكانتْ متراوحةً بينَ الخيالِ والحضورِ الاجتماعيِّ وتطابقِها معَ الواقعِ، حيثَ عالجتْ روايةُ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" الخطرَ العالميَّ للماسونيةِ، وذلكَ من خلالِ تركيزِها على أهدافِها، وطرقِ نشرِ الرذيلةِ والفسادِ الأخلاقيِّ، ومحاربةِ الدينِ الإسلاميِّ، والشرائعِ السماويةِ الأخرى، تحديدًا المسيحيةَ.

وعلى الرغمِ من تعددِ الشخصياتِ وكثرتِها في الروايتينِ إلا أنَّهُما تقومانِ بشكلٍ أساسٍ على شخصياتٍ محوريةٍ هي (أسعد) و(أنور) و(هادي) في روايةِ "المباهلة"، و(نصيف) و(كريم) و(أميرة) في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، في حينِ كانتْ الشخصياتُ الأخرى مسطحةً أو مرحليةً، ويقتصرُ دورُها على مرحلةٍ منْ مراحلِ الصراعِ الذي يدورُ بينَ الشخصياتِ، وهو ما يمكنُ أنْ نسميَهُ بالشخصيةِ المرحليةِ، وذلكَ لينسجمَ معَ المعمارِ الفنيِّ للروايتينِ. فالشخوصُ التي تأخذُ محوريةً حدثيةً أو حكائيةً تكسبُها صفةَ البطولةِ، وهناكَ شخوصٌ تتوارى وراءَ الأحداثِ، أو في

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٧.

(٢) المصدر السابق، ص٩.

(٣) المصدر السابق، ص٣٨٩.

ظلالِها؛ مما يعطيها بعدًا هامشيًّا أو مساعدًا، فالشخوصُ المحوريةُ لها وظائفُ حركيةٌ تجمعُ بين الفاعلينَ والمفعولينَ، بينما تأتي الشخوصُ الهامشيةُ بسيطةً تميلُ إلى المفعولينَ غالبًا[1].

المبحثُ الثّالِثُ- وَصَفُ الشخصياتِ وتقديمها:

أولتِ الروايةُ الحداثيةُ الشخصيةَ اهتمامًا كبيرًا، وتنوعتْ طرقُ تناولِها لمفهومِها وطرقِ تقديمِها ووصفِها، وذلكَ كونُها: "تساهمُ في الأحداثِ، فتؤدي وظيفةَ الفعلِ"[2]. ويسعى كلُّ كاتبٍ إلى وصفِ شخصياتِهِ بالطريقةِ التي تتناسبُ مع طبيعتِها ووظيفتِها، فهناكَ من يرى: "أنَّ الوصفَ البسيطَ لشخصيةٍ ما؛ قد يكونُ وسيلةً قصصيةً للإثارةِ والتشويقِ، وقدْ يكونُ للمحافظةِ على وضعٍ غامضٍ أو سريٍّ لها، يتلاءمُ معَ عملِها أو وظيفتِها الشخصيةِ التي قدْ لا تكونُ بسيطةً، بل محوريةً"[3].

ونجدّ من الكتّابِ منْ يصفُ شخصياتِهِ وصفًا دقيقًا معَ التركيزِ على المعالمِ الشخصيةِ الخياليةِ التي ابتدعَها، ويقربُها لنا من الواقعِ المعيشِ. ف:"الروايةُ تمتلكُ قدرةً خاصةً على جعلِ شخصياتِها مقبولةً، كأنَّهُمْ أشخاصٌ واقعيونَ، يخوضونَ تجربةً معيشةً أو يمكنُ أن تُعاشَ"[4].

ويلجأُ الروائيونَ في رسمِ شخصياتِهِمْ إلى أساليبَ عديدةٍ، منها أسلوبُ الإخبارِ، وذلكَ بذكرِ المظاهرِ الشخصيةِ الخارجيةِ، والنفسيةِ أحيانًا، أو برسمِها من خلالِ أفعالِها وتصرفاتِها.

وعندما نقرا عملًا قصصيًّا عادةً ما نجدّ الكاتبَ يقدمُ لنا شخصياتِهِ واصفًا بناءَها الجسمانيَّ، وملبسَها الذي ترتديهِ ومسكنَها الذي تقطنُ فيهِ، وكلُّ وصفٍ حولَ الشخصيةِ لهُ دلالتُهُ وانعكاساتُهُ، فعندما يصفُها بلباسٍ معينٍ يعطينا انطباعاتٍ معينةً حولَ هذهِ الشخصيةِ؛ فالوصفُ الخارجيُّ يؤكدُ دلالاتٍ معينةً حولَ الشخصيةِ، وتكوينِها النفسيِّ والفكريِّ والعقائديِّ، وعندما يمنحُ الشخصيةَ وصفًا جسمانيًّا وبنيةً جسديةً قويةً؛ فإنَّ لذلكَ دلالتَهُ ودورَهُ في صراعِها معَ الشخصياتِ الأخرى.

وقد قدَّمَ الكاتبُ خلوصي عويضة في روايتِهِ رسمًا للشخصياتِ منَ الداخلِ والخارجِ؛ ليجعلَها شخصياتٍ ممكنةَ الوجودِ؛ وركَّزَ على التصويرِ النفسيِّ الداخليِّ من خلالِ استخدامِ تقنيةِ الحوارِ الداخليِّ (المونولوج)، وأعطى للقارئِ الخطوطَ العريضةَ في رسمِهِ للشخصياتِ منَ الخارجِ، وفي بعضِ

---

(1) محمد عبد المطلب، تداخلات الرؤية والسرد والمكان في رواية هالة البدري منتهى، مجلة فصول، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م، م ١٦ ، ع ٤ : ص٢٩٦. بتصرف.

(2) جيرار جينيت وآخرون، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، ترجمة: ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٩، ص١٠٠.

(3) سامي سويدان، أبحاث في النص الروائي العربي، دار الآداب، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٣٢.

(4) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص٣٠٠.

الأحيانِ لا يرسمُ للشخصياتِ الثانويةِ صورًا خارجيةً، وهذا يدفعُ القارئَ لمشاركتِهِ العملَ الأدبيَّ منْ بابِ التَخَيُّلِ الذاتيِّ.

ويرى الباحثُ أنَّ الكاتبَ خلوصي عويضة يدفعُ المتلقي لأنْ يرى الشخصياتِ من خلالِ أبطالِهِ في الروايتينِ، أو الشخصياتِ الرئيسةِ، فمن خلالِهِمْ يلتقطُ صفاتٍ وصورًا للشخصياتِ التي قُسِّمَتْ إلى أربعةِ أبعادٍ، وذلكَ تماشيًّا معَ التقسيمِ الذي سارَ عليهِ أغلبُ الباحثينَ والنقادِ في العملِ الروائيِّ[1]، وهذهِ التقسيماتُ هيَ: البعدُ النفسيُّ (الداخليُّ)، والجسميُّ (الخارجيُّ)، والاجتماعيُّ، والفكريُّ.

ويرى الباحثُ أن الكاتبَ اختارَ لشخصياتِهِ أسماءً محددةً ذاتَ دلالاتٍ خاصةٍ. فالاسمُ لهُ دلالاتُهُ الوصفيةُ، التي تساهمُ في بناءِ الشخصيةِ[2]. ولهذا يسعى بعض الروائيينَ لصناعةِ الأسماءِ بشكلٍ يتناسبُ معَ الشخصياتِ، ولتنسجمَ معَ أحداثِ الروايةِ وتقربها منَ الواقعيةِ. فاختيارُ الأسماءُ: "يحققُ للنصِ مقرؤيتَهُ، وللشخصيةِ احتماليةَ وجودِها، فالاسمُ الشخصيُّ علامةٌ لغويةٌ بامتيازٍ"[3].

وسيركزُ الباحثُ في تناولِهِ لوصفِ الشخصياتِ على الأبعادِ السابقةِ:

- **البعدِ النفسيِّ (الوصفِ الداخليِّ):**

البعدُ النفسيُّ: وهوَ الذي يمثلُ الوصفَ الداخليَّ للشخصيةِ، ويركزُ على الرغباتِ والآمالِ والانفعالاتِ النفسيةِ كالانطواءِ والصراعِ، أو القلقِ. ويقومُ البعدُ النفسيُّ على: "تتبعِ الحالاتِ النفسيةِ وتغيراتِها في هذهِ الحالاتِ، حسبَ تغيراتِ الأوضاعِ والمواقفِ الناتجةِ عن تعاقبِ الأحداثِ وسياستِها"[4].

اعتمدَ الكاتبُ خلوصي عويضة على الوصفِ النفسيِّ الداخليِّ عندَ حديثِهِ عنْ شخصياتِهِ الروائيةِ، وفي روايةِ "المُباهلة" يبدأُ بطلُ الروايةِ (أسعد) بتذكرِ صفاتِ جدّهِ، يقولُ: "أتذكرُهُ الآنَ رجلًا وضيءَ الوجهِ منْ أثرِ وسامةٍ خلتْ أيامُها، تاركةً أثرَها في حسنِ الملامحِ ودقةِ القسماتِ التي أوغلتْ بها السنونُ، فخَطَّتْ عليها أماراتِها، كان وجهُهُ من تلكَ الوجوهِ التي تعطيكَ إحساسًا بالراحةِ، وأنها لا تضمرُ شرًّا بل تبشرُ بالخيرِ، بسرعةٍ تألفُهُ وتطمئنُ إليهِ"[5].

---

(1) ينظر: عزيزة مريدين، القصة والرواية، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠، ص٢٩.

(2) عبد المنعم زكريا القاضي، البنية السردية في الرواية، عين للدراسات الإنسانية والبحوث الاجتماعية، الجيزة، ط١، ٢٠٠٩، ص٨٨، بتصرف.

(3) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص٢٤٧.

(4) إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، دار الأفق، الجزائر، ط١، ١٩٩٩، ص١٠٦.

(5) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ١٢.

ثم يصورُ لنا البطلُ (أسعد) صفاتِهِ النفسيةَ الدقيقةَ وخلجاتِهِ الداخليةَ ومكنونَ نفسِهِ، في حوارِهِ الداخليِّ: "كنتُ وما زلتُ حادَّ البصرِ والسمعِ، حواسي كلُّها دومًا يقظةٌ لا تغفلُ؛ بعد أنْ نشأتْ لدي حالةُ استشعارِ خطرٍ ما يُحْدِقُ بي متربصًا خاصةً منَ الوجوهِ التي لا آلفُها حينَ أراها لأولِ مرةٍ ينتابُني الهاجسُ أنني أقفُ أمامَ عدوٍ غيرِ محتملٍ"(١).

وتبقى مجزرةُ الحرمِ الإبراهيميِّ الحدثَ الأهمَّ في حياةِ (أسعد)، وتظلُ ذكرياتُ المجزرةِ تعودُ إليهِ في خواطرَ نفسيةٍ مؤلمةٍ، يقولُ: "وظلَّ سؤالٌ يُبَرِّحُني ما حييتُ ينخرُ عقلي وقلبي معًا: بأي ذنبٍ قُتلتْ أمّي، وقدِ انطفأَ بداخلي سراجُ الحياةِ، وأوحشَ الوجودُ وأظلمَ"(٢)".

وعندما انتقلَ (أسعد) إلى غزةَ بعدَ حصولِهِ على بطاقةِ الهويةِ الشخصيةِ، يتعززُ بداخلِهِ شعورُ القوةِ والانتصارِ على الخوفِ والرهبةِ، يقولُ: "بسرعةٍ تعلمتُ منْ (أحمد) السباحةَ لافظًا إحساسَ الرهبةِ، بل تقيأتُه للمرةِ الثانيةِ، ودستُهُ بعرجتي التي تناسيتُها في أوجِّ بهجتي، وأنا أضربُ الموجَ ويضربُني؛ فيدفعُني للوراءِ نحوَ الشاطئِ، فأستديرَ راجعًا لمواجهتِهِ متحديًّا بطشَهُ، بل بثُّ سعيدًا ببأسِهِ، لكأنّي وأنا أشقُّ عبابَهُ بقوةِ شيءٍ في أعماقي يُنَفِّسُ عنْ مكبوتٍ هائلٍ، فأتقدمُ وأتقدمُ"(٣).

أما عنِ الأثرِ النفسيِّ لغيابِ والدِ (أسعد)، واستمرارِهِ في عملِه وإقامتِهِ في الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ، فقد بلغَ مداهُ، ويظهرُ ذلكَ على لسانِ (أسعد): "ينسحبُ من قلبي الكمُّ الأكبرُ من حبِّ أبي، ينسلُ خلسةً معَ الأيامِ ليحلَّ مكانَهُ فراغٌ... فراغٌ كبيرٌ، لا أدري إنْ كان سيملأَهُ أحدٌ أو أيُّ شيء يوما، لمْ يأتِ أبي هذا الصيفَ كما وعدَ وأكّدَ... نعمْ شعرتُ بخيبةِ أملٍ، لكنّها لم تدمْ، كانتْ عابرةً كأني أدمنتُ غيابَهُ"(٤).

وفي لحظةِ التقاءِ (أسعد) معَ جنودِ الاحتلالِ الصهيونيِّ لختمِ جوازاتِ سفرِهِ معَ جدّتِهِ؛ نرى حالتَهُ النفسيةَ كيفَ تتوترُ وتتغيرُ، يقولُ: "وقعَ نزالٌ دمويٌّ عنيفٌ صامتٌ بينَ جنونِ القلبِ واتزانِ العقلِ، فتسمرتُ في مقعدي مغلقًا نافذةَ البصرِ ودافنًا وجهي بينَ كفَّيَّ، لكنْ عندَ نافذةِ ختمِ الجوازاتِ التقتْ عيناي بيهوديٍّ يضحكُ، وأنا أقذفُهُ بشررٍ منْ لهبٍ، فيزدادُ ضحكًا، وأزدادُ تمزقًا من الغيظ والألم، لا أدري لِمَ لا تحرقُهُ نظراتي؟ أتراهُ لا يحسُّ ولا يشعرُ، وشراراتُ غضبي ترتدُ إلى أعماقي حاسرةً، فتحرقُني أنا"(٥).

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ٤٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٩٤.

(٥) المصدر السابق، ص ٩٨.

وفي موضعٍ أخرَ يبينُ لنا الراوي البعدَ النفسيَّ الداخليَّ لشخصيةِ (سامي) الابنِ الأكبرِ لـ(أنور)، وعزوفَهَ عن مهنةِ أبيهِ، الأمرُ الذي ساعدَ على عزلتِهِ وانطوائِه بعد هجرتِهِ معَ والدِهِ إلى الولاياتِ المتحدةِ، مما عزَّزَ بداخلِهِ فكرةَ التشددِ، فكانَ فريسةً للمخابراتِ الأمريكيةِ بعدَ ذلكَ، يقولُ الراوي: "لكنَّ عزوفَ (سامي) عن تعلمِ صنعةِ أبيهِ كانَ أقوى من تجاهلِهِ، لم يكنِ الفتى المراهقُ يعرفُ ماذا يريدُ؟ كانَ حائرًا منْ وجودِهِ في تلكَ البلادِ التي أصبحَ يتقنُ لغتَها ولكنتَها أفضلَ منْ أبيهِ"(١).

أمّا عن عاطفةِ الأبِ (أنور) تجاهَ ابنِهِ (سامي) الذي تعرضَ للمحاكمةِ والسجنِ لتسببِهِ بحادثِ سيرٍ مرعبٍ أدى لمقتلِ رجلٍ منَ المارةِ، وحُكِمَ عليهِ بالسجنِ، يقولُ الراوي: "القضيةُ التي صهرتْ أباه بألمٍ يفوقُ الأسى والمرارَ، حتى إنهُ بكى ندمًا، وقدِ اشتعلَ قلبُهُ بالخوفِ على مستقبلِ ولدِهِ ومستقبلِهِ"(٢).

وفي الوصفِ الجسديِّ لـ(إيزابيل) صديقةِ (أنور) يظهرُ البُعدُ النفسيُّ المحيرُ، وأثرُهُ النفسيُّ في شخصيةِ (أنور)، هذا الوصفُ كانَ لهُ وقعُهُ الخاصُّ في نفسِ (أنور)، فمنِ خلالِهِ بدأتْ تتكشفُ شخصيةُ (إيزابيل) ووظيفتُها الحقيقةُ، يقول (أنور): "تنهدَ بارتياحٍ قائلًا: "لستِ سهلةً... ينتابُني إحساسٌ إذا تأملتُكِ بأنكِ لوحةٌ محيرةٌ، وإذا ما قرأتُكِ أجدّكِ نصًّا محيرًا فأنتِ معَ كلِّ هذا الجمالِ محيرةٌ"(٣).

كما اعتمدَ الكاتبُ خلوصي عويضة على وصفِ شخصياتِهِ من خلالِ البعدِ النفسيِّ الداخليِّ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، فيُلاحَظُ أنَّ بطلَ الروايةِ (نصيف) يتسلحُ بالصمتِ الرهيبِ بعدَ إصدارِ حكمِ الإعدامِ بحقِّهِ، فلمْ يعترضْ أو يطلبِ الاستئنافَ، يقولُ: "فرفضتُ متسلّحًا بصمتٍ عنيفِ الرهبةِ والوطأةِ، كنتُ قد ارتويتُ مجبرًا من مراراتِهِ زمنَ الطفولةِ، وكرهًا شطرًا منَ الصِّبا، ثُّم أظنُّني احترفتُ بعدَ ذلكَ بعضَ فنونِهِ راغبًا إذْ أدركتُ فوائدَهُ"(٤).

واعتمدَ الكاتبُ على وصفِ الجانبِ النفسيِّ لشخصيةِ (نصيف) من خلالِ الملامحِ الجسديةِ، يقولُ (نصيف) معبرًا عن حالتِهِ النفسيةِ: "صباحَ اليومِ عُقدَتْ جلسةُ الاستماعِ للنطقِ بالحكمِ، وعدتُ بعدَ الظهيرةِ إلى قسمِ المحكومِ عليهم بالإعدامِ محتميًا بشعورِ الخواءِ، وهو أمرٌ مسرفُ الغرابةِ حدَّ التطرفِ، لكنهُ تشخيصٌ صائبٌ لإنسانٍ يرى ويسمعُ ولا يشعرُ"(٥).

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ٦٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٦١.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٠.

(٤) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٥.

(٥) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

كانَ لحالةِ الصراعِ النفسيِّ العميقِ لشخصيةِ (نصيف) النصيبُ الأكبرُ في صفحاتِ الروايةِ، ويُعبرُ عن ذلكَ أكثرَ من مرةٍ، يقولُ (نصيف) واصفًا حالَتَهُ النفسيةَ المتشظيةَ: "أبدو لغيري شابًا غريبَ الأطوارِ يُحجمُ عن صخبِ أبناءِ جيلِهِ رهبةً، فالرغبةُ في الأعماقِ كامنةٌ لكنَّ أثرَ السنواتِ السابقةِ دمغَ النفسَ بطابعِهِ، فكنتُ أجدّ صعوبةً في الاستجابةِ لرغباتِ التعارفِ، أمّا المبادرةُ فبعيدةٌ"[1].

وفي محطاتِ كتابةِ (نصيف) لمذكراتِهِ وتحبيرِها قبيلَ الإعدامِ، يصفُ نفسَهُ بأنه عصيُّ الدمعِ بسببِ وحشةِ الطفولةِ وعذابِها، يقول: "ومعَ ذلكَ لا أذكرُ أنني بكيتُ متأثرًا، فقد أصبحتُ منذُ ما بعدَ مصرَ، وما زلتُ عصيَّ الدمعِ، وليس ذلكَ لتحجرِ القلبِ، إنّما إما أنْ تكونَ طبيعَتي، إذْ تعلمتُ منذُ الصغرِ أنَّ الدموعَ ضعفٌ لا تجدّي نفعًا، أو أنَّ وحشةَ الطفولةِ أتتْ على مخزونِ ماءِ العينِ فجفَّ، وتصحّر"[2].

ويذكرُ (نصيف) حالتَهُ النفسيةَ، والشكَّ الرهيبَ الذي أصابَهُ بسببِ الغموضِ الذي فرضتُهُ الماسونيةُ عليهِ في رحلةِ حياتِهِ القصيرةِ، يقول: "لقد اجتاحَني قلقُ الخشيةِ من أنْ أكونَ وقعتُ فريسةً لهوسٍ أو حتى جنونِ الارتيابِ، وبانَ معَ الأيامِ أنني سأسيرُ فعلًا على طريقِ جنونٍ من نوعٍ مختلفٍ ومتقلّبٍ، فمن جنونِ انتظارِ العظمةِ إلى جنونِ الثأرِ؛ لألقى المصيرَ الذي انتهيتُ إليهِ الآنَ"[3].

حالةُ الشكِّ والقلقِ التي أصابتْ (نصيف) دفعتْهُ للبحثِ عن الحقيقةِ المجهولةِ وأحلامِهِ التي وُعد بِها، فما كانَ من (أميرة) إلا أنْ وصفتْ ذلك بقولِها: "هنا مكمنُ الخطرِ، أعني استعجالَكَ وإلحاحَكَ"[4]. هذا الاستعجالُ عجّلَ من وصولِ (نصيف) إلى الحقائقِ المخفيةِ عنهُ عمدًا.

وكانَ للمونولوجِ حضورُهُ الكبيرُ في كشفِ الحالةِ النفسيةِ المضطربةِ لـ(نصيف)، فيقولُ في حوارِهِ الداخليِّ: "ما الذي يمكنُ أن يُسكّنَ النفسَ، ويعيدَها طائعةً أو كارهةً للاستسلامِ؟ ما أصلُ هذا البلاءِ، فالمفروضُ أن أكونَ عكسَ ذلكَ تمامًا؟ كيفَ أحتمى من طوفانِ حيرتي وأنتشلُ نفسي منَ الغرقِ حتى القاعِ في محيطِ التخبطِ الذي يحاصرُني ويهددُ بتحطيمي؟"[5].

أما عن العلاقة المعقدة بين (نصيف) و(كريم) فتتركُ أثرَها النفسيَّ واضحًا في حياةِ (نصيف) منذُ البدايةِ، يقولُ (نصيف): "وكالمعتادِ يأتي لساعاتٍ بغتةً، ويغيبُ فجأةً ممّا لمْ يدعْ للقلبِ مساحةَ تعلقٍ

([1]) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص١٩.

([2]) المصدر السابق، ص٢٠.

([3]) المصدر السابق، ص٣٥.

([4]) المصدر السابق، ، ص٣٩.

([5]) المصدر السابق، ص١٢٢.

بهِ، طبعًا لمْ أعِ كنَهَ هذا الغيابَ الغريبَ، وبتُّ أتساءلُ بصمتٍ عن معنى وجودِهِ في حياتي أو وجودي في حياتِهِ"(١).

ووصفَ الجانبَ النفسيَّ لشخصيةِ (كريم) من خلالِ تصرفاتِهِ وأفعالِهِ، يقول الراوي: "رأيتُهُ شخصًا من أوفرِ الناسِ حظًّا بالتمتعِ بملكةِ الإدراكِ وأماراتِها من نجابةٍ ونباهةٍ وفراسةٍ، وهلمَّ جرًّا من صفاتٍ من هذا القبيلِ، يحومُ بنشاطٍ محمومٍ حول خواتيمِ عقدِهِ الرابعِ، دائمَ الحركةِ والسفرِ، وقليلَ الوجودِ في البيتِ، عنيفُ الصمتِ، فما أيسرَ أنْ تُحصى عددُ الكلماتِ التي تهربُ من أسرِ فمِهِ على مدارِ اليومِ واليومينِ"(٢).

نلاحظُ أنَّ الوصفَ النفسيَّ لشخصيةِ (أميرة) قد جاءَ مخلوطًا بالملامحِ الجسديةِ، يقولُ (نصيف) واصفًا شخصيتها: "ولا عجبَ فبالإضافةِ لكونِها امرأةً لا تشبعُ العينُ من تأملِها والتملّي منها، ولها منطقُ حديثٍ يجري في النفسِ مجرى النهرِ الهادئِ، عذبُ الموردِ، فهي قادرةٌ تمامًا أن تبعثَ في الوجدّانِ دفقًا كاملًا من المشاعرِ المرتبكةِ، فمعَ إيحاءِ الحبِّ والحنانِ الذي توحيهِ تجمعُ القوةَ والصلابةَ في الرأيِّ"(٣).

يرى الباحثُ أنَّ الكاتبَ خلوصي عويضة قدْ أكثرَ منَ الوصفِ النفسيِّ من خلالِ الملامحِ الجسديةِ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" على وجهِ الخصوصِ، وذلكَ لخدمةِ أهدافِ الماسونيةِ التي وظفتْ جسدَ المرأةِ لتحقيقِ أهدافِها الخبيثةِ.

- **البعدُ الجسميُّ (الوصفُ الخارجيُّ):**

البعدُ الجسميُّ: ويتمثلُ في الصفاتِ الخارجيةِ والمظاهرِ الجسديةِ لكلِّ شخصيةٍ منَ شخصياتِ العملِ الروائيِّ من طولٍ وقصرٍ وبدانةٍ ونحافةٍ، أو جنسٍ، وكذلكَ أسماءِ الشخصياتِ ودلالتِها الرمزيةِ، وما إلى ذلكَ منْ ملامحَ وصفاتٍ خَلْقِيَّةٍ بشريةٍ، ومنْ خلالِهِ نستطيعُ تحليلَ طبيعةِ الشخصياتِ.

ويُرَكِّزُ على شكلِ الشخصياتِ الخارجيِّ، سواءٌ أكانَ الطولَ أم القصر، أو الحسنِ والدمامةِ، أو البدانةِ والنحافةِ، أو لونِ البشرةِ والعينينِ، فيشملُ المظاهرَ الجسديةَ للشخصياتِ، وأسماءَها ودلالاتِها الرمزيةَ.

وقد أبدعَ الكاتبُ خلوصي عويضة في رسمِ الملامحِ الجسديةِ لشخصياتِهِ، ويظهرُ ذلكَ على لسانِ بطلي الروايتينِ (أسعد) و(نصيف) على وجهِ الخصوصِ، ففي روايةِ "المباهلةِ" يقولُ (أسعد) في

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص١٤.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) المصدر السابق، ص١٨.

وصفِ جدّهِ: "ربعةٌ إلى الطولِ أقربُ، نحيفُ العودِ، أبيضُ البشرةِ معَ بقعِ نمشٍ هنا وهناكَ، يحفُّ شاربَهُ، ويطلقُ العنانَ للحيته الكثةِ البيضاءَ كشعرِ رأسِهِ الذي أراه على الدوامِ ثابتًا لا يطولُ ولا يقصرُ"(١). ويصفُ جدّتَهُ قائلًا: "فأقبلتْ تتهادى ببطءٍ كمنْ يسيرُ فوقَ شيءٍ يُخْشى تكسرُهُ، أو ربما تحنو أقدامُها المخضبةُ بالحناءِ على الأرضِ، معَ أنها من وزنِ الريشةِ، وأحنتْ سنواتُ عمرِها القليلَ من أعلى الظهرِ؛ فتبدوَ في مشيتِها خاشعةً"(٢).

ويركزُ الكاتب على المزجِ بينَ الوصفِ الداخليِّ والخارجيِّ لشخصيةِ الدكتورِ (هادي)، يقولُ (أسعد) في وصفِهِ لصديقِهِ: "أمّا هيئتُهُ يومَها فقدْ كانَ صاحبَ وجهٍ يغمرُكَ دفءُ نورِهِ وفيضُ حنانِه يغدقُ عليكَ إحساسَ الأملِ، مقدمُ رأسِهِ الأصلعُ متصلٌ بجبينِهِ، كأنها قطعةٌ واحدةٌ تشعُ من أثرِ البياضِ، وعيناهُ زرقاوانِ، لكنَّ بياضَهُما ممزوجٌ بحمرةٍ، وأنفُهُ دقيقٌ، له شعرٌ خفيفٌ منَ الجانبينِ يغطي أذنيَهِ، وله سالفانِ طويلانِ يميلانِ وَسْطَ الخدِّ جهةَ الشاربِ الناعمِ الغزيرِ فتكادُ تمسُ حوافَهَ، فارعُ الطولِ، ممتلئٌ قليلًا، يعززُّ ما ينطقُ بهِ لسانُهُ بحركةِ يديهِ، فإذا انتبهَ لذلكَ شبَّكَهُما خلفَ ظهرِهِ"(٣).

ويمزجُ بينَ البعدِ الاجتماعيِّ والوصفيِّ الخارجيِّ، فيقولُ (أسعد): "للكلامِ معَ (هادي) مقبلاتٌ ومُوالحُ، والخاتمةُ بالتحليةِ فيضٌ من الابتساماتِ العذبةِ يَصحبُها شعاعُ بريقِ عينيهِ الملونتينِ بذكاءٍ مقرونٍ بثقةٍ في النفسِ مُعَزَّزٍ بثقافةٍ تمزجُ المرَّ بالحلوِ، وتقدمُهُ على هيئةِ مفتاحٍ سحريٍّ لولوجِ أبوابِ عالمٍ أقربَ إلى الافتراضيِّ، أو المُشتَهى منهُ للواقعِ"(٤).

ويبدعُ الكاتبُ في تصويرِ شخصيةِ (سامي) بوصفِها الخارجيِّ، يقولُ الراوي: "بعدَ الصلاةِ فاجأَ (سامي) أباه بإعدادِ الطعامِ قائلًا بابتسامةِ رِضىً تهللَ معها وجهُهُ، وأبانتْ حسنَهُ... إنه وجهُ أبيهِ قبلَ قرابةِ ربعِ قرنٍ حينَ كان في عمرِهِ؛ عينانِ عسليتانِ مغموستانِ بحزنٍ رقيقٍ، يعلوهُما حاجبانِ سميكانِ مقوسانِ عندَ الزوايا، تظللُهُما أهدابٌ متقصفةٌ، ترفانِ بقوةٍ إذا أهمَّهُ أمرٌ، وأسفلُهما أنفُ طفلٍ كما الأذنينِ، فيما الفمُ متسعٌ قليلًا، وإذا ابتسمَ أطلتْ أسنانُهُ البيضاءُ المنتظمةُ، والرأسُ يكسوهُ شعرٌ بنيٌّ مسترسلٌ يحاذي أعلى المنكبينِ، وبياضُ خديْهِ منمشٌ كجدِّهِ، ولهُ شاربٌ أسودُ كثيفٌ يميزُهُ عن أبيهِ حليقِهما، إضافةَ لهَوْيَةِ قدمِهِ التي لا يلحظُها إلى منْ يدققُ النظرَ بمشيتِهِ"(٥).

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ١٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٦٥.

(٥) المصدر السابق، ص ٨٣.

وبعدَ استشهادِ الجدِّ في مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ، وإصابةِ (أسعد)، يصورُ لنا شكلَهُ الخارجيَّ بقولِهِ: "هكذا ورثتُ عصا جدّي فأصبحتُ أطأُ الأرضَ بعرجَتي متكئًا عليها"[١].

ويرى الباحثُ أنّ الكاتبَ حَرَصَ على مطابقةِ أسماءِ الشخصياتِ مع أفعالِها، وما يصدرُ عنها، فدلالةُ اسمِ (هادي) مناسبٌ لأفعالِهِ ووظيفتِهِ، يقول (أسعد): "أحاطَني الرجلُ بذراعيْهِ، وضمني طابعًا قبلةً فوقَ رأسي أحسستُ صدقَها ودفئَها، وهي تخرجُ منه على هيئةِ آهةٍ من الحبِّ الأبويِّ أو الأخويِّ ثم قالَ: أنا (هادي)... أنا هنا لأجلِكِ يا (أسعد)"[٢].

أما (غولدنتشاين) الذي غيّرَ اسمَهَ الأولَ من (بنيامين) إلى (باروخ)، فكانَ لهذا الاسمِ الجديدِ دلالتُهُ الدينيةُ الرمزيةُ والمعنويةُ عندَ الصهاينةِ فهوَ يعني المباركَ صاحبَ المجدِ، يقولُ الراوي: "وسافرَ لأرضِ (أسعد) مقررًا في التوِّ واللحظةِ أمرينِ، أولُهما تغييرُ اسمِهِ إلى (باروخ) وهو اسمٌ له دلالةٌ أشارَ لهُ بذلكَ الحاخامُ (كهانا) واعدًا أن يطلعَهُ على المغزى حينَ يلتقيهِ في أرضِ الميعادِ"[٣].

إذن فقد استطاعَ الكاتبُ أن يُوفقَ بينَ الشخصياتِ وما يصدرُ عنها منْ أفعالٍ وأقوالٍ في العملِ القصصيِّ، وهذا يدلُّ على نجاحِهِ في بناءِ شخصياتِهِ، مثلَ شخصيةِ (عادل) في موقفِهِ من قتلِ نساءِ الشيعةِ، حيث إنه رفضَ ذلكَ، وفي ذلكَ توافقٌ معَ اسمِهِ (عادل)، فطبقَ العدلَ في القصاصِ والثأرِ في قتالِهِ ضدَ الشيعة، ولم يفكر ك(أسعد) بقتل كل ما ينتسب للشيعة رجالا أو نساءً.

ويلاحظُ الباحثُ أنَّ الكاتبَ قدِ اختارَ أسماءَ الشخصياتِ بعنايةٍ فائقةٍ، فلكلِّ شخصيةٍ اسمُها الذي يعبرُ عن أفعالِها، أو عن مفارقةٍ عجيبةٍ، ف(أسعد) كانتْ حياتُهُ رحلةَ عذابٍ وألمٍ، بدايةً من إصابتِهِ في المجزرةِ المروعةِ في الحرمِ الإبراهيميِّ، مرورًا بالحربِ على العراقِ والصراعُ الطائفيُّ واستشهادُ محبوبتُهُ (شهد) وأعمامِهِ، وصولًا إلى انتقامِهِ لجدِّهِ وأمِّهِ وشهداءِ شعبِهِ بتنفيذِهِ للعمليةِ البطوليةِ ضدَّ الاحتلالِ الصهيونيِّ، وكذلكَ شخصيةُ (هادي) فهيَ تحملُ مفارقةً أيضًا، فبعدَ أنْ كانَ نموذجًا للهدوءِ، ومحبًّا للحياةِ والسلامِ ينقلبُ رأسًا على عقبٍ، ويصبحُ قائدًا للمجموعاتِ المسلحةِ، ويسرفُ في الدماءِ، ثم يصححُ مسارَهَ بعمليتِهِ الفدائيةِ معَ رفيقيْهِ.

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ٤٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٢.

وفي روايةِ (الأفعى تطوقُ الأرضَ)، نرى أنَّ الكاتبَ قد وظفَ الوصفَ الخارجيَّ بشكلٍ ملحوظٍ، ويبدأُ الكاتبُ من خلالِ شخصيةِ البطلِ (نصيف) رسمَ الملامحِ الخارجيةِ للشخصياتِ الأخرى، فيصفُ (كريم) بقولِهِ: "أما صورتُهُ الظاهرةُ؛ فأحسسْتُها منفرةً، إذ بدا ناعمًا كأنثى خشنةٍ"[١].

هذا الوصفُ يتطابقُ معَ طبيعةِ شخصيةِ (كريم)، وأفعالِهِ وإشباعِ شهواتِهِ المختلفةِ، فهو خنثي، وكلما دارتِ الأحداثُ، وتقدمتْ يتأكدُ لـ(نصيف) هذا الوصفَ، يقولُ: "ثارتْ بباطني موجةُ حيرةٍ قديمةٍ جديدةٍ، وأنا أرى قسماتِه كلما تقدمَ بهِ العُمُرُ تميلُ إلى الأنوثةِ الخشنةِ قليلًا"[٢].

أما (أميرة) فتصفُ شخصيةَ (نصيف) بقولِها: "أعرفُهُ؛ سبقَ ورأيتُهُ، لكنهُ الآنَ شابٌّ يلفتُ النظرَ... هدوءٌ وجمالٌ وذكاءٌ"[٣]. وكانتْ لـ(أميرة) مقاصدُ خبيثةٌ من هذا الوصفِ، وهو ما تقدمُه من إغواءٍ لـ(نصيف)، وتوظيفٍ للجنسِ خدمةً لأهدافِ الماسونيةِ، يقولُ (نصيف): "وانطلقتْ منها ضحكةٌ صاخبةٌ مثيرةٌ اهتزّتْ معَها أكتافُها البيضاءُ الشهيةُ، وتابعتْ ضاحكةً: "-اوعى تخربشْ وخليكْ مراهقْ محترمْ يا ابنِ المحترمْ-، شاركتُها الضحكَ سعيدًا بما أحسستُهُ من مقصدِها الخبيثِ"[٤].

يرسمُ البطلُ (نصيف) ملامحَهُ وشكلَهُ الخارجيَّ من خلالِ وصفِهِ لصديقِهِ (رمزي) وذلكَ من بابِ التماثلِ والتشابهِ، يقولُ: "فاستدرتُ وقد كادَ وجهي يلتصقُ بوجهِهِ، فكلانا ممشوقُ القامةِ"[٥].

يمزجُ بينَ البعدِ الاجتماعيِّ والوصفِ الخارجيِّ، فعندما يتعرفُ إلى (سحر) صديقتِهُ في الدراسةِ الجامعيةِ، يصفُ ملامحُهُ الخارجيةُ قائلا: "لمْ يكنْ ينتقصُني شيءٌ من ملامحِ الهيئةِ الجاذبةِ بقوةٍ للفتياتِ، فكيف إذا ضُمَّ إلى الوسامةِ الغنى والتفوقُ؟! أما (سحر) فلم تكنْ اسمًا على مسمّى، فمستوى جمالِها فقط معقولٌ أو مقبولٌ، والثراءُ سمةُ عامةِ الطلبةِ لكنها شاركتْني التفوقَ"[٦].

يرى الباحثُ أنَّ الكاتبَ قد رسم الشخصياتِ الأنثويةِ بدقةٍ، وذلكَ لتتوافقَ طبيعةُ الشخصياتِ وشكلَها الخارجيَّ الجذابَ مع طريقةِ استغلالِ الماسونيةِ لعنصرِ الجسدِ والجنسِ، وتمريرِ الأيديولوجياتِ

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص١٤.

(٢) المصدر السابق، ص٩٠.

(٣) المصدر السابق، ص١٥.

(٤) المصدر السابق، ص١٦.

(٥) المصدر السابق، ص٣٠.

(٦) المصدر السابق، ص١١٤.

والمبادئِ الهدامةِ، ويظهرُ ذلكَ في وصفِ البطلِ لشخصيةِ (أميرة)، يقول (نصيف): "ارتختْ عضلاتُ وجهِها طاغي الأنوثةِ، وامتدتْ أناملُها الشيطانيةُ الساحرةُ"[١].

وهذا وصفٌ آخرُ لشخصيةِ (مانويلا) جاءَ على لسانِ (نصيف): "تناولْنا العشاءَ معًا، وكانتْ (مانويلا) التي تحومُ حولَ الثلاثينَ من عمرِها تتفحصُني بطريقةٍ مفضوحةٍ، فلها عينانِ غورُهُما بعيدُ القرارِ تزيّنان وجهًا صبوحًا، يعلوهُ تاجُ منَ الشعرِ الذهبيِّ بخصلاتٍ متمردةٍ، ولها أنفُ عصفورٍ، وأذنُ حمامةٍ، بينما الفمُ الدقيقُ مكتنزُ الشفاهِ، كلُّ هذا الجمالِ مركبٌ فوقَ قوامٍ رشيقٍ ممشوقٍ أو مصبوبٍ بعنايةٍ لافتةٍ فائقةٍ"[٢].

لمْ يُهملُ الكاتبُ وصفَ أيِّ شخصيةٍ منْ شخصياتِ الروايةِ، حتى وإنْ كانَ دورُها مغمورًا، فيصفُ (رباح) صاحبَ الدورِ السطحيِّ، بقولِهِ على لسانِ البطلِ: "حينَ دخلتُ شقةَ الزمالكِ، فتحَ البابَ كهلٌ قاربَ الستينَ، بشوشُ الوجهِ، حسنُ الملامحِ بالرغمِ منْ سمرتِهِ الداكنةِ"[٣].

ويرسمُ ملامحَ (مكرم) الشخصيةِ العدائيةِ للبطلِ (نصيف)، يقولُ (نصيف) في وصفِهِ الخارجيِّ: "صافحتُهُ بتوجسٍ، فملامحُهُ غيرُ مريحةٍ، بلْ مخيفةٌ، كأنّ الشرَّ يقدحُ شررًا من عينيهِ الواسعتينِ، والغضبُ يملأُ وجهَهُ المتقلصَ بعصبيةٍ، وقد تركَ فيه الجدّريُّ أثرًا منفرًا استعصى على الزوالِ"[٤]. هذا البعدُ الخارجيُّ تطابقَ معَ البعدِ النفسيِّ للعلاقةِ العدائيةِ بينَ (مكرم) و(نصيف) التي انتهتْ بمشاجرةٍ وتعاركٍ بين الاثنينِ، ثم سُجِنَ (نصيف) بوشايةٍ من (مكرم) ورجالِ الماسونيةِ.

على صعيدِ أسماءِ الشخصياتِ لم يأتِ اختيارُ اسمَ (نصيف)؛ ليكونَ بطلًا أمرًا اعتباطيًّا أو بالصدفةِ، بل جاءَ عنْ قصدٍ وتعمدٍ. ذلكَ أنَّ الروائيَّ كانَ على إدراكٍ تامٍّ بسميائيةِ الشخصياتِ، وما ينطوي عليهِ الاسمُ من دلالاتِ الشخصيةِ ومدلولاتِها، وعليهِ فإنّ اسمَ (نصيف) الذي اختارَهُ الكاتبُ لم يكنِ اختيارًا عشوائيًّا؛ وإنما يتناسبُ معَ طبيعةِ الشخصيةِ وأبعادِها، وهو يحملُ في طياتِهِ مدلولاتٍ مرجعيةٍ توحي بالمهارةِ والذكاءِ وحسنِ التصرفِ [٥].

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٤١.

(٢) المصدر السابق، ص٦٦.

(٣) المصدر السابق، ص٩٢.

(٤) المصدر السابق، ص٩٥.

(٥) يُنظر: عبد الرحيم حمدان، من مقال إلكتروني بعنوان تجليات البعد الرمزي في رواية "عمو القزم" لخلوصي عويضة، ديوان العرب للثقافة والفكر والأدب، منشور بتاريخ ٢٠٢١/١٠/٥م، التعريف الرقمي للموقع: https://bit.ly/3Bpw0Em ، بتصرف.

- **البعدُ الاجتماعيُّ:**

البعدُ الاجتماعيُّ: ويتمثلُ في العلاقاتِ الاجتماعيةِ لكلِّ شخصيةٍ معَ غيرِها من محيطِ المجتمعِ الروائيِّ، وكذلكَ انتماءِ الشخصيةِ إلى طبقةٍ اجتماعيةٍ معينةٍ، ونوعيةِ الدورُ الذي تؤديه، وكلِّ الظروفِ المحيطةِ والمؤثرةِ في الشخصيةِ من دينٍ أو هويةٍ أو غيرِ ذلكَ، ويعدُّ البعدُ الاجتماعيُّ ممثلًا للوصفِ الخارجيِّ للشخصيةِ كالبعدِ الجسميِّ الذي يصفُ الملامحَ والصفاتِ الخارجيةَ للشخصياتِ.

ويركزُ على العلاقاتِ المختلفةِ بينَ الشخصياتِ، علاقاتِ الحبِّ أو البغضِ، أو التوافقِ والصراعِ، هذه العلاقاتُ تكونُ نتيجةً طبيعيةً للصراعِ الأيديولوجيِّ بينَ الشخصياتِ.

يظهرُ البعدُ الاجتماعيُّ في روايةِ (المُباهلة) في حديثِ (أسعد) عنْ علاقتِهِ بوالدِهِ الغائبِ وشوقِهِ لهُ، يقولُ: "كنتُ كلما جاءتْ سيرةُ أبي ارتعشتُ فرحًا وتوقًا إلى رؤياهِ"(١).

ويتحدثُ عن علاقتِهِ بأخيهِ منْ أبيهِ (سامي)، وأسرتِهِ والعلاقاتِ الاجتماعيةِ بينَ أفرادِها: "أمّا أخي (سامي) الذي يكبرُني بحواليْ خمسِ سنواتٍ، قريبًا منَ العمرِ الذي أكبرُ بهِ أختي الصغيرةَ والوحيدةَ (أسماء)، فهوَ منْ أمٍّ غيرِ أمي، فارقَها أبي بعدما أنجبَ منها (سامي)، حيثُ دبَّ الشقاقُ، واستفحلَ الخلافُ، واستحالَ الوفاقُ، فوقعَ الطلاقُ الذي أعقبَهُ بعد سنواتٍ اقترانُ أبي بأمي، ومنَ المفارقاتِ التي أدهشتني صغيرًا اختلافُ كنيةِ أبي عنْ كنيةِ أمي، فأنا بِكرُها، وكنيتُها أمُّ (أسعد)، أما هو فكنيتُه أبو (سامي)، مشاعري تجاهَ أخي الأكبرِ كانتْ ببرودِ شهرِ شباطَ منْ ذلك العامِ"(٢).

ويبينُ الهوةَ والغربةَ في العلاقةِ بينَهُ وبينَ أخيهِ (سامي) في المحطاتِ الأولى منَ الروايةِ، يقولُ: "كانتْ بينَنا هوةُ صمتٍ ومشاعرُ مبهمةٌ، أقربُ إلى الاغترابِ والاستغرابِ، فربما كلانا لمْ يفهمْ وقتَها معنى وجودِهِ في حياةِ الآخرِ"(٣).

ويستمرُ هذا البعدُ والشقاقُ، ويُحدثُ غربةً ذاتيةً ونفسيةً في نفسِ (أسعد)، وبذلكَ يمزجُ الكاتبُ بينَ البعدِ النفسيِّ والاجتماعيِّ، يقولُ (أسعد) واصفًا ذلكَ: "(سامي) الغائبُ الأبرزُ في حياتي، حتى ما عّدتُ أذكرُهُ إلا طيفًا خاطفًا ولِمامًا، وأكادُ لا أصدقُ أبي حينُ يبلغُني سلامَهُ، فأغلبُ الظنِّ أنه لم يرسلْ، وإنما هو اجتهادُ أبينا؛ لأبقى متذكرًا أنَّ لي أخًا لم يبادر يومًا لمحادثَتي"(٤).

وتميزتْ علاقةُ (أسعد) بـ(هادي) بالانسجامِ والتوافقِ، ويظهرُ ذلكَ على لسانِ (أسعد): "هكذا وقعَ التآلفُ بينَنا مكرسًا لي جلَّ وقتِهِ، لينتشلَني منْ بطنِ الحوتِ وقاعِ العتمةِ، كنتُ أشعرُ أنه يحدثُني بنبرةِ

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ١٤.

(٢) المصدر السابق، ص١٥.

(٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٤) المصدر السابق، ص ٦٦.

الواثقِ وليسَ المعالجَ، قائلًا بدفءِ المواساةِ: إنّ الحياةَ لم تبدأْ بعدُ، وأنّ أيامَ فرحِها قادمةٌ لا محالةَ، وأنَّ ما أصابني ابتلاءُ غايتُهُ التكريمُ ورفعةُ المنزلةِ في الدنيا والآخرةِ"(١).

وتعمقَتْ أواصرُ العلاقةِ الاجتماعيةِ بينَ (أسعد) و(هادي)، حتى وصلتْ لكلِّ أفرادِ أسرتيْهِما، يقولُ (أسعد) في ذلكَ: "لا أعرفُ لماذا أصبحتُ لا شعوريًّا أربطُ بينَهُ وبينَ أبي الذي يكتَفي بالمهاتفةِ، ومعسولِ الكلامِ عبرَ الأثيرِ، طالبًا مسامحتَهُ وانتظارَهُ بالصيفِ، ولعلَّ مما أراحَني تلكَ الليلةِ اهتمامَهُ بـ(أسماء) حتى استطاعَ أنْ يخترقَ صمتَها ووجومَها، ولم يدعْها حتى افترَّ ثغرُها الورديُّ عنْ شبحِ ابتسامةٍ ذابلةٍ، ثم دعانا وجدَّتي لزيارتِهِ وأهلِهِ في الجليلِ"(٢).

أما (هادي) فقد عدَّ صداقتَهُ وعلاقتَه بـ(أسعد) بمثابةِ هديةِ السماءِ لهُ، يقولُ (هادي): "لقد ضممتُهُ لصدري كما لو كانَ أخي، وشعرتُ أني أعرفُهُ منذُ زمنٍ، كان تائهًا، ووجدّتُهُ؛ فاعتبرتُهُ هديةَ السماءِ لروحي القلقةِ، أبرهنُ من خلالِهِ عن عمقِ انتمائي لشعبي، وصممتُ أنْ أقدمَ لهُ كلَّ عونٍ ممكنٍ؛ لأستنقذَهُ من براثنِ اليأسِ وجحيمِ القنوطِ"(٣).

وتصلُ بهِ مراتبُ العلاقةِ القويةِ إلى أنْ يسمّي ابنَهُ البكرَ باسمِ (أسعد) حبًّا في صديقِهِ، ويدورُ الحوارُ بينَهُما: "قبلَ فترةٍ شاركتُ (هادي) لحظاتِ سعادةٍ حقيقيةٍ، براءٌ منْ أيِّ غشٍّ أوْ غبشٍ، حينَ رزقَهُ اللهُ بمولودٍ ذكرٍ أسماهُ (أسعد)، لم يستجبْ لتوسلاتي أنْ يسميَهُ أيَّ اسمٍ آخرَ، وقالَ ضاحكًا: اسمُكَ منْ أجملِ الأسماءِ، وأنا أحبُّهُ و أحبُّكَ"(٤).

وكانتْ علاقةُ النفورِ بينَ (أنور) وابنِهِ (سامي) مقدمةً للتحولِ الفكريِّ عندَ (سامي)، وتوجهِهِ إلى التشددِ في الفكرِ، والذي دفعَهُ للتفكيرِ بالسفرِ إلى باكستانَ، يقولُ الراوي: "كانَ (أنور) يدركُ أنَّ ابنَهُ ينسحبُ نحوَ عالمِهِ الخاصِّ، نائيًّا بنفسِهِ عنْ أبيهِ، فلمْ يعدْ يصارحُهُ، أو يشاورُهُ بشيءٍ مما يعتملُ في نفسِهِ، وكلما همَّ بمناقشتِهِ بشأنِ مستقبلِهِ ومحيطِهِ لاذَ (سامي) بالصمتِ أوِ اكتفي بكلماتٍ مقتضبةٍ فحواها أنه أدرى بشؤونِهِ، وتراجعَ الأبُ عنِ التفكيرِ باللجوءِ إلى القوةِ ردًّا على تجاهلِ ابنِهِ"(٥).

ووظفَ الكاتبُ الوصفَ الاجتماعيَّ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" بطريقةٍ تخدمُ الأفكارَ التي كانتْ تضعُها الماسونيةُ في سلم أهدافِها، وتعملُ على نشرِها مستغلةً العلاقاتِ الاجتماعيةَ بينَ شخصياتِ الروايةِ.

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٤٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٩٣.

(٥) المصدر السابق، ص ٧٨.

كانتْ حالةُ الرهبةِ والصراعِ النفسيِّ مسيطرةً على (نصيف) بطلِ الروايةِ، كانَ يُحجمُ على بناءِ صداقاتٍ أو علاقاتٍ معَ أيِّ شخصٍ خارجَ إطارِ العائلةِ، وذلك بسببِ حالةِ العزلِ التي فرضَتْها الماسونيةُ عليهِ، يقولُ: "أبدو لغيري شابًا غريبَ الأطوارِ، يُحجمُ عنْ صخبِ أبناءِ جيلِهِ رهبةً، فالرغبةُ في الأعماقِ كامنةٌ، لكنَّ أثرَ السنواتِ السابقةِ دمغَ النفسَ بطابعِهِ، فكنتُ أجدُ صعوبةً في الاستجابةِ لرغباتِ التعارفِ أما المبادرةُ فبعيدةٌ"[1].

ثم يبدأُ بنسجِ خيوطِ صداقتِهِ معَ زميلِ دراستِهِ (رمزي)، وتحدثُ هذهِ الصداقةُ أثرًا إيجابيًّا في نفسِ (نصيف)، الأمرُ الذي رفضَهُ (كريم) تماشيًا معَ أهدافِ العشيرةِ، إذْ يقولُ (نصيف): "أحدثتْ صداقتي معَهُ مردودًا إيجابيًّا رائعًا على دواخلي، لكنَّ صداها في البيتِ كانَ مغايرًا، فبينَما طابَ لـ(أميرةِ)، احتجَ (كريم) آمرًا بقطعِ العلاقةِ؛ خشيةَ أنْ تفتحَ البابَ لمعارفَ جديدةٍ وعلاقاتٍ أوسعَ"[2].

قوبلَ هذا الاحتجاجُ برفضٍ صارمٍ من (نصيف)، أدى إلى توترِ العلاقةِ معَ أبيهِ الافتراضيِّ (كريم)، يقولُ (نصيف): "الأمرُ الذي تجرأتُ على رفضِهِ، معربًا عن دهشتي من إصرارِهِ على عزلي عن محيطي الطبيعيِّ، وتصاعدَ رفضي؛ ليأخذَ طابعَ ثورةٍ بيضاءَ، وانتهى النقاشُ الذي دامَ لأطولَ مدةٍ بيننا، مستغرقًا دقائقَ معدودةً، بأنْ أمرني بلزومِ غرفتي، وبقيَ هو يتشاورُ معَ (أميرة)"[3].

كانَ الحصارُ الفكريُّ والمعرفيُّ المفروضُ على (نصيف) دافعًا لهُ لإثارةِ الأسئلةِ المهمةِ حولَ كينونتِهِ، حيثُ كانَ يعيشُ حالةَ غربةٍ وصراعٍ نفسيٍّ، يقولُ محدثًا (أميرة) التي كانتْ تلعبُ دورَ الأمِّ: "من فضلِكِ، وقبلَ كلِّ شيءٍ أرجو أن يفهمَ البابا جيدًا وأنتِ أيضًا أنني أحبُّكُما كثيرًا، وأُقدّرُ حرصَكُما على مستقبلي، لكنْ ينقصُني الشعورُ بالدعمِ والثقةِ والأمانِ من طرفِكُما، فما معنى عدمُ إدراكي حتى لكينونَتي؟ الغموضُ يكادُ يحطمُ نفسي المتعطشةَ لمعرفةِ حقيقةِ ذاتِها، فلو قُدِّرَ لأحدٍ أن يسمعَكُما؛ لظنَّ أنّي سأصبحُ ملكًا أو زعيمًا، وأنا الآن أقصى ما أصبو إليهِ أنْ أعملَ يومًا في هذا الفندقِ التحفةِ الذي رأيتُهُ للتوِّ"[4].

---

(1) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص١٩.

(2) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(3) المصدر السابق، ص١٩.

(4) المصدر السابق، ص٥١.

كانتْ علاقةُ (نصيف) بـ(أميرة) علاقةَ مراقبة من قِبلِ العشيرةِ، وتسيرُ حسبَ ما رسمتْهُ لها الماسونية، يقولُ (نصيف): "فحتى (أميرة) بالرغمِ منَ انفتاحِها على التعاملِ معي بأريحيةٍ؛ كانتْ حذرةً، تعرفُ تمامًا الحدودَ التي ينبغي أنْ تقفَ عندَها"(١).

إلا أنَّ هذهِ العلاقةُ ما تلبثُ أن يُنزعَ عنها ثوبُ القداسةِ والطهارةِ، فبعدَ أنْ كانتْ تمثلُ دورَ الأمِّ، تقترفُ الفاحشةَ معَ (نصيف)، وذلك تنفيذًا لرغباتِ الماسونيةِ بإسقاطِ (نصيف) في شَرَكِها، يقول (نصيف) كاشفًا عن أسباب هذا التحول: "الراجحُ كانَ من جملةِ ما يُرادُ لعقلي استساغتُهُ، ألّا محرماتٍ ولا حدودًا تعوقُ تحقيقَ الهدفِ، وهوَ أمرٌ مقررٌ بالتوافقِ، ولا شائبةَ اعتراضٍ عليهِ"(٢).

- **البعدُ الفكريُّ:**

البعدُ الفكريُّ: ويرادُ بهِ الانتماءُ الفكريُّ للشخصيةِ أو عقيدتِها الدينيةِ أو السياسيةِ، وهو ما يؤثرُ في سلوكِها وتصرفاتِها ورؤيتِها ومواقفِها من قضايا عديدةٍ(٣). ويشغلُ البعدُ الفكريُّ حيزًا كبيرًا في الرواياتِ العالميةِ والعربيةِ تحديدًا، لأنَّ معظمَ الرواياتِ تدورُ أساسًا حولَ موقفِ الإنسانِ من همومِ مجتمعِهِ وقضاياه، وهيَ في الأغلبِ الأعمِّ قضايا ذاتُ أبعادٍ فكريةٍ وسياسيةٍ وقوميةٍ. ولا يخفى على أحدٍ ما للبعدِ الفكريِّ الأيديولوجيِّ من أثرٍ في تحديدِ ملامحِ الشخصيةِ وصفاتِها ووعيِها، ومواقفِها، وفي توجيهِ سلوكِها.

تحفلُ روايتا "المباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ" بالقضايا الفكريةِ والأيديولوجيةِ المختلفةِ، وتتمازجُ القضايا الوطنيةُ والسياسيةُ والاجتماعيةُ والدينيةُ.

ويركزُ البعدُ الفكريُّ على الأيديولوجياتِ المختلفةِ التي حمَّلَها الكاتبُ لشخصيتِها، وظهرتْ عبرَ منطوقِها الشخصيِّ في المواقفِ والصراعاتِ الروائيةِ المختلفةِ، وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ الباحثَ قد تناولَ الأبعادَ الفكريةَ لشخصياتِ الروايتينِ خلالَ عرضِهِ للرؤيةِ الأيديولوجيةِ الدينيةِ والسياسيةِ في الفصلينِ الأولِّ والثاني منَ الدراسةِ(٤)، وفيما يلي نذكرُ بعضَ النماذجِ التي تمثلَ فيها البعدُ الفكريُّ واضحًا جليًّا.

يظهرُ البعدُ الفكريُّ في شخصيةِ الجدِّ (أبو فؤاد) الذي طلبَ من حفيدِهِ (أسعد) التوبةَ، ومغادرةَ الصراعِ الطائفيِّ، والعودةَ إلى فلسطينَ، فكانَ البعدُ الفكريُّ الوسطيُّ متمثلًا في توجيهاتِهِ، حيثُ يقولُ:

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٢٠.

(٢) المصدر السابق، ص٥٣.

(٣) يُنظر: عبد الرحيم حمدان، من مقال إلكتروني بعنوان تجليات الشخصية في رواية "زمن الشيطنة"، ديوان العرب للثقافة والفكر والأدب، منشور بتاريخ ٢/٢/٢٠٢٠م، التعريف الرقمي للموقع: https://bit.ly/3k3qsZm، بتصرف.

(٤) يُنظر: الفصل الأول من الدراسة، ص٢٥، الفصل الثاني من الدراسة، ص٧٦.

"أريدُ بعدَ التوبةِ أن تستعيدَ ما فقدتَ من قلبِكِ أعني الرحمةَ ثمَّ الرحمةَ ثمَّ الرحمةَ، فلنْ تصحَّ وتصلحَ توبتُكَ دونَها"[١].

وفي الجانبِ الآخرِ منَ الصراعِ الطائفيِّ بينَ الشيعةِ والسنةِ، يظهرُ البعدُ الفكريُّ في منطوقِ الشخصياتِ التي تمثّلُ الشيعةَ، وجاءَ ذلكَ على لسانِ (أبي لؤلؤة) أحدِ قادةِ المجموعاتِ الشيعيةِ المسلحةِ، عندما اعتقلَ (عادل) و(أسعد) و(هادي)، يقول: "وحقِّ النارِ المقدسةِ التي تغلي في عروقِنا سنبيدُكُمْ جميعًا، ولو جئتُمْ بالملايينِ، ومهما دعمتْكُمْ قطرٌ وبقرٌ وسقرٌ وتركيا وأمريكا"[٢].

ونرى البعدَ الفكريَّ في شخصيةِ (هادي) الذي مثّلَ الصوتَ السنيَّ في الردِّ على حقدِ (أبو لؤلؤة) الشيعيِّ، وتجلى بعدُهُ الفكريُّ في دفاعِهِ عنِ المكونِ السنيِّ، في قولِهِ: "إنكَ أيها الكهلُ المجوسيُّ أخسُّ وأحطُّ منْ أنْ تبلغَ أوهامَكَ الوثنيةَ المتقدةَ في قلوبِكِمْ منذُ تحطيمِ كسرى وتمزيقِ دولتِهِ إربًا، اسمعْ أيها الخرفُ التافهُ، مهما أمدتْكُمْ إيرانُ بمالِها وسلاحِها، ومهما آزرَكُمْ الدبُّ الكافرُ بالمرتزقةِ؛ سنبولُ على نارِكِمْ حتى نُخمدَها للأبدِ"[٣].

وفي حوارِهِ الدينيِّ معَ الشيخِ اليثربيِّ حولَ مسألةِ المباهلةِ وتصويبِ نيةِ الجهادِ والقتالِ، وقضيةِ العودةِ إلى فلسطينَ، يقولُ (هادي) مدافعًا عن معتقداتِهِ المتشددةِ: "بيضةُ المسلمينَ واحدةٌ وديارُهُمْ كذلكَ ألا تجدُ ذلكَ في الكتابِ والسنّةِّ؟ ثمَّ هذا الذي تظنُهُ اقتتالًا داخليًّا هو تنقيةٌ وتصفيةٌ لجسدِ الأمّةِ منَ الشوائبِ السامةِ التي رضعتْ حليبَ العمالةِ وفُطمِتْ وهي ترتعُ في قصورِ الخيانةِ، ما تراه حولَكَ توطئةٌ لما هوَ آتٍ، إننا أشبهُ بمبضعِ جراحٍ مضطرٍ لاستعمالِ مشرطِهِ للتخلصِ منَ الدّمِ الفاسدِ"[٤].

مما سبقَ يتجلى البعدُ الفكريُّ للشخصياتِ، فجاءَ من خلالِ القضيةِ التي أرقتِ الأمةَ الإسلاميةَ ومزقتْها، وهيَ قضيةُ الاختلافِ والصراعِ الطائفيِّ بينَ الشيعةِ السنةِ، والتي دفعتِ الكاتبَ للبحثِ عن حلٍّ لها من خلالِ المباهلةِ، والتي استطاعَ أنْ يحمَّلَها لشخصيةِ الجدِّ (أبو فؤاد) والشيخِ (غانم اليثربيّ)، واستطاعا بعدَ عناءٍ إقناعَ (أسعد) ورفاقِهِ بتركِ الاقتتالِ والاحترابِ الطائفيِّ، فظهرَ ذلكَ في قولِ (هادي): "وأنا أيضًا طالما في الصدرِ نَفَسٌ يترددُ، سأكتبُ وأدعو إلى المباهلةِ، فكلُّ غايتِنا أن يرضى اللهُ عنّا"[٥].

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ٣٤٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٣٨.

(٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٤) المصدر السابق، ص٣٧٥.

(٥) المصدر السابق، ص٣٨٧.

تمثّلَ البعدُ الفكريُّ في معظمِ شخصياتِ الروايةِ تقريبًا، وظهرَ في الشخصياتِ التي تمثّلُ اليهودَ مثلَ: (باروخ) و(كاهانا) و(زخاريا)، والشخصياتِ المسيحيةِ الصهيونيةِ كـ(إيزابيل) و(وليام) و(مايكل)، وقدِ استطاعَ الكاتبُ أن ينقلَ لنا صورَ الصراعِ الأيديولوجيِّ من خلالِ الأبعادِ الفكريةِ التي حمَّلَها لشخصياتِهِ.

تمثّلَ البعدُ الفكريُّ في وصفِ شخصياتِ روايةِ (الأفعى تطوقُ الأرضَ)، من خلالِ شخصيةِ (نصيف) الذي تعرضَ لعمليةِ تعبئةٍ فكريةٍ، من خلالِ غرسِ فكرِ الماسونيةِ ومحاربةِ الأديانِ عبرَ المحيطينَ بهِ مثلَ (كريم) و(أميرة) وغيرِهِمْ، حيثُ سعى (كريم) لتحطيمِ صورةِ الأديانِ وتعزيزِ الفكرِ الماسونيِّ في شخصيةِ (نصيف) من خلالِ وصفِهِ للأديانِ بالخرافاتِ، وظهرَ ذلكَ عندما وجدَ (نصيف) يقرأُ في كتابٍ دينيٍّ، صاحَ بِهِ متهكمًا: "دعْكَ من هذهِ الهرطقاتِ، والأفضلُ كي تنجحَ فيما أنتَ مقدمٌ عليه ألا تفكرَ بأمرِ الدينِ هذا نهائيًّا، إن الأديانَ اللعينةَ سببُ تخلفِ البشريةِ، هيا جهزْ نفسَكَ سنسافرُ بعدَ غدٍ لنضعَ معًا اللبنةَ الأولى لمستقبلِكَ الواعدِ"[1].

بعدما تتعمقُ معرفةُ (نصيف) بالماسونيةِ ويدركُ أهدافَها، يقولُ: "لمْ تعدْ بي حاجةٌ لسؤالٍ أو مراجعةِ أحدٍ بعدَما تيقنتُ أنَّ العشيرةَ تحرِصُ بالظاهرِ على الزعمِ بأنها فقطْ ضدَّ التعصبِ للأديانِ، لكنها مع حريةِ كلِّ عضوٍ فيها لاعتناقِ ما يشاءُ، لكنْ في الحقيقةِ يأتي في مقدمةِ وطليعةِ أهدافِها وغاياتِها تحطيمُ الأخلاقِ والأديانِ، كي ترثَ هي ركامَها بلْ ركامَ البشريةِ جمعاءَ"[2].

مما سبقَ يلاحظُ أنَّ البعدَ الفكريَّ يرمي إلى دلالاتٍ أيديولوجيةٍ دينيةٍ وسياسيةٍ أرادَ الكاتبُ إيصالَها لنا عبرَ وصفِهِ لشخصيتيْ (نصيف) و(كريم)، وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ الكاتبَ قد حمّلَ سائرَ الشخصياتِ أبعادًا أيديولوجيةً تدورُ في فلكِ محاربةِ الأديانِ والأخلاقِ، وتقزيمِ صورةِ الدينِ الإسلاميِّ، وتفتيتِ الأمةِ الإسلاميةِ، ونشرِ الرذيلةِ، ومساندةِ الاحتلالِ الصهيونيِّ، وافتعالِ الحروبِ والثوراتِ وزعزعةِ استقرارِ المجتمعاتِ، وكنا قد وضحْنا ذلكَ في الفصلينِ الأولِ والثاني منَ الدراسةِ.

ويرى الباحثُ أنَّ العلاقةَ بين الأبعادِ السابقةِ لوصفِ الشخصياتِ متداخلةٌ فيما بينها، ويؤثرُ كلٌّ منها في الآخرِ ويتأثرُ، فكانَ البعدُ النفسيُّ يتأثرُ بشكلٍ كبيرٍ بالبعدِ الاجتماعيِّ، وكانَ للبعدِ الخارجيِّ أثرُهُ الكبيرُ في نفوسِ الشخصياتِ، وتداخلِ البعدِ الفكريِّ الأيديولوجيِّ في سلوكياتِ الشخصياتِ وأبعادِها النفسيةِ والاجتماعيةِ.

---

(1) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٨٤.

(2) المصدر السابق، ص٦٣.

وخلاصةُ القولِ إنَّ الكاتبَ خلوصي عويضة قد رسمَ ملامحَ شخصياتِهِ بعنايةٍ وبراعةٍ ودقةٍ، فكانَ يسبرُ أغوارَ الشخصياتِ، وكأنَّهُ متخصصٌ في علمِ النفسِ، وكانَ يرسمُ شخصياتِهِ بملامحِها الخارجيةِ، وكأنهُ متخصصٌ في فنونِ الرسمِ والتشكيلِ، أمّا عنِ انتقاءِ أسماءِ الشخصياتِ فكانَ متناسبًا معَ ما تجريهِ منْ أفعالٍ، وفي بعضِ الشخصياتِ كانتِ المفارقاتُ هي السمةَ الأبرزَ بينَ اسمِ الشخصيةِ وأفعالِها وواقعِها.

- **تقديمُ الشخصياتِ:**

حَرَصَ الروائيونَ على تقديمِ الشخصياتِ بالطرقِ المختلفةِ، في إطارٍ فنيٍّ مميزٍ، وذلكَ لخدمةِ أفكارِهِمْ الأيديولوجيةِ التي يسعونَ لتوصيلِها للمتلقينَ منْ خلالِ شخصياتِهِمْ، أو الأحداثِ التي تدورُ في رواياتِهِمْ، والأحداثُ لا يمكنُ أن تقامَ إلا لتطويرِ الشخصياتِ وتحريكِها. "لذلكَ لا تتقدمُ الشخصيةُ دفعةً واحدةً، إنّما يقدمُها الروائيُّ على مدى الروايةِ، بما يتناسبُ معَ تطورِ الأحداثِ"[1].

وقد تنوعتْ طرقُ تقديمِ الشخصياتِ، فيمكنُ أنْ تُقدَمَ "بواسطةِ نفسِها، وبواسطةِ شخصيةٍ أخرى، وبواسطةِ راوٍ يكونُ وضعُهُ خارجَ القصةِ، وبواسطةِ الشخصيةِ نفسِها وشخصيةٍ أخرى والراوي. "ومن الطرقِ الشائعةِ في تقديمِ الشخصياتِ الروائيةِ تقديمُها بواسطةِ راوٍ خارجيٍّ، وعنْ طريقِ شخصيةٍ أخرى، ونادرًا ما يتمُّ تقديمُ الشخصيةِ عنْ طريقِ نفسِها"[2].

هناكَ منَ الكُتّاب منْ يفتحونَ المجالَ لشخصياتِهِمْ للتعبيرِ المباشرِ عنْ عواطفِهِمْ وأفكارِهِمْ وأيديولوجياتِهِمْ المختلفةِ، وهذا التقديمُ يُسمى بالطريقةِ المباشرةِ، مثلَ وصفِ الشكلِ الخارجيِّ، أو عندَ إصدارِ حكمٍ أو وصفٍ معينٍ. أو منْ خلالِ شخصياتٍ أخرى منَ الخارجِ، وهيَ الطريقةُ غيرُ المباشرةِ، التي يحللُ فيها الكاتبُ عواطفَ الشخصياتِ أو دوافعَها، أيِ الكشفُ عن ملامحِ الشخصيةِ منْ خلالِ غيرِها، أيْ أنْ نتعرفَ على طبيعةِ الشخصيةِ بالاعتمادِ على القارئِ في كشفِ مكنوناتِها، فلا يكونُ هناكَ تصريحٌ من الروائيِّ.

ويرى الباحثُ أنّ تقديمَ الشخصياتِ من خلالِ الكشفِ أو الإخبارِ ليس فيهِ تشويقٌ ولا دافعيةٌ، ولا يمكنُ أن يخلوَ العملُ الروائيُّ من طريقةِ الإخبارِ، وهناكَ تفاوتٌ بينَ الكشفِ والإخبارِ، وهناكَ منَ الكُتّابِ مَنْ يُغَلِّبُ الكشفَ على الإخبارِ، وهذا يتيحُ للمتلقي أنْ يجتهدَ في رسمِ ملامحِ الشخصياتِ، وهناكَ من يقيدُ المتلقيَ بتغليبِهِ الإخبارَ على الكشفِ.

([1]) يوسف حطيني، مكونات السرد في الرواية الفلسطينية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، ١٩٩٩، ص١٤.

([2]) محمد صابر عبيد وسوسن البياتي، جماليات الشكل الروائي، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، د.ط، د.ت، ص١٨٧.

ويمكنُ من خلالِ وصفِ أفعالِ هذهِ الشخصيةِ أنْ نتعرفَ ونحكمُ عليها (أنانيةٌ، متعاليةٌ، متسلطةٌ، ونفهمَ ذلكَ منَ الوصفِ دونَ أنْ يصرحَ بذلكَ الكاتبُ).

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ الرواياتِ الحديثةَ تركزُ على الطريقةِ غيرِ المباشرةِ لكيْ تدفعَ القارئَ لمشاركةِ الكاتبِ في رسمِ ملامحِ الشخصيةِ، فيصبحَ القارئُ جزءًا منَ العملِ، وليسَ مجردَ مستقبلٍ.

وفي روايتي الأديبِ خلوصي عويضة نستعرضُ طرقَ تقديمِ الشخصياتِ من خلالِ الطريقةِ المباشرةِ، وغيرِ المباشرةِ، أو المزجِ بينَهُما.

- **الطريقةُ المباشرةُ:**

وتكونُ من خلالِ ما تخبرُ بهِ الشخصياتُ عنْ نفسِها، ويبدأُ (أسعد) بطلُ روايةِ "المُباهلة" بتقديمِ نفسِهِ وهو طفلٌ صغيرٌ يخشى الحيواناتِ، يقولُ: "أصبحتُ منذُ أكثرِ منْ عامٍ أنامُ معَ العجوزينِ، فأنا أخافُ القططَ والكلابَ، وكلَّ الحيواناتِ لا أصدقُ أنَّ بينَها أليفةً"[١].

ويظهرُ تطورُ شخصيةِ (أسعد) ونموُّها عندما طلبَ منْ أختِهِ (أسماء) ارتداءَ الحجابِ، ويتشددُ في طلبِهِ قائلًا: "قبلَ أسبوعٍ باركتُ لها نجاحَها في الابتدائيةِ، وقلتُ لها بنبرةٍ زاجرةٍ: أنْ ترتديَ الحجابَ، فلمْ تعدْ صغيرةً يمكنُ التغاضي عنها، حينها لزمتِ الصمتَ برهةً، ثم قالتْ غاضبةً: لستَ وليَ أمري، طارَ عقلي، وصرختُ بوجهها: اخرسي، سترتدينَهُ بالرغمِ من أنفِكِ، وإلا... سولتْ لي نفسي صفعَها، وهممتُ رافعًا يدي، لكنَّها فورًا هربتْ نحوَ جدتي، وقد أرختِ العنانَ لدموعِها، فضمَتْها، وأقبلتْ نحوي تلومني قائلة: لا شأنَ لكَ بها، أبوها موجودٌ وعمُّها كمانْ. فيا لوقاحَتي، وأنا أصيحُ بجدتي غاضبًا: لكنها أختي، شرفي، وأنا هنا المسؤولُ عنها، أينَ أبوها هذا أينَ؟ أينَ؟"[٢].

ويقدمُ الدكتورُ (هادي) نفسَهُ بشكلٍ مباشرٍ، فيقولُ: "أنا (هادي عبد الله) ابنُ الجليلِ الأعلى، ولدتُ لأبوينِ عاشقينِ، أبي عاشَ حميدًا في نفسِهِ، محمودًا بينَ الناسِ لِما امتازَ بهِ منْ طيبةِ قلبٍ ونخوةِ كرمٍ ووداعةِ نفسٍ، كأنها، بلْ هي كذلكَ منْ ماءِ الفداءِ والجودِ والسخاءِ جُبلتْ، ولا شكَّ عندي أنَّ الجيناتِ الوراثيةَ لأبيهِ الذي ووريَ الثرى قبلَ مولدي، قدْ فعلتْ فعلَها في تكوينِ الملامحِ الأساسيةِ لشخصيتِهِ التي بدورِها وجدَتْ مستقرًا لها في طبيعَتي الذاتيةِ"[٣].

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ١٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٧.

ويقولُ مقدمًا نفسِهِ: "أمّا أنا أوسطُهُمْ فكانتْ وصيةُ أبي أنْ أكملَ تعليمي، فمنذُ صغري وهو يتابعُ بفرحٍ شغفي بالمطالعةِ، وحبّي للمدرسةِ"[1]، ويستمرُ (هادي) في تقديمِ نفسِهِ: "وكنتُ بدوري أحرِصُ على التفوقِ، متشوقًا دومًا لأبرهنَ أنه يراهنُ على حصانٍ رابحٍ، حتى أنهيْتُ التوجيهيَّ العلميَّ بتفوقٍ؛ أهّلني للالتحاقِ بالجامعةِ العبريةِ لدارسةِ الطبِّ"[2].

عندما تصلُ حالةُ الصراعِ النفسيَّ في نفسِ (هادي) إلى ذروتِها، يعبرُ عنْ ذلكَ: "كأني معلقٌ في الهواءِ، لا إلى هؤلاءِ، ولا إلى هؤلاءِ، وتبقى صرختي المكتومةُ تسألُ عنْ مصيرِها، متى ينقشعُ الضبابُ، ويزولُ غبارُ الرؤيةُ وغبشَها؟ على الأقلِ؛ لأبصرَ حقيقةَ نفسي، وأودعَ للأبدِ حيرتي"[3].

وفي روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، يقدمُ بطلُ الروايةِ (نصيف) نفسَهُ بطريقةٍ مباشرةٍ بقولِهِ: "لقدْ وُلدّتُ وحيدًا، وعشتُ وحيدًا، وها أنا ذا سأموتُ وحيدًا"[4].

أما عنْ ميولِهِ ورغباتِهِ، فتظهرُ على لسانِهِ: "لطالَما عشقتُ القراءةَ، ورغبتُ في الكتابةِ، لكنَّ الرهبةَ كانتْ أقوى، ثم نأى بي مسرحُ الأحداثِ بعيدًا عن الرغبةِ والرهبةِ، وها هيَ حتميةُ المصيرِ تدفعُني إليها دفعًا، إنها تجرِبَتي الأولى، وقطعًا الأخيرةُ، فالموتُ كما أصبحتُ تعلمُ هو مستقبلي"[5].

كانَ لحالةِ الصمتِ الرهيبِ بينَ (نصيف) و(كريم) أثرُها الواضحُ، ونصيبُها الوفيرُ في العلاقةِ بينَهما، وتظهرُ هذهِ الحالةُ في قولِ (نصيف): "فمنذُ سِني الطفولةِ الأولى حاولتُ أنْ أشعرَ منْ أنا؟ ومن هوَ؟ ولماذا نحنُ مختلفانِ عنِ الآخرينَ؟ لا أجزمُ بشيءٍ، فمكوثي بدورِ حضانةٍ بعيدًا عنهُ أضعفَ التواصلَ، وزادَ الأمرُ إبهامًا، أعقبُهُ صمتٌ تدرّجَ شيئًا فشيئًا حتى غدا سمةَ العلاقةِ بيننا"[6].

- <u>الطريقةُ غيرُ المباشرةِ:</u>

وفيها يمدُّنا الراوي بالشخصيةِ في الشكل الذي يقررُهُ المؤلفُ، وتبرزُ هيمنةُ الراوي العليمِ في عمليةِ السردِ، وفيها تتحدثُ الشخصياتُ عن غيرِها، لا سيما شخصيةَ البطلِ.

في روايةِ "المُباهلة"، يقدمُ (أسعد) شخصيةَ جدَّه (أبو فؤاد) بقولِهِ: "فافترَّ ثغرُهُ عنِ ابتسامةٍ،

---

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ٤٩.

(2) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(3) المصدر السابق، ص ٧٢.

(4) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٦.

(5) المصدر السابق، ص٨.

(6) المصدر السابق، ص٢١.

ودَمْدَمَ بكلماتٍ، ثم أطبقَ بيمينِهِ على عكازِهِ وبيسارِهِ على يمنايَ، وتعوّذَ، وبسملَ، ثم مضيْنا"[١].

أما شخصيةُ الدكتور (هادي) فيتكفَلُ صديقُهُ (أسعد) بتقديمِها، يقولُ (أسعد): "كانَ ينتمي إلى مدرسةٍ فكريةٍ فلسفتُها تقومُ على اعتبارِ الصحةِ النفسيةِ للإنسانِ هي قوامُ الحياةِ"[٢].

ويلاحظُ في تقديمِ شخصيةِ والدِ (هادي) الصفاتُ المكتسبةُ والمشتركةُ بينَ (هادي) ووالدِهِ، التي انعكستْ على شخصيةِ (هادي) فيما بعدُ، فالمجازفةُ والمخاطرةُ صفةٌ مكتسبةٌ من والدِهِ، فقد كانتْ عندَ الأبِ وانتقلتْ إلى (هادي) عندما جازفَ بحياتِهِ، وانتقلَ من بلدٍ إلى آخرَ، مخاطرًا بروحِهِ وحياتِهِ، يقولُ (هادي): "أما أبي فخاطرَ مجازِفًا بحياتِهِ حينَ تسللَ ليلًا عبرَ البحرِ إلى عكا في الشهرِ التالي لنكبةِ فلسطينَ، وعادَ إلى جبالِ الجليلِ، ودخلَ في الإحصاءِ الذي تمَّ حينها، وعادَ لأرضِ أبيه وجدِّهِ؛ يفلحُ، ويحرثُ، ويبذرُ، ويضربُ بفأسِهِ، ويسقي، ويحصدُ بحباتِ عرقِهِ"[٣].

وقدّمَ الراوي شخصيةَ (أنور) الذي أتقنَ عملَهُ أيّما إتقانٍ، وباتَ عنصرًا رئيسًا في مؤسستِهِ التي يعملُ بها، يقول: "وما أنْ أتمَّ سنتَهُ الأولى حتى باتَ رقمًا أساسيًّا، يؤخذُ برأيِهِ، وُيستشارُ فيما يُستعصى على الآخرينَ، فأصبحَ مطلعَ عامِهِ الثاني وبالنظرِ إلى الكفاءةِ التي برهنَها مسؤولَ عمالٍ في الجناحِ الذي يعملُ بهِ، كما أصبحَ يدركُ أهميةَ الخططِ والبرامجِ في بلادِ العمِّ سام فدأبَ يضعُ لنفسِهِ بمؤازرةِ عقلِهِ البراغماتي خطةً لكل فترةٍ، يحددُ خلالَها أهدافَهَ المطلوبُ تحقيقُها، واستمرَ يتقدمُ حتى استشعرَ فعلًا أنه يقفُ على أرضٍ صلبةٍ"[٤].

أما عن تدينِهِ والتزامِهِ، فقدْ كانَ يختلفُ عن والدِهِ، يقولُ الراوي: "صحيحٌ أنه غيرُ متدينٍ نقيضَ أبيهِ الذي طالما عنَّفَهُ على تراخيهِ وتقاعسِهِ، وبقيَ حالُهُ إلى اليومِ كسولُ العبادةِ، لكنهُ بالسليقةِ أو الفطرةِ يحبُّ دينَهُ كباقي البشرِ"[٥].

ويقدمُ (أسعد) شخصيةَ والدَهُ (أنور)، مركزًا على الجانبِ العاطفيِّ، يقولُ (أسعد): "بكى أبي حتى أشفقْتُ عليهِ من خفقانِ قلبِهِ وأزيزِ صدرِهِ كنوحِ مرجلٍ، كلما أرسلني للحظةٍ يتفرسُ وجهي يخطفُهُ بصرُهُ نحوَ قدمي المصابةِ، ثم يعيدُ ضمّي، وقدْ لاحظتُ منذُ وصولِهِ كيفَ أنني كلما

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ٣٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٥٥.

(٥) المصدر السابق، ص ٥٨.

مشيتُ أتبعَ بصرَهُ قدمي، وأثارُ الحزنِ الذي تحتويهِ"[١].

أما شخصيةُ (سامي) المتشددةُ، يقدمُها والدُهُ (أنور) بقولِهِ: " أدهشتْني فصاحتُهُ، واستوقفتْني جرأتُهُ، وهزني منَ الأعماقِ قولُهُ: غيرُ متدينٍ، لكنْ لمْ أشأ أنْ أُوحي لهُ بأيِّ امتعاضٍ، بالعكسِ؛ فصراحتُهُ مفيدةٌ، فسألتُهُ متعجبًا: لغتُكَ قويةٌ، وأسئلتُكَ عميقةٌ، وملاحظاتُكَ دقيقةٌ، فمنْ أينَ لكَ هذا؟[٢].

وفي روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، يقدمُ (نصيف) بطلُ الروايةِ شخصياتِ الروايةِ الأخرى، ويظهرُ ذلكَ في تقديمِهِ لشخصيةِ (أميرة)، حيثُ يقولُ: "حيثُ اصطحبتْني (أميرة) معَها لساعةِ مشيٍّ، اعتادَتْها حفاظًا على لياقتِها التي كانتْ توليها أهميةً قصوى"[٣].

ويضيفُ أيضًا: "وللمفارقةِ هيَ امرأةٌ خصبةٌ قلبًا وعقلًا، لكنها ليستْ كذلكَ فيما خُلقتْ لأجلِهِ المرأةِ؛ أيْ لمْ تكنْ ولودةً"[٤].

أما عنْ شخصيةِ (كريم)، فيقدمُها (نصيف) قائلًا: "فقدَ عملَ (كريم) مراقبَ أمنٍ لدى شركةِ الهواتفِ العموميةِ الفرنسيةِ "فرانس تيلكوم" لا أعلمُ متى التحقَ بهذا العملِ، ولا ملابساتِ تركِهِ وانتقالِهِ للعملِ كمرشدٍ سياحيٍّ لدى شركةِ سياحةٍ فرنسيةٍ، ثمّ انتقلَ بعدها ليعملَ مستشارًا أمنيًّا لدى شركةٍ ماليةٍ عالميةٍ لها فروعٌ عبرَ العالمِ"[٥].

ويقدمُ البطلُ شخصياتِ الروايةِ على اختلافِ أدوارِها، فشخصيةُ (ماما ندى) شخصيةٌ مسطحةٌ، يقدمُها بقولِهِ: "معَ الوقتِ أصبحتُ أخاطبُها بـ(ماما ندى) معَ إحساسٍ شبهِ أكيدٍ أنها ليستْ أمّي، لكنها طوالَ المرحلةِ الابتدائيةِ والإعداديةِ قامتْ بواجبِها خيرَ قيامٍ"[٦].

وهذا (كريم) يقدمُ (نصيف) كأخٍ من إخوانِ العشيرةِ وعضوٍ من أعضاءِ الماسونيةِ، يقول: " أنتَ يا (نصيف) أو أنتَ أيها الأخُ (نصيف) –فعقيدةُ عشيرتُنا تقومُ على الإخاءِ والمساواةِ والحريةِ– حفيدُ أحدِ أقطابِ المحفلِ الوطنيِّ الكبيرِ بالمشرقِ"[٧].

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ٦٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٤.

(٣) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص١١.

(٤) المصدر السابق، ص١٨.

(٥) المصدر السابق، ص١٣.

(٦) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٧) المصدر السابق، ص٥٥.

ويمكنُ أن يقدمَ الكاتبُ شخصياتِهِ منْ خلالِ الحوارِ الخارجيِّ، ونرى ذلكَ في الحوارِ الذي دارَ بينَ (إيزابيل) و(أنور)، فيقدمُ لنا الكاتبُ شخصيةَ (إيزابيل) من خلالِهِ، ويظهرُ اهتمامُ (أنور) بالجانبِ العاطفيِّ تجاهَ إيزابيلَ، فتُخاطبه قائلةً: "لقد سمعتُ عنكِ ما أثارَ فضولي، ثم إن شكلَكَ لا يوحي بأنكَ رجلٌ شرقيٌّ، أظنُّكَ كما فهمتُ منَ الأرضِ المقدسةِ، وأعجبني كثيرًا مشاركتُكَ مراسمَ العزاءِ، أتحبُّ أنْ نلتقيَ؟"[1].

وفي روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، يوظفُ الكاتبُ الحوارَ في تقديمِهِ لشخصياتِ الروايةِ، فيقدمُ (نصيف) شخصيةَ (كريم) في حوارِهِ مع (نجيب): "اعلمْ (نجيب) أنني عشتُ ما بعدَ الولادةِ في ضاحيةٍ من ضواحي باريسَ، حيثُ كانَ يعملُ...، اسمعْ، قلمي الناطقُ بمشيئةِ قلبي لا يطاوعُني على قولِ أبي؛ لذا كلما أمكنَ سأطلقُ عليهِ اسمَهُ مجردًا من أيةِ زوائدَ إضافيةٍ"[2].

وتظهرُ شخصيتا (نصيف) المندفعةُ في سنِّ المراهقةِ، و(أميرة) سريعةُ الغضبِ، في حوارِهِما:

"- واضحٌ أنَّ اندفاعَكَ لمعرفةِ كلِّ شيءٍ دفعةً واحدةً مرتبطٌ بعمرِكِ!

- أنتِ أيضًا سريعةُ الغضبِ، وشديدةُ التكتمِ"[3].

أما شخصيةُ (مكرم) فيقدمُها (رباح) في حوارِهِ معَ (نصيف) بقولِهِ: "وتغاضَ عن جهامةِ (مكرم) وعنتريتِهِ -تعالَ على نفسِكِ- ففي أيةِ لحظةٍ يمكنُ أن يحلَّ غيرُهُ مكانَهُ، وينتهي دورُهُ معَكَ، فالرجلُ عصبيٌّ حادٌّ، لا يَرْعى حرمةً لأحدٍ؛ لأنه مسنودٌ منْ فوق -أعني-"[4].

ويلاحظُ الباحثُ أنَّ الكاتبَ قدْ مزجَ بينَ الطريقتينِ، ونرى ذلكَ في تقديمِ (أسعد) لشخصيةِ صديقِهِ (هادي) بطريقةٍ غيرِ مباشرةٍ، وبتقديمِ نفسِهِ من خلالِ المزجِ بينَ الصفاتِ، يقولُ (أسعد): "صديقي (هادي) -كما أصرَّ أنْ أناديَهُ دومًا- كانَ يومَها في أواخرِ العشرينِ منْ عمرِهِ، كعمري الآنَ، معَ الفارقِ الكبيرِ في تضاريسِ الوجهِ، فأنا اليومَ بملامحَ صخريةٍ حديديةٍ تشي بالرعبِ"[5].

ويُسقطُ على نفسِهِ صفاتِ جدِّهِ من خلالِ تقديمِهِ لشخصيتِهِ، يقولُ (أسعد): "تمددَ جدّي في فراشِهِ، مسندًا رأسَهُ مسبِّلًا جفونَهَ، وراحَ مستغرقًا، يتمتمُ أدعيةً حفظتُ بعضَها، إذ ورثتُ بعضَ

---

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ٨٠.

(2) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص١٢.

(3) المصدر السابق، ص٨٢.

(4) المصدر السابق، ص١١٠.

(5) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ٤٣.

صفاتِهِ، لكني أخفقْتُ تمامًا في امتلاكِ صفاءِ روحِهِ، ووداعةِ قلبِهِ، بل كنتُ نقيضَهُ"[١].

واستخلاصًا لما سبقَ من دراسةِ الباحثِ لأساليبِ تقديمِه للشخصياتِ، نجدُ أنَّ الكاتبَ قد استخدمَ أكثرَ من طريقةٍ في الروايتينِ، وقد واءَمَ وناسبَ بينَ الشخصيةِ وحاجتِها للتقديمِ الذي كانَ لها، وكانَ للشخصياتِ المحوريةِ النصيبُ الأكبرُ في التقديمِ، ورسمِ الملامحِ والصفاتِ.

المبحثُ الرّابعُ- وَظيفةُ الشخصياتِ وتَقويمها:

لا يمكنُ لنا أنْ نتصورَ أحداثَ روايةٍ ما دونَ شخصياتِها، كذلكَ لا يمكنُ أنْ ننظرَ إلى الشخصياتِ على أنها كائنٌ حقيقيٌّ إلا من خلالِ ما تؤديهِ من وظائفَ وأعمالٍ وحركاتٍ رسمَها وأبدعَها الكاتبُ لكلِّ شخصيةٍ؛ لذا منَ الطبيعيِّ أن نرى للشخصياتِ وظائفَ معينةً تؤديها، لتضفيَ على العملِ الروائيِّ الواقعيةَ، وتحركَ المتنَ الروائيَّ من خلالِ بناءِ العلاقاتِ بينَ الشخصياتِ والوقائعِ السرديةِ. فالشخصياتُ لا تتحددُ من خلالِ موقعِها داخلَ العملِ السرديِّ فقطْ، ولكنْ من خلالِ العلاقاتِ التي تنسجُها معَ الشخصياتِ الأخرى[٢].

والوظائفُ للشخصياتِ شيءٌ ثابتٌ لا يمكنُ الاستغناءُ عنه. فهيَ الأعمالُ التي تستندُ إليها الشخصياتُ أو الوظائفُ التي تضطلعُ بها تلكَ الأعمالُ من إنجازِ بِنيةِ الحكايةِ[٣].

والكاتبُ عندما يمنحُ الشخصيةَ وظيفةً معينةً، لا يفعلُ ذلكَ لتحريكِ عمليةِ السردِ فقطْ، بلْ لإضفاءِ لمسةٍ جماليةٍ على البناءِ الروائيِّ، أو لإعطاءِ مسحةٍ واقعيةٍ ملموسةٍ، أو لتكونَ قناعًا يتخفّى خلفَهُ المؤلفُ.

وفي روايتي "المباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، نلاحظُ أنَّ الكاتبَ خلوصي عويضة قد رسمَ شخصياتِهِ في إطارِ الظروفِ الاجتماعيةِ والسياسيةِ والاقتصاديةِ التي تحيطُ بها، ولمْ يخلقْها عبثًا، بل كانتْ كلُّ وظيفةٍ تتناسبُ مع الشخصيةِ بما تحملُهُ من صفاتٍ وأوصافٍ.

فكانَ للأحداثِ التاريخيةِ في روايةِ "المباهلة" الأثرُ الكبيرُ في تحديدِ وظائفِ الشخصياتِ وأدوارِها، وفي روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" كانَ للماسونيةِ وظروفِ عملِها أثرٌ واضحٌ في تحديدِ وظائفِ شخصياتِ الروايةِ.

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ٢٢.

(٢) يُنظر: فيليب هامون، سيمولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بنكراد، ط ١، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا،٢٠١٣م، ص١٠، بتصرف.

(٣) الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، دار الجنوب، تونس، ١٩٩٤م، ص٦٦.بتصرف.

ولم يهملِ الكاتبُ حضورَ المرأةِ، فأعطاها أهميتَها ودورَها ووظيفتَها، فكانَ حضورُها مناضلةً، أو عاشقةً، أو مثقفةً، أو أداةً لتمريرِ الأهدافِ الخاصةِ بالماسونيةِ، أو أمًّا، أو أختًا، أو زوجةً، وهذا ما سنركزُ عليه فيما يلي.

ضمتِ الروايتانِ عددًا منَ وظائف الشخصياتِ، ويمكنُ الحديثُ عنها عبر النماذجِ التاليةِ:

- **شخصيةُ المثقفِ:**

القارئُ المبحرُ في الروايتينِ يلمحُ اهتمامًا وعنايةً بوظائفِ الشخصياتِ وأدوارِها، حيثُ تفرضُ طبيعةُ الرؤى المقدمةِ عناصرَ شخصيةً لذاتِها، تحملُ همومَ الكاتبِ ورؤاهُ في تجسيدِ أفكارٍ بحدِّ ذاتِها تتفاعلُ معَها، أو قدْ تتعارضُ.

تعجُ روايتا "المباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ" بالشخصياتِ المثقفةِ، إذْ عمَدَ الكاتبُ إلى رسمِها وتوظيفِها لتقديمِ فكرةٍ معينةٍ، أو لتفاعلِها معَ البطلِ الرئيسيِّ، وقدْ ظهرتْ شخصيةُ المثقفِ في روايةِ "المُباهلة" من خلالِ شخصيةِ الحاجِ (أبو فؤاد النمري) جدِّ (أسعد) بطلِ الروايةِ، وكانَ يتمتعُ بثقافةٍ دينيةٍ وأدبيةٍ وتاريخيةٍ، يقولُ (أسعد): "كانَ جدّي قدِ اعتادَ منذُ مطلعِ الشهرِ الكريمِ أن يقصَّ علينا إمّا موعظةً منَ اللطائفِ ترققُ القلوبَ، أو حكايةَ إسلامِ بعضِ الصحابةِ في بدايةِ الدعوةِ، وقبلَ الجهرِ بها، الذينَ ضربوا أرْوعَ الأمثلةِ في الفداءِ والتضحيةِ، خاصةً الضعفاءَ الفقراءَ منهم، وقد كانَ جدّي من القلائلِ من أبناءِ جيلِهِ الذينَ يجيدونَ القراءةَ والكتابةَ، وله باعٌ لا بأسَ بهِ في حفظِ السِّيَرِ والتراجمِ، وشيئًا من ديوانِ الشعرِ في العصرينِ الأمويِّ والعباسيِّ، وبالإضافةِ لمداومتِهِ على أذكارِ الصباحِ والمساءِ يلقي بواقعِ مرةٍ أو مرتينِ في الأسبوعِ درسًا وعظيًّا على مسامعِ المصلينَ"[١].

ويلاحظُ الباحثُ أنَّ الكاتبَ اتكأَ على الشخصيةِ المثقفةِ حتى يستطيعَ تمريرَ الأفكارِ والقضايا الأيديولوجيةِ التي تحتاجُ إلى شخصياتٍ تحملُ بعدًا فكريًّا وثقافيًّا.

فالجدُّ (أبو فؤاد) بثقافتِهِ وتبحرِهِ في العلومِ الدينيةِ نجحَ في إقناعِ (أسعد) ورفاقِهِ أن يتركوا الاقتتالَ الطائفيَّ وأنْ يتخذوا المباهلةَ سبيلًا، وهذا ما حدثَ أيضًا معَ شخصيةِ الشيخِ (اليثربيّ) المثقفةِ التي وظفَها الكاتبُ في خدمةِ أفكارِهِ الأيديولوجيةِ، فتمكنَ الشيخُ منْ إقناعِ (هادي) الذي اعترضَ على فكرةِ المباهلةِ بادئَ الأمرِ، لكنْ بعدَ الحواراتِ الثقافيةِ والفكريةِ والمراجعاتِ الدينيةِ بينَهُ وبينَ الشيخِ (اليثربيّ) حدثَ التحولُ الفكريُّ الثاني لهُ، وعادَ إلى فلسطينَ عبرَ بوابةِ الجولانِ.

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ١٨،١٩.

وفي روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، كانَ وجودُ الشخصياتِ المثقفةِ أمرًا طبيعيًّا، فالماسونيةُ تنشطُ في الأوساطِ الثقافيةِ والمجتمعاتِ التي تُوْلي الثقافةَ والفكرَ اهتمامًا وعنايةً كبيرينِ، ولذلكَ كانَ (نصيف) بطلُ الروايةِ يتمتعُ بقدرٍ من الثقافةِ، وظهر في قوله: "لقد قرأتُ في الأدبِ الكثيرَ حتى أحببتُ الشعرَ، وعشقتُ الروايةَ الفرنسيةَ"[١].

فالكاتبُ لمْ يضفِ الثقافةَ والفكرَ إلى شخصياتِ روايتِهِ جزافًا ولا اعتباطًا، بلْ كانَ لخدمةِ رؤيتِهِ الفنيةِ والفكريةِ التي سعى لتمريرِها عبر روايتِهِ وما تحملُهُ من صراعاتٍ وتباينٍ للثقافاتِ.

كانَ للشخصياتِ المثقفةِ الدورُ الواضحُ في طرحِ المواضيعِ الفكريةِ والثقافيةِ بين جموعِ طلبةِ الجامعاتِ، وذلكَ منْ أجلِ نشرِها كقضايا للرأيِ العامِّ، يقولُ (نصيف): "وبالفعلِ نجحتُ في إثباتِ قدراتي، إذْ جذبَ موضوعُ حريةِ المرأةِ انتباهَ شرائحَ متعددةٍ منَ الوسطِ الطلابيِّ، لكنه انتشرَ كالنارِ في الهشيمِ بينَ الطالباتِ"[٢].

- **شخصيةُ العاملِ:**

لجأَ الكاتبُ إلى إضفاءِ وظيفةِ العاملِ على بعضِ شخصياتِهِ لخدمةِ الأحداثِ ونموِّها، فكانتْ وظيفةُ (أنور) في روايةِ "المباهلةِ" جسرًا لتطورِ شخصيتِهِ ومدخلًا لترقيتِهِ في شركتِهِ، وكانتْ وظيفةُ (مروان) المرافقِ الشخصيِّ لـ(كريم) في روايةِ (الأفعى تطوقُ الأرضَ) سببًا في كشفِ حقيقةِ (كريم) وتأزيمِ المواقفِ الروائيةِ وصولًا إلى لحظةِ التنويرِ، وقدْ أعطى الكاتبُ وظيفةَ العاملِ لعددٍ منَ الشخصياتِ في الروايتينِ، فهذا الجدُّ (أبو فؤاد) يعملُ بائعًا في مكتبةٍ، يقولُ (أسعد): "فهوُ يملكُ مكتبةً يبيعُ القرطاسيةَ لأولادِ المدارسِ والصحفِ المحليةِ، ولديهِ ركنٌ للمؤلفاتِ والكتبِ الدينيةِ والعلميةِ، وأغلبُ زبائنِهِ أو معارفِهِ من كبارِ السنِّ"[٣].

هذه الوظيفةُ تخدمُ الكاتبَ في نموِّ الأحداثِ من خلالِ دورِها، فالجدُّ يصبحُ مثقفًا مولعًا بالأدبِ والشعرِ والعلومِ الدينيةِ نتيجةً لاقتنائِهِ هذهِ الكتبَ وعملِهِ بهذهِ الوظيفةِ.

وكذلكَ كانتْ شخصيةُ (أنور) والد (سامي)، الذي كانَ يعملُ ميكانيكًا للسياراتِ في الأرضِ المحتلةِ، فقدْ أتقنَ هذهِ المهنةَ التي كانتْ سببًا لهجرتِهِ للولاياتِ المتحدةِ، ومدخلًا للمخابراتِ الأمريكيةِ للتدخلِ في شؤونِ حياتِهِ، وبعدَ وصولِهِ إلى الولاياتِ المتحدةِ تظهرُ مهارتُهُ في عملِهِ، يقولُ الراوي: "التحقَ بعملِهِ ثالثَ يومٍ من وصولِهِ، حيثُ استقبلَهُ بترحابٍ ينمُّ عنِ الثقةِ بكفاءتِهِ السيدُ

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٨.

(٢) المصدر السابق، ص٩٨.

(٣) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٣.

(جيمس فيليب) المديرُ العامُّ التنفيذيُّ للشركةِ، والذي لمْ يبخلْ بتقديمِ النصحِ والمشورةِ والدعمِ النفسيِّ والماديِّ الذي سهّلَ لـ(أنور) مزاولةَ عملِهِ في قسمِ الصيانةِ، فكانَ لطريقةِ انسيابِ المفاتيحِ وأدواتِ المهنةِ بينَ أصابعِهِ السحريةِ بحذاقةٍ ومهارةٍ فائقةٍ، ما جعلَهُ يلفتُ النظرَ أولًا، ثمَّ بسرعةٍ يصبحُ موضعَ تقديرِ زملائِهِ والمشرفَ المتابعَ والأهمَّ مديرَ القسمِ الفنيِّ الذي لاحظَ تفانيهِ، وأثارَ استغرابَهُ: كيفَ يستخدمُ (أنور) حاسةَ سمعِهِ وبصرِهِ بتركيزٍ قويٍّ يساعدُهُ على دقةِ تشخيصِ الخللِ وسرعةِ إصلاحِهِ، فكانتِ الشهورُ الستُّ الأولى كافيةً لتضعَهُ على المسارِ الصحيحِ، مؤكدًا قوةَ حضورِهِ"[١].

هذهِ الوظيفةُ تتيحُ لـ(أنور) الاقترابَ منَ العناصرِ المتشددةِ في بيشاورَ، وتدفعُهُمْ للتعاطفِ معَهُ بعدما يصلحُ لهُمْ عربةً أصابَها خللٌ فنيٌّ، يقولُ (أمير أغا): "ذكرتَ أنك ميكانيكيٌّ، جيدٌ.. لدينا عربةُ جيبٍ متعطلةٍ، قمْ أرِنا مهارتَكَ في إصلاحِها. انتظمتْ دقاتُ قلبِ (أنور)، وقالَ بارتياحٍ وثقةٍ: بكلِّ سرورٍ، وتسرني مساعدتُكُمْ"[٢].

هذهِ المساعدةُ تحركُ الأحداثَ نحوَ تغييرٍ جذريٍّ في هدفِ (أنور) الذي جاءَ عميلًا للتجسسِ على الجماعةِ المتشددةِ، ليخرجَ منْ عندِهِمْ مقررًا الثأرَ من (إيزابيل) و(وليام)، ليعودَ وينتقمَ منهُما.

ويمكنُ القولُ بأنَّ صورةَ العاملِ التي وظفَّها الكاتبُ ارتبطتْ بالأحداثِ الروائيةِ وسيرِها، وكانَ دورُها واضحًا في شخصيةِ (أنور) و(مروان) و(رباح) وبالتالي يُحْسَبُ للكاتبِ التنويعُ في وظائفِ شخصياتِهِ وإتقانِهِ لمناسبةِ الوظيفةِ معَ الدورِ الروائيِّ المنوطِ بها.

- شخصيةُ المقاومِ:

كانَ للنموذجِ المقاومِ دورٌ واضحٌ في رواياتِ الكاتبِ عويضة، وفي روايةِ "المباهلة" قدمَها الكاتبُ للتعبيرِ عن موقفِهِ منَ المقاومةِ بشكلٍ عامٍّ، فالكاتبُ يرى أنها هيَ المُخلصُ للمآسي التي يمرُّ بها شعبُنا الفلسطينيُّ، منْ خلالِ النماذجِ المُقاومةِ التي أعطاها لأبطالِهِ، والموقفِ الإيجابيِّ منَ المجتمعِ تجاهَ الشخصِ المقاومِ، وظهرتْ شخصيةُ البطلِ المقاومِ في روايةِ "المباهلة"، وذلكَ عندما تطرقَ الكاتبُ للمحطاتِ النضاليةِ للشعبِ الفلسطينيِّ، وتمثلتْ شخصيةُ المقاومِ بـ(محمود النمري)، الذي كانَ معتقلًا في سجونِ الاحتلالِ بسببِ نضالِهِ، يقولُ (أسعد) واصفًا استقبالَ الأهالي لعمِهِ (محمود) عندما تقدمَ للزواجِ من فتاةٍ فلسطينيةٍ: "استقبلَنا أهلُ البيتِ وأقاربِهِمْ بحفاوةٍ بالغةٍ، وطربتْ أذنايَ؛ والجميعُ يصفُ العريسَ بالبطلِ ابنِ البطلِ"[٣].

([١]) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٥٥.

([٢]) المصدر السابق، ص٢١٩.

([٣]) المصدر السابق، ص٦٤.

هذهِ النظرةُ الإيجابيةُ والبطوليةُ من محيطِ (محمود) تعكسُ موقفَ الكاتبِ منَ المقاومةِ، ونظرةَ المجتمعِ لهذا النموذجِ، فالمقاومُ بطلٌ محبوبٌ له حضورُهُ في نفوسِ الناسِ، وبالتالي هذا يدلُّ على موقفِ المجتمعِ من المقاومةِ، فلا يكرهُهُ أحدٌ، وليس بمنبوذٍ من أحدٍ.

وعندما سافرَ (أسعد) إلى العراقِ –قبيلَ العدوانِ عليهِ– وصفَهُ عمُّهُ (أبو أحمد) بقولِهِ: "هذا (أسعد) البطلُ الذي أصيبَ بمجزرةِ الحرمِ التي استشهدَ فيها جدُّكُمْ وأمُّهُ، تذكرونَ الواقعةَ التي حدثْتُكُمْ عنها كثيرًا"[١].

فالكاتبُ عندما يضيفُ كلمةَ البطلِ يعكسُ لنا موقفَهُ من بطولةِ (أسعد) وشخصيتِهِ المقاومةِ، ويعكسُ لنا نظرةَ المجتمعِ للشخصِ المقاومِ، وبلا شكٍّ هذهِ النظرةُ مأخوذةٌ منَ الواقعِ المعيشِ الذي يقدرُ الشخصَ المقاومَ ويجلُّهُ.

والكاتبُ عندما يقدمُ النموذجَ المقاومَ، فإنه يريدُ أن يرسلَ لنا رسالةً ضمنيةً؛ فحواها أنَّ المقاومةَ هيَ السبيلَ الأمثلَ لمواجهةِ المحتلِ، وقدْ دلَّ على ذلك في أكثرِ منْ مشهدٍ، مثلَ تنفيذِ (هادي) لعمليتِهِ البطوليةِ الصامتةِ ضدَّ الاحتلالِ الصهيونيِّ، وحضورِ شخصيتيْ (راشد) و(محمود) المقاومتينِ اللذينِ اعْتُقِلا بسببِ نشاطِهِما ضدَّ الاحتلالِ الصُهيونيِّ، وذكرِهِ للعملياتِ البطوليةِ للمقاومةِ في غزةَ، ثم تنفيذِ أبطالِ الروايةِ للعمليةِ البطوليةِ في الجولانِ المحتلِّ.

- **شخصيةُ عالمِ الدينِ:**

كانَ منَ الطبيعيِّ أنْ يوظفَ الكاتبُ عويضة نموجَ عالمِ الدينِ في روايتيْهِ؛ لما للقضايا الدينيةِ من حضورٍ وتأثيرٍ في مجرى الأحداثِ والمواقفِ الروائيةِ، وكانتْ نظرةُ الكاتبِ لعالمِ الدينِ الإسلاميِّ مختلفةً حسبَ تشددِهِ أو وسطيتِهِ، فقد أولى الشخصياتِ الوسيطةَ دورًا بارزًا، ليعكسَ لنا موقفَهُ الوسطيَّ من القضايا الدينيةِ والفكريةِ الشائكةِ، كقضيةِ الاختلافِ والصراعِ الطائفيِّ بينَ الشيعةِ والسنةِ، وتمثلَ ذلكَ في شخصياتِ الشيخِ (غانم) اليثربيِّ والجدِّ (أبو فؤاد) والشيخِ (محسن) في روايةِ "المباهلة"، وشخصيتِي الشيخِ (أبو همام) و(عاصم) في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ".

كانَ الحاجُّ (أبو فؤاد النمري) جدُّ (أسعد) رجلًا مثقفًا، وشيخًا مفوهًا، لديه علم وإلمام في أمور الدين، مما مكَّنَهُ ذلكَ من تصدرِ دروسِ الوعظِ، يصفُ (أسعد) ذلك: "كانَ يُلقي بواقعِ مرةٍ أو مرتينِ في الأسبوعِ درسًا وعظيًّا على مسامعِ المصلينَ"[٢].

وتظهرُ شخصيةُ عالمِ الدينِ المسلمِ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" على لسانِ الشيخِ (أبو

([١]) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٢٣.

([٢]) المصدر السابق، ص١٩.

همام)، وذلكَ في حوارِهِ معَ (نصيف) بعدما لاحظَ عليه إدمانَهُ للخمرِ:

"– يا أخي المحترمَ إنني مشفقٌ عليكَ منْ جرأتِكَ على مواقعةِ الحرامِ، فاقبلْ نصيحتي، واتركْ هذا المنكرَ الذي يُغيِّبُ العقلَ.

- شكرًا أيها الشيخُ المحترمُ للنصيحةِ، لكنني مُبتلىً بنقمةِ العقلِ، وأمقتُهُ، فيا ليتَهُ يغيبُ؛ فلا يعود، لكنَّ المنكرَ للأسفِ لا يؤثرُ، فأنا معتادٌ على الشربِ.
- معتادٌ!! يعني سكيرٌ مدمنٌ!! وأسفاهُ على الشبابِ المسلمِ"[1].

فيظهرُ الحوارُ حرصَ هذا العالمِ على إصلاحِ هذا الشابِّ الذي وقعَ في براثنِ الخمرِ.

أما عنْ نموذجِ رجلِ الدينِ اليهوديِّ، فكانَ يتمثلُ في شخصيةِ الحاخامِ (كاهانا)، وعكسَ لنا الكاتبُ من خلالِهِ مدى التشددِ والحقدِ المزروعِ في نفوسِ اليهودِ الصهاينةِ تجاهَ غيرِهِمْ منَ الأممِ لا سيما العربِ والمسلمينِ، فظهرَ (كاهانا) بوصفِهِ رجلَ دينٍ يهوديٍّ متطرفًا، يبثُّ الكراهيةَ ويزرعُ العنصريةَ، فكان له دورٌ بارزٌ في التعبئةِ الفكريةِ والدينيةِ لـ(باروخ غولدشتاين) مقترفِ مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ، فتظهرُ شخصيتُهُ المتطرفةُ وهو يقرأُ النصوصَ الدينيةَ، يقول الراوي: "قرأَ (كاهانا) لـ(غولدشتاين) نصوصًا تلموديةً، طالبًا منهُ فهمَها جيدًا والعملِ بها بعدَ حفظِها –"لولا خلقُ الله اليهودَ؛ لانعدمتِ البركةُ في الأرضِ، ولما خُلقتِ الشمسُ ولا هطلتْ قطرةُ مطرٍ، فالفرقُ بينَ اليهودِ وغيرهِمِ منْ شعوبِ الأرضِ كالفرقِ بينَ الإنسانِ والحيوانِ"[2].

أما نموذجُ رجلِ الدينِ المسيحيِّ فكانَ يتمثلُ في نموذجِ (جرجس) المسيحيِّ الشرقيِّ الذي ساندَ (أسعد) و(عادل) في العراقِ في روايةِ "المباهلة"، وعكسَ الكاتبُ من خلالِهِ الموقفَ المشرفَ لمسيحيّي الشرقِ منَ العدوانِ الغربيِّ على العراقِ.

ظهرتْ شخصيةُ رجلِ الدينِ المسيحيِّ الذي عمَّدَ (نصيف) في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" من خلال الكاهن (جيوفاني باتروس) الذي عمَّدَ (نصيف) وألحقَهُ بالعشيرةِ، يقولُ الكاهنُ: "فليكنْ نورًا، أيها الأخُ المحترمُ (نصيف) لقد قررَ معبدُ الفنِّ والفلسفةِ لعشيرتِنا الجليلةِ الخالدةِ قَبولَكَ بصفةٍ عاجلةٍ واستثنائيةٍ عضوًا فاعلًا برتبةِ مبتدئٍ، ويتمُّ خطُّ ذلكَ بالقلمِ الأعظمِ بالدفترِ الأعظمِ"[3].

وتحاولُ (أميرة) إقناعَ (نصيف) بالابتعادِ عنِ الأديانِ مستغلةً كلامَ الكاهنِ (باتروس) حول انضمامِ رجالِ الكنيسةِ للماسونيةِ، فتقولُ: "اسمعْ (نصيف)، لا علاقةَ للدينِ من قريبٍ أو بعيدٍ بعشيرةِ البنائينَ

(1) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٣٤٣.

(2) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٠.

(3) المصدر السابق، ص٧٦.

الأحرارِ، فالذي عمّدَكَ أمسِ هو الكاهنُ المسيحيُّ (جيوفاني باتروس) المنبهُ العظيمُ، وقد أخبرَنا قبلَ أنْ يشرعَ بتعميدِكِ أنَّ لدينا الآنَ أكثرَ منْ ثمانيةِ آلافِ رجلِ دينٍ بمناصبَ مختلفةٍ ودرجاتٍ متفاوتةٍ داخلَ عمومِ الكنائسِ الإيطاليةِ وحدَها"[١].

وهذا يبينُ سيطرةَ الماسونيةِ على المجتمعِ الكنسيِّ خاصةً، والأوربيِّ والغربيِّ عامةً، فكبارُ رجالُ الدينِ المسيحيِّ منضوونَ تحتَ لواءِ هذهِ الحركةِ التي تحركُ العالمَ بأيادٍ خفيةٍ، وهذا يظهرُ سيطرتها على أوساط المجتمعِ الدينيةِ والفنيةِ والإعلاميةِ والثقافيةِ والفكريةِ، غيرَ أنَّ الكاتبَ لم يطرقْ أبوابَ هذهِ الأوساطِ حفاظًا على بنائِهِ الفنيِّ الذي يدورُ حولَ شخصياتِ الأبطالِ الذينَ انتقى أدوارَهُمْ وَفْقَ حبكةٍ محددةٍ.

- **شخصيةُ الطبيبُ:**

تظهرُ شخصيةُ الطبيبِ من خلالِ شخصيةِ الدكتورِ (هادي)، الذي يعملُ طبيبًا للصحةِ النفسيةِ، ويتعرفُ إلى (أسعد) منْ خلالِ وظيفتِهِ، فبعدَ إصابةِ (أسعد) في المجزرةِ، كان يتطلبُ الأمرُ علاجَهَ منْ آثارِها النفسيةِ المؤلمةِ، فهيَ المدخلُ الذي من خلالِهِ بنى علاقتَهُ معَهُ، يقولُ (هادي): "وأنا مسرورٌ لمستوى وعيِكَ، أما عنِ المشاعرِ فلا تنسَ أنها فحوى عملي وموضوعُ دراستي، وطبيعيٌّ أنْ تتركَ أثرَها في أحاديثي وسلوكي"[٢].

وقد ظهرَ إتقانُ (هادي) لمهنتِهِ، وحبُّه لها، وتفانيهِ فيها، فهوَ قدْ تمكنَ من إخراجِ (أسعد) منْ حالتِهِ النفسيةِ، وعالجَ كثيرًا من جراحِ روحِهِ الغائرةِ.

- **شخصيةُ المرأةِ:**

لمْ يهملِ الكاتبُ خلوصي عويضة دورَ المرأةِ في أعمالِهِ الأدبيةِ، فقدْ أولاها اهتمامًا واضحًا، وأعطاها دورَها ومكانتَها البارزةَ، وظهرتْ شخصيةُ المرأةِ في محطاتٍ متفرقةٍ من روايتي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ".

وتظهرُ شخصيةُ المرأةِ من خلالِ الأدوارِ الأتيةِ:

- دورُ الأمِّ: تتجسدُ شخصيةُ الأمِّ منْ خلالِ دورِ أمِّ (أسعد)، تقولُ الجدةُ واصفةً دورَ أمِّ (أسعد): "طبختُ أنا وأمُّك إفطارًا شهيًّا؛ الأكلةُ المفضلةُ لدى الجميعِ"[٣].

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٨١.

(٢) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٧٤.

(٣) المصدر السابق، ص١٤.

ويضيفُ (أسعد) واصفًا اهتمامَهُ وحبَّهُ لأمِّهِ قائلًا: "وعدوتُ نحوَ المطبخِ، حيثُ أمي منهمكةٌ في عملِها، فانحنتْ قليلًا لأطبعَ قبْلةً سريعةً على خدِّها"[1].

وتظهرُ عاطفةُ الأمِّ وحبِّها لابنِها (أسعد)، بقولِهِ: "عاينتْ أمّي غبطتي، تركتْ من يدِها تقطيعَ الطماطمَ والخيارَ ودقَّ الفلفلِ الأخضرِ بيدِ الهاونِ الخشبيِّ في زبديةِ الفخارِ المجوّفةِ بلونِها الذي يشبهُ احمرارَ الشمسِ عندَ الغروبِ الذي انتظرَ بفارغِ الصبرِ، واتّحنَتْ تضمُّني"[2].

وتشجعُ أمُّ (أسعد) ابنَها وتعززُ شجاعتَهُ وقدرتَهُ على الصيامِ، فتقولُ: "ما شاءَ الله عليكَ، لا تحتاجُ إلى مساعدةِ أحدٍ، ليتكَ تصومُ كلَّ يومٍ، ففي إفطارِكِ لا تأكلُ نصفَ ما تأكلُهُ الآنَ"[3].

أما عن دورِ الحاجةِ (أم فؤاد النمري) فيظهرُ حبُّها وشوقُها لأولادِها بعدَ الغربةِ والفراقِ، يقولُ (أسعد) واصفًا المشهدَ: "ضحكٌ ودموعٌ وصراخٌ وبكاءٌ وأمطارُ قبلاتٍ شاركتْ بها جدَّتي تحتضنُ ولديْها معًا، فألقيتُ بنفسي وأسماءُ وسطَهُمْ"[4].

- <u>دورُ الجدةِ:</u> ظهرتْ شخصيةُ الجدةُ في روايةِ (المباهلة) من خلالِ شخصيةِ الحاجةِ (أم فؤاد) جدةِ (أسعد)، كانَ حضورُها يتجسدُ في حنانِها وعاطفتِها على حفيدِها الذي أصيبُ في المجزرةِ، يقولُ (أسعد): "لمْ أجدْ أمامي غيرَ جدّتي التي جلستْ على طرفِ السريرِ تغمرني بذراعيْها المرتعشتيْنِ، تسكبُ الدمعَ شلالاتٍ وأنهارًا... عيونُ نساءِ العالمِ الباكيةُ صباحَ مساءَ توحدتْ واجتمعتْ في عينيها، توحدَ المصبُّ واندفعَ يضخُ ماءَهُ فوقَ وجهي وصدري، وهيَ تقبلُ يديَّ وتتحسسَ موضعَ إصابَتي"[5].

وعندما اشتدتْ حالةُ (أسعد) النفسيةُ، وزادَ صراعُها وقلقُها بعدَ مشهدِ الجريمةِ ومقتلِ جدِّهِ أمامَ ناظريْهِ، تزورُهُ الأحلامُ المقلقةُ، مما يقلِقُ الجدةَ، فتقول: "اسمْ اللهْ عليكْ يا ستي، بتحلمْ؟! خيرْ إنْ شاءَ اللهْ.. خيرْ"[6].

- <u>دورُ الزوجةِ:</u> ظهرتْ من خلالِ شخصيةِ أمِّ (أسعد)، يقولُ الراوي: "وزادَ من سرورِهِ انتشارُ المطاعمِ الشاميةِ والمصريةِ التي تقدمُ للمعدةِ المحرومةِ ما يعوضُها عنْ أمِّ (أسعد) المتألقةِ

---

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٤.

(2) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(3) المصدر السابق، ص١٧.

(4) المصدر السابق، ص٦٣.

(5) المصدر السابق، ص٣٩.

(6) المصدر السابق، ص٤١.

بأنفاسِها الشهيةِ في المطبخِ فقطْ، دونَ الانتباهِ لأهميةِ حظوظِ الجسدِ الأخرى، هي هكذا زوجتُهُ الثانيةُ التي نشأتْ يتيمةً في كنفِ أقاربَ لها واقترنَ بها بتزكيةٍ منْ أمِّهِ"[1].

- <u>دورُ الأختِ:</u> كانَ دورُ الأختِ من خلالِ شخصيةِ (أسماء)، شقيقةِ (أسعد) و(سامي)، فتظهرُ عاطفتُها نحوَ أخويْها بعدَ اعتقالِ (سامي) واغترابِ (أسعد)، وتردُ على سؤالِ أبيها، الذي علمِ بتحسنِ حالِها بعد إصابتِها في حادثةِ البرجينِ:

"– رائعْ، الحمدُ للهِ، خبرْ حِلُو هيكْ بدو هِديَةْ حلوَةْ، ما رأيكُ بهاتفٍ محمولٍ معَ كاميرا ديجتال؟

– شكرًا بابا، لكنَّ الهديةَ الحلوةَ التي أتمنّى هي أخبارٌ حلوةٌ عن إخوتي وجدّتي"[2].

- <u>دورُ الشهيدةِ:</u> كانَ من خلالِ شخصيةِ أمِّ (أسعد) التي ارتقتْ شهيدةً برصاصِ الاحتلالِ في الأحداثِ الداميةِ بعدَ مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ، تقولُ الجدةُ مجيبةً حفيدَها (أسعد) بعدَ سؤالِهِ عنْ أمِّهِ وافتقادِهِ لها: "أمَّكْ، أمَّكْ شهيدةْ يا ستّي، سيدَكْ وأمّكْ في السماء"[3].

- <u>دورُ العاشقةِ:</u> ظهرتِ المرأةُ العاشقةُ من خلالِ شخصيةِ (نجوى) خطيبةِ (نصيف) بطلِ روايةِ (الأفعى تطوقُ الأرضَ)، فيصفُ (نصيف) علاقتَهُ بها: "ولمْ تبخلْ (نجوى) بدايةً بالسماحِ لي بخطفِ بعضَ القبلاتِ في حديقةِ المنزلِ، ثمّ سرعانَ ما ارتمتْ في أحضاني بعدما تبادَلنا الاعترافَ بالحبِّ، فنهلتُ وارتشفتُ من رحيقِها"[4].

- <u>دورُ المرأةِ الأداةِ:</u> سلطَ الكاتبُ الضوءَ على دورِ المرأةِ الأداةِ، التي توظفُ جسدَها بشكلٍ إباحيٍّ بهيميٍّ خدمةً لأهدافِ مشغليها كما في روايةِ "المباهلة"، وتلكَ التي توظفُها الماسونيةُ كما في "رواية الأفعى تطوقُ الأرضَ".

ظهرَ هذا الدورُ من خلالِ شخصيةِ (إيزابيل) في روايةِ "المُباهلة"، حيثُ تنجحُ في إسقاطِ (أنور) في وحلِ العمالةِ من خلالِ الإغواءِ الجنسيِّ، يقولُ الراوي: "أشارتْ لهُ أنْ يجلسَ إلى جوارِها فوقَ الأريكةِ، وقد وضعتْ ساقًا فوقَ أخرى، كاشفةً عن معظمِ فخذيْها، وصدرُها شبهُ العاري يتألقُ بحضورِهِ الطاغي، ماجنِ الأنوثةِ"[5].

وفي روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، ظهرَ هذا الدورُ من خلالِ شخصياتٍ أنثويةٍ عديدةٍ، مثل (أميرة) و(شيرين) و(سحر) و(مانويلا). وهناكُ مشاهدُ إغواءٍ تمارسُها (أميرة) مع (نصيف)،تبينُ كيف

([1]) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٥٨.

([2]) المصدر السابق، ص١٨١.

([3]) المصدر السابق، ص٤١.

([4]) برزت هذه المشاهد في أكثر من موضع في رواية المُباهلة، منها: ص٥٤– ص٣٦٠.

([5]) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٥١.

استطاعتْ إغراقَهُ في الرذيلةِ(١). فالماسونيةُ تتخذُ من جسدِ المرأةِ سلعةً للحصولِ على مبتغاها، وأداةً تحققُ أهدافَها، فالمرأةُ لديهم لا قيمةَ لها إلا من أجلِ تشويهِ الفطرةِ وطمسِها، وذلكَ بجعلِها سببًا لنشرِ الإباحيةِ وطغيانِها.

- **شخصيةُ القناعُ:**

وهي محاولةُ الكاتبِ التعبيرَ عنْ أفكارِهِ وآرائِهِ الخاصةِ من خلالِ شخصياتِهِ الروائيةِ، حيثُ يتخفى خلفَها الكاتبُ، وهوَ يهدفُ منَ ذلكَ إلى إظهارِ تجاربِهِ في الحياةِ، وعندما يُسقطُ الروائيُّ بعضَ أفكارِهِ وأحاسيسِهِ، وأحداثِ حياتِهِ على شخصياتِ رواياتِهِ؛ فإنه لا ضيرَ في ذلكَ؛ لأنه يقدمُ للقارئِ تجربَةً أكثرَ واقعيةً ومصداقيةً.

وفي "روايةِ الأفعى تطوقُ الأرضَ"، تظهرُ شخصيةُ القناعِ من خلالِ شخصيةِ البطلِ (نصيف)، ويعبرُ الكاتبُ من خلالِها عن تجربتِهِ معَ الكتابةِ، لأنه مرَّ بتجربَةٍ صعبةٍ قبلَ الكتابةِ، تجربةِ الرهبةِ من الكتابةِ، لكنه استطاعَ أنْ يتجاوزَها، ويكتبُ رواياتِهِ، وهو بذلكَ يسقطُ ما عايشَهُ على شخصيةِ (نصيف)، يقولُ (نصيف): "لطالَما عشقتُ القراءةَ، ورغبتُ في الكتابةِ، لكنَّ الرهبةَ كانتْ أقوى، ثم نأى بي مسرحُ الأحداثِ بعيدًا عنِ الرغبةِ والرهبةِ، وها هيَ حتميةُ المصيرِ تدفعُني إليها دفعًا"(٢).

وتظهرُ شخصيةُ الكاتبُ المثقفةُ على لسانِ (نصيف): "لقد قرأتُ في الأدبِ الكثيرَ، حتى أحببتُ الشعرَ، وعشقتُ الروايةَ الفرنسيةَ؛ فأعجبني مثلًا هيجو لسانُ حالِ الضعفاءِ والمساكينِ، لكن سحرني آراغون في مجنونتِهِ الأندلسيةِ "إلسا" فكانَ بجدارةٍ شاعرَ الحبِّ العتيقِ"(٣).

- **تقويمُ الشخصياتِ:**

يمكنُ تقويمُ الشخصياتِ التي رسمَها الكاتبُ في روايتيْهِ من خلالِ مقياسينِ؛ الأولِ: مدى انسجامِ الشخصيةِ معَ دورِها الروائيِّ، والآخر: مدى مطابقتِها للواقعِ الحقيقيِّ، ومن خلالِ ذلكَ نستطيعُ الحكمَ عليها بالنجاحِ أو الفشلِ.

ويظهرُ مما تقدمَ في تناولنا لأنواعِ الشخصياتِ، ووصفِها، وتقديمِها، ووظيفتِها، في روايتي "المباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، أنَّ الكاتبَ قدِ استلهم شخصياتِهِ من واقعِهِ المعيشِ، فكانتْ شخصيةُ (أسعد) تمثلُ شخصيةَ الفلسطينيَّ الذي استشهدتْ أمهُ وغدا جدُّهُ شهيدًا في مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ كأيِّ فلسطينيٍّ عاشَ تجربةَ الفقدِ والشهادةِ، أما عن مدى انسجامِهِ معَ دورِهِ الروائيِّ فقد كانتْ مواقفُهُ وأفعالُهُ وردودُها منسجمةً وطبيعيةً، ولم يبالغِ الكاتبُ فيها حدَّ الغرابةِ، فتعرضَ للنجاحِ والفشلِ كأيِّ إنسانٍ يتعرضُ في معتركِ حياتِهِ لمحطاتٍ منَ النجاحِ والفشلِ، وكانتْ قضيةُ الثأرِ نُصْبَ

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٥١.

(٢) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٨.

(٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

عينيْهِ وسعى لها حتى حققَها بعمليتِهِ البطوليةِ، لكنَّهُ تعرضَ قبلَها لمحطاتٍ فاصلةٍ في الصراعِ والاحترابِ الطائفيِّ في العراقِ.

وكانتْ شخصيةُ الدكتور (هادي) منسجمةً مع دورِها الروائيِّ الذي رسمَهُ لها الكاتبُ عويضة، فاستطاعَ ببراعتِهِ الأدبيةِ أن يشكلَ منها مفارقةً عجيبةً تمثلتْ في تحولِهِ الجذريِّ منْ إنسانٍ يؤمنُ بالتعايشِ مع العدوِّ إلى إنسانٍ يرفضُ المحتلَّ ولا يقبلُ أنْ يعيشَ بجوارِ مَنْ سلبَهُ أرضَهُ وقتلَ أبناءَ شعبَهُ، مؤمنًا بفكرةِ أنَّ هذهِ الأرضَ لا تقبلُ القسمةَ على اثنينِ، وكانتْ شخصيتُهُ مطابقةً لشخصيةِ الفلسطينيِّ في الداخلِ المحتلِّ، ومثلتْ صورةً حقيقةً لواقعِ الفلسطينيينَ في الداخلِ المحتلِ، ونقلتْ لنا صورةَ الصراعِ النفسيِّ الذي يختلجُ في صدرِ كلِّ محبٍّ للأرضِ متعلقٍ بالجذورِ التاريخيةِ لقوميتِهِ العربيةِ، وهويتِهِ الإسلاميةِ.

وفي روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، كانتْ شخصيةُ البطلِ (نصيف) صورةً حقيقةً لواقعِ الإنسانِ المشتتِ في مجتمعِ العشيرةِ الغامضِ، الذي يكتسيهِ القلقُ والإرهابُ النفسيُّ، والارتهانُ لغيرِهِ، وأما عن مدى نجاحِهِ في دورِهِ الروائيِّ، فيمكنُ القولُ أن الكاتبَ استطاعَ من خلالِ دورِ (نصيف) أنْ يسلطَ الضوءَ على طبيعةِ الماسونيةِ ومخاطرِها ونفوذِها السياسيِّ والفعليِّ في المجتمعاتِ العربيةِ والغربيةِ، وكانَ لـ(نصيف) الدورُ الواضحُ في تحقيقِ هذهِ الأهدافِ من خلالِ دورِهِ الروائيِّ، وصراعِهِ معَ أعضاءِ العشيرةِ، وتنفيذِهِ لعمليةِ الثأرِ من قاتلِ والديْهِ.

ويمكنُ القولُ إنَّ فكرةَ الثأرِ تسيطرُ على بطلي الروايتينِ (أسعد) و(نصيف)، وهذا يدفعُنا للبحثِ خلفَ الأسبابِ التي دفعتِ الكاتبَ إلى جعلِ هذهِ الفكرةِ باعثًا ومرتكزًا لأعمالِهِ الروائيةِ، ومحركًا قويًّا للأحداثِ والصراعاتِ بينَ الشخصياتِ.

وخلاصة القول، يظهرُ لنا تماسك الشخصيات بشكلٍ عامٍّ في الروايتينِ، ومدى انسجامِ ما يصدرُ عنها من أفعالٍ وأقوالٍ وردودِ أفعالٍ معَ مكوناتِها الشخصيةِ، ومدى الانسجامِ معَ العملِ القصصيِّ ككل، ويمكنُ الحكمُ بأنَّ الكاتبَ قد وُفِّقَ في ملائمةِ أدوارِ الشخصياتِ مع ما يصدرُ منها منْ مواقفَ وأفعالٍ، وما تؤديهِ من وظيفةٍ. ويرى الباحثُ أنَّ الكاتبَ قد امتاح شخصياتِهِ من واقعِهِ المعيشِ، وبذلكَ تحققتْ نماذجُ الشخصياتِ في الواقعِ الخارجيِّ، فهيَ من ضمنِ النماذجِ البشريةِ التي نعرفُها، وقد زَخَرَ عالمُهُ الروائيُّ بشخصياتٍ فقيرةٍ وثريةٍ، ومناضلةٍ ومسالمةٍ، ومتشددةٍ ومتحررةٍ، وثابتةٍ وناميةٍ، مما يؤكدُ حضورَ مختلفِ الشخصياتِ ووظائفِها المتعددةِ، تماشيًا معَ التصاعدِ السرديِّ، وصولًا لذروةِ الصراعِ والحبكةِ التي تمنحُ لحظةَ التنويرِ.

الفصلُ الرابعُ

الزمنُ والمكانُ

في روايتيِ "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"

- ❖ المبحثُ الأولُ– الزمنُ وعناصرُ السردِ الروائيِّ، والأيديولوجيا.
- ❖ المبحثُ الثاني– المرجعُ الزمنيُّ التاريخيُّ لروايتيِ "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ".
- ❖ المبحثُ الثالثُ– تقنياتُ المفارقاتِ الزمنيةِ.
- ❖ المبحثُ الرابعُ– تِقنياتُ المدةِ الزمنيةِ.
- ❖ المبحثُ الخامسُ– تجلياتُ المكانِ في روايتيِ "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ".

توطئة:

يعدُّ عنصرا الزمنِ والمكانِ من أهمِّ التقنياتِ السرديةِ التي تشكلُ فضاءَ الروايةِ. "وهما يدخلانِ في علاقاتٍ متعددةٍ معَ المكوناتِ الحكائيةِ الأخرى للسردِ، كالشخصياتِ والأحداثِ، والرؤياتِ السرديةِ"[١]. ففي حيزِ المكانِ تتحركُ الشخصياتُ، وعلى دورانِ الأيامِ ونبضاتِ الزمنِ تسجلُ الأحداثُ وقائعَها.

ولا شكَّ في أنَّ هناك علاقةً وثيقةً بينَ عنصريِ الزمنِ والمكانِ. "فالزمانُ هوَ البعدُ الرابعُ للمكانِ، كما أنَّ المكانَ يلوِّنُ الزمانَ بلونِهِ، إلا أنَّ الإنسانَ هو الذي يعطي القيمةَ الحقيقيةَ لهذينِ العنصرينِ"[٢].

والفنُّ الروائيُّ في الأساسِ فنٌّ زمنيٌّ مكانيٌّ، وعندَ الحديثِ عنِ المكانِ يتبادرُ إلى ذهنِنا مباشرةً الزمنُ، فكلٌّ منها يكملُ الآخرَ، ويشكلانِ معًا بيئةَ القصةِ، أيِ الوسطِ الطبيعيِّ الذي تدورُ فيهِ الأحداثُ، وتتحركُ فيه الشخصياتُ، وتتطورُ.

ولا تقومُ الروايةُ إلا بالزمنِ، فهوَ منَ المقوماتِ الأساسيةِ. فلا يوجدُ موضوعٌ؛ إلا ولهُ تاريخٌ، وإطارٌ زمنيٌّ يخصانِهِ[٣]. إذنْ فالزمنُ يمثلُ: "عنصرًا أساسيًّا منَ العناصرِ التي يقومُ عليها فنُّ القصِّ، وأنه إذا كانَ الأدبُ يعتبرُ فنًّا زمنيًّا –إذا صنفْنا الفنونَ إلى زمنيةٍ ومكانيةٍ–؛ فإنَّ القصَّ هوَ أكثرُ الأنواعِ الأدبيةِ التصاقًا بالزمنِ"[٤]. أيْ كلُّ ما يحدثُ في الروايةِ من داخلِها وخارجِها، ويحدثُ هذا عبرَ الزمنِ ومن خلالِهِ، فهوَ العنصرُ المميزُ للنصوصِ الحكائيةِ.

والمكانُ هوَ جغرافيةُ الروايةُ، فيهِ تتحددُ معالمُها، وفي فضائِهِ تتطورُ الشخصياتُ، ومنْ خلالِهِ نتعرفُ إلى المضمونِ الاجتماعيِّ والسياسيِّ والعاطفيِّ في العملِ الروائيِّ، فلكلِ روايةٍ إيقاعُها الزمنيُّ والمكانيُّ، فالمكانَ: "ليسَ عنصرًا زائدًا في الروايةِ، فهوَ يتخذُ أشكالًا، ويتضمنُ معانيَ عديدةً، بلْ قدْ يكونُ في بعضِ الأحيانِ هوَ الهدفُ من وجودِ العملِ كلِّهِ"[٥].

---

(١) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص٢٦.

(٢) علي عودة، الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية ١٩٥٢–١٩٨٢م، ط٢، دار المنارة،غزة،١٩٩٧م،ص ١١.

(٣) أ. أ. مندولا، الزمن والرواية، ترجمة: بكر عباس، ط١، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٣٩. بتصرف.

(٤) سيزا قاسم، بناء الرواية، د.ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٢٧.

(٥) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص ٣٣.

تكمنُ أهميةُ المكانِ في كونِهِ عنصرًا منَ العناصرِ التكوينيةِ للروايةِ، ويعدُّ فضاءَ النصِّ الذي لا يمكنُ بحالٍ منَ الأحوالِ أنْ تحيا الشخوصُ بعيدًا عنهُ، وهوَ الوسطُ الذي تعيشُ فيهِ الشخوصُ. "وتقعُ فيهِ الأحداثُ معَ احتمالِ إدخالِ أوصافٍ أخرى في كلِّ مرةٍ يتغيرُ فيها هذا المكانُ، وهوَ مرتبطٌ ومندمجٌ بالشخصياتِ، كارتباطِهِ واندماجِهِ بالحدثِ أو بجريانِ الزمنِ"[1].

والزمنُ والمكانُ في الفنِّ الروائيِّ يمكنُ أنْ ينفتحا على أزمنةٍ سحيقةٍ، وأماكنَ متعددةٍ، وقدْ يمتدُّ الزمنُ إلى سنواتٍ وعصورٍ، وأحيانًا قد تصلُ الروايةُ المُوَسَّعة إلى قرنٍ منَ الزمنِ.

فضَّلَ الباحثُ تناولَ الزمنِ والمكانِ في جانبِ البناءِ الفنيِّ منَ البحثِ؛ لما تتمتعُ بهِ الروايتانِ من الجانبِ الجماليِّ والفنيِّ للزمنِ وتجلياتِ حضورِهِ وطريقةِ توظيفِهِ، والمكانُ بأنواعِهِ المختلفةِ، وبوصفِهِ وتجلياتِهِ.

وكذلكَ لما تميزتْ بهِ روايةُ "المُباهلة" من تناولِها لمحطاتٍ زمنيةٍ حقيقةٍ فارقةٍ في التاريخِ العالميِّ والعربيِّ والمحليِّ الفلسطينيِّ، وكذلكَ تحركَ فيها الكاتبُ خلوصي عويضة في أكثرَ منْ مكانٍ، حتى طافَ عددًا من البلدانِ على صعيدِ المكانِ الحقيقيِّ، أما في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" فقد تحركَ فيها الكاتبُ في فضاءاتٍ عديدةٍ، ونقلَ تجربَتَهُ الشخصيةَ في السفرِ والترحالِ بينَ عددٍ منَ الدولِ، لا سيما دولَ المغربِ العربيِّ.

لكنْ ما يلفتُ الانتباهَ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" هو غيابُ الزمنِ التاريخيِّ للروايةِ، فقدْ جعلَ الكاتبُ حضورَهُ قليلًا وبسيطًا، وذلكَ إشارةً منه لخطرِ الماسونيةِ الدائمِ الذي لا يرتبطُ بزمنٍ محددٍ، أو فترةٍ زمنيةٍ معينةٍ، فهوَ مستمرٌ حتى يومِنا هذا.[2]

في هذا الفصلِ سيتناولُ الباحثُ الزمنَ والمكانَ وتجلياتِهما في روايتي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، وكيفيةَ توظيفِ الكاتبِ لتقنياتِ الزمنِ المختلفةِ، كالاسترجاعِ والاستباقِ، أو تقنياتِ تسريعِ الزمنِ كالحذفِ والتلخيصِ، أو تبطيئِهِ كالوقفةِ والمشهدِ، وتجلياتِ الأماكنِ المغلقةِ والمفتوحةِ، ومدى نجاحِ الكاتبِ في بناءِ معمارِهِ الفنيِّ الروائيِّ.

---

(1) يُنظر: رولان بورونوف، وريال أوئيليه، عالم الرواية، مرجع سابق، ص٩٢-٩٨. بتصرف.

(2) مقابلة شخصية أجراها الباحث مع الكاتب، غزة، بتاريخ ٢٠٢٠/٧/٩م.

المبحثُ الأولُ- الزمنُ وعناصرُ السردُ الروائيُّ، والأيديولوجيا:

اهتمَّ الروائيونُ بالزمنِ وطبيعتِهِ وعلاقتِهِ بالروايةِ، وتطورتْ وتعددتْ مفاهيمُهُ وأقسامُهُ عندِ النقادِ والفلاسفةِ والباحثينَ، فالمفهومُ ليسَ محددًا كما يقولُ سعيد يقطين: "مقولةُ الزمنِ متعددةُ المجالاتِ، ويعطيها كلُّ مجالٍ دلالةً خاصةً، ويتناولُها بأدواتِهِ التي يصوغُها في حقلِهِ الفكريِّ والفطريِّ"[1].

ويُعرفُهُ عبد الحميد المحادين: "الزمنُ تقنيةٌ من أدقِ التِقنياتِ التي تؤثرُ مباشرةً، في البِنيةِ العامةِ للروايةِ، وهي التي تحكمُ الأزمنةَ المتغيرةَ في نطاقِ رؤيةِ الراوي العامةِ، وبهذا تتمكنُ الروايةُ منَ الاستجابةِ لهذهِ الرؤيةِ في نهايةِ الأمرِ"[2].

ويظهرُ الزمنُ بشكلٍ جليٍّ في روايتي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، وذلك لأهميتِهِ في بناءِ الأحداثِ، فالروائيُّ عندما يقررُ كتابةَ روايتَهُ فإنه يفكرُ في الزمنِ الذي ستتحركُ فيه الشخصياتُ، ومدى تفاعلِها معَ عناصرِ الروايةِ الأخرى، وهو موجودٌ في كلِّ جزئياتِ العمل الروائي -بشكل عام- من بدايتِه حتى نهايتِه.

يرى الباحثُ أنَّ مفهومَ الزمنِ مفهومٌ مجردٌ يؤثرُ في الإنسانِ، ويسيرُ معَهُ في كلِّ حالاتِهِ وتجارِبِهِ المختلفةِ، غيرَ محسوسٍ، لا يمكنُ لمسُهُ، ولكنْ يمكنُ بسهولةٍ معرفةُ آثارِهِ في حياتِنا، وتتبعُ هذهِ الآثارِ، كما أنه محورٌ جوهريٌّ في النصوصِ الروائيةِ، فهوَ ليسَ مجردَ إطارٍ يحيطُ بالعملِ الأدبيِّ؛ بل إنه فاعلٌ حقيقيٌّ في النصِّ؛ يؤثرُ في كلِّ عناصرِهِ الروائيةِ، ويستحيلُ الاستغناءُ عنه.

فيما يلي سيتناولُ الباحثُ تقنياتِ الزمنِ التي وظفَها الكاتبُ خلوصي عويضة في روايتي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، بعد توضيح علاقةِ الزمنِ بعناصرِ السردِ الروائيِّ، ثم علاقتُهِ بالأيديولوجيا، ثم تحديدُ المرجعِ الزمنيِّ الحقيقيِّ للروايتينِ، ثم الترتيبُ الزمنيُّ والمفارقاتُ الزمنيةُ، وأخيرًا تقنياتِ تسريعِ السردِ وتبطيئِهِ.

ترتبطُ عناصرُ السردِ الروائيِّ المختلفةِ بالزمنِ، وذلكَ لأنها تحتاجُ إلى زمنٍ يحركُها. "فالزمنُ يمسُّ جميعَ نواحي القصةِ، الموضوعَ والشكلَ والواسطةً، أيِ اللغةَ"[3].

([1]) سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص٦١.

([2]) عبد الحميد المحادين، التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف، دار الفارس، عمان، ط١، ١٩٩٩م، ص٦١.

([3]) أ. أ. مندولا، الزمن والرواية، مرجع سابق، ص ٣٩.

وعلاقةُ الزمنِ بالأحداثِ علاقةٌ مستمرةٌ من بدايةِ الروايةِ حتى نهايتِها، فلا يمكنُ أنْ يتشكلَ أيُّ حدثٍ في القصةِ بعيدًا عنِ الزمنِ. "القصةُ أكثرُ التصاقًا بفنِّ الزمنِ، وعلاقةُ القصةُ بالزمنِ علاقةٌ مزدوجةٌ، فالقصةُ تصاغُ داخلَ الزمنِ، والزمنُ يصاغُ داخلَ القصةِ"[1]. ولكلِّ حدثٍ حدودُهُ الزمنيةُ الخاصةُ بهِ، وتميزُهُ عن غيرِهِ منَ الأحداثِ. فالحدثُ من حيثُ هوَ؛ يجبُ أنْ يتسمَ بالزمنيةِ، والزمنُ من حيثُ هو؛ يجبُ أنْ يتصفَ بالتاريخيةِ في أيِّ شكلٍ من أشكالِها، فالزمنُ ضربٌ من التاريخِ، والتاريخُ هو أيضًا في حقيقتِهِ ضربٌ منَ الزمنِ. فهما متداخلانِ، بل هما شيءٌ واحدٌ[2].

وسردُ أحداثِ العملِ الروائيِّ له علاقةٌ بالزمنِ، فهناكَ سردٌ أفقيٌّ وهناكَ سردٌ رأسيٌّ أو عموديٌّ، والسردُ الأفقيُّ هو الذي يسردُ لنا الأحداثَ معتمدًا على الاسترجاعِ والاستباقِ، عندما يسردُ لنا الكاتبُ أحداثًا معينةً يتوقفُ عندَ نقطةٍ بعينِها، ويعودُ لذكرِ أحداثٍ قد مضتْ أو قد غفِلَ عنها أو ثغرةٍ معينةٍ من الأحداثِ يحاولُ أن يسترجعَها ثم يستمرُ في سردِ الأحداثِ، إذن فالسردُ الأفقيُّ له علاقةٌ بتقنيتِي الاسترجاعِ والاستباقِ، أما السردُ العموديُّ له علاقةٌ بوتيرةِ الأحداثِ وسرعتِها، إن كانَ بطيئًا أو إنْ كانَ سريعًا، وليسَ المقصودُ به الاسترجاعَ أو الاستباقَ، إنما المقصودُ به سرعةُ إيقاعِ الحدثِ كالتخليصِ أو الحذفِ أو بطءِ إيقاعِهِ كالمشهدِ والوقفةِ؛ لذلكَ نجدُ الزمنَ مقترنًا بالحدثِ، وقد يقعُ الحدثُ في الماضي ويتوقفُ، وقد يكونُ في الحاضرِ ويستمرُ، وقد تقدمُهُ الروايةُ على توقعِ حدوثِهِ في المستقبلِ.

ويرتبطُ الزمنُ بالشخصياتِ، وتظهرُ آثارُهُ على ملامحِ الشخصياتِ وطبائعِها واضحة. فالزمنُ هو صانعُ تطوراتِ وتغيراتِ الشخصيةِ البشريةِ، سواءٌ تعلقَ الأمرُ بالجانبِ الفيزيائيِّ، الذي يمثِّلُهُ الجسمُ الإنسانيُّ جراءَ ما يناسبُهُ من صورٍ متعددةٍ على امتدادِ المدةِ الزمنيةِ التي يعيشُها من ولادتِهِ إلى شيخوختِهِ[3]. ويتمثلُ الزمنُ في العملِ الروائيِّ بوعيِ الشخصياتِ بهِ، وبحركةِ الأحداثِ.

ولا غنى للزمنِ عنِ المكانِ، ففيهِ يتشكلُ ويتكونُ، ولا معنى للمكانِ في حدِّ ذاتِهِ، ما لمْ يرتبطُ بالزمنِ الذي ينهضُ بمهامٍ دلاليةٍ ووظيفيةٍ تشدُّ أجزاءَ العملِ الفنيِّ، وتمنحُها شكلَها الخاصَّ، وصورتَها الحيةَ، وتزيدُ من الإيهامِ بالواقعِ أو الإقناعِ بهِ، فالمكانُ يمتدُّ في الزمنِ، والمكانُ يكتملُ دورُهُ في الزمنِ، والعناصرِ الفنيةِ الأخرى المتأثرةِ بالعنصرينِ، يستحيلُ عليها التأثيرُ أو الحضورُ إلا في الحركةِ والدورانِ في فلكِهما.

---

(1) ولاء فخري قدوري الدليمي، البنية السردية في (نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة) للتنوخي (ت٣٨٤ هـ)، رسالة دكتوراة، جامعة ديالي، كلية التربية للعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، ٢٠١٤م، ص٧٦.

(2) يُنظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، مرجع سابق، ص٢٠٩-٢١٠.

(3) يُنظر: أحمد طالب، مفهوم الزمان ودلالته في الفلسفة والأدب "بين النظرية والتطبيق"، دار الغرب، ٢٠٠٤م، ص٢٩.

وهما لا ينفصلانِ عن بعضِهما بعضًا. وربما كانتْ علاقةُ الزمنِ بالمكانِ أكثرَ العلاقاتِ أهميةً في تحليلِ الخطابِ السرديِّ، ذلكَ: "أنَّ الزمنَ يعدُّ من أبعادِ المكانِ، ولا معنى له إلا بانخراطِهِ في الظاهرةِ المكانيةِ"(١)، إذنْ فالعلاقةُ بينَهُما جدليةٌ.

يتداخلُ في روايتي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ" الزمنُ الروائيُّ بنوعيْهِ: الموضوعيِّ الخارجيِّ، والذاتيِّ الداخليِّ، والطبيعيِّ والنفسيِّ في النسيجِ الروائيِّ، وينكسرُ مسارُ زمنِ القصِّ اللغويِّ في روايةِ "المُباهلة"، ويتوزعُ على أزمنةٍ عديدةٍ متداخلةٍ. يختفي فيها الترتيبُ الزمنيُّ المباشرُ؛ فتتحولُ منَ المستوى التقليديِّ المألوفِ التصاعديِّ الذي تتوالى فيه الأحداثُ وتتعاقبُ، دونَ انحرافاتٍ زمنيةٍ بارزةٍ في شكلٍ أفقيٍّ إلى المستوى التركيبيِّ الجدليِّ المعقدِ الذي تتداخلُ فيه أبعادُ الزمنِ المختلفةِ، وتتشابكُ، فيبدو الماضي حاضرًا معيشًا، والحاضرُ مستقبلًا، والمستقبلُ بدايةً جديدةً تتكئُ عناصرُها على مفرداتِ الماضي والحاضر في البناءِ والتشكيلِ(٢).

إذنْ فالزمنُ يعدُّ بمثابةِ الخيطِ الذي يربطُ الأحداثَ والمواقفَ بعضَها ببعضٍ، ويتحركُ معَ الأماكنِ المختلفةِ، فالزمنُ: "يشكلُ لحمةَ الحدثِ، وملحَ الحدثِ، وصنوَ الحيزِ، وقوامَ الشخصيةِ"(٣).

علاقةُ الزمنِ بالأيديولوجيا:

تتحكمُ الأيديولوجيا في السردِ تحكمَ المؤلفِ في الشخصياتِ، من حيثُ بناءِ الأحداثِ وتقديمِ الشخصياتِ، وهو ما يعني أنَّ هناك علاقةً وثيقةً بينَ الأيديولوجيا والزمنِ، وانطلاقًا من كونِ الأيديولوجيا موقفَ المؤلفِ فهيَ تهتمُ بانتقاءِ الزمنِ السرديِّ المناسبِ لحركةِ الشخصياتِ لغايةٍ رسمتْها أيديولوجيةُ المؤلفِ، والزمنُ ما هو إلا تجلياتُ تلكَ الأفكارِ الأيديولوجيةِ التي يتبناها الكاتبُ التي ترسمُ نسقَ الخطاب السردي وتوجهُهُ.

تؤدي تقنياتُ الزمنِ المختلفةِ دورًا بارزًا في تشكيلِ الرؤي والأفكارِ الأيديولوجيةِ، وتمنحُ الخطابَ الروائيَّ أبعادًا فنيةً تتجاوزُ الأزمنةَ الحقيقيةَ إلى التخيليةِ، والموضوعيةِ الخارجيةِ إلى الداخليةِ النفسيةِ الذاتيةِ.

ويعكسُ عدمُ تتابعِ الزمنِ الروائيِّ أو انتظامِهِ، واختلاطُ وقائعِهِ، وتغيرُ أبنيتِهِ، وتطورُ دلالاتهِ،

---

(١) فرحان اليحيى، تجليات المكان في أقاصيص جولانية "دراسة نقدية بنيوية"، الموقف الأدبي، ع٣٨٢، ٢٠٠٣م، ص١٥٠.

(٢) سمية الشوابكة، الرؤية السياسية والتشكيل الفني في رواية السجن السياسي "الأسوار نموذجًا"، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد:١، مج: ٣٩، جامعة الأردن، عمّان، ٢٠١٢م، ص٤٥. بتصرف.

(٣) عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، مرجع سابق، ص٢٠٧.

حجمَ الصراعِ والتوترِ القائمِ في الرؤى الأيديولوجيةِ التي ينقلُها الكاتبُ من خلالِ شخصياتِهِ، ويحاولُ التعبيرَ عنها في قالبٍ فنيٍّ يمزجُ بينَ الخيالِ والواقعِ.

وتتحكمُ الأيديولوجيا في تنظيمِ التقنياتِ السرديةِ الزمنيةِ بحذفِ هذا المشهدِ أو التفصيلِ في آخرَ، أو تلخيصِ ثالثٍ، أو الوقوفِ متأملًا واصفًا في محطاتٍ ومواقفَ أخرى، وبذلكَ تظهرُ سلطةُ الكاتبِ وأيديولوجيتُهُ، فـ: "الروايةُ بوصفِها تاريخَ بحثٍ عن قيمٍ أصيلةٍ، هي بالضرورةِ وفي آنٍ واحدٍ سيرةٌ وتاريخٌ اجتماعيٌّ"[1]، تعبرُ عنِ المجتمعِ الذي نشأتْ فيهِ، وبذلكَ يحملُ الكاتبُ قيمَ مجتمعِهِ الذي يعيشُ فيهِ، وتعكسُ الروايةُ بشكلٍ حتميٍّ أفكارَهُ التي تبرزُ في الكتابةِ الروائيةِ.

إنَّ تناولَ الكاتبِ خلوصي عويضة لقضايا قوميةٍ أو عربيةٍ أو عالميةٍ يجعلُهُ يستخدمُ أزمنةً مختلفةً ومتعددةً ومتشابكةً ارتبطت أحداثُ روايتيْهِ بها؛ مما يعطي إحساسًا لدى الملتقي بتكاملِ العملِ الفنيِّ وواقعيتِهِ، حيثُ انتقى الكاتبُ أزمنتَهُ انتقاءً دقيقًا؛ لكيْ تتناسبَ معَ الوقائعِ الحقيقةِ ودمجِها بالوقائعِ الخياليةِ التي أضافَها لخدمةِ معمارِهِ الفنيِّ وحبكتِهِ الروائيةِ.

إنَّ العلاقةَ بينَ الأيديولوجيا والزمنِ تفتحُ المجالَ واسعًا لبحثِ أثرِ الأيديولوجيا في تكوينِ الزمنِ السرديِّ أو العكسَ، فمنْ خلالِ حركاتِ تسريعِ السردِ أو تعطيلِهِ –الحذفِ والتخليصِ والمشهدِ والوقفةِ– تتجلى الأيديولوجيا، ويظهرُ أثرُها لتحكمِ المؤلفِ في سرعةِ هذه الحركاتِ الأربعةِ. "فمقارنةُ مدةِ حكايةٍ ما بمدةِ القصةِ التي ترويها هذهِ الحكايةُ عمليةٌ أكثرُ صعوبةٍ، وذلكَ لمجردِ ألا أحدَ يستطيعُ قياسَ مدةِ حكايةٍ من الحكاياتِ"[2]. وهذهِ الصعوبةُ في الحقيقةِ هيَ المساحةُ التي بإمكانِ المؤلفِ التصرفَ فيها منْ منطلقِ أيديولوجيتِهِ وَفْقَ الرغباتِ السرديةِ التي يهدفُ إليها.

فلا مناصَ للمؤلفِ الذي ينوب عنهُ راويهِ من توظيفِ الأيديولوجيا في الزمنِ السرديِّ، وإنْ أخفى ذلكَ عنِ المتلقي، فإنَّ المتتبعَ للمقاطعِ السرديةِ سيكتشفُ مصيرَ الأبطالِ وعلاقةَ ذلكَ بالسردِ وإيقاعِ الزمنِ الذي يتحكمُ بخطِّ السردِ، فالراويُ يحذفُ هذا المشهدَ ويتركُ آخرَ، ويصفُ علاقةَ ما بينَ شخصينِ، ويلخصُ أخرى، وهي الحركاتُ السرديةُ أو المدةُ التي يستغرقُها الراوي في السردِ.

مما سبقَ تتأكدُ العلاقةُ بينَ الأيديولوجيا التي تصنعُ الزمنَ السرديَّ وتتحكمُ فيهِ، والزمنُ الذي يستجيبُ لسلطةِ الأيديولوجيا، ويتحركُ وَفقَ نظامِها، فنتاجُ الزمنِ السرديِّ يكونُ انطلاقًا من مبدأِ الرؤيةِ إلى العالمِ الذي ينطلقُ منه المؤلفُ، فالعلاقاتُ الزمنيةُ السرديةُ الكثيرةُ تتحكمُ في نسيجِها

---

(1) لوسيان غولدمان، مقدمات في سوسيولوجية الرواية، ترجمة بدر الدين عردوكي، ط١، دار الحوار، دمشق، ١٩٩٣م، ص١٨.

(2) جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي، ط٣، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠٣م، ص١٠١.

الأيديولوجيا، فمنذُ بدايةِ الراوي لعمليةِ الحكي تبدأُ العلاقاتُ الزمنيةِ في تشكيلِ الخطابِ السرديِّ تبعًا لخطٍ أيديولوجيٍّ معينٍ.

وفي روايتي الكاتبِ خلوصي عويضة، لا تفارقُ الحمولةُ الأيديولوجيةُ خطَّ السردِ من البدايةِ حتى النهايةِ، فروايةُ "المُباهلةُ" تعدُّ مظهرًا منْ مظاهرِ الصراعِ الأيديولوجي؛ وذلكَ لتناولِها مجموعةً من القضايا الفكريةِ والصراعاتِ بينَ الشرائعِ والقومياتِ المتعددةِ، أما في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" فقد تناولَ فيها الكاتبُ الخطرَ الأيديولوجيَّ للماسونيةَ من خلالِ الصراعِ بينَ الشخصياتِ، وهذا ما تناولَهُ الباحثُ في الفصلينِ الأولِ والثاني منَ البحثِ.

المبحثُ الثاني- المرجعُ الزمنيُّ التاريخيُّ لروايتي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ":

يؤدي الزمنُ التاريخيُّ دورًا مهمًا في بناءِ الروايةِ، فهوَ يعكسُ بعضَ الأحداثِ الواقعيةِ التي حدثتْ على أرضِ الواقعِ، مثلَ الحديثِ عن مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ، وأحداثِ الحادي عشرَ من سبتمبر عامَ ألفينِ وواحدٍ، والحربُ على العراقِ عامَ ألفينِ وثلاثةٍ، والانتفاضةِ الفلسطينيةِ الأولى، والثانيةِ، وغيرِها منَ الأحداثِ والمحطاتِ التاريخيةِ الفارقةِ على المستوياتِ المحليةِ أو العالميةِ.

ومنَ الممكنِ أنْ: "يتجسدَ الزمنُ التاريخيُّ في النصِّ الروائيِّ في صورٍ مختلفةٍ منها استخدامُ الوقائعُ التاريخيةُ التي تقعُ في المدةِ الزمنيةِ التي اختارَها المؤلفُ إطارًا لروايتِهِ"[١]. والأحداثُ التاريخيةُ هيَ أحداثٌ يفتعلُها الإنسانُ، ثم تُسجَّلُ بعدَ ذلكَ ضمنَ وثائقَ تاريخيةٍ، تبقى محفوظةً في التاريخِ للأبدِ. كما يمكنُ تمييزُ الأحداثُ التاريخيةُ عنِ الأحداثِ الطبيعيةِ الأخرى، كونُها نتاجَ أفعالِ الفاعلينَ الإنسانيينَ الذينَ يريدونَ[٢].

فالزمنُ التاريخيُّ هو ما ينتجُ من مستحدثاتِ الحياةِ، والأحداثُ الواقعيةُ التي تُنسبُ إلى التاريخِ، لتصبحَ -فيما بعدُ- ذاتَ دلالاتٍ رمزيةٍ قدْ تستمرُ إلى ما لا نهايةَ، ويصفُهُ سعيد يقطين بـ: "زمنُ الأحداثِ الذي يغطي حياتِنا كمتتاليةٍ منَ الأحداثِ"[٣]، ويتميزُ بأنه: "ذو بدايةٍ ووسطٍ ونهايةٍ، فهوّ الزمنُ الذي يرتبطُ بالسيرةِ الذاتيةِ والموضوعيةِ لحياةِ الأبطالِ"[٤].

ويظهرُ الزمنُ التاريخيُّ بوضوحٍ في روايتي "المباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، حيثُ ركَّزَ الكاتبُ خلوصي عويضة على أزمنةٍ ومحطاتٍ تاريخيةٍ خاصةً بالشعبِ الفلسطينيِّ، ومحطاتٍ

---

(١) سيزا قاسم، بناء الرواية، مرجع سابق، ص٧٢.

(٢) يُنظر: بول ريكو، الوجود والزمان والسرد، ترجمة سعيد الغانمي، ط١،المركز الثقافي العربي،١٩٩٩م، ص٢٠١.

(٣) ينظر: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٧م، ص٦٤.

(٤) آمنة يوسف، نظريات السرد بين النظرية والتطبيق، مطبعة دار الحوار، سوريا، ط١، ١٩٩٧م، ص٩٨.

عربيةٍ وعالميةٍ في روايةِ "المباهلة"، أما في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، فكانَ حضورُ الزمنِ الحقيقيِّ فيها نادرًا جدًّا، وذلكَ لأهدافٍ تتعلقُ بموضوعِ الروايةِ ومضمونِها، سنأتي على ذكرِ ذلكَ في بابِهِ، وهذا ما سيتطرقُ إليهِ الباحثُ في كلتا الروايتينِ بشكلٍ مستقلٍ.

١-روايةُ "المُباهلة":

يظهرُ الزمنُ التاريخيُّ بوضوحٍ في روايةِ "المُباهلة"، حيثُ ركزَ الكاتبُ على أزمنةٍ متعددةٍ، مثلَ ذكرِهِ لزمنِ النكبةِ وما تبعَهُ من رحيلٍ عنِ البلادِ، كما يقولُ على لسانِ (أسعد): "وتستدعى الذاكرةُ الجماعيةُ للبلادِ منْ بقوا على قيدِ الحياةِ من أبنائِها، متى وكيفَ رحلَ الأجدادُ؟ الآباءُ في الحقولِ يحرثونَ الأرضَ، وأعيادُ مواسمِ الحصادِ"[١].

أو عودةُ البطلِ (أسعد) لاسترجاعِ ذكرياتِ النكبةِ، كما يقولُ: "ساعةً بلْ ساعاتٍ يدورُ شريطُ ذكرى البلادِ التي ضاعتْ أو ضُيّعتْ في خلسةٍ منَ الزمنِ وغفلةٍ من أهلِها، منْ ذُبح، قُتل، جُرح، أُسر، هُجّر، شُرّد، من ماتَ، من تزوجتْ، وتطلقتْ، وترّملتْ.. ومنْ ومنْ"[٢].

ثم يأتي على ذكرِ الاعتداءِ الأمريكيِّ على العراقِ، وقصفِ ملجأِ العامريةِ في العامِ ١٩٩١م، حيثُ يقولُ على لسانِ الراوي: "فهلْ كانتْ محضَ صدفةٍ أنْ تنطلقَ أولُ وجبةٍ من صواريخَ كروز زمنَ الحربِ على العراقِ أولَ أيامِ عيدِ المساخرِ عندَ اليهودِ؟!"[٣].

وتكونُ مجزرةُ الحرمِ الإبراهيميِّ سنة ١٩٩٤م محطةً تاريخيةً مهمةً في روايةِ "المُباهلة"، حيثُ تشكلُ بؤرةَ الانطلاقِ لبطلِ الروايةِ، وبسببِها تتشكلُ رؤيتُهُ وأفكارُهُ للصراعِ معَ العدوِّ الصهيونيِّ، يقولُ (أسعد) واصفًا زمنَ المجزرةِ: "لحظةَ استواءِ المصلينَ قيامًا منَ الركوعِ وتكبيرِ الإمامِ للسجودِ، في تلكَ الثانيةِ والكلُّ يتهيأُ ليهويَ ساجدًا، وركبتايَ ترتعشانِ تحتَ النارِ من فوهاتِ البنادقِ الرشاشةِ، كانَ الرصاصُ هستيريًّا، زأرَ أزيزُهُ، وعلا دويُّهُ المرعبُ ممتزجًا بصرخاتِ سبابِ القتلةِ وبصرخاتِ الاستغاثةِ والأنينِ منَ المصلينَ المغدورينَ"[٤].

وتظهرُ فترةُ الانفراجِ السياسيِّ معَ نشأةِ السلطةِ الفلسطينيةِ بعدَ اتفاقِ أوسلو سنةَ ١٩٩٤م، ويأتي الكاتبُ على ذكرِ ذلكَ على لسانِ (أسعد)، يقولُ: "بعدَ شهورٍ على المجزرةِ فوجئْنا بخروجِ

---

(١) خلوصي عويضة، "المُباهلة"، مصدر سابق، ص١٨.

(٢) المصدر السابق، ص٩٧.

(٣) المصدر السابق، ص٢٧.

(٤) المصدر السابق، ص٣٧.

عمي (محمود) منَ المعتقلِ، ونشوءِ السلطةِ الوطنيةِ، وحضرَ أبي، وأطلَّتْ علينا مرحلةٌ جديدةٌ"[١].

هذهِ الأجواءُ السياسيةُ تدفعُ الاحتلالَ لإطلاقِ سراحِ عددٍ منَ الأسرى الفلسطينيينَ في سجونِها، كانَ من بينَهُمْ (محمود) عمُّ (أسعد)، يقولُ (أسعد) واصفًا تلكَ الحقبةِ: "عمي (محمود) الذي خرجَ من السجنِ قبلَ مجيءِ أبي بأسبوعٍ، فبعثَ في روحِ الدارِ أملًا في الحياةِ، فقدْ كانَ لا يزالُ في مدةِ حكمِهِ نصفُها تقريبًا، لربما أجواءُ الانفراجِ السياسيِّ التي لاحتْ في الأفقِ وقتَها أدتْ لإطلاقِهِ"[٢].

ويتطرقُ الكاتبُ لذكرِ اتفاقيات أوسلو ووادي عربة وكامب ديفيد التي وقعتْها الدولُ العربيةُ معَ الكيانِ الصهيونيِّ، يقولُ على لسانِ (هادي): "كلُّ مؤشراتِ العقلِ تحثُّني على التطلعِ للأمامِ، وها هيَ اتفاقيةُ السلامِ التي وقعتْها منظمةُ التحريرِ تقولِ بالفمِ الملآنِ: نعمْ للسلامِ، والأردنُ مؤمنٌ بالتعايشِ جنبًا إلى جنبٍ؛ لهذا احتفلَ العالمُ، وصفقَ، وهللَ بوادي عربةَ لأنصارِ السلامِ، وكانَ للشقيقةِ الكبرى فوزٌ وشرفٌ في السبقِ بعقدينِ منَ الزمنِ"[٣].

يأتي على ذكرِ مجزرةِ قانا التي اقترفَها الصهاينةُ سنة ١٩٩٦م، يقولُ (هادي): "فتأتي مجزرةُ قانا، هذه المرةُ السفاحُ طيارٌ، ومولاهُ تحتَ قبةِ البرلمانِ، لتعيدَ ذكرى ما قبلِها من مجازرَ"[٤].

لمْ يُغفِلِ الكاتبُ ذكرَ فترةِ الحصارِ الدوليِّ على العراقِ بقيادةِ الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ وبريطانيا، حيثُ يقولُ (أسعد): "حصلْنا على التأشيرةِ منَ السفارةِ، وانطلقتْ بنا الحافلةُ تقطعُ الصحراءُ الأردنيةُ العراقيةُ، فلا طيرانَ إلى بغدادَ المحاصرةِ، يريدونَها أنْ تلفظَ أنفاسَها؛ فتموتَ قهرًا وجوعًا ومرضًا ووباءً"[٥].

هذا الحصارُ يستمرُ حتى تحقيقِ هدفِهِ بسقوطِ النظامِ العراقيِّ، حسبَ ما تقولُ (إيزابيل) ضابطةُ المخابراتِ الأمريكيةِ في حوارِها معَ (أنور): "لنْ يطولَ الوقتُ حتى يزولَ الطاغيةُ (صدام) ويستقرَ العراقُ"[٦].

ويكونُ للانتفاضةِ الفلسطينيةِ الثانيةِ حضورُها البارزُ في أحداثِ الروايةِ، يقولُ (هادي): "عندما وقعَ اقتحامُ المسجدِ الأقصى قبلَ أيامٍ منْ زعيمِ المعارضةِ (أرئيل شارون) الذي يلقبُهُ العربُ

---

(١) خلوصي عويضة، "المُباهلة"، مصدر سابق، ص٤٦.

(٢) المصدر السابق، ص٦٣.

(٣) المصدر السابق، ص٧٢.

(٤) المصدر السابق، الصفحة السابقة.

(٥) المصدر السابق، ص٩٨.

(٦) المصدر السابق، ص١١٤.

بالبلدوزرِ لتاريخِهِ الحافلِ بالإجرامِ العنصريِّ، بينما يلقبُهُ قطاعٌ كبيرٌ منَ اليهودِ ملكَ إسرائيلَ، وكانَ يومَها بحراسةِ مئاتٍ وربما آلافٍ منَ الجنودِ المدججينَ بالسلاحِ، ومعَهُ مثلُهُمْ من مؤيديهِ وأنصارِهِ العلمانيينَ والمتدينينَ"[١].

ويضيفُ (هادي): "لمْ تكدْ تمضي أيامٌ على تلكَ الحوادثِ الجسامِ التي أذنتْ بانطلاقِ انتفاضةٍ ثانيةٍ شاركَ في مراحلِها الأولى أهلي في الأرضِ المحتلةِ عام 48"[٢].

ومعَ التسلسلِ التاريخيِّ والسيرِ الأفقيِّ للأحداثِ التاريخيةِ يتطرقُ الكاتبُ إلى الحديثِ عنِ الهجومِ الكبيرِ على الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ في سبتمبر ٢٠٠١م، تقولُ (إيزابيل): "طائراتٌ مدنيةٌ تحملُ ركابًا مدنيّينَ تضربُ مركز التجارةِ العالميِّ في نيويورك وتدمّرُهُ ، الطائراتُ تشتعلُ بركابِها يموتُ كلُّ منْ فيها، جبالُ الأدخنةِ تناطحُ السحابَ تلتحمُ بالغيومِ، النهارُ يفقدُ ضوءَهُ، والعتمةُ في القلوبِ والعقولِ كما في الغلافِ الجويِّ، أخبارٌ عاجلةٌ متلاحقةٌ، وسريعةٌ (Breaking news , terrorist attack) طائراتٌ تحلقُ فوقَ مقرِّ وَزارةِ الدفاعِ مبني البنتاغون في واشنطن D.C ، أمريكا تتعرضُ لهجومٍ إرهابيٍّ واسعٍ، كاسحٍ، مدمّرٍ، مباغتٍ، البيتُ الأبيضُ مهددٌ بالتدميرِ، والرئيسُ ونائبُهُ في ملاجئَ سريةٍ، ووزارةُ الخارجيةُ قد تتعرضُ لهجومٍ إرهابيٍّ مماثلٍ"[٣].

كذلكَ لمْ يغفلِ الكاتبُ الإشارةَ إلى احتلالِ العراقِ ربيعَ سنة ٢٠٠٣م، يقولُ على لسانِ (أسعد): "إنهُ ربيعُ بغدادَ الرابعُ منذُ الألفيةِ الجديدةِ، ربيعٌ يُمطرُ شهبًا من نارٍ، كأنما السماءُ تحترقُ، وصواريخُ كروز تطيرُ ناعقةً في طريقِها لضربِ الهدفِ، هكذا على امتدادِ أيامِ الحربِ زفرتْ جهنمُ بعضًا منْ أحشاءِ جحيمِها بأنفاسٍ لاهبةٍ تحرقُ العراقَ منْ كلِّ الجهاتِ والجبهاتِ، أشلاءٌ تتمزقُ محترقةٌ تتطايرُ في الهواءِ المسمَّمِ برائحةِ القتلِ، تلوحُ مودعةً أرواحًا سكنتْها، فملأتْها بأحلامِ الحياةِ، فإذا الموتُ القادمُ برًّا وبحرًا وجوًّا منْ وراءِ المحيطِ، والمحيطُ يغتالُ الأحلامَ، يحرقُها بنارِ حقدٍ تأججتْ في القلوبِ، وأرهقَ كاهلَها إرثُها منَ البغضاءِ"[٤].

وكانَ للعدوانِ الصهيونيِّ الكبيرِ على قطاعِ غزةَ أواخرَ سنةِ ٢٠٠٨م حضورَهُ الذي شكلَ ملامحَ النهايةِ لأبطالِ الروايةِ، يقولُ (هادي): "كرّتْ مسّبحةُ الأيامِ، حتى وقعتِ الجريمةُ التي لاسمِها خلفيةٌ دينيةٌ وأدبيةٌ عندَ اليهودِ، فالعملياتُ الحربيةُ الكبرى وحدَهُمْ كبارُ الحاخاماتِ ينتقونَ لها منَ التلمودِ والتوراةِ أسماءً تحملُ مدلولاتٍ ومضامينَ دينيةً، فاختاروا لعدوانِهِمْ عنوانُ

---

(١) خلوصي عويضة، "المُباهلة"، مصدر سابق، ص١٣٥.

(٢) المصدر السابق، ص١٣٧.

(٣) المصدر السابق، ص١٥٧.

(٤) المصدر السابق، ص١٦٢.

(الرصاصُ المصبوبُ على غزةَ الجنوبِ)، فصببتُ جامَ غضبى على عجزي وتشكّلتْ معَها بدايةُ ملامحِ النهايةِ"[١].

ولمْ يغفلِ الكاتبُ الحديثَ عن فترةِ الصراعِ الطائفيِّ في العراقِ بعدَ الانسحابِ الأمريكيِّ منه ، يقولُ (أسعد): "إلى أنْ أُعلنَ عنِ انسحابِ المحتلينَ الأمريكيينَ خزايا مدحورينَ، فشددْنا الكرّةَ عليهمْ، ليندحروا في أسوأ حالٍ، واستمرّ الكرُّ والفرُّ والقتلُ والجرحُ حتى فعلًا ولّوا مهزومينَ تاركينَ الحلفاءَ الأعوانَ يكملونَ المسيرةَ"[٢].

ختامًا تصلُ الروايةُ إلى محطةِ الربيعِ العربيِّ سنةَ ٢٠١١م، الذي يفاجئُ الجميعَ، ومنهم بطلُ الروايةِ (أسعد) الذي يقولُ: "ثمَّ وقعَ ما لمْ يكنْ في الحسبانِ أبدًا، فأنكرتُ أولًا ما ترى العينُ وتسمعُ الأُذُنُ، لكأنَّ النفسَ في خضمِّ الهولِ والخطوبِ توهّمتْ شيئًا منَ الفرحِ! ثمَّ صدقتُ ثانيًا، ثم عدتُ فسخرتُ ثالثًا، أطلَ زمانُ الربيعِ العربيِّ"[٣].

أما عنِ الزمنِ الطبيعيِّ في روايةِ "المُباهلة"، فجاءَ على لسانِ (أسعد)، حيثُ يقولُ: "كنتُ أنا أخلعُ معطفي الشتويَّ الثقيلَ"[٤]. وفي ذلكَ إشارةٌ إلى وقوعِ الأحداثِ في فصلِ الشتاءِ، ويقولُ في حوارِهِ معَ جدِّهِ: "سأصومُ شرطَ أنْ تأخذَني معَكَ لصلاةِ الفجرِ في الحرمِ، تمنّعَ جدّي بحجةِ البردِ والشتاءِ وعدوانِ المستوطنينَ منْ ذئابِ البشرِ"[٥].

٢- روايةُ "الأفعى تطوقُ الأرضَ":

جرتْ أحداثُ روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" في الفترةِ الممتدةِ من سنةِ ١٩٦٠م حتى ١٩٩٠م، وهيَ الفترةُ التي نشطتْ فيها الماسونيةُ في مصرَ ودولِ المغربِ العربيِّ على وجهِ الخصوصِ.

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ الكاتبَ خلوصي عويضة لمْ يُكثِّفْ منْ حضورِ الزمنِ الحقيقيِّ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، وهذا ما لفتَ انتباهَ الباحثِ، ودفعَهُ للبحثِ عنِ السببِ والدوافعِ وراءَ ذلكَ، فكانَ المسوغُ منَ الكاتبِ خلوصي عويضة بعدَ سؤالِهِ ومناقشتِهِ متمثلًا في أنَّ الخطرَ الماسونيَّ ما زالَ مستمرًا حتى هذهِ اللحظةِ، فهوَ كالأفعى يطوقُ الأرضَ، باثًّا سمومَهُ في كلِّ مكانٍ وزمانٍ[٦].

---

(١) خلوصي عويضة، "المُباهلة"، مصدر سابق، ص٢٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص٢٨٦.

(٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٤) المصدر السابق، ص٢١.

(٥) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٦) مقابلة شخصية أجراها الباحث مع الكاتب، غزة، بتاريخ ٢٠٢٠/٧/٩م.

أما عنِ الإشاراتِ الزمنيةِ الحقيقةِ فكانتْ على لسانِ بطلِ الروايةِ (نصيف)، حيثُ يقولُ: "احتفلنا معًا بأحدِ مطاعمِ فندقٍ باريسيٍّ بمولدِ العامِ ١٩٦٨م، وكنتُ حينَها في أواخرِ السابعةِ، قبلَ مغادرتي المفاجئةِ إلى مصرَ"(١).

وعندَ وصفِ الكاتبِ لحالةِ الرخاءِ والسعةِ التي يتمتعُ بها أعضاءُ الماسونيةِ، يشيرُ إلى الفترةِ الزمنيةِ التي تسيرُ فيها الأحداثُ بقولِ (نصيف): "انطلقتْ بنا سيارةُ فيات SL131 موديل سنتِها ١٩٧٩"(٢).

ويظهرُ التسلسلُ التاريخيُّ الأفقيُّ للأحداثِ في إشارةِ الكاتبِ إلى مرحلةِ اتفاقياتِ السلامِ بينَ الدولِ العربيةِ وإسرائيلَ سنة ١٩٧٩م، وتهيئةِ الأجواءِ لعمليةِ السلامِ، وتأثيرُ ذلكَ على أنشطةِ الماسونيةِ داخلَ الجامعاتِ، يقولُ (نصيف): "هكذا بدأتْ دائرةُ معارفي تتسعُ، وتوطدَتْ معَ المحترمِ (مفيد) خلالَ النصفِ الثاني منَ العامِ، أما قبلَ ذلكَ فلمْ يُطلبْ منّي سوى هضمِ الأجواءِ الجامعيةِ العامةِ، فلمّا تحقق (مكرم) من تمامِ الهضمِ استدعاني لأولِ لقاءِ عملٍ حضرَهُ (مفيد)، كانتِ الأجواءُ السياسيةُ ساخنةً بالرغمِ من برودةِ الطقسِ، دارَ النقاشُ حولَ ضرورةِ جذبِ اهتمامِ الطلبةِ بعيدًا عن الغبارِ السياسيِّ الذي ملأَ وزَكَمَ أجواءَ تلكَ السنةِ، فالمطلوبُ تحقيقُهُ هو المساهمةُ بتهيئةِ المُنَاخِ لِدفعِ العمليةِ السلميةِ معَ إسرائيلَ قُدمًا"(٣).

وكانَ لتوقيعِ اتفاقيةِ السلامِ بينَ مصرَ والاحتلالِ الصهيونيِّ الأثرُ الكبيرُ في دفعِ نشاطاتِ الماسونيةِ، ودعمِها وتعزيزِها، يقولُ (نصيف): "بعدَ توقيعِ اتفاقياتِ السلامِ بينَ مصرَ وإسرائيلَ أقامَ (كريم) بفيلا المعادي حفلَ استقبالٍ، ورأيتُ لأولِ مرةٍ وجوهًا من كلا الجنسينِ، تشى هيأتُهُمْ أنهم من كبارِ القومِ وسادةِ المجتمعِ، وفيما ارتدى كلاهما زيًّا مغربيًّا؛ فبدَوا كالسفراءِ، وسطِ مشاركةِ ممثلي عدةِ دولٍ كالمغربِ وإيطاليا وفرنسا وأمريكا وإسرائيلَ وطبعًا مصرَ"(٤).

وهذا يجلّي لنا حقيقةَ احتفاءِ الماسونيةِ بحرفِ الدولِ العربيةِ عن مسارِها، وعن دورِها الحاضنِ لمقاومةِ الاحتلالِ، وكسرِ العزلةِ عن –إسرائيلَ–، وجعلِ التطبيعِ معَها أمرًا طبيعيًّا، بل واجبًا، ويبرزُ لنا تغلغلُ الماسونيةِ في الأوساطِ السياسيةِ والدبلوماسيةِ.

يأتي الكاتبُ على ذكرِ المحطاتِ التاريخيةِ المهمةِ في تلكِ الفترةِ، فلمْ يَغفلْ عن ذكرِ العدوانِ

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوقُ الأرضَ، مصدر سابق، ص٢١.

(٢) المصدر السابق، ص٦٦.

(٣) المصدر السابق، ص٩٧.

(٤) المصدر السابق، ص١٧٤.

الصهيونيِّ على لبنانِ في السادسِ من حزيرانَ ١٩٨٢م، ويظهرُ ذلكَ على لسانِ البطلِ: "أثناءَ امتحاناتِ ذاكَ العامِ اجتاحَ أصدقاءُ (أميرة) في مملكةِ بني إسرائيلَ جنوبَ لبنانَ، وصولًا إلى العاصمةِ بيروتَ، ففرضَ ذلكَ الحدثُ الكبيرُ حضورَهُ بقوةٍ على مسرحِ الحياةِ؛ ليصبحَ حديثَ الصحافةِ والشارعِ والبيتِ وطبعًا الجامعةِ"[1].

يُلحَظُ من خلالِ تعبيرِهِ "أصدقاءُ (أميرة) في مملكةِ بني إسرائيلَ"؛ مدى ارتباط الصهيونيةِ والماسونيةِ بالبهائية، فـ(أميرة) المتبعةُ للبهائيةِ ومن خلالِ حواراتٍ سابقةٍ، أبانتْ عن دفاعِها عما تسميهِ شرعيةِ إقامةِ الكيانِ، وحبِّها لتلكَ الدولةِ التي تسميها بمملكةِ إسرائيلَ، تساوقًا معَ التسميةِ التاريخيةِ التي يتكئُ عليها الصهاينةُ في شرعنةِ وجودِهِمْ، وأحقيةِ إقامةِ كيانِهِمْ.

كانَ لمذبحةِ –صبرا وشاتيلا– في سبتمبر ١٩٨٢م حضورُها في صفحاتِ الروايةِ، يقول (نصيف): "ربّما وجدتُ بعض ضالتي في مقالات الرأي التي تنشرها الصحف المعارضة فتكوّن لديّ ما يشبه توازن التشويش في المعرفة، ولمّا كنتُ غير مهتمٍ بتصديع رأسي أكثر اكتفيتُ بذاك القدر إلى أن وقعتْ مذابح عين الحلوة وصبرا وشاتيلا مع بدء العام الدراسي الجديد"[2].

هنا يتضح لنا أنَّ (نصيف) الطفلَ كانَ منعزلًا منغلقًا على ذاته، فـ(كريم) حرِصَ على إبعادِهِ عنْ كلِّ المؤثراتِ السياسيةِ والاجتماعيةِ، لذلكَ لم يأتِ (نصيف) في سردِهِ على نكسةِ يونيو ١٩٦٧م، أو حربِ أكتوبر ١٩٧٣م، أو وفاةِ جمال عبد الناصر وأحداثِ أيلول سنةَ ١٩٧٠م، ولكنْ عندما كبرَ بدأَ بالتفاعلِ معَ الأحداثِ التي تفرضُ نفسَها بقوةٍ.

ختامًا يشيرُ الكاتبُ إلى تاريخِ تنفيذِ حكمِ الإعدامِ بحقِّ (نصيف)، على لسانِ الضابطِ الذي أشرفَ على تنفيذِ الحكمِ، فيقولُ: "فجرَ الرابعَ عشرَ من الشهرِ الرابعِ منَ العامِ ألفٍ وتسعمائةٍ وتسعينَ كنتُ ممّن أشرفوا على تنفيذِ حكمِ الإعدامِ بـ(نصيف)"[3].

---

(1) خلوصي عويضة، الأفعى تطوقُ الأرضَ، مصدر سابق، ص٢١١.

(2) المصدر السابق، ص٢١١.

(3) المصدر السابق، ص٣٩١.

المبحثُ الثالثُ– تقنياتُ المفارقاتِ الزمنيةِ:

تمثلُ المفارقاتُ الزمنيةُ ثنائيةً ضديةً، وتتمثلُ في تقنيتينِ تؤديان دورًا مهمًا في كسرِ الزمنِ والتلاعبِ بهِ، وذلكَ من خلالِ الرجوعِ بالذاكرةِ إلى الوراءِ، أيْ إلى الماضي واستدعائِهِ وهوَ ما نقصدُ بهِ تقنيةَ الاسترجاعِ. أو الولوجِ إلى المستقبلِ والتنبؤِ بهِ واستشرافِهِ، وهو ما نعني بهِ الاستباقِ، وكلُّ ذلكَ ينتجُ بسببِ التباينِ الذي يكونُ بينَ زمنِ الحكايةِ وزمنِ الخطابِ.

ويرى جيرار جينيت أنَّ المفارقاتِ الزمنيةَ: "تعني دراسةَ الترتيبِ الزمنيِّ لحكايةٍ ما، مقارنةً نظامَ ترتيبِ الأحداثِ أو المقاطعِ الزمنيةِ في الخطابِ السرديِّ، بنظامِ تتابعِ هذهِ الأحداثِ أوِ المقاطعِ الزمنيةِ نفسِها في القصةِ"[1]. أما لطيف زيتوني فيطلقُ على المفارقاتِ الزمنيةِ مفهومَ مخالفةِ الزمنِ، ويعرِّفُهُ: "غيابُ المطابقةِ بينَ ترتيبِ الأحداثِ في السردِ، وترتيبُها في الحكايةِ"[2].

يرى الباحثُ أنَّ المفارقاتِ الزمنيةَ في حقيقةِ أمرِها هي السفرُ عبرَ الزمنِ والتلاعبُ بهِ، من خلالِ استشرافِ حدثٍ ما نتيجةً لحدثٍ من الماضي، والعكسُ تمامًا من خلالِ العودةِ إلى الماضي البعيدِ، من نقطةٍ معينةٍ في المستقبلِ أو الحاضر.

أولا– الاسترجاعُ:

يعدُّ الاسترجاعُ من أكثرِ تقنياتِ السردِ استخدامًا في العملِ الروائيِّ، ويعتمدُ عليه الكاتبُ في استحضارِ أحداثٍ أو مواقفَ وقعتْ في الماضي، ويؤدي دورًا في إضاءةِ الزمنِ الحاضرِ، أو تفسيرِهِ، أو سدِّ الكثيرِ من الفجواتِ والثغراتِ الحكائيةِ التي وقعَ فيها الساردُ، وتعملُ على ربطِ الأحداثِ المتباعدةِ أو المتقاربةِ زمنيًّا، ويساعدُنا أيضًا في إضاءةِ الشخصياتِ، ومعرفةِ ما تفعلُهُ من سلوكياتٍ معينةٍ، سواء في السابقِ أمِ اللاحقِ.

ويُقصدُ بالاسترجاعِ: "ذكرٌ سابقٌ لحدثٍ لاحقٍ على النقطةِ الزمنيةِ التي بلغَها السردُ"[3]. وبذلكَ نرى أنَّ الاسترجاعَ هو بمثابةِ شريطٍ استذكاريٍّ يعيدُ الأحداثَ التي تخطرُ على بالِ الشخصيةِ في لحظةٍ ما؛ ليحققَ هدفًا ما، أو فكرةً معينةً داخلَ الروايةِ.

---

(1) جيرار جينيت، خطاب الحكاية، مرجع سابق، ص٤٧.

(2) لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٤٥.

(3) جيرار جينيت، خطاب الحكاية، مرجع سابق، ص٥٢.

اتفقَ النقادُ على وجودِ ثلاثةِ أنواعٍ للاسترجاعِ، هي[1]:

- استرجاعٌ خارجيٌّ: يعودُ إلى ما قبلَ بدايةِ الروايةِ.
- استرجاعٌ داخليٌّ: يعودُ إلى ماضٍ لاحقٍ لبدايةِ الروايةِ، قد تأخرَ تقديمُهُ في النصِّ.
- استرجاعٌ مزجيٌّ أو مختلطٌ: وهوَ ما يجمعُ بينَ النوعينِ.

اعتمدَ الكاتبُ خلوصي عويضة على الاسترجاعِ في سردِ الأحداثِ في روايتي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، وفيما يلي يستعرضُ الباحثُ أمثلةَ الاسترجاعِ في الروايتينِ.

في روايةِ "المُباهلة" يظهرُ الاسترجاعُ الخارجيُّ على لسانِ الساردِ بالعودةِ إلى زمنينِ، الأولِ يسبقُ زمنَ السردِ بأعوامٍ، والثاني يغوصُ في أعماقِ التاريخِ، مستذكرًا بناءَ أمريكا الحديثةِ على أنقاضِ شعوبِها الأصليينَ: "عودةً للأمسِ القريبِ تحديدًا للربعِ الأخيرِ من القرنِ العشرينَ، سيسافرُ القلمُ عبرَ المحيطِ الأطلنطيِّ إلى الضفةِ الشماليةِ للكرةِ الأرضيةِ إلى الجغرافيا المكتشفةِ حديثًا، وإلى التاريخِ الذي ما زالَ في مهدِهِ بالكادِ يحبو، إنْ صدَّقْنا زعمَ البرتغاليِّ كولومبوس؛ أنه منْ اكتشفَها، وقد كانتْ قبلَ أجدادِ كريستوفر معمورةً بسكانِها الأصليينَ من الهنودِ الحمرِ الذين تمّتْ إبادةُ أغلبِهِمْ، وتدجينُ أقلِّهِمْ لصالحِ المستوطنينَ الجددِ رعاةِ البقرِ أصحابِ البشرةِ البيضاءِ الباحثينَ عن ملجأٍ ومأوى"[2].

ويسترجعُ الدكتور (هادي) بعضَ الأحداثِ خارجَ زمنِ الراويةِ، التي كانَ لها الأثرُ في التحولِ الفكريِّ عندهُ، فكانَ لحادثةِ يومِ الأرضِ أثرٌ داخليٌّ في نفسِهِ، يقولُ: "منذُ الحادثةِ الأولى عامَ ١٩٧٦م، يومَ الأرضِ شعرتُ أنَّ مساحةً معينةً منَ الرغبةِ في التعايشِ الآمنِ زالتْ من قلبي وحلَّ مكانَها حافزٌ للسؤالِ والنبشِ، لكنَّ صغرَ السنِّ لمْ يساعدْ، واستطاعَ أبي أن يعيدَني للانشغالِ بأهميةِ التطلعِ للمستقبلِ الذي قد يجهضهُ التعلقُ بحبالِ الماضي"[3].

أما الاسترجاعُ الداخليُّ فيأتي على لسانِ (أسعد)، حيثُ يسترجعُ أحداثَ المجزرةِ المروعةِ التي قلبتْ حياتَهُ، وجعلتْ من قضيةِ الثأرِ منَ الأعداءِ هدفًا لها، يقولُ (أسعد): "اليومُ ككلِّ يومٍ أهربُ فيهِ للوارءِ، بحثًا عنْ مرفأِ النجاةِ، أسألُ نفسي: لماذا لمْ أتكلمْ ولمْ تتكلمْ؟ ترى أكانَ الصمتُ معَ الغرقِ في بحرِ الدموعِ أبلغُ من الكلامَ؟ أيختلفُ كثيرًا أو قليلًا عن غرقِ جدّي ومن معَهُ في بحرِ

---

(1) يُنظر: آمنة يوسف، نظريات السرد بين النظرية والتطبيق، مرجع سابق، ص٧١. ويُنظر: سيزا قاسم، بناء الرواية، مرجع سابق، ص٤٠.

(2) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٤.

(3) المصدر السابق، ص٥٠.

الدماءِ؟ لماذا خرسَ لساني من خوفِ قلبي، ولم أعاودْ سؤالَها عن أمّي، وما شأنُ أمّي بما وقعَ؟! أكنتُ أحسُّ شيئًا؟ يومَها فررتُ من هكذا... ماذا أسميهِ؟ هاجسًا، وسواسًا، خوفًا غيرَ مفهومٍ، حدسًا، يومَها عرفتْ روحي وتعلقتْ بما صحبَني في مسيرةِ أيامي، إنه الأملُ الكارثةُ"[1].

ويسترجعُ الدكتور (هادي) ذكرياتِهِ، وهو في مرحلةِ الدراسةِ الجامعيةِ، ثم التعرفُ إلى (أسعد) النمري، الذي أشرفَ على علاجِهِ في مستشفى سوروكا، يقولُ (هادي): "ما أنِ انتهيتُ من دارسةِ الطبِّ العامِّ حتى التحقتُ بدورةٍ للحصولِ على درجةِ الدبلومِ، في الدعمِ والصحةِ النفسيةِ لمصابي الحروبِ والحروقِ وحوادثِ الطرقِ، ونلتُ الشهادةَ بامتيازٍ أهَّلَني للقَبولِ للعملِ كمتدربٍ في مشفى سوروكا مطلع العامِ ١٩٩٤م، وهناكَ التقيتُ بـ(أسعد) النمري الطفلِ الذي اخترقتْ محبتُهُ حجبَ قلبي وأدمعتْ مأساتُهُ عيني، والأهمُّ الوعيُّ والإحساسُ بالمسؤوليةِ تجاهَ أهميةِ تعافيهِ من جروحٍ نفسهِ، وإلا فالعواقبُ وخيمةٌ"[2].

ويسترجعُ (أنور) ذكرياتِ زواجِهِ الثاني منْ أمِّ (أسعد) فيقولُ الراوي: "وبينَ الفينةِ والأخرى يستعيدُ مع نفسِهِ كيفَ أنَّ زواجَهُ الثاني جرى دونَ تمحيصٍ وتفكيرٍ، فالحاجةُ للزوجةِ كانتْ ملحةً، أرادَها أمًّا لطفلِهِ، ولذريةٍ جديدةٍ، وسرعانَ ما أدركَ أنه تعجلَ، فالطباعُ مختلفةٌ، والتناغمُ معدومٌ، فتعايش معَ النصيبِ كأمرٍ واقعٍ، مستسلمًا للمصيرِ المحزنِ حتى أبصرَ (أسعد) نورَ الحياةِ؛ فأحسَّ بشيءٍ من الرضى والارتياحِ، وزادَ اهتمامُهُ بعملِهِ، فهوَ ربُّ أسرةٍ حتى وقعَ التعارفُ معَ (جيمس فيليب)، فكانَ سببًا في وجودِهِ اليومَ هنا"[3].

أما في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" فيأتي الكاتبُ بالأحداثِ استرجاعًا منَ البدايةِ، أيْ أنها بدأتْ من نهايتِها، حينَما أصدرَ القاضي حكمًا بالإعدامِ على بطلِ الروايةِ (نصيف) الذي قتلَ خالَهُ (كريم)، ويظهرُ الاسترجاعُ في قولِ (نصيف): "نعمْ قتلتُهُ؛ صفعَني صفعتُهُ؛ صفعَني صفعتُهُ؛ صفعَني صفعتُه، تراجعَ، صفعتُهُ ترنحَ، صفعتُهُ سقطَ أرضًا، فأشبعتُهُ صفعًا مدويًّا، ثم خنقتُهُ عاصرًا أنفاسَهُ بمخالبي؛ هكذا قتلتُهُ، قتلتُ أبي! أقولُ لكمْ: قتلتُ أبي! أقولُ لكم: لا أريدُ دفاعًا، ولا تفهمًا، ولنْ أزيدَ حرفًا، فصمتي سيدومُ للأبدِ"[4].

---

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٤٠.

(2) المصدر السابق، ص٤٩.

(3) المصدر السابق، ص٥٨.

(4) خلوصي عويضة، الأفعى تطوقُ الأرضَ، مصدر سابق، ص٥.

كذلك وظفَ الكاتبُ الاسترجاعَ الخارجيَّ من خلالِ شخصيةِ القارئِ المتخيلِ (نجيب)، حيثُ يقولُ الساردُ: "ولعلي في لحظاتِ شطحاتِ الخيالِ لا أكتفي بكَ قارئًا من الداخلِ، بلْ أطمعُ لأنْ تعيشَ معي رحلةَ استدعاءِ غابرِ الأيامِ، رافقني بالخيالِ والإحساسِ، وأنا أستدعي الماضي"[١].

ويستعيدُ معَ (نجيب) مشاهدَ سابقةً خارجَ زمنِ الروايةِ، حيثُ يظهرُ الاسترجاعُ الخارجيُّ في قولِ (نصيف): "فهيًّا بنا نتشاركُ استعادةَ ضحى يومٍ ربيعيٍّ مشمسٍ في شمالِ أفريقيا بالمغربِ العربيِّ وتحديدًا في مدينةِ الدارِ البيضاءِ"[٢].

ومنْ خلالِ الاسترجاعِ الداخليِّ يحاولُ الكاتبُ إضاءةَ بعضِ الجوانبِ الغامضةِ في حياةِ البطلِ (نصيف)، حيثُ يقولُ البطلُ: "قضيتُ ليلةً متخمةً بالأرقِ، معجونةً بالسهادِ، وقد بدأَ العقلُ يحاولُ الفهمَ ويعودُ لحقبةِ مصرَ، لكنَّ محاولةَ تجميعِ وربطِ الخيوطِ بعضِها ببعضٍ بدتْ أكبرَ مما يسمحُ بهِ العمرُ وقتذاكَ، كانَ التفكيرُ تقودُهُ الرغبةُ الملحةُ مُنْصَبًّا على معرفةِ السببِ، ولا غرابةَ أني لمْ أظفرْ بشيءٍ"[٣].

كذلكَ يسترجعُ (نصيف) ذكرياتِ طفولتِهِ الصعبةَ، حيثُ فرضتِ الماسونيةُ عليهِ الرقابةَ المشددةَ من خلال الاسترجاعِ الخارجيِّ، يقولُ في ذلكَ: "كانتْ أوقاتًا عصيبةً على طفلٍ ما زالَ عقلُهُ غضًّا لا يفقهُ كنهَ الحياةِ والموتِ، سنواتٌ ملوثةٌ بالضبابيةِ مطمورةٌ بحيْرَةٍ يتخُ أو ينخُ أمامَها ذوو الأبصارِ وأولو الفهومِ، فما بالُكَ بمثلي؟"[٤].

ومن خلالِ عمليةِ الاسترجاعِ يحاولُ الكاتبُ كشفَ الغموضِ الذي كانَ حولَ قضيةِ مقتلِ والدَيّ (سامية)، حيثُ قُتلا خنقًا بالغازِ، وأخفى (كريم) هذه الحقيقةَ عن (نصيف) طيلةَ طفولتِهِ، حتى اكتشفَ بنفسِهِ ذلكَ السرَّ، يقولُ (نصيف) في ذلكَ: "وتذكرتُ حديثَها عن شَبهي بوالدِها أهوَ محضُ صدفةٍ؟"[٥]. صدفةٍ؟"[٥].

ومما سبقَ نلاحظُ أنَّ الاسترجاعَ كان حاضرًا في الروايتينِ، وقدْ حافظَ فيه على العباراتِ التمهيديةِ التي تشيرُ إليه مثلَ: "كنتُ، تذكرتُ، كنَّا، تركتُ" وهيَ عباراتٌ تقومُ على الفعلِ الماضي، تُمهدُ وتوحي بِبَدْءِ استرجاعِ الساردِ، كما أنهُ جاءَ مقصودًا، وليسَ عبثًا؛ ليحققَ أهدافًا واضحةً في الروايتينِ، أبرزُها تقديمُ معلوماتٍ للقارئِ حولَ الشخصياتِ، وسدُّ الثغراتِ الموجودةِ، بالإضافةِ إلى إثراءِ النصِّ، وإعطائِهِ

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوقُ الأرضَ، مصدر سابق، ص٧.

(٢) المصدر السابق، ص١١.

(٣) المصدر السابق، ص١٩.

(٤) المصدر السابق، ص٣٢.

(٥) المصدر السابق، ص١٥٦.

معانيَ ودلالاتٍ جديدةً للسردِ الروائيِّ، وكانتْ الأحداثُ التي استرجعَها الساردُ تعودُ في بعضِها إلى زمنٍ سابقٍ على الروايةِ، وبعضُها يعودُ إلى زمنٍ لاحقٍ للروايةِ، وبذلكَ استطاعَ أنْ يعززَ العلاقةَ بينَ الزمنِ الحاضرِ، والزمنِ الماضي القريبِ والبعيدِ في آنٍ.

ثانيًا– الاستباقُ:

تأتي تقنيةُ الاستباقِ بشكلٍ مناقضٍ لتقنيةِ الاسترجاعِ، فإذا كانَ الاسترجاعُ يعودُ بنا إلى أحداثٍ وقعتْ خارجيًّا أو داخليًّا في الروايةِ؛ فإنَّ الساردَ يلجأُ من خلالِ الاستباقِ إلى نقلِ أحداثٍ ستقعُ في المستقبلِ قبلَ حدوثِها، فالاستباقُ: هوَ الولوجُ إلى المستقبلِ، واستشرافُهُ والتنبؤُ بهِ، والاستباقُ عندَ لطيف زيتوني: "مخالفةٌ لسيرِ زمنِ السردِ يقومُ على تجاوزِ حاضرِ الحكايةِ، وذكرُ حدثٍ لم يحنْ وقتُهُ بعدُ، والاستباقُ شائعٌ في النصوصِ المرويةِ بصيغةِ المتكلمِ، ويتخذُ الاستباقُ أحيانًا شكلَ حلمٍ كاشفٍ للغيبِ، أو شكلَ تنبؤٍ أو افتراضاتٍ صحيحةً بشأنِ المستقبلِ"(١).

ويطلقُ عليه حسن بحراوي مصطلحَ –السردِ الاستشرافي–، ويعرفُهُ بـ: "القفزِ على فترةٍ ما منَ زمنِ القصةِ، وتجاوزِ النقطةِ التي وصلَها الخطابُ لاستشرافِ مستقبلِ الأحداثِ، والتطلعِ إلى ما سيحصلُ منْ مستجداتٍ في الروايةِ"(٢).

ويعتمدُ الاستباقُ على التطلعِ والتوقعِ للمستقبلِ وما هوَ قادمٌ، وهذهِ هيَ الوظيفةُ الأساسيةُ للاستباقِ، كما يُسهمُ في إبرازِ خيالِ الكاتبِ، وهو يجذبُ ويُشَوِّقُ المتلقي للأحداثِ القادمةِ، ويعملُ على استثارةِ ذهنِهِ والتحليقِ نحوَ عوالمَ أخرى في الروايةِ لم يسبقْ لهُ معرفتُها من قبلُ، ويعطيهُ الفرصةَ للحكمِ على منطقيتِها، ومدى ملاءمتِها للأحداثِ السابقةِ، كما أنه يحققُ مفارقةً زمنيةً بينَ الحاضرِ والمستقبلِ.

أما عن أنواعِ الاستباقِ، فقد قسمَهُ النقادُ والباحثونَ إلى قسمينِ:

– استباقٌ خارجيٌّ: وهوَ: "الذي يتجاوزُ زمنُهُ حدودَ الحكايةِ، يبدأُ بعدَ الخاتمةِ، ويمتدُ بعدَها لكشفِ مآلِ بعضِ المواقفِ والأحداثِ المهمةِ، والوصولِ بعددٍ من خيوطِ السردِ إلى نهايتِها، وقد يمتدُ إلى حاضرِ الكاتبِ، أيْ إلى زمنِ كتابةِ الروايةِ"(٣). ومن خلالِهِ يتعرفُ القارئُ إلى وقائعَ قبلَ حدوثِها الطبيعيِّ في القصةِ.

---

(١) لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مرجع سابق، ص١٥.

(٢) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص١٣٢.

(٣) لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مرجع سابق، ص١٧.

– استباقٌ داخليٌّ: وهو: "الذي لا يتجاوزُ خاتمةَ الحكايةِ، ولا يخرجُ عن إطارِها الزمنيِّ"(١). بمعنى أنه لا يتجاوزُ آخرَ حدثٍ في الروايةِ من حيثُ تسلسِها الزمنيِّ، وهوَ بخلافِ الاستباقِ الخارجيِّ من حيثُ وقوعِ مداه الزمنيِّ داخلَ نطاقَ المحكيِّ الأولِ من دونِ تجاوزِهِ(٢).

وقد وظفَ الكاتبُ خلوصي عويضة الاستباقَ بنوعيْهِ في روايتي "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ". وظهرَ الاستباقُ في روايةِ "المُباهلة" على لسانِ الجدِّ (أبو فؤاد) وهوَ يتحدثُ مع حفيدِهِ (أسعد) مستشرفًا الأحداثَ قبلَ وقوعِها على سبيلِ الاستباقِ الداخليِّ، يقولُ: "قمْ بنا كعادتِنا كلَّ يومٍ نتلو ما تيسّرَ منَ القرآنِ، ثم ندعو لعمِكِ (فؤاد) في ديارِ غربتِهِ القسريةِ، ولأبيكَ في غربتِهِ الاختياريةِ، ولعمِّكَ (محمود) القابعِ بينَ جدارنِ الأسرِ منذُ سبعِ سنينَ وأمامَهُ مثلُها، حتى عمَّتُكَ الوحيدةُ في غربةٍ، فمنذُ الانتفاضةِ والطريقِ بينَ الضفةِ وغزةَ –حيثُ تعيشُ معَ أسرتِها– مغلقةٌ وممنوعةٌ، هيّا لعلَّ الفرجَ قريبٌ"(٣).

يستشرفُ الكاتبُ الأحداثَ ويضعُ المتلقي في توقعِ حدوثِها وصيرورتِها، ويعطيهِ لمحاتٍ عن حياةِ الشخصياتِ، فالعمُّ (فؤاد) مُهجَّرٌ إلى العراقِ، ولا يستطيعُ العودةَ لفلسطينَ، أما والدُهُ (أنور) فمهاجرٌ برغبتِهِ إلى الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ، أما عمَّهُ (محمود) فيقبعُ في السجنِ الصهيونيِّ، وعمتُهُ الوحيدةُ تعيشُ في غزةَ بعيدًا عن أهلِها في الخليلِ. ويشيرُ الجدُّ إلى لقائِهِمْ واجتماعِهِمْ بِهِمْ، وقد تحققَّ هذ الاستباقُ، فوالدُ (أسعد) حضرَ في زياراتٍ متكررةٍ، وزارَ (أسعد) عمتَهُ في غزةَ، وعمَّهُ في العراقِ، وأُفرجَ عن عمِّهِ (محمود) منَ المعتقلِ.

يُظهرُ المقطعُ السابقُ اهتمامَ (أنور) بعملِهِ ومدى إتقانِهِ وتفانيهِ فيهِ، وهذا يُمهدُ لتوليهِ منصبًا كبيرًا في الشركةِ، ويصبحُ مشرفًا على المهندسينَ والعمالِ، وتكونُ علاقتُهُ بـ(إيزابيل) جزءًا من ترقيتِهِ في شركةِ المقاولاتِ.

ومعَ استباقِ الأحداثِ نلاحظُ التحولِ النفسيِّ لشخصيةِ (أسعد) منَ الخوفِ إلى القوةِ والصلابةِ فيما بعدُ، يقولُ (أسعد): "فكانَ جدّي الحاجُ الواعظُ (أبو فؤاد النمري) يتلطفُ أولًا في تشجيعي على طردِ الخوفِ والتخلصِ منهُ، ثم تحولَ إلى التعنيفِ اللفظيِّ منْ فَرْطِ رعبي الذي بدا لهُ محيّرًا، فلما لم يجدْ نفعًا يأسَ مني قائلًا: تلكَ طبيعتي، فتركني آملًا أنْ تغيّرَني الأيامُ، وهوَ ما كانَ"(٤).

---

(١) لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مرجع سابق، ص١٧.

(٢) ينظر: عبد العالي بو طيب، مستويات دراسة النص الروائي "مقاربة تطبيقية لنماذج مغربية"، سلسلة دراسات وأبحاث كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع٦، جامعة المولى إسماعيل، المغرب، ٢٠٠٠م، ص١٧٥.

(٣) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٤.

(٤) المصدر السابق، ص١٧.

يلقي هذا الاستباقُ الداخليُّ لعمليةِ التعنيفِ بظلالِهِ على شخصيةِ (أسعد) فيما بعدُ، ويصبحُ ذا شخصيةٍ صلبةٍ وعنيدةٍ لا يهابُ شيئًا، ونفهمُ ذلكَ من عبارةِ (أسعد) الاستشرافيةِ "وهوَ ما كانَ".

وفي خضمِ الأحداثِ يظهرُ الاستباقُ الداخليُّ على لسانِ (هادي) عندما يلتقي بـ(أسعد) في عمانَ، يلوحُ في ذهنِهِ أنْ يلتقيا في العراقِ وهو ما كانَ، بعدما التحقَ (هادي) بالمجموعاتِ المتشددةِ، وتركَ مهنتَهُ الأساسيةَ، يقولُ: "لعلَّ أشدَّ ما استوقفَني مدهوشًا ولا يزالُ يَطِنُّ صداهُ برأسي هوَ سؤالَهُ، منْ كانَ يظنُّ أن نلتقيَ يومًا في عمانَ؟! أيمكنُ أنْ نلتقيَ يومًا في بغدادَ؟!"[١].

وتدفعُهُ الأحداثُ الداميةُ التي يقترفُها الاحتلالُ الصهيونيُّ بحقِ أبناءِ شعبِهِ للتحولِ الجذريِّ نحوَ المقاومةِ المسلحةِ، ويستبقُ الكاتبُ ذلكَ بقولِهِ على لسانِ (هادي): "مشاعري تمضي قُدُمًا باتجاهٍ مختلفٍ عن دارستي التي أحببتُها وآمنتُ بأهميتِها، منها تعلمتُ أنَّ الأفكارَ هي مصنعُ المشاعرِ، لماذا أراني الآنَ غيرُ مقتنعٍ بذلكَ تمامًا؟ لماذا يتملكُني الإحساسُ أنَّ الأمرَ معكوسٌ، أيْ أنَّ المشاعرَ هيَ التي تُنتجُ الأفكارَ، ثم يتولدُ السلوكُ"[٢].

وعلى صعيدِ شخصيةِ (غولدتشاين) يستبقُ الراوي الأحداثَ، ويبينُ مصيرَهُ الحتميَّ قبلَ وقوعِ المجزرةِ، يقولُ الراوي: "وسافرَ لأرضِ (أسعد) مقررًا في التوِّ واللحظةِ أمرينِ: أولُهُما تغييرُ اسمِهِ إلى (باروخ)، وهو اسمٌ لهُ دلالةٌ أشارَ لهُ بذلكَ الحاخامُ (كهانا) واعدًا أنْ يُطلعَهُ على المغزى حينَ يلتقيهِ في -أرضِ الميعاد-، لكنَّ القتلَ كانَ له بالمرصادِ، فغيَّبَهُ إلى جحيمِ الأبدِ"[٣].

وعلى سبيلِ الاستباقِ الخارجيِّ، يستشرفُ الراوي حدثَ المجزرةِ ونجاةِ (أسعد) من الموتِ بعدَ إصابتِهِ في قدمِهِ، وسببَ العداءِ المستمرِ معَ حكوماتِ الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ لشعبِهِ، ليدمجَ الاستباقَ معَ الأيديولوجيا، يقول الراوي: "وسينجو (أسعد) من فخِّ الموتِ وشباكِهِ؛ ليكبرَ يومًا ويتساءلَ كحالِ الملايينِ من أبناءِ شعبِهِ: لماذا تُبادرُ وتناصبُ الحكوماتُ الأمريكيةُ المتعاقبةُ شعبَهُ هذا العداءَ؟"[٤].

وفي روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، يظهرُ الاستباقُ الخارجيُّ على لسانِ (نصيف) في حوارِهِ مع (نجيب)، حيثُ يقولُ: "لنُبقيَ محاولةُ استكشافِ الجوابِ معلقًا في فضاءِ الحوادثِ فقدْ يتضحُ

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٣٩.

(٢) المصدر السابق، ص٥٠.

(٣) المصدر السابق، ص٣٢.

(٤) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

مع توالي تقليبِ الصفحاتِ وقطعِ المحطاتِ"[١].

ويشددُ (كريم) على أهميةِ دراسةِ (نصيف) للهندسةِ ويعطيها اهتمامًا كبيرًا، لارتباطِها الكبيرِ بأهدافِ الماسونيةِ، وهذا ما يحصلُ لاحقًا، يقولُ (نصيف): "فالامتحاناتُ اقتربتْ، ولا بدَّ لي من حصدِ أعلى الدرجاتِ، خاصةً في الرياضياتِ وفروعِها، إذ حدثَ مع وصولي أنْ شددَ (كريم) على أهميةِ ذلكَ تمهيدًا كما قالَ لالتحاقي بكليةِ الهندسةِ لأصبحَ مهندسًا عظيمًا كما يراني مستقبلًا"[٢].

وعلى سبيلِ الاستباقِ الداخليِّ، يستشرفُ الراوي قضيةَ قتلَ (نصيف) لـ(كريم) منْ بدايةِ أحداثِ الروايةِ، ويعطي قضيتَهُ الغموضَ الذي سيلاحظُهُ أيُّ قارئٍ للروايةِ، وذلكَ في قولِهِ: "بدأتُ بعدَ استغراقٍ عميقٍ وارتحالٍ بينَ طياتِ صمتٍ يتآكلُ معَ الزمنِ، أُنفذُ ما نويتُهُ منذُ ما يصفونَهُ بالجريمةِ التي تهزُّ الوجدانَ وتستفزُ الضميرَ، إذ كيفَ لقلبٍ أحبَّكَ أن تمزقَهُ إربًا إربًا؟! بمخالبِ سحقِ الأنفاسِ، كما اهتاجَ وصرخَ متسائلًا وكيلُ النيابةِ: أيُّ وحشٍ بشريٍّ أنا؟! قضيتي مظلمةُ الدروبِ معتمةُ المساراتِ ستوضحُها أحداثٌ ستُرْوى"[٣].

وفي حوارِ (أميرة) معَ (نصيف) تستبقُ الأحداثَ، وما ستؤولُ إليهِ أمورُ (نصيف) بتوليهِ منصبَ كاتمِ السرِّ الأعظمِ للمحفلِ الماسونيِّ في مصرَ، تقول (أميرة): "وقدْ ألمحتُ لكَ قبلَ ذلكَ عمّا ينتظرُكَ قريبًا، نعمْ قريبًا ستفتحُ أمامَكَ كلُّ أبوابِ المعرفةِ، وستخطو بثقةٍ وقوةٍ وكفاءةٍ كما هوَ مأمولٌ نحوَ مجدٍ عظيمٍ، فلماذا تصرُّ على استباقِ الأوانِ؟"[٤].

ويرى الباحثُ أنَّ الكاتبَ قدْ أحسنَ توظيفَ الاستباقِ واستفادَ منهُ أيَّما استفادةٍ في استشرافِ الأحداثِ والتنبؤِ بها، وتشويقِ القارئِ لمتابعةِ القراءةِ.

كما يرى أنَّ الزمنَ عندَ الكاتبِ خلوصي عويضة تجلَّى في صورتينِ هما: الترتيبُ الزمنيُّ والمفارقاتُ الزمنيةُ. وظهرَ ترتيبه الزمني للأحداثِ التاريخيةِ في روايةِ "المباهلة" حيثُ بدأَ بالأحداثِ التاريخيةِ حسبَ حدوثِها الطبيعيِّ الواقعيِّ، وكذلكَ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، واعتمدَ على ترتيبِ الأحداثِ زمنيًّا منَ الماضي إلى الحاضرِ فالمستقبلِ.

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوقُ الأرضَ، مصدر سابق، ص٦.

(٢) المصدر السابق ص٢٦.

(٣) المصدر السابق، ص٦.

(٤) المصدر السابق، ص٥٠.

جاءتِ المفارقاتُ الزمنيةُ على صورتينِ:

الأولى: وهيَ تقنيةُ الاسترجاعِ الذي جاءَ لاستئناسِ الواقعِ غيرِ المفهومِ، ولإظهارِ الحنينِ إلى الماضي الذي يحملُ ملامحَ الشخصياتِ وذاكرتَهُمْ، حيثُ يُشحذُ خيالُ الروائيينَ بقصصٍ وحكاياتٍ قديمةٍ تساعدُ القراءَ على فهمِ واقعِ الروايةِ، وقد كانَ الاسترجاعُ ضروريًّا عندَ عويضة ليُطلعَنا على أحداثٍ مهمةٍ في الروايتينِ، وتساعدُ المتلقينَ على فهمِهما.

الثانية: وهيَ تقنيةُ الاستباقُ الذي يعملُ على تقديمِ الأحداثِ أو الشخصياتِ بشكلٍ مسبقٍ وإبرازِ دورِها المواكبِ للحركةِ الزمنيةِ في السردِ الروائيِّ، مما يسهمُ في تكوينِ رؤىً ومواقفَ خاصةٍ بالمتلقي. ومما سبقَ نستنتجُ أنَّ الكاتبَ قد أحسنَ استخدامَ النمطينِ (الترتيبِ والمفارقاتِ الزمنيةِ) حسبَ ما تتطلبُهُ طبيعةُ الروايتينِ وعمليةِ السردِ الروائيِّ.

المبحثُ الرابعُ– تقنياتُ المدةِ الزمنيةِ:

يلجأُ الروائيونَ إلى تغييرِ حركةِ السردِ، وقد يتحكمُ الروائيُّ في زمنِ الحكايةِ، من ناحيةِ تسريعِهِ أو تبطيئِهِ. وتتمثلُ عمليةُ تحليلِ المدةِ الزمنيةِ في ضبطِ العلاقاتِ الزمنيةِ بينَ زمنِ الحكايةِ التي تُقاسُ بالثواني، والدقائقِ، والساعاتِ، والأيامِ والشهورِ، وبينَ طولِ النصِ القصصيِّ الذي يقاسُ بالأسطرِ، والصفحاتِ، والفقراتِ، والجملِ[1].

تعدُّ تقنياتُ المدةِ الزمنيةِ نسقًا فنيًّا بديعًا في العملِ الروائيِّ، يركزُ فيه الكاتبُ على وتيرةِ الزمنِ. "حيثُ يَتَرّتَّبُ على ضبطِ العلاقةِ زمنُ الحكايةِ، وطولُ النصِّ، لتولدَ أربعُ حركاتٍ سرديةٍ"[2]. ويرى حسن بحراوي أنَّ: "تسريعَ السردِ يشملُ تقنيتي الخلاصةِ والحذفِ، حيثُ مقطعٌ صغيرٌ منَ الخطابِ يغطي فترةً زمنيةً طويلةً منَ القصةِ، ثم تعطيلٌ أو إبطاءٌ للسردِ؛ ويشملُ تقنيتي المشهدِ والوقفةِ، حيثُ مقطعٌ طويلٌ منَ الخطابِ يقابلُ فترةً قصصيةً ضئيلةً"[3].

يختزلُ الروائيُّ الزمنَ في تقنيتي الحذفِ والخلاصةِ، وهو ما يُلبي حاجتَهُ بالامتدادِ التاريخيِّ للروايةِ، دونَ ذكرِهِ لكلِّ الأحداثِ ساعةً بساعةٍ أو لحظةً بلحظةٍ، ويحاولُ في تقنيتي الوقفةِ والمشهدِ التركيزَ على القضايا الجوهريةِ التي تعدُّ منطلقًا لأفكارِهِ، أو محطاتٍ مركزيةً في تشكيلِ الحدثِ الروائيِّ، أو لحظاتٍ تنويريةً لإثارةِ المتلقي، وإضفاءِ البعدِ الأدبيِّ والجماليِّ على النصِّ المحكيِّ.

---

(1) يُنظر: سمير مرزوقي وجميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة "تحليلاً وتطبيقاً"، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م، ص٨٥.

(2) جيرار جينيت، خطاب الحكاية، مرجع سابق، ص١٠٨.

(3) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص١٤٤.

أولًا- تسريعُ السردِ:

- **الخلاصةُ أوِ (التلخيصُ):**

الخلاصةُ أو التلخيصُ تقنيةٌ فنيةٌ زمنيةٌ يوظفُها الكاتبُ في عمليةِ تسريعِ السردِ. أيْ أنها حركةٌ سرديةٌ تقتربُ منَ الحذفِ ولا تلامسُهُ، وفيها تُذكَرُ الأحداثُ بإيجازٍ شديدٍ دونَ ذكرِ تفاصيلِ هذهِ الأحداثِ، ويكونُ زمنُ الكتابةِ أقلَّ من زمنِ الحكايةِ[١].

برزتْ تقنيةُ التخليصِ عندَ الكاتبِ خلوصي عويضة في روايةِ "المباهلة"، حيثُ اعتمدَ عليها منْ أجلِ اختصارِ مجموعةٍ منَ الأحداثِ التي وقعتْ في مساحاتٍ زمنيةٍ ممتدةٍ ولا تلعبُ دورًا رئيسًا في نموِ الحدثِ الرئيسِ، وذلكَ كقولِهِ في سردِ مجموعةٍ منَ الأحداثِ التي تتصلُ بالعائلةِ وما حلَّ بها في مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ، والتي نقلَها (أنور) لابنِهِ (سامي) المسجونِ بعدَ وقوعِهِ في حادثِ سيرٍ قاتلٍ، يقولُ الراوي: "مضتِ الحياةُ على تلكَ الوتيرةِ، يتابعُ عملَهُ بتفانٍ وإخلاصٍ، شاعراً بامتنانٍ عميقٍ تجاهَ صديقِهِ وعائلتِه، ويزورُ سامي في محبسِهِ مرةً كلَّ أسبوعينِ، وفي زيارتِهِ الأخيرةِ أبلغَهُ بما أخفاهُ عنهُ؛ فقطعَ الابنُ الزيارةَ راكلًا المقعدَ ودافعًا الحارسَ صارخًا بغضبٍ عنيفٍ: -كلاب، اليهودُ كلاب، سفلة-، وفي الزيارةِ التاليةِ تغيَّبَ أبوه الذي سافرَ للبلادِ زائرًا وحضرَ مكانَهُ (إدوارد)"[٢].

ومنْ خلالِ التلخيصِ تظهرُ حالةُ البعدِ التي افتعلَها (أنور) بفعلِ اهتمامِهِ بعملِهِ على حسابِ أسرتِهِ وأولادِهِ، يقولُ الراوي: "دارَ الجميعُ في فلكِ الحياةِ إلى أنْ أهلَّ صيفُ العامِ ١٩٩٨م، وكانَ (أنور) يستعدُّ للسفرِ إلى البلادِ، فقدْ أضناهُ الشوقُ لولدَيْهِ وأمِّه وأخيهِ، وقد شجعَهُ إحساسُهُ بالطمأنينةِ على (أسعد) و(أسماء) على طولِ غيبتِهِ التي امتدتْ لما يربو على أربعِ سنواتٍ"[٣].

يأتي التلخيصُ لتقديمِ المشهدِ الروائيِّ وللربطِ بينَ مكوناتِ القصِّ، كقولِ (أسعد): "قضينا أيامًا في عمانَ، زارتْ جدتي بعضَ الأقاربِ في مخيمِ الوحداتِ، كانتْ تتكئُ برفقٍ على كتفي، وأتكئُ على عصا جدّي، استقبلونا بحفاوةٍ، وقضينا أوقاتًا طيبةً، فحكاياتُ جدّتي لا تنتهي"[٤].

يلخصُ الكاتبُ الحالةَ النفسيةَ لـ(سامي) واستفحالَ الخلافِ بينَهُ وبينَ والدِهِ (أنور) بسببِ اختلافِ الرؤى والأفكارِ، فالابنُ ملتزمٌ، ومتشددٌ، لم ينسجمْ معَ المجتمعِ الأمريكيِّ وطبيعةِ حياتِهِ،

---

(١) محمد أيوب، الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة "في الضفة الغربية وقطاع غزة ١٩٦٧- ١٩٩٣م"، ١٩٩٧م، ص١٧٧.

(٢) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٦٢.

(٣) المصدر السابق، ص٧٩.

(٤) المصدر السابق ص٩٧.

أمّا الأبُ؛ فمتحررٌ في علاقاتِهِ، وتربطُهُ صداقةٌ قويةٌ معَ الأمريكيينَ، في هذا التخليصِ تتضحُ الوجهةُ التي يتحركُ نحوَها (سامي)، حيثُ يفكرُ بالسفرِ إلى بيشاورَ، وتستغلُ المخابراتُ الأمريكيةُ هذا الحدثَ لاعتقالِهِ، ولتأزيمِ الموقفِ أمامَ والدِهِ لإيقاعِهِ في وحلِ العمالةِ، يقولُ (سامي) ملخصًا فترةً منْ حياتِهِ معَ والدِهِ: "دعونا منْ أبي، فالخلافُ معَهُ استفحلَ خلالَ العامِ الأخيرِ، وتلاشتْ فرصُ الانسجامِ بينَنا، فواضحٌ أننا لا نملكُ رؤيةً مشتركةً حول الحياةِ في أمريكا، وماهيةِ النجاحِ والفشلِ، ومعَ اتساعِ الفجوةِ استحالَ استمرارُ تعايشِنا معًا؛ لذلكَ تركتُ البيتَ أمسِ، والعملَ اليومَ، بصراحةٍ لمْ أعدْ راغبًا أو قادرًا على مواصلةِ الحياةِ هنا، أفكرُ مدفوعًا برغبةٍ عارمةٍ في السفرِ"[١].

أما عن تمظهراتِ التخليصِ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، فتتأتى على لسانِ (نصيف) الذي يقدمُ شخصيةَ (كريم) منْ خلالِ تلخيصِهِ لمحطاتِ حياتِهِ الوظيفيةِ، يقولُ: "عمِلَ (كريم) مراقبَ أمنٍ لدى شركةِ الهواتفِ العموميةِ الفرنسيةِ –فرانسِ تيلكوم–، لا أعلمُ متى التحقَ بهذا العملِ، ولا ملابساتِ تركِهِ وانتقالِهِ للعملِ كمرشدٍ سياحيٍّ لدى شركةِ سياحةِ فرنسيةٍ، ثمَّ انتقلَ بعدَها ليعملَ مستشارًا أمنيًّا لدى شركةٍ ماليةٍ عالميةٍ لها فروعٌ عبرَ العالمِ"[٢].

يعمدُ الكاتبُ إلى تقنيةِ التلخيصِ من أجلِ اختصارِ مجموعةِ أحداثٍ وقعتْ في مساحةٍ زمنيةٍ ممتدةٍ، مثل عمليةِ سفرِ (كريم) وانتقالِهِ خدمةً للعشيرةِ، يقولُ (نصيف): "كانَ (كريم) خلالَ تلكَ السنواتِ قدِ استوطنَ المغربَ، متخذًا الدارَ البيضاءَ مستقرًا، ويتنقلُ بينَ طنجةَ وفاسٍ ومراكشَ والنخيلَ، أما العاصمةُ فكانَ زاهدًا بِها، وقد حدثَ أنْ جاءَ مرتينِ لزيارتي طوالَ السنواتِ التسعِ، وكالمعتادِ يأتي لساعاتٍ بغتةً، ويغيبُ فجأةً ممّا لمْ يدعْ للقلبِ مساحةَ تعلقٍ بِهِ"[٣].

ويُلاحَظُ من خلالِ عمليةِ التخليصِ حالتا العزلةِ، والصراعِ النفسيِّ اللتانِ أصابتا بطلَ الروايةِ (نصيف) طيلةَ انتمائِهِ للماسونيةِ، حيثُ يقولُ في حوارِهِ معَ (نجيب): "ولوْ أردتُ أنْ أعدِّدَ لك ما سمعتُهُ وقرأتُهُ خلالَ السنواتِ التي قضيتُها بينَ أظهرِهِمْ؛ لما وسعَني الوقتُ المتآكلُ النازفُ ألمًا وندمًا يعبدُ طريقَ الموتِ الذي ينتظرُني"[٤].

يظهرُ للباحثِ مما سبقَ مدى إتقانِ الكاتبِ خلوصي عويضة في الاستفادةِ من تقنيةِ التلخيصِ في تنظيمِ الحبكةِ القصصيةِ والربطِ القويِّ بينَ الأحداثِ؛ لخدمةِ الصراعِ الدائرِ بينَ الشخصياتِ.

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٤٣.

(٢) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص١٣.

(٣) المصدر السابق، ص١٤.

(٤) المصدر السابق، ص٥٨.

- **الحذفُ:**

للحذفِ دورٌ كبيرٌ في عمليةِ تسريعِ الزمنِ، فمنْ خلالِهِ يعملُ الكاتبُ على: "اقتصادِ السردِ وتسريعِ وتيرتِهِ"[١]. حيثُ يقفزُ على فتراتٍ زمنيةٍ معينةٍ، قد تتعدى السنينَ، وقد تقصرُ لساعاتٍ أو أيامٍ. فهو: "تقنيةٌ زمنيةٌ تقضي بإسقاطِ فترةٍ طويلةٍ أو قصيرةٍ منْ زمنِ القصةِ، وعدمِ التطرقِ لما جرى فيها من وقائعَ وأحداثٍ"[٢].

قسمَ جيرار جينيت الحذفَ إلى ثلاثةِ أنواعٍ[٣]:

- الحذفُ الصريحُ: وهو الذي يصدرُ إما عنْ إشارةٍ محددةٍ أو غيرِ محددةٍ إلى ردحِ الزمنِ الذي تحذفُهُ، كأنْ يقولُ الراوي (مضتْ سنةٌ، دارتِ الأيامُ، أو السنواتُ).
- الحذفُ الضمنيُّ: وهوَ "الحذفُ الذي لا يعلنُ فيه الراوي صراحةً عن حجمِ الفترةِ الزمنيةِ المحذوفةِ، بل إننا نفهمُهُ ضمنًا، ونستنتجُهُ استنتاجًا، يقومُ على التدقيقِ والتركيزِ والربطِ بينَ المواقفِ السابقةِ واللاحقةِ"[٤].
- الحذفُ الافتراضيُّ: وهو الذي يستحيلُ تحديدُ موقعِهِ؛ بلْ أحيانًا يستحيلُ وضعُهُ في أيِّ موقعٍ كانَ.

وظفَ الكاتبُ خلوصي عويضة تقنيةَ الحذفِ في روايتيْهِ، وظهرَ ذلكَ في روايةِ "المباهلة"، حيثُ جاءَ الحذفُ صريحًا في قولِ (أسعد): "هكذا تدورُ عجلةُ الأيامِ إلى الأمامِ، وتمضي لا شيءَ يوقفُها، مضى أبي، وعادتْ جدّتي تضمُ (أسماء) وبقيتُ وحدي، نرتحلُ منْ مكانٍ لآخرَ، ومن حِضْنٍ لآخرَ، ومنْ حياةٍ إلى موتٍ، وربما من موتٍ لآخرَ، محطاتٌ، مراحلُ، أماكنُ، أزمنةٌ، صورٌ، أصواتٌ، أصداءٌ، خيالاتٌ، كلُّها تتوحدُ في مصبِّ الذكرياتِ"[٥].

ومن خلالِ الحذفِ تتضحُ بدايات العلاقةِ بينَ (أنور) و(إيزابيل)، يقولُ الراوي: "قرابةُ عامٍ مضى على بدايةِ علاقتِهِما، تخللَها في البداياتِ إقدامٌ وإحجامٌ، تحفظٌ وتكلفٌ، ثم انبساطٌ ممزوجٌ ببعضِ المجاملاتِ والملاطفاتِ، سرعانَ ما تطورتْ إلى مداعباتٍ خفيفةٍ كالقبلاتِ السريعةِ"[٦].

---

(١) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص١٥٦.

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) ينظر: جيرار جينيت، خطاب الحكاية، مرجع سابق، ص١١٩.

(٤) آمنة يوسف، نظريات السرد بين النظرية والتطبيق، مرجع سابق، ص٨٦.

(٥) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٦٦.

(٦) المصدر السابق، ص١١١.

وكذلكَ يظهرُ الحذفُ الضمنيُّ على لسانِ (أسعد) في حذفِهِ لمدةٍ زمنيةٍ طويلةٍ بعدَ سفرِهِ للعراقِ ثم حصولِهِ على شهادةِ الثانويةِ العامةِ، يقولُ (أسعد): "تقدمتُ للامتحانِ، وحصدتُ ببركةِ حبِّهم وثمرةِ مجهودي الذي تضاعفَ معَ قربِ نهايةِ العامِ، فنجحتُ محققًا نسبةَ 88%، فاحتفلَ بي الأهلُ وجيرانُ المخيمِ وبعضُ الأصدقاءِ الجددِ، ومعَ زغاريدِ جدّتي وأحضانَ (أحمد)"(١).

أما الحذفُ الافتراضيُّ فنراهُ بكثرةٍ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، فقدْ وظفَهُ الكاتبُ لجذبِ القارئِ ودفعِهِ لعمليةِ التخمينِ، يظهرُ في قولِ (نصيف): "لذلكَ لا تشغلني كثيرًا مسألةُ الوطنِ والانتماءِ، وأكادُ أجزمُ أنه كانَ مقصودًا تحطيمُ هذهِ الصورةِ في وجداني، لأنني حينَ .... (٢). ففي المقطعِ السابقِ اعتمدَ الراوي على حذفِ الكلامِ، وجعلَ المحذوفَ غامضًا.

استفادَ الكاتبُ من تقنيةِ الحذفِ بشكلٍ كبيرٍ في وصفِ حياةِ (نصيف)، التي كانَ يشوبُها القلقُ الدائمُ، والعزلةُ، والرقابةُ، والمتابعةُ من أفرادِ العشيرةِ لا سيما (أميرة)، التي تقولُ: "أتكلمُ عن منحِكَ قوةً أكبرَ؛ لتتفوقَ وتبدعَ أكثرَ في دراستِكَ، فما أنْ تنهيَ العامينِ القادمينِ حتى....... صمتتْ مجددًا واتسعتْ دائرةُ حيْرَتي، إذِ استشعرتُ لحظتَها أنَّهُما يخططانِ للحاضرِ والمستقبلِ"(٣).

يرى الباحثُ أنَّ الكاتبَ اعتمدَ على تقنيتِي التلخيصِ والحذفِ بشكلٍ كبيرٍ خدمةً لمعمارِهِ الفنيِّ، ونجحَ في استخدامِ الحذفِ والتلخيصِ حسَبَ ما تقتضيهِ طبيعةُ الروايتينِ، وحسَبَ حاجتِهِ لتسريعِ الزمنِ، واختصارِ المدةِ الزمنيةِ.

ثانيا: تبطيءُ السردِ.

وهوَ عمليةٌ مضادةٌ لتقنيةِ تسريعِ السردِ، حيثُ يُوقِفُ الكاتبُ اتساعَ السردِ، وحركتَهُ إلى الأمامِ، ويكونُ ذلكَ منْ خلالِ تقنيتي المشهدِ والوقفةِ.

- **المشهدُ:**

المشهدُ عرضٌ مسرحيٌّ لموقفٍ معينٍ بالتفصيلِ والتركيزِ، حيثُ يركزُ فيهِ الكاتبُ على لحظاتٍ حازمةٍ مما يعملُ على إبطاءِ السردِ، ويُعرَّفُ في المفهومِ الفنيِّ بأنَّهُ: "التقنيةُ التي نقومُ فيها باختيارِ المواقفِ منَ الأحداثِ الروائيةِ، وعرضِها عرضًا مسرحيًّا مُرَكَّزًا تفصيليًّا"(٤).

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٢٨.

(٢) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص١٠.

(٣) المصدر السابق، ص٢٤.

(٤) آمنة يوسف، نظريات السرد بين النظرية والتطبيق، مرجع سابق، ص٨٩.

وتتشابهُ تقنيةُ المشهدِ بشكلٍ كبيرٍ معَ تقنيةِ الحوارِ، منْ حيثُ عمليةِ إبطاءِ السردِ، فالساردُ يتوقفُ عنِ السردِ، ويفسحُ المجالَ للحوارِ بينَ الشخصياتِ لسردِ الأحداثِ بلغتِها الخاصةِ.

وللمشهدِ غاياتٌ وأهدافٌ يسعى الروائيُّ لتحقيقِها في عملِهِ الفنيِّ، حيثُ يكشفُ عنْ تطورِ الأحداثِ، ويبثُ من خلالِهِ الحركةَ والحيويةَ في النصِّ، وينقسمُ إلى قسمينِ، مشهدٍ تلخيصيٍّ، ومشهدٍ حواريٍّ، وقد وظفَ الكاتبُ خلوصي عويضة تقنيةَ المشهدِ بنوعيْهِ في الروايتينِ.

المشهد التلخيصي:

يظهرُ استخدامُ الكاتبِ لتقنيةِ المشهدِ التلخيصيِّ في روايةِ "المباهلة" من خلالِ نقلِ الكاتبِ لمشهدِ مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ على لسانِ (أسعد)، الذي كانَ يرافقُ جدَّهُ ويُصلّي معَ جدِّهِ صلاة الفجرَ الأخيرِ، ولخصَ واقعةَ الجريمةِ بقولِهِ: "أثناءَ الركوعِ خطفَ سمعي أصواتُ شتائمَ باللغتينِ العبريةِ والعربيةِ... بدأَ الصوتُ يقتربُ شيئًا فشيئًا، أصواتٌ متداخلةٌ، ربما لشخصينِ أو ثلاثةٍ، وتحولَ صوتُهُمْ إلى صراخٍ عندما اقتربوا أكثرَ، ولولا أنَّ خلفي عدةَ صفوفٍ ممن لحقوا بالإمامِ وبالمصلينَ بعدَ تكبيرةِ الإحرامِ؛ لظننتُ أنهم خلفَ ظهري تمامًا (عربْ كلابْ، مخربونْ، اطردوهُمْ منْ خبرون أرض إسرائيل، اقتلوهُمْ، اقتلوهُمْ) انتفضَ جسمي رعبًا، وتملّكني الذعرُ، وهممتُ أنْ أصرخَ مستغيثًا بجدّي، وأنْ أنظرَ خلفي لكنْ... لحظةَ استواءِ المصلينَ قيامًا منَ الركوعِ وتكبيرِ الإمامِ للسجودِ، في تلكِ الثانيةِ والكلُّ يتهيأُ ليهويَ ساجدًا، وركبتايَ ترتعشانِ تحتَ النارِ من فوهاتِ البنادقِ الرشاشةِ؛ كانَ الرصاصُ هستيريًّا، زأرَ أزيزُهُ، وعلا دويُّه المرعبُ ممتزجًا بصرخاتِ سبابِ القتلةِ، وبصرخاتِ الاستغاثةِ والأنينِ منَ المصلينِ المغدورينَ"[١].

ويظلُّ مشهدُ مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ بؤرةَ الانطلاقِ التي استندَ عليها الروائيُّ لتشكيلِ أبعادِ شخصياتِ روايتِهِ، ورسمِ الحبكةِ الروائيةِ بناءً على آثارِها النفسيةِ والاجتماعيةِ والدينيةِ على (أسعد) ورفاقِهِ، وهذا يتناسبُ معَ غايةِ توظيفِ تقنيةِ المشهدِ؛ لأنهُ "مخصصٌ في الروايةِ للأحداثِ المهمةِ"[٢]، كما يقول لطيف زيتوني، وتوافقُهُ سيزا قاسم في "كونِهِ محورًا للأحداثِ المهمةِ"[٣].

ثمَّ يصفُ (أسعد) مشاهدَ ما بعدَ المجزرةِ، ودماءَ جدِّهِ والمصلينَ معَهُ داخلَ الحرمِ؛ تروي عطشَ الأرضِ، وتغرسُ في نفسِهِ بذرةَ الانتقامِ والثأرِ منَ الصهاينةِ، يقولُ: "انحفرَ بعمقٍ وقوةٍ مشهدُ بل مشاهدُ تلكَ اللحظاتِ المروِّعةِ منغرسًا، ملتصقًا، ملتحمًا، منصهرًا بالروحِ، مشكِّلًا هويةَ

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٧.

(٢) لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مرجع سابق، ص١٥٤.

(٣) سيزا قاسم، بناء الرواية، مرجع سابق،ص ٨٠.

الآتي... كان قدْ توسدَ الأرضَ بشقهِ الأيمنِ، وبصرُهُ شاخصٌ نحوَ السماءِ وامتزجَ دمُهُ بدمِ الرجلِ الذي وقفَ مكاني، فالرصاصاتُ التي اخترقتْ ظهرُهُ فقتلتْهُ كانَ ينبغي أنْ تقتلَني أنا، فتركتُ له الموتَ كارهًا، ومنحني الحياةَ، فعشتُها كارهًا"[١].

ويتضحُ منَ المشهدِ السابقِ ارتكازُ الكاتبُ على عمليةِ الاستباقِ أيضًا واستشرافِهِ لحياةِ (أسعد) الآتيةِ في عبارةٍ: "مُشكلًا هويةَ الآتي" وفي قولِهِ أيضا: "فتركتُ له الموتَ كارهًا، ومنحني الحياةَ فعشتُها كارهًا"، وهنا تظهرُ براعةُ الكاتبِ في المزجِ بينَ تقنياتِ المدةِ الزمنيةِ والمفارقاتِ الزمنيةِ.

يظهرُ المشهدُ التلخيصيُّ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، في وصفِ مشهدِ قتلِ (نصيف) لخالِهِ (كريم)، يقول (نصيف) مجيبا قاضي المحكمة الذي سأله عن كيفية القتل: " صفعَني صفعتُهُ؛ صفعَني صفعتُهُ؛ صفعَني صفعتُه، تراجعَ، صفعتُهُ ترنحَ، صفعتُهُ سقطَ أرضًا، فأشبعتُهُ صفعًا مدويًّا، ثم خنقتُهُ عاصرًا أنفاسَهُ بمخالبي؛ هكذا قتلتُهُ "[٢]. ففي المشهدِ السابقِ يظهرُ حجمُ المعاناةِ والصراعِ والكبتِ النفسيِّ الذي عانى منه (نصيف)، حتى خرجَ منه على شكلِ انتقامٍ شديدٍ في لحظةِ اكتشافِهِ للحقيقةِ.

المشهدُ الحواريُّ:

يوظفُ الكاتبُ المشهدَ الحواريَّ في روايةِ "المباهلةِ"، من خلالِ حوارِ (إيزابيل) معَ (أنور) لحظةَ وقوعِ حادثةِ تفجيراتِ الحادي عشرَ منْ أيلولَ سنةَ ٢٠٠١م في الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ، هذهِ الحادثةُ المهمةُ منَ الزمنِ الحقيقيِّ والروائيِّ، شكلتْ بؤرةً لانطلاقِ عمليةِ السردِ، وتشكيلِ الصراعِ الأيديولوجيِّ بينَ الشخصياتِ، تقولُ (إيزابيل):

"- انظرْ (أنور)، انظرْ، أتصدقُ ما تراهُ؟! البرجانِ ينهارانِ كلعبتينِ، ينهارانِ تمامًا، يهويانِ بقوةٍ هائلةٍ نحوَ الأرضِ... يا إلهي انظرْ سحابةَ الأتربةِ تغزو السماءَ، جبالُ الركامِ هذهِ كمْ بها منَ الأشلاءِ وبقايا الأحياءِ والأمواتِ؟ كمْ بها من صراخٍ وعويلٍ وموتٍ يَدْهَمُ أمريكا يضربُها بقوةٍ، اسمعْ C.N.N: المحللونَ يتوقعونَ أنْ يكونَ تنظيمُ القاعدةِ وراءَ الهجماتِ الإرهابيةِ التي ضربتْ أنحاءً متعددةً منَ الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ.

- (أسماء)، ابنتي،(أسماء)، اقرَئي الخبرَ في الشريطِ أسفلَ الشاشةِ، آلافُ الضحايا الأبرياءِ من بينِهِمْ قتلى وجرحى منْ تلاميذِ رحلةٍ مدرسيةٍ كانتْ قادمةً منَ (كاليفورنيا)،لا، مستحيلٌ، سأذهبُ للمدرسةِ، (أسماء) ما ذنبُها؟ ابنتي طفلةٌ، أينَ الهاتفُ؟ افعلي شيئًا أرجوكِ.

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٨.

(٢) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٥.

- و(كابرا) و(أنجيلا) وكلُّ التلاميذِ وكلُّ الضحايا، أليسوا أبرياءَ؟ أليسَ القتلةُ مجرمينَ إرهابينَ؟

- أجبْني، أجبْني؟

- نعمْ، كلُّهُمْ أبرياءُ، أبرياءُ، أبرياءُ، أبرياءُ.

- منْ قتلَهُمْ؟ منْ قتلَهُمْ؟ تكلمْ! تكلمْ!

- مجرمونَ، قتلةٌ، سفلةٌ، أوغادٌ.

- اسمُهُمْ إرهابيونَ، أتسمعُ؟ إرهابيونَ"(١).

فالمشهدُ الحواريُّ السابقُ، يبينُ تزاحمُ الأحداثِ وتنامى حركتِها، لتشكلَ لنا مشهدًا كليًّا وهوَ مشهدُ الهجومِ التفجيريِّ الكبيرِ الذي طالَ مركزَ التجارةِ العالميِّ، ومبنى وزارةِ الدفاعِ الأمريكيةِ، ويظهرُ هذا المشهدُ الأفكارَ الأيديولوجيةَ التي اتصفتْ بها (إيزابيل)، فلم يعجبْها سؤالُ (أنور) عن ابنتِهِ (أسماء)، وعدمِ سؤالِهِ عن الأخرياتِ من صديقاتِها اللاتي كنَّ في الرحلةِ المدرسيةِ في نيويورك لحظةَ الهجومِ، وبهذا المشهدِ استطاعَ الساردُ شحذَ ذهنِ المتلقي لمعرفةِ المزيدِ عنْ تفاصيلِ حياةِ (أنور) وما آلَ إليهِ مصيرُهُ فيما بعدُ.

وفي روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، جاءَ المشهدُ الحواريُّ الذي يصفُ الحوارَ الذي دارَ بينَ (نصيف) و(كريم)، لحظةَ اكتشافِ (نصيف) لحقيقةِ وكينونةِ (كريم)، وتسترَهُ على قتلِ والديْهِ، يقولُ (نصيف): "إلى الحمامِ منْ حيثُ خرجَ سحبتُهُ بعدما ركلتُ بابَ مكتبِهِ وأغلقتُهُ منَ الداخلِ، كيفَ لعينِ روحي أنْ تصدقَ ما ترى؟ وكيفَ لها ألا ترى قذارةَ المشهدِ الصارخِ المروِّعِ المقززِ المثيرِ لحممِ براكينِ الأسئلةِ المعشعشةِ التي مزَّقَتْ كلَّ لحظاتِ حياتي، فما أنْ ركلتُهُ بموضعِ عورتِهِ البشعةِ المشوّهةِ حتى كادتْ تُصعَقُ روحُهُ، يئنُ ألمًا، ففغصْتُ قدمي ببطنِهِ، وأحكمتُ غرسَها في أحشائِهِ، صارخًا بهستيريةٍ لم يعهدْها بشرٌ:

- تكلّمْ منْ أنا؟

- أنتَ خطأُ عمري، كارثةُ حياتي ولعنةُ وجودي، ارفعْ قدمَكَ التي تؤلمُني كثيرًا، فلنْ أ....

قذفتُهُ بصرخةٍ مرعبةٍ، وأنا أهزُّهُ هزًّا كأنَّما أسحقُهُ سحقًا:

- تؤلمُكُ!! وألمُ حياتي التي حطمْتَها، والقهرُ وعذابُ الضياعِ الذي سقيتَني أنهارَهُ، تكلمْ مَنْ أنتَ ومَن أنا؟ تكلمْ لتعيشَ، وتُكملَ وساخاتِ حياتِكَ، تكلمْ لتؤكدَ هواجسَ وظنونَ عمري

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٥٨.

المنصرمِ"[١].

يظهرُ المشهدُ الحواريُّ السابقُ حالةَ الصراعِ النفسيِّ التي عاشَها بطلُ الروايةِ (نصيف)، ومدى تأثيرِ اكتشافِهِ للحقيقةِ التي أُخفيتْ عنه طيلةَ حياتِهِ إلى أنْ استطاعَ اكتشافَها بعدَ مرحلةٍ منَ الصراعاتِ المختلفةِ على صعيدِهِ النفسيِّ ومعَ محيطِهِ الذي يعيشُ فيهِ، ومعَ بقيةِ الشخصياتِ، لا سيما (كريم) و(أميرة) و(مكرم) و(رباح).

يأتي السردُ المشهديُّ في الروايتينِ في صورةٍ يقفُ فيها الزمنُ، وهوَ ما يُعطي فرصةً كبيرةً للشخصياتِ بالتعبيرِ عمّا تُريد، إمّا منْ خلالِ الحوارِ الخارجيِّ أو المونولوج، وبالتالي تختفي الأحداثُ بشكلٍ مؤقتٍ، ثم يستأنفُ بعدَها الزمنُ السيرَ، وقدْ تتسعُ الصفحاتُ الحواريةُ لتتعدى بضعةَ صفحاتٍ.

وزخرتْ روايتا "المباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ" بالمشاهدِ الحواريةِ[٢] والتلخيصيةِ[٣]، التي تمنحُ المتلقي راحةً زمنيةً، وتقللُ من تسارعِ الأحداثِ، حتى يستطيعَ الربطَ بينَ تسارعِ الأحداثِ والصراعاتِ الدائرةِ بينَ الشخصياتِ.

يرى الباحثُ أنَّ المشاهدَ التي وظفَها الكاتبُ في روايتيْهِ، تحملُ أبعادًا تاريخيةً وحضاريةً ونفسيةً. وقد ركزَ على الأحداثِ الفاصلةِ، والمحطاتِ التاريخيةِ الجوهريةِ، التي شكلتْ نقطةَ تحولٍ للأحداثِ الروائيةِ في الروايتينِ.

- **الوقفةُ:**

الوقفةُ أو "الوقفةُ الوصفيةُ"[٤]، تقنيةٌ يقصدُ بها: "توقفُ مجرى الزمنِ السرديِّ بسببِ جريانِ الوصفِ أو الحوارِ فيه"[٥]. وهيَ التقنيةُ الزمنيةُ الأخرى –إلى جانبِ المشهدِ– التي تعملُ على الإبطاءِ المفرطِ لحركةِ السردِ الروائيِّ، إلى الحدِّ الذي يبدو السردُ كأنهُ قد توقفَ عن التنامي، كما تقدمُ الكثيرَ من التفاصيلِ الجزئيةِ المرتبطةِ بوصفِ الشخصياتِ، أوِ المكانِ، أوِ الزمنِ، على مدى صفحاتٍ منَ الروايةِ، وهي تقنيةٌ نقيضةٌ لتقنيةِ الحذفِ والقفزِ، وتتبدى في الحالاتِ التي يكونُ فيها قصُّ الراوي وصفًا.

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوقُ الأرضَ، مصدر سابق، ص٣٨٧.

(٢) يُنظر: خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٦١، ص ٣٨، ص١٧٥، ص٢٧٩.

(٣) يُنظر: خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص ٧٣، ص١٦٤، ص١٢٤.

(٤) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص١٧٥.

(٥) سمير مرزوقي وجميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة، مرجع سابق، ص٨٦.

وتعدُّ الوقفةُ الوصفيةُ: "من أهمِّ سماتِ الأدبِ الكلاسيكيِّ، فالوظيفةُ الأولى التي أُخذتْ عنِ البلاغةِ التقليديةِ سمةُ التزيينِ والزخرفِ، فالوقفةُ هنا لها دورٌ جماليٌّ وليسَ مجردَ تعطيلٍ للسردِ وبيانِ أثرِ الموضوعِ على الناظرِ والمتأملِ، منْ حيثُ هوُ زخرفةٌ للموضوعِ صاحبِ الوصفِ، أما الوظيفةُ الثانيةُ: فإنها تتخذُ منَ الوصفِ عنصرًا أساسيًّا في تفسيرِ الرموزِ والحمولاتِ التي يحملُها النصُّ، وربطِها بِنيويًّا بالوحداتِ السرديةِ الأخرى"(١).

لذلكَ تشبهُ الوقفةُ الوصفيةُ –إلى حدٍّ ما– الاستراحةُ، حيثُ يستريحُ الساردُ للحظاتٍ معينةٍ، فيوقفَ الزمنَ ويعطلَ حركتَهُ؛ لِيَفِيَ بعمليةِ الوصفِ التي تعدُّ ضرورةً منْ ضرورياتِ العملِ الروائيِّ، حيثُ تقدمُ لنا وجهًا جديدًا للشخصياتِ والأزمنةِ والأمكنةِ الموصوفةِ، كما أنها تحققُ بينَ القارئِ والموصوفِ نوعًا منَ التفاعلِ والإحساسِ المشتركِ بينَهُما.

وقد لجأَ الكاتبُ خلوصي عويضة إلى توظيفِ الوقفةِ الوصفيةِ بشكلٍ كبيرٍ في روايتيْهِ، فجاءَ الوصفُ على ثلاثةِ أنماطٍ:

- **وصفُ الزمنِ:**

جاءَ وصفُ الزمنِ في روايةِ "المباهلة" على لسانِ (أسعد)، يصفُ الإجازةَ وبداياتِ الصيفِ، ومزجه بينَ حرارةِ الصيفِ وحالتِهِ النفسيةِ الصعبةِ بعدَ رحيلِ جدِّهِ وأمِّهِ، وغيابِ والدِهِ، يقولُ: "أتى الصيفُ بشمسِهِ التي تلفحُ الوجوهَ بلا شفقةٍ، فيتسربُ العرقُ من مساماتِ الجسدِ، فتزدادَ ملوحةُ الحياةِ التي خلتْ أيامُها منْ أيِّ جديدٍ، وكلَّتْ الذاكرةُ تبحثُ عن مسرةٍ هنا أو هناكَ، فالوجعُ أقوى، طُوِيَتْ صحائفُ المدرسةِ التي أغلقتْ أبوابَها دونَ أدنى شعورٍ بالأسفِ على رحيلِ أيامِها"(٢).

ويظهرُ وصفُ الزمنِ في رحلةِ سفرِ الجدةِ و(أسعد) إلى العراقِ، حيثُ يبدعُ الكاتبُ خلوصي عويضة عبرَ شخصيةِ (أسعد) بوصفِ زمنِ الرحلةِ ووقتِها، مما يعطي استراحةً للمتلقي، ويوقفُ عمليةَ نموِّ الأحداثِ، ويضفي على الروايةِ بعدًا تزيينِيًّا جماليًّا، يقولُ (أسعد): "معَ زحفِ العتمةِ واهتزازِ الحافلةِ التي مضت على مغادرتِها عمانَ ستُّ ساعاتٍ؛ بدأَ أكثرُ المسافرينَ بإسدالِ ستائرِ النوافذِ، لتخفيَ عن ناظريْهِ وحشةَ ليلِ الباديةِ، مستسلمًا للنعاسِ الذي قادَهُمْ للنومِ، فبدأَ خافتًا، ثمَّ تصاعدَ صوتُ الشخيرِ، وتراجعَ همسُ الكلامِ ونجواهُ، وغفتْ جدتي على كتفيْ رفيقِها في المشيِ والترحالِ، وها هوَ الآنَ وسادةُ نومِها، أفرحُ بذلكَ وأنا ساهرُ العينِ ألاحقُ بنظري سوادَ السماءِ وصفرةَ الأرضِ على ضوءِ القمرِ، وشابه سكون الحافلةِ صمت الصحراءِ، إلى أنْ وصلْنا منطقةَ

(١) ينظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص١٧٦.

(٢) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٩٣.

الحدودِ، فأيقظَ السائقُ النيامَ وعادتِ الحركةُ والأصواتُ تدبُّ في المكانِ"[1].

نلتمسُ في المقطعِ السابقِ جمالياتِ الوصفِ التي زيَّنَ بها الكاتبُ ذلكَ المشهدَ، ونرى جماليةَ الربطِ بينَ جوِّ الصحراءِ وجوِّ الحافلةِ، ومدى التشابهِ في الهدوءِ والسكونِ والعتمةِ، وهوَ بذلكَ يُعطي للمتلقي مجالًا للراحةِ، ومَنْ ثَمَّ للتأملِ والتمتعِ بتوقيفِهِ نموَّ الأحداثِ.

وجاءَ وصفُ الزمنِ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" على لسانِ (نصيف)، حيثُ يصفُ معاناتَهُ، وسببَ تعمدِ أسرتِهِ الوهميةِ في إبعادِهِ عنِ الدينِ، يقولُ: "سنواتٌ ملوثةٌ بالضبابيةِ مطمورةٌ بحيْرَةٍ يتخُ أو ينخُ أمامَها ذوو الأبصارِ وأولوا الفهومِ، فما بالكَ بمثلي؟ برعمةٌ تتوقُ لأنْ تتفتحَ وتنفتحَ على الحياةِ، فإذا الأبوابُ مُوْصَدَةٌ محكمةُ الإغلاقِ، انكسارُ نفسٍ يغشاني، فلا يقنعُ العقلَ على صغرِهِ بما يسمعُ، لكنه لا يملكُ إلا أنْ يصمتَ، كانَ صوتُ الأذانِ الذي يطرقُ السمعَ طوالَ الوقتِ كفيلٌ وحدَهُ بأنْ يحركَ معَ الوجدانِ مياهَ العقلِ التي أريدُ لها أنْ تبقى من هذهِ الناحيةِ فقطْ راكدةٌ، آسنةٌ، متعفنةٌ، ضحلةٌ، لكنْ هيهاتَ فحجرُ المآذنِ يفعلُ فعلَهُ مثيرًا عاصفةَ تساؤلاتٍ بريئةٍ صامتةٍ صادقةٍ، جوهرُها واحدٌ: لماذا لستُ مثلَهُمْ؟"[2].

يتجلى في المقطعِ السابقِ حجمُ المعاناةِ التي كانتْ تحيطُ بـ(نصيف) من كلِّ جانبٍ، منذُ بداياتِ الطفولةِ، فقد كانَ محاصرًا في بيئةٍ تفرضُ عليهِ الابتعادَ عنِ الدينِ، لكنَّ صوتَ الأذانَ كانَ يخترقُ كلَّ هذهِ الحجبِ؛ ليتسللَ إلى فطرتِهِ السليمةِ، وتجعلُهُ يفكرُ من خلالِ المونولوج الداخليِّ، فيطلقُ عبارته: " لماذا لستُ مثلَهُمْ؟!"، لتدفعَهَ تلكَ العبارةُ للبحثِ فيما بعدُ عنْ ماهيةِ الدينِ الإسلاميِّ، وينهيَ حياتَهُ مسلمًا، ويدفنَ في مقابرِ المسلمينَ.

كذلكَ يصفُ (نصيف) رحلةَ حياتِهِ منَ الطفولةِ وزمنِ الدراسةِ، حتى دخولِهِ سجنَهُ وانتظارِهِ لتنفيذِ حكمِ الإعدامِ بحقِهِ، وفي وصفِ الزمنِ دلالاتٌ وانعكاساتٌ على شخصيةِ (نصيف)، يقولُ: "بدأَ العامُ الدراسيُّ الثاني، وبدا لي أنَّ أيامَهُ أبديةٌ ستطولُ إلى ما لا نهايةَ، فلا يخفى عليكَ أنَّ الإحساسَ بالزمنِ طولًا وقصرًا، صمتًا وصخبًا، أو بركةً وعدمًا، يعتمدُ على جملةِ أشياءَ، منها العمرُ بلا شكٍّ، لكنَّ سطوةَ التأثيرِ يحملُ رايتَها الترقبُ وقوى التحفزِ العقليةُ وحالةُ القلبِ المعبَّرِ عنها بالنفسِ الوجدانيةِ، أهي معافاةٌ أم تنزفُ قلقًا، يكادُ يغرقُها نهرُهُ الممتدُّ منَ النبعِ زمنَ الطفولةِ مرورًا بالمجرى سنواتٍ تاليةً، وصولًا إلى المصبِّ عمّا قريبٍ"[3].

([1]) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٠٠.

([2]) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٣٣.

([3]) المصدر السابق، ص٣٦.

يتجلى في المقطعِ السابقِ إبداعُ الكاتبِ عويضة في اللعبِ بالزمنِ، فهوُ يسترجعُ الأحداثَ منَ النهايةِ إلى البدايةِ، ثم يعودُ ليرصدَ لنا بواكيرَ حياةِ البطلِ (نصيف)، وكيفَ كانَ يرى الأيامَ ويحسبُها، ثم يلخصُ لنا مجرى حياتِهِ كلِّها، ليصلَ إلى ليلةِ المصبِّ التي فيها نهايتُهُ.

- **وصفُ المكانِ:**

يعتمدُ الفنُّ الروائيُّ على الوصفِ التفصيليِّ للمكانِ، ويراعي الكاتبُ في ذلكَ دمجَ الوصفِ بالنصِّ بصورةٍ فنيةٍ، ويلاحظُ أنَّ الكاتبَ خلوصي عويضة قد أعطى للمكانِ أوصافَهَ، ورصدَهُ بدقةٍ، ووظفَ هذا الوصفَ توظيفًا جماليًّا، وجعلَهُ مُفسرًا للشخصياتِ والأحداثِ.

جاءَ وصفُ المكانِ في روايةِ "المباهلة"، ليصفَ المسجدَ الإبراهيميَّ في مدينةِ الخليلِ، ودلالةَ هذا الوصفِ وطبيعةَ المكانِ وقداستَهُ على شخصياتِ الروايةِ، يقولُ: "ويصطحبُهُ معَهُ للصلاةِ في الحرمِ الإبراهيميِّ، رابعِ الأماكنِ المقدسةِ عندَ المسلمينَ، تحتضنُهُ بمودةٍ ووفاءٍ جبالُ الخليلِ، وتحيطُ به قراها العامرةُ تحرسُهُ من زيْفِ المدَّعينَ، مؤكدةً صِلاتِها الروحيةَ العميقةَ الممتدةَ عبرَ آلافِ السنينَ بهذا الترابِ والبناءِ المقدسِ، حيثُ مهجعُ العظامِ الطاهرةِ التي أبلتْ في ميدانِ سعادةِ البشريةِ، تنقلُها من وحلِ الجاهليةِ وظلامِ الوثنيةِ إلى جلالِ التوحيدِ ونورِ ربِّها، أينما وكيفما ولَّيْتَ وجهَكَ؛ فكلُّ ما حولَكَ يختزلُ تاريخَ الإنسانِ والكائناتِ"[١].

ثم يضيفُ واصفًا جمالَ مدينةِ الخليلِ ومحيطِها منَ القرى والمدنِ وصولًا إلى مدينةِ القدسِ والمسجدِ الأقصى: "فهنا تربضُ يَطّا الوادعة وخربةُ بيتِ عوّا وبيتِ فجارٍ، دعْ البصرَ يلتفتْ يُمنةً ويُسرةً ماذا ترى؟ بني قيسٍ، بني نعيمٍ، تفوحَ، دوراَ، الفوارَ، الشيوخَ، سعيرَ، ثم أطلقْ لبصرِكَ العنانَ ترَ حلحولَ تلوحُ للأقصى مهوى الأفئدةِ، خلفَ الجدرانِ المتشققةِ أحفادٌ بينَ قائِمٍ وراكعٍ وساجدٍ وغافلٍ ونائمٍ"[٢].

يتجلى في المقطعينِ السابقينِ اهتمامُ الكاتبِ برسمِ صورةِ البيئةِ الفلسطينيةِ منْ خلالِ وصفِهِ للمسجدِ الإبراهيميِّ ومدينةِ الخليلِ والمدنِ والقرى الأخرى وصولًا إلى المسجدِ الأقصى؛ وذلكَ لما تحملُهُ هذهِ الأماكنُ من قداسةٍ وأهميةٍ في حياةِ الفلسطينيِّ، ووجدانِهِ، وقدْ شكلتْ هذهِ الأماكنُ الأيديولوجيا والأفكارَ لدي شخصياتِ روايةِ المباهلةِ، فهذهِ الأماكنُ بلا شكٍّ قدْ ساهمتْ في تشكيلِ الوعيِّ والفكرِ لدى الشخصياتِ.

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٣.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

نلاحظُ أنَّ الكاتبَ جاءَ بوصفِ المكانِ هنا ليعززَ الأفكارَ الأيديولوجيةَ لدى شخصياتِ الروايةِ من أصحابِ الأرضِ الحقيقيينَ (أسعد) و(هادي) و(عادل) وغيرِهِمْ، أمامَ الاحتلالِ الذي جاءَ يُحاربُ الفلسطينيَّ بالأيديولوجيا والسلاحِ والدمِ.

يأتي وصفُ المكانِ في قولِ هادي حينَ يصفُ منزلَهُ: "أجلسُ الآنَ تحتَ سقفِ داليةِ سطحِ بيتِنا تتدلى أمامي قطوفُ العنبِ الحصرمِ محروسةً بظلالِ أوارقِ الدوالي الوارفةِ... نسمةُ هواءٍ باردةٍ منْ أوائلِ ليالي شهرِ آيارَ تداعبُ النفسَ، تحاولُ أنْ تُنْعشَها، وتطردُ شبحَ قلقِها الذي بدأَ يضربُ في تخومِ العقلِ يُنَبِّهُ إلى أنني قدْ أُواجِهُ معضلةً، ولا بدَّ منَ التفكيرِ في سبلِ حلِّها من خلالِ تفكيكِها"[١].

يظهرُ انعكاسُ المكانِ ووصفُهُ على شخصيةِ الدكتور (هادي)، فدلالةُ وصفِ المنزلِ وسطحِهِ بأشجارِ العنبِ الخضراءِ اليانعةِ تبعثُ في نفسِهِ الهدوءَ والسكينةَ وهذا ما كانَ يتمتعُ به (هادي) بادئَ الأمرِ.

فلمْ يقصدِ الكاتبُ هنا وصفَ المكانِ للجانبِ الجماليِّ أو التزينيِّ فقطْ، بلْ ليكشفَ أيضًا تأثيرَ المكانِ وقيمتَهُ وقداستَهُ وانعكاسُ ذلكَ على الشخصياتِ.

أما عنِ وصفِ المكانِ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، فقدْ جاءَ ليحملَ دلالاتٍ ضمنيةً ترتبطُ بشخصيةِ (نصيف) ومناخِها النفسيِّ والاجتماعيِّ، يقولُ مخاطبًا (نجيب): "وسيتضحُ لك جانبٌ آخرُ من عتمةِ الملامحِ حينَ تعلمُ أنني لا أنتمي روحيًّا لمكانٍ بعينِهِ، فقدْ وُلدتُ في فلورنسا بإيطاليا، وعشتُ طفولتي المبكرةَ في فرنسا، وترعرعتُ صبيًّا في مصرَ، ثم بواكيرُ زغبِ شاربي نمتْ في المغربِ، حيثُ وجدتُني فتيً يافعًا، لذلكَ لا تشغلني كثيرًا مسألةُ الوطنِ"[٢].

نلاحظُ أن هذا الوصفَ جاءَ ليعكسَ للقارئِ حالةَ العزلةِ، وعدمَ الشعورِ بالانتماءِ إلى الوطنِ عندَ (نصيف). ثم يأتي الكاتب على وصفِ الفنادقِ التي يمتلكُها عناصرُ الماسونيةُ، يقولُ (نصيف): "طافَ بصري يجوسُ أرجاءَ المكانِ، ودُرْتُ حولَ نفسي أتفحصُهُ جيدًا فغشيتْني سحابةُ مشاعرَ غيرِ متآلفةٍ، كأنَّ بعضَها يكيدُ لبعضٍ!!... لكأني أقفُ في حضرةِ قلعةٍ من قلاعِ العصورِ الوسطى، فطرازُ البناءِ مصمَّمٌ هندسيًّا بطريقةٍ توحي بالأصالةِ والعراقةِ التاريخيةِ"[٣].

هذا الوصفُ تنعكسُ دلالاتُهُ على شخصيةِ (كريم)، الذي كانَ يتمتعُ برغدِ العيشِ وبحبوحتِهِ،

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٥١.

(٢) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٩.

(٣) المصدر السابق، ص٤٦.

وهو ما انعكسَ على تصرفاتِهِ ومواقفِهِ وصراعِهِ معَ (نصيف).

ويرى الباحثُ أنَّ وصفَ المكانِ في الروايتين، كانَ مُحمَّلًا بدلالاتٍ ورموزٍ نفسيةٍ وفكريةٍ لها علاقةٌ بمضامينِ الروايتينِ؛ تؤدي وظائفَ معينةً في عمليةِ السردِ الروائيِّ.

- **وصفُ الشخصياتِ:**

ظهرَ وصفُ الشخصياتِ بشكلٍ واضحٍ وجليٍّ عندَ الكاتبِ خلوصي عويضة في روايتيِ "المباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، حيثُ تناولَ وصفَها بجميعِ أبعادِها وصفاتِها النفسيةِ والجسديةِ والاجتماعيةِ والثقافيةِ، وقدْ تناولْنا هذا الوصفَ بأبعادِهِ المختلفةِ في الفصلِ الثالث من الدراسةِ بشكلٍ مستقلٍ، وفيه مزيدُ تفصيلٍ وإيضاحٍ.

في روايةِ "المُباهلة"، جاءَ الوصفُ الخارجيُّ لشخصية (أسعد)، على لسانِهِ إذْ يقولُ: "تأملتُ وجهي أمامَ المرآةِ؛ فوجدتُهُ مستريحًا تزينُهُ ابتسامةٌ غريبةٌ، فرحَّبْتُ بها وأنا أسرِّحُ شعري شديدَ السوادِ والنعومةِ، وارتديتُ ملابسي وخرجتُ"(١). منَ ذلكَ نستنتجُ حالةَ الفرحِ التي انتابتْ (أسعد) بعدما سافرَ إلى العراقِ والتقى بعمِّهِ، وجدِّهِ الثاني، هذا الوصفُ ينعكسُ بدلالاتِهِ على حالةِ الفرحِ والسعادةِ الغريبةِ التي مرَّ بها (أسعد)، ونفهمُ ذلكَ من عبارةِ "ابتسامةٌ غريبةٌ".

كذلكَ يقدمُ الساردُ شخصيةَ (سامي) من خلالِ الحوارِ الذي دارَ بينَه ووالدِهِ (أنور)، ويظهرُ التزامُ (سامي) وتحليهِ بالأخلاقِ الحميدةِ خلافَ والدِهِ، يقولُ الراوي: "ثم عابَ على نفسِهِ معايرتَهُ ولدَهُ باستقامةِ خلقِهِ، ونأيِهِ عن حظوظِ اللهوِ والعبثِ مثلَ أقرانِهِ، بلْ هوَ ملتزمٌ"(٢).

ويظهرُ ذلكَ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، في وصفِ (نصيف) لصديقتِهِ (فيروز)، يقولُ: "التحقتْ (فيروز) بكليةِ الآدابِ بجامعةِ "عين شمس"، كانتْ فتاةً مسترجلةً، تحتاجُ وأنتَ تُطالعها إلى مجهودِ نظرٍ بحثًا عن مواضعِ الأنثى فيها، فهيَ ممسوحةُ الصدرِ والبطنِ معًا، بعكسِ الفخذينِ والساقينِ بهِما وفرةُ لحمٍ ملحوظةٍ، جعلَ أشهى ما فيها رِدْفَيْها المتراقصينِ بقوةِ طربٍ على إيقاعِ خطواتِها السريعةِ، بمساعدةِ شعرِها القصيرِ الخشنِ المكتومِ الأنفاسِ بطاقيةٍ تضعُها بشكلٍ معكوسٍ، فشابهتْ بعضلاتِ ساعديْها بلطجيةَ الحواري والعشوائياتِ، لكنَّ صوتَها الذي توقعتُ أنْ ينتميَ لفصيلةِ الزواحفِ فيبقبقُ كنقيقِ ضفدعٍ جاءَ مغايرًا يُعدلُ الميزانَ، فسحرُ نعومتِهِ وتكسرُهُ تجعلُهُ مختلفًا، بلْ آسرًا فاتحًا كالمقبلاتِ لشهيةِ الشهوةِ بتمايلِهِ متماوجًا برفقٍ ودفءٍ"(٣).

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص ١٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٣) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٢٥٢.

هذا الوصفُ التفصيليُّ الخارجيُّ لشخصيةِ (فيروز) لهُ علاقةٌ قويةٌ بالوظيفةِ السرديةِ التي شكلتِ البناءَ الروائيَّ للروايةِ، وذلكَ خدمةً لأفكارِ الماسونيةِ التي تجعلُ من جسدِ المرأةِ مشاعًا للجميعِ، فـ(نصيف) في وصفِهِ هذا يُظهرُ اندماجَهُ معَ أهدافِ العشيرةِ وتساوقَهَ معَ أهدافِها الخبيثةِ، ليؤكدَ ووقوعَهُ في براثنِها، والتي سيدفعُ ثمنَها لاحقًا في نهاية الأحداثِ.

ونرى ذلكَ في وصفِ (رباح) لـ(نصيف) بعدَ حوارِهِما المطولِ، وطلبِ (رباح) من (نصيف) عدمَ طرحِ الأسئلةِ على أفرادِ العشيرةِ، أو التعجلِ في كشفِ المعلوماتِ، يقولُ (رباح) واصفًا (نصيف): "ولكنكَ كما أعتقدُ محطُّ أنظارِ القومِ، وأملُ أبيك في أنْ تسيرَ على دربِهِ وتواصلُ طريقَ مجدِهِ"[١].

إنَّ المتأملَ لتقنياتِ المدةِ الزمنيةِ يجدُ أنَّ كلَّ وقفةٍ أو مشهدٍ أو حذفٍ أو تلخيصٍ تقدمُ وظيفةً سرديةً ذاتَ علاقةٍ بالبناءِ السرديِّ، فكانَ وصفُ المكانِ أو الزمنِ خادمًا لشعورِ المعاناةِ وحالةِ الصراعِ التي عايشَها أبطالُ الروايتينِ، لاسيما (أسعد) و(نصيف)، ونلاحظُ أنَّ الكاتبَ قد نوَّعَ بينَ التسريعِ والإبطاءِ للسردِ، وكانَ استخدامُهُ لهذهِ التقنياتِ استخدامًا منظمًا حسَبَ الحاجةِ، وجاءتْ لغتُهُ شفافةً منسابةً خلطَ فيها بينَ اللغةِ الشعريةِ والنثرِ، فأنتجَ لنا ألفاظًا جذابةً ذاتَ معانٍ رائعةٍ حذتْ بالقارئِ أن يتابعَ أعمالَهُ الروائيةَ، ويتناولَها الناقدونَ والباحثونَ بالتحليلِ والدراسةِ.

المبحثُ الخامسُ: تجلياتُ المكانِ في روايتِي "المُباهلة" و "الأفعى تطوقُ الأرضَ":

يحظى المكانُ بقيمةٍ دلاليَّةٍ وفنِّيةٍ تُوازي، على نحوٍ ما، القيمَ الأخرى لعناصرِ الفنِّ الرِّوائيِّ؛ لكونِهِ شكلًا فاعلًا فيها، فهوَ الموضعُ الذي تَجري عليهِ الأحداثُ، وتتحرَّكُ خلالَهُ الشَّخصيَّاتُ، ويأخذُ دلالتَهُ من خلالِ السياقِ الذي وُضع فيهِ.

ويظهرُ المكانُ في أيِّ روايةٍ عبرَ محطاتٍ متقطعةٍ؛ لأنَّ ضوابطَهُ في الراويةِ متصلةٌ بلحظاتِ الوصفِ والحوارِ والسردِ، وبلا شكَّ فإنَّ نموَ الأحداثِ وتعددَها يفترضُ تعدديةَ الأماكنِ، وبالتالي يتشكلُ الفضاءُ الروائيُّ منْ مجموعِ الأماكنِ.

ميَّزَ النُّقادُ بينَ المكانِ والفضاءِ والحيِّزِ[٢]، وفصَلوا بينَ هذهِ المصطلحاتِ، واعتبروا أنَّ الفصلَ بينَ مصطلحي المكانِ والفضاءِ يخدمُ في التحليلِ الفنيِّ، وذلكَ لأنَّ الحديثَ عن مكانٍ محددٍ في الروايةِ يفترضُ توقفًا زمنيًّا لسيرورةِ الحدثِ، في حينِ أنَّ الفضاءَ يفترضُ دائمًا تصورَ

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص١٢٣.

(٢) يُنظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، مرجع سابق، ص١٢١.

الحركةِ داخلَهُ[١]. وفضَّل بعضُهُمُ اسْتخدامَ مصطلحِ الحيّزِ بدلًا من مصطلحِ الفضاءِ؛ لأن الحيزَ ينصرفُ استعمالُهُ إلى الوزنِ والثقلِ والشكلِ والحجمِ، بينما الفضاءُ يكونُ مرتبطًا بالخواءِ والفراغِ[٢].

وقدْ يكونُ المكانُ الروائيُّ مستمدًا منَ الواقعِ، فيعدُ صلةَ وصلٍ بينَ الواقعِ والروايةِ، وقد يكونُ متخيلًا. "يُعدُّ المكانُ عنصرًا جوهريًّا في تشكيلِ فضاءِ الروايةِ، وهوَ أبرزُ تقنياتِ الراويةِ الدالةِ، وذلكَ من خلالِ الحضورِ والغيابِ، وقد يُوْجِدُ الروائيُّ متخيلًا لا يرتبطُ موضوعيًّا بالمكانِ ذاتِهِ، وقدْ يكونُ الفضاءُ المكانيُّ محددًا، ومعلومًا"[٣].

تتجلى للمتلقي من خلالِ رسمِ المكانِ العلاقةُ بينه وبينَ عناصرِ السردِ الروائيِّ، وكانَ الباحثُ قد بيَّنَ في بدايةِ الفصلِ الرابعِ علاقةَ المكانِ بالزمنِ والعكسَ، أما عن علاقةِ المكانِ بالشخصياتِ، فلا يمكنُ تجاهلُ العلاقةِ بينَهُما، فأيُّ مكانٍ يقترنُ بسكانِهِ، كما تقيمُ الشخصيةُ معَ المكانِ علاقةً نفسيةً، وقد تتوحدُ معَهُ لدرجةِ أنسنتِهِ، وقد تقيمُ معَهُ علاقةَ عشقٍ وتجعلُهُ بوصلةَ انتمائيةً: "فالمكانُ حقيقةٌ معيشةٌ يؤثرُ في البشرِ بالقدرِ نفسِهِ الذي يؤثرونَ فيهِ"[٤]. وحياةُ الشخصيةِ تفسرُها طبيعةُ المكانِ الذي تعيشُ فيهِ، وهوَ يكشفُ عن الشخصياتِ ويعطيها قيمةً: "فالمكانُ قطعةً شعوريةً وحسيةً من ذاتِ الشخصيةِ نفسِها"[٥].

وللمكانِ انعكاسُهُ في الشخصياتِ، فالقصرُ الواسعُ قد يكونُ سجنًا في نظرِ الشخصيةِ، وقد يكونُ السجنُ بعزلتِهِ مكانًا واسعًا، كما كانَت شخصيةُ (نصيف) في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، الذي كانَ يعيشُ في قصرٍ منيفٍ، لكنه ضاقَ عليهِ، وكانَ السجنُ فضاءً رحبًا له بعدما انعزلَ عنِ الماسونيةِ، وكانتْ معاملةُ سجَّانَهُ باحترامٍ ومودةٍ، يقولُ: "أمسِ استدعاني مديرُ السجنِ مجددًا، وأستطيعُ أنْ أؤكدَ لكَ (نجيب) أن مودّتَهُ أو شفقتَهُ صادقةٌ، وليستْ زائفةً كإخوتِنا، وقدْ ألمحَ لي بموافقتِهِ على مساعدتي بشأنِ أوراقِ حياتي المحبّرةِ"[٦].

ويرتبطُ المكانُ بالأيديولوجيا كارتباطِهِ بالشخصياتِ، وإذا أنعمْنا النظرَ في العلاقةِ القائمةِ

([١]) يُنظر: حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص٦٣.

([٢]) يُنظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، مرجع سابق، ص١٢١.

([٣]) عبد الحميد المحادين، التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف، مرجع سابق، ص١٩.

([٤]) يوري لوتمان، مشكلة المكان الفني، ترجمة: سيزا قاسم، مجلة البلاغة المقارنة، الجامعة الأمريكية، القاهرة، عدد (٦)، ١٩٨٦م، ص٨٣.

([٥]) يُنظر: المرجع السابق، ص١٣٢.

([٦]) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٨٠.

بينَ الأيديولوجيا والشخصياتِ تمكّنا منَ اكتشافِ الدلالاتِ الرمزيةِ والفكريةِ لبعضِ الأماكنِ وانعكاسِها على أدوارِ الشخصياتِ وصراعاتِها الفكريةِ. "فالشخصياتُ تعيشُ في المكانِ، وتتصارعُ فيهِ، وقد يكونُ هوَ المفتاحُ لفهمِ الشخصيةِ، فيكشفَ عن سماتِها وانتماءاتِها، وأيديولوجيتِها"[1].

إذنْ فالمكانُ يمارسُ سطوتَهُ على الإنسانِ؛ بحيثُ تكتسبُ بعضُ الأماكنِ خصوصيتَها من خلالِ تفاعلِ الناسِ معَها، وتؤثرُ على الوعيِ العامِّ للإنسانِ بالمكانِ، فعلاقةُ الإنسانِ معَ المكانِ مهمةٌ في مراحلِ حياتِهِ جميعِها، وقد يتجذرُ المكانُ في نفسيةِ الإنسانِ ويؤثرُ فيها، ويعبرُ عنها الروائيُّ بطريقةٍ فنيةٍ[2]. وفي هذا الجانبِ سيشارُ إلى بعضِ الأماكنِ التي كانَ لها دورٌ أساسيٌّ في بناءِ الرؤى الأيديولوجية وتشكيلها، والتي حفلتْ بهما الروايتانِ.

رصدَ الباحثُ في روايتي "المباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ" مجموعةً منَ الأمكنةِ التي لا يقتصرُ دورُها على استضافةِ الحدثِ فحسَبْ، بلْ يمتدُّ إلى المساهمةِ في تشكيلِ الأفكارِ والرؤى المتعلقةِ بالقضايا الأيديولوجيةِ وصياغتِها، وذلكَ من خلالِ العلاقاتِ التي تقيمُها الشخصياتُ معَ هذهِ الأمكنةِ، مثلَ دلالةِ الصحراءِ وطبيعتِها الجافةِ والصعبةِ التي انعكستْ في مواقفِ الشخصياتِ في روايةِ "المُباهلة" بمزيدٍ منَ التشددِ والإيغالِ في الصراعِ معَ العدوِّ الأمريكيِّ أوِ الاقتتالِ الداخليِّ ضدَّ الشيعةِ، يقولُ (أسعد): "ليسَ لفصلِ الخريفِ في الصحراءِ معالمُ محددةٌ كما هوَ الحالُ في الموصلِ درّةِ نينّوى، وسنجارَ، وتلعفرَ، وتكريتَ، وصلاحِ الدينِ، والرمادي، وديالي، وعاصمةِ الكوارثِ والأحزانِ بغدادَ، التي ابتلعتْ بعسرِ هضمٍ شديدٍ سنواتٍ قاحلةً منَ العمرِ، تلكَ المدنُ على وجهِ الخصوصِ كانتْ مسرحًا لعملياتِنا القتاليةِ، في الصحراءِ وحدَهُ البردُ القارسُ الذي يفوقُ صقيعَ المدنِ هوَ العلامةُ الأبرزُ مصحوبًا بعصفِ الريحِ المغبرةِ"[3].

ويتجلىُ انعكاسُ المكانِ في شخصياتِ روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، فالطريقُ الغامضُ إلى المعبدِ الماسونيِّ كانَ يعكسُ صورةَ الماسونيةِ وغموضِها وأساليبِها المتشعبةِ والمتعددةِ في نشرِ أفكارِها ومبادئِها، وهذا ما يستشفُّهُ الباحثُ من رسمِ الكاتبِ لطريقةِ الوصولِ إلى المعبدِ، الذي ينتهي ببوابةٍ إلكترونيةٍ لا تفتحُ إلا برقْمٍ سريٍّ خاصٍّ معَ كاتمِ السرِّ الأعظمِ للمحفلِ الماسونيِّ في مصرَ. يصف (نصيف) ذلكَ: "كنّا في ساحةٍ رمليةٍ مكشوفةٍ بها بضعُ سياراتٍ إلى جوارِها السيارةُ التي أقلتْنا، ما أنِ ابتعدْنا قليلًا حتى نزلَنا درجًا اسمنتيًّا قادَنا إلى ساحةٍ أخرى، مبلطةٍ كفناءِ المدرسةِ قادتْنا إلى ممرٍ وحيدٍ، قادَنا بدورِهِ إلى ساحةٍ دائريةٍ معشبةٍ أصغرَ من سابقتِها، ثمَّ هبطْنا مجددًا سلمًا حديديًّا ينتهي إلى معبرٍ كالزقاقِ، يتسعُ لشخصينِ، على جنبيْهِ أبوابٌ عديدةٌ مغلقةٌ

([1]) يُنظر: نداء مشعل، الوصف في تجربة إبراهيم نصر الله، وزارة الثقافة، عمان، ط١، ٢٠١٥م، ص٣٩.

([2]) يُنظر: حنين معالي، الرواية بين الأيديولوجيا والفن، ط١، مرجع سابق، ص٢٥٩. بتصرف.

([3]) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٢٠.

ومراقبٌ بكاميراتٍ ذكّرتْني بأبوابِ نُزُلِ (كريم) بالدارِ البيضاءِ، وفي آخرِهِ أو صدارتِه أو واجهتِه بابٌ كانَ واضحًا أننا نتجهُ إليهِ، فلم يعدْ بمرمى البصرِ أدراجٌ، وممراتٌ، وساحاتٌ إلا أنْ يكونَ البابُ منفذًا جديدًا إليْها، ما أنْ وصلَنا، حتى أدخلَ (كريم) رقْمًا سريًّا مشفرًا في اللوحةِ الإلكترونيةِ المثبتةِ على يسارِ البابِ؛ فانفتحَ لتستقبلَنا (مانويلا) هاشةً باشةً مما جعلَ باطني الخائرَ المتهالكَ يتماسكَ قليلًا، وحيّاني (رامون) بنظراتٍ ثاقبةٍ، ثمَّ نطقَ بالفصحى قائلًا: مرحبًا بكَ أخَ (نصيف) في معبدِ الفنِّ والفلسفةِ لعشيرةِ البنائينَ الأحرارَ"[١].

مما سبقَ يتضحُ لنا أنَّ المكانَ في روايتي الكاتبِ خلوصي عويضة "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ" يُعدُّ منْ أولوياتِ خططِ الكاتبِ عويضة الفكريةِ والفنيةِ، حيثُ منحَهُ حضورًا وأهميةً، وانعكستْ دلالاتِهِ على الشخصياتِ وأيديولوجياتِها، وعلى سيرِ الأحداثِ، وكانَ الروائيُّ بمثابةِ النحّاتِ الذي ينحتُ منَ الصخرِ أشكالًا وأبعادًا مكانيةً، ثم يُضفي عليها مسمياتِهِ التي أرادَها، ويحركُ عليها الشخصياتِ بأفكارِها وصراعاتِها، ويبني معمارَهُ الفنيَّ مستعينًا بأدواتِهِ الفنيةِ وتقنياتِ العملِ الروائيِّ المختلفةِ.

ويبدو اهتمامُ الكاتبُ بالمكانِ ظاهرًا في روايةِ "المُباهلة"، وذلكَ من خلالِ تركيزِهِ على البيئةِ المحليةِ، وذكرِهِ للأماكنِ والمدنِ الفلسطينيةِ، منطلقًا منَ مدينةِ الخليلِ، صعودًا إلى الجليلِ، ونزولًا إلى غزةَ ورفحَ، وانطلقَ مسافرًا بالفضاءِ المكانيِّ إلى سوريا والأردنِ والعراقِ، ثم خارجَ الحدودِ العربيةِ، ليصلَ إلى أفغانستانِ وباكستانِ والولاياتِ المتحدةِ واصفًا مدنَها وكأنه يعيشُ فيها، يقولُ على لسانِ الراوي في وصفِ مدينةِ نيويوركَ: "وأينَما نظرتَ طالعتْكَ ناطحاتُ السحابِ بقممِها التي تداعبُ صفحةَ الغيومِ، شوارعُها فسيحةٌ نظيفةٌ تزينُها خضرةُ الأشجارِ الداكنةِ وبريقُ الأضواءِ الساطعةِ، كشارعِ –برود واي– و–آدم وآدلر بالاس– وتمرُّ بكَ تلكَ الحديقةُ الغناءُ – سنترال بارك–، وأحياؤُها كثيرةٌ أشهرُها –مانهاتن– و–برونكس–"[٢].

وفي روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، تجلتْ براعةُ الكاتبِ بالتنقلِ والخروجِ منَ النطاقِ المحليِّ ليحلقَ في الأماكنِ العربيةِ والعالميةِ، فنرى أحداثَ الروايةِ تتحركُ في مصرَ والمغربِ وتونسَ وإيطاليا، ويبرزُ وصفُهُ لحديقة –بوبولي– في مدينةِ فلورنسا الإيطالية معقلِ الماسونيةِ الأولِ، وكأنه يعيشُ في المكانِ، يتضحُ ذلكَ على لسانِ (نصيف): "وعندَ مرورِنا بمحاذاةِ حديقةِ – بوبولي– الغناءِ كغانيةٍ ازيّنتْ بأبهى صورِها الفاتنةِ، تبادلْنا الرأيَ بالنظرِ؛ فصوّبْنا وجهةَ أقدامِنا نحوَها، عبرَنا الممرَّ المفروشَ بأوراقِ الشجرِ المتساقطةِ من كلِّ نوعٍ ولونٍ، واجتزْنا المدخلَ

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٦٩،٧٠.

(٢) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٥.

المحروسَ بتمثالينِ من الرخامِ، ثمَّ تاهتْ أرواحُنا بحضرةِ وحشةِ الجمالِ وسحرِهِ"[١].

تعددتْ تقسيماتُ النقادِ للمكانِ[٢]؛ لاختلافِ الأماكنِ وطبيعتِها في الأعمالِ الروائيةِ، فلكلِّ روايةٍ خصوصيتُها. وقدِ اعتمدَ الباحثُ تقسيماتِ الناقدِ حسن بحراوي[٣]؛ لقربِها الكبيرِ من موضوعاتِ الدراسةِ، وهوَ تقسيمٌ منطقيٌّ وواقعيٌّ، وتكادُ لا تخلو روايةٌ منه، فأيُّ شخصيةٍ تعيشُ في أماكنَ واسعةٍ أو ضيقةٍ.

وفيما يلي يستعرضُ الباحثُ تجلياتِ المكانِ في روايتِي "المباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، وذلكَ من خلالِ تناولِهِ لعددٍ منَ الأماكنِ المغلقةِ والأماكنِ المفتوحةِ ودلالاتِهما.

أولًا: الأماكنُ المغلقةُ:

وهيَ الأماكنُ التي تحدُّها الحدودُ من جوانبِها الثلاثةِ أوْ لها سقفٌ واحدٌ على الأقلِ. و"الحديثُ عنها هو حديثٌ عنِ المكانِ الذي حُددتْ مساحتُهُ ومكوناتُهُ، كغرفِ البيوتِ، والقصورِ، فهوَ المأوى الاختياريُّ والضرورةُ الاجتماعيةُ، أو كأسجيةِ السجونِ، فهوَ المكانُ الإجباريُّ المؤقتُ، فقد تكشفُ الأماكنُ المغلقةُ عن الألفةِ والأمانِ، أو قدْ تكونُ مصدرًا للخوفِ"[٤].

وتظهرُ لدى الكاتبِ عويضة في البيتِ، والمسجدِ، والمستشفى، والجامعةِ، والسراديبِ، والأنفاقِ، والمطارِ، والفندقِ، والمحكمةِ، ومحافلِ الماسونيةِ، ومعابدِ الفنِّ المغلقةِ، وغيرِها. وسيتناولُ الباحثُ حضورَ هذهِ الأماكنِ ودلالاتِ ذلكَ في الروايتينِ كالتالي:

- **البيتُ:**

البيتُ هوَ المأوى الذي يشكلُ للإنسان كينونتهُ، وبدونِهِ يعيشُ مشردًا، لذلكَ حرَصَ على التمسكِ بهِ والمحافظةِ عليهِ، حتى وإنْ أُجبرَ على تركِهِ قسرًا أو ابتعدَ عنه مختارًا؛ يبقى يسكنُ في الإنسانِ أينما حلَّ وارتحلَ، وكلما مرَّ شريطُ الذكرياتِ حنَّ إليهِ، فالبيتُ: "جسدٌ وروحٌ وهوَ عالمُ الإنسانِ الأولُ قبلَ أنْ يُقذفَ بالإنسانِ في العالمِ كما يرى بعضُ الفلاسفةِ الميتافيزيقيينَ"[٥].

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٨٠.

(٢) أشهر هذه التقسيمات: تقسيم (بروب)،و(غريماس)، و(مول وريمير).

(٣) قسمه إلى: أماكن الإقامة الاختيارية، وأماكن الإقامة الإجبارية وأماكن الانتقال العمومية، وأماكن الانتقال الخصوصية.

(٤) مهدي عبيدي، جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د.ط، ٢٠١١م، ص٤٣.

(٥) غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠م، ص٣٨.

وعرضَ الكاتبُ خلوصي عويضة صورةَ البيتِ في روايتيْهِ بشكلٍ ظاهرٍ، وظهرَ ذلكَ في روايةِ "المُباهلة" على لسانِ (أسعد) في وصفِهِ لبيتِهِ بعدما زارَهُ الدكتور (هادي)، فيقولُ: "ودخلَ غرفةَ النومِ التي باتتْ تضمُني و(أسماء) وجدتَنا، وفي البيتِ ثلاثُ أخرى مغلقةٌ رحلَ ساكنوها، وحدَهُ أبي طوعًا والأخرونُ قتلًا وسجنًا ونفيا"[1].

قدم الكاتبُ في وصفِهِ إشاراتٍ لحالِ أفرادِ الأسرةِ، وكذلكَ انعكستْ دلالتُهُ وأبعادُهُ على (أسعد) فيما بعدُ، حيثُ شكَّلَ أيديولوجيتَهُ الثوريةُ المعبأةُ على الانتقامِ والثأرِ ممن تسبَّبوا بفراغِ البيتِ من ساكنيهِ.

ومعَ بلوغِ (أسعد) سنَّ الرشدِ، ووصولِهِ لفترةِ المراهقةِ والبلوغِ، وبالتزامنِ معَ خروجِ عمِّهِ (محمود) منَ السجنِ وزاوجِهِ، يقررُ الانتقالَ إلى غرفةِ جدِّهِ الشهيدِ، باعثًا الحياةَ في البيتِ، يقولُ: "بدأتِ الحياةُ تدبُّ في أوصالِ الدارِ، ولمْ يعدْ بها غرفٌ فارغةٌ مغلقةٌ بعدما انتقلتُ للنومِ وحدي في غرفةِ أمي ومعي عكازُ جدي"[2].

ويظهرُ وصفُ الكاتبِ لبيتِ (أنور) في حوارِهِ معَ صديقِهِ الأمريكيِّ (إدوارد)، يقولُ الراوي: "أمامَ بنايةٍ قديمةٍ يقطنُ (أنور) شقةً أو علبةً صغيرةً في الدورِ الثالثِ منها، فصَعِدا معًا وقدْ بدأتْ أماراتُ الرثاءِ ممزوجةً بالانزعاجِ والاشمئزازِ تكسو وجهَ (إدوارد) معبرًا بكلامِهِ عن سوءِ هذا الحيِّ الذي تنتشرُ به أعمالُ البلطجةِ، وتهالكِ البنايةِ، وما أنْ دخلا الشقةَ حتى صاحَ بـ(أنور) بنبرةِ لومٍ وعتابٍ:

- كيفَ تعيشُ هنا؟ المكانُ غيرُ آمن، غيرُ نظيفٍ، غيرُ مريحٍ، ماذا يوجدُ هنا للعيشِ؟

رسمتْ شفَتا (أنور) ابتسامةً بلا ملامحَ، ثم زمَّ فمَهُ قائلًا:

- أنتَ تعلمُ عزيزي (إدوارد) أني أقضي هنا ساعاتِ الليلِ، إنها فقطْ غرفةُ مبيتٍ، ثم أجرتُها مناسبةٌ، بالطبعِ لو كانتْ أسرتي معي ما كانتْ تصلحُ"[3].

هذا الوصفُ يعكسُ لنا حالةَ الغربةِ التي يعيشُها (أنور)، وإنْ كانَ مختارًا، حيثُ نرى رضاهُ عن هذا البيتِ أو المسكنِ المتواضعِ، وذلكَ تماشيًّا معَ رغبتِهِ بالهجرةِ والعملِ في الولاياتِ المتحدةِ.

وجاءتْ صورةُ البيتِ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" متناسبةً معَ أهدافِ الماسونيةِ، وما كانَ يتميزُ به كبارُ أعضائِها، يصفُ (نصيف) بيتَ (كريم) كاتمِ السرِّ الأعظمِ ومسؤولِ المحفلِ المصريِّ: "انسحبتُ ساهمًا إلى غرفتي مُفكرًا بما طرقَ سمعي، وعدتُ مجددًا أتأملُ متعجبًا من كثرةِ غرفِ المنزلِ

---

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٤٤.

(2) المصدر السابق، ص٦٥.

(3) المصدر السابق، ص٥٦.

الكبيرِ –وعامتُها مغلقةٌ– وقلةِ عددِ قاطنيهِ، منزلٌ أشبهُ بنزلٍ، واستذكرتُ جوابَ (أميرة) يومَ سألتُها قبلَ أشهرٍ عنْ ذلكَ إذ عللّتِ الأمرَ باحتمالِ استقبالِ زائرينَ كثرٍ في أوقاتٍ مفاجئةٍ، قد يحتاجُ بعضُهُمْ إلى المبيتِ عندَنا عدا عن الخدمِ"[1].

وفي موضعٍ آخرَ نرى انعكاسَ المكانِ على شخصيةِ (نصيف)، فهوَ لا يشعرُ بالراحةِ في بيتِهِ الجديدِ، حتى وإنْ كانَ المكانُ فسيحًا. مُعللًا ذلكَ بتعلقِهِ بموطنِ طفولتِهِ ونشأتِهِ في منطقةِ الزمالكِ، وذلكَ عبرَ وصفِهِ لفيلا (كريم)، يقولُ: "لكنْ زالتْ بعضُ دهشتي حينَ صحبتُهُ برفقةِ الأخوينِ (مكرم) و(مروان) إلى فيلا بحيِّ المعادي، بدتْ مهجورةً منذُ زمنٍ، وحديثًا تمَّ إحياءُ مواتِها، فأفصحَ لي عن ملكيتِهِ للعقارِ الذي لا تقلُّ مساحتُهُ عن خمسةِ فدادينَ، وبالرغمِ من جمالِ المكانِ الخلابِ عزفتُ عنهُ؛ لفزعي الدائمِ منَ الوحدةِ، وقد تخيّلتُهُ موحشًا بالليلِ مضجرًا بالنهارِ ثمَّ إنني أدمنتُ حبَّ الزمالكِ"[2].

- **المسجدُ:**

شكَّلَ المسجدُ مكانًا مركزيًّا في روايةِ "المُباهلة"، ولعلَّهُ اقتربَ ليكونَ بطلًا منَ أبطالِ الروايةِ، حيثُ ركزَ عليهِ الكاتبُ تركيزًا مهمًا، ورسمَ تفاصيلَهُ بدقةٍ، وجاءَ ذلكَ في وصفِهِ للمسجدِ الإبراهيميِّ وساحاتِهِ قبيلَ المذبحةِ الشهيرةِ، ولحظةَ وقوعِها، وما حلَّ بهِ من مصادرةٍ واحتلالٍ منَ الكيانِ الصهيونيِّ، يقولُ الراوي: "هنا لا زالَ صدى التاريخِ البعيدِ يسمعُ رجيعُهُ بقوةٍ في النفوسِ فيفعلُ بموروثِهِ الدينيِّ فعلَهُ في النفوسِ يجذبُ الأفكارَ نحوَ محورِ الانتقامِ، ولا يلونُ المشاعرَ بغيرِ السوادِ القاتمِ، مما دفعَ الغاصبينَ لمصادرةِ ثلثي الحرمِ لإقامةِ كنيسٍ يهوديٍّ، فاستولوا على الحضرةِ الإبراهيميةِ واليوسفيةِ التي تضُّم القبرَ الطاهرَ لأبي الأنبياءِ وزوجتِهِ سارةَ وحفيدِهِ يعقوبَ وزوجتِهِ رفقةَ، وأيضًا قبرَ يوسفَ الذي أوتي شطرَ حُسنِ الكائناتِ، إضافةً للمنطقةِ المكشوفةِ المسمّاةِ صحنُ المسجدِ، وأبقوا للورثةِ الشرعيينَ الذينَ همْ أوْلى الناسِ بإبراهيمَ القاعةَ الإسحاقيةَ التي تشملُ قبرَ إسحاقَ وزوجتِهِ ليئةَ ومصلى الجوالةَ حيثُ تُتلى آياتُ اللهِ بكرةً وعشيًّا"[3].

هذا الوصفُ الدقيقُ للمسجدِ الإبراهيميِّ يُضفي على المكان جلالا وجمالا، ويؤكد أهميته التاريخية، ولم يأتِ الكاتبُ على ذكرِهِ عبثًا، إنما ليضفيَ على المتنِ الروائيِّ الأبعادَ الدينيةَ للصراعَ معَ الاحتلالِ الصهيونيِّ، وليخدمَ الأفكارَ الأيديولوجيةَ التي انطلقَ منها (باروخ) و(أسعد).

وبعدَ اقترافِ المجرمِ (غولدتشاين) للمجزرةِ المروعةِ بحقِّ المصلينَ، يرسمُ لنا الكاتبُ صورةَ المسجدِ على لسانِ (أسعد): "لمْ أستطعِ القيامَ، وبصري لا يبرحُ مكانَ جدي، لمْ أرَهُ، ولا سمعتُ صوتَهُ

(1) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٢٥.

(2) المصدر السابق، ص١١٨.

(3) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٤.

المغموسَ في روحي فقدْ كانتْ جمهرةُ حشودٍ تحيطُ بالمكانِ فزحفتُ نحوَهُ، والأفواهُ تطلقُ صيحاتِ استنكارٍ من نارٍ حارقةٍ تلتقي معَ الشررِ المتطايرِ من حدقاتِ لهبِ العيونِ الساخطةِ، حاولَ أكثرَ من صارخٍ أنْ يسحبَني منَ المكانِ لإسعافي فانفجرتْ عيناي ببحرٍ منَ الدموعِ صارخًا مقاومًا القيامَ معَ أحدٍ، وأنا أشيرُ بيدي المخضبةِ بدمِ قدمي النازفةِ وصوتي المخنوقِ: سيدي،سيدي"[1]. ثم يقولُ:"وارتمتْ يدُ جدّي فوقَ فخذِ هذا الرجلِ واختلطتْ دماؤُهما معَ دماءِ المحيطينَ بهِما، وقد غابتِ الملامحُ والأيدي والأرجلِ في بركةِ الدماءِ التي صبغتْ أرضَ المسجدِ في مشهدٍ تشيبُ لهوله الولدانُ"[2].

يقدمُ الكاتبُ صورةَ المسجدِ بعدَ المجزرةِ الداميةِ، بركُ الدماءِ تملأُ الأرضَ، وتصبغُ سجادَ الصلاةِ بالدمِ الأحمرِ القاني، بفعلِ المجرمِ (باروخ) وبدعمٍ مطلقٍ وتخطيطٍ مسبَّقٍ منَ الجماعاتِ الصهيونيةِ المتطرفةِ. هذهُ الصورةُ العالقةُ في ذهنِ كلِّ فلسطينيٍّ ستظلُ شاهدةً على تلكِ المرحلةِ العصيبةِ التي مرَّ بها شبعُنا الفلسطينيُّ.

هذا المشهدُ المؤلمُ يبقى ثابتًا في ذهنِ (أسعد) حتى تنفيذِهِ للعمليةِ البطوليةِ انتقامًا وثأرًا لجدِّهِ وأمِّهِ وأبناءِ شعبِهِ، وقدِ اتخذَ الكاتبُ من حدثِ الجريمةِ مرتكزًا يرتكزُ عليه في بناءِ أيديولوجيات (أسعد) و(عادل) و(هادي)، التي تقترب من التماثلِ معَ أفكارِهِ التي أرادَ أنْ ينقلَها لنا عبرَ شخصياتِهِ الروائيةِ.

- **السجنُ:**

للسجنِ موقعٌ محوريٌّ مهمٌّ في الرواياتِ العربيةِ والفلسطينيةِ. وتبرزُ علاقةُ الشخصياتِ بالسجنِ في صورٍ مختلفةٍ، ولا تقتصرُ على تحديدٍ ووصفٍ للسجنِ باعتبارِهِ مكانًا له جدرانٌ وزنازينٌ ووسائلُ تعذيبٍ، وبواباتٌ حديدةٌ، بلْ يأخذُ السجنُ مظاهرُ ثلاثةٌ:

أ- السجنُ كَمكانٍ واقعيٍّ.

ب- السجنُ من خلالِ آثارِهِ ونتائجِهِ.

ت- السجنُ في بعدِهِ الرمزيِّ[3].

وتجلى توظيفُ الكاتبُ للسجنِ في روايتيْهِ، من خلالِ شخصيةِ (أسعد) في روايةِ "المُباهلة"، الذي يستذكرُ مشهدَ التحقيقِ معَهُ، بعدما وقعَ أسيرًا في أيدي الاحتلالِ الأمريكيِّ في العراقِ، يقولُ: "ربما إلى القبرِ ستصحبُني رعشةُ جسدٍ كلما استحضرتُ كيفَ كانَ يرغمُني على لحسِ الأرضِ مكانَ بولِهِ، وهو يرددُ صاخبًا ضاحكًا: ألنْ تعترفَ يا أعرجُ؟ ثم بحقارةٍ وسفالةٍ يطلبُ ممن ينفقُ عليهم قهري للعقِ الأرضِ الإسمنتيةِ المدببةِ بحوافيرَ وخوازيقَ على هيئةِ مساميرَ، رائحتُها أحطُّ من أوسخِ بالوعةِ

([1]) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٨.

([2]) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

([3]) يُنظر: علي عودة، الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية ١٩٥٢-١٩٨٢م، مرجع سابق، ص ٢١٢.

صرفٍ في العالمِ، ثم يضعُ حذاءَهُ اللامعُ فوقَ رأسي ضاغطًا بحقدٍ، ناهقًا ومنْ معَهُ بأوسخِ الشتائمِ التي وقعُها في النفسِ لا يقلُ عنْ ألمِ ما كانَ يفعلُهُ"[1].

في هذا الوصفِ يعمدُ الكاتبُ إلى توضيحِ معاناةِ الأسرى وعذاباتِهم التي تعرضوا لها في سجونِ الاحتلالِ الأمريكيِّ لا سيما سجنِ (أبو غريب) سيءِ السمعةِ، ويُكثرُ الكاتبُ من تصويرِ مشاهدِ الاعتداءِ الجنسيِّ على الأسرى، كما حصلَ على أرضَ الواقعِ حقيقةً في ذلكَ السجنِ[2].

ثمَّ يصورُ الكاتبُ مشهدَ اقتحامِ السجنِ وتحريرِ الأسرى منْ داخلِهِ، وكأنه يعيشُ بينَهُمْ، يقولُ الكاتبُ على لسانِ (أسعد): "فجأةً ... كأني إما غفوتُ أو سَهَتْ عيني، فتوهمتُ أو شعرتُ أنَّ الأرضَ تهتزُ من تحتي!! توقفتْ الرجفةُ، ثم بعدَ لحظاتٍ عادَ الاهتزازُ، وبدا شيئًا فشيئًا يتضحُ أنَّ صوتًا وجلبةً ما تحدثُ تحتَ الأرضِ حتى أفاقَ مذعورًا بعضُ النيامِ، وصرخَ بعضُنا: زلزالْ، زلزالْ، زلزالْ، ثم اشّتدتْ حركةُ الاهتزازِ وتتابعتْ بلا توقفٍ ثم دوّتْ أصواتُ انفجاراتٍ عنيفةٍ، تزامنتْ معَ زخاتِ رصاصٍ لا تهدأُ، ثُّم أصواتُ قنابلَ أشعلتْ حرائقَ، وبدأْنا نشتمُ رائحةَ دخانٍ، ومن عنابرَ مجاورةٍ تعالتْ أصواتٌ: السجنُ يحترقُ، يحترقْ، ألسنةُ لهبٍ، ثم أربعةُ قذائفَ هاونْ دكتِ المكانَ، تبعَها إطلاقُ رصاصٍ كثيفٍ جدًّا يوحي بوقوعِ اشتباكٍ ومواجهةٍ، لحظتَها صدحتْ تكبيراتُ المعتقلينَ هاتفينَ بفرحٍ لا يصدقُ ويستحيلُ أنْ يوصفَ: الله أكبر، الله أكبر، وعلا صراخُ المعتقلينَ: تمَّ اقتحامُ المعتقلِ، هروبْ، هروبْ، هروبْ"[3].

أمّا عنْ حضورِ السجنِ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، فكانَ السجنُ هوَ المكانُ الثابتُ الذي يقطنُ فيه (نصيف)؛ لأنه كانَ يسترجعُ الأحداثَ من بدايتِها بعدَ اعتقالِهِ والحكمِ عليهِ بالإعدامِ، فقدْ كانَ يكتبُ روايتَهُ في فترةِ الاستئنافِ قبلَ تنفيذِ الحكمِ، التي تصلُ لتسعينَ يومًا، يقولُ (نصيف): "ثلاثةُ أيامٍ ومثلُها منَ الساعاتِ احتجتُ لأستطيعَ معاودةَ التحبيرِ والتسّطيرِ، فقد داهمني واقعٌ غيّبَنْي عنهُ الكتابةُ، أتذكرُ قولي لكَ إني أسمعُ جلبةَ أصواتٍ في العنبرِ وقربَ البابِ؟ حسنًا تخيّلتُكَ تهزُّ رأسَكَ بنعمْ، لكنَّكَ لا تعرفُ ما جرى، فخلالَ جولةٍ تفتيشيةٍ لمديرِ السجنِ؛ فوجئتُ بزيارتِهِ لزنزانَتي مستعلمًا عن سببِ كثرةِ شرائي للدفاترِ والأقلامِ من مقصفِ السجنِ؟ وإذ رأى أوراقي المحبّرةَ المرتبةَ تولتْهُ دهشةُ الحيْرَةِ، فاستأذنَ الرجلُ وكانَ معي غايةً في اللطفِ والذوقِ، إما لأني محكومٌ بالإعدامِ؛ فالشفقةُ واجبةٌ،

---

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٨٠.

(2) يُنظر: المصدر السابق، ص١٩٥.

(3) المصدر السابق، ص٢١٣.

أو مبررةٌ، أو ربّما لحملي جنسيتينِ أجنبيتينِ، أرادَ أنْ يطلّعَ عليها، فاعتذرتُ منه قائلًا إنها مذكراتي الشخصيةُ، فتفهمَ الأمرَ، وقبِلَ عذري"[١].

ويُظهرُ الكاتبُ المعاملةَ الحسنةَ التي لقيَها (نصيف) من مديرِ السجنِ، الذي أبدى تعاطفَهُ معَهُ، يقولُ (نصيف): "ولسانُه ينطقُ بالتحيةِ؛ رفعَ صباحَ اليومِ مديرُ السجنِ كفَّهُ فاردًا أصابعَهُ بوجهي: خمسةُ أيامٍ وتنقضي المهلةُ القانونيةُ للاستئنافِ، لا تيأسْ من رحمةِ اللهِ وجربْ"[٢].

- **المستشفى:**

برزَ المستشفى في روايةِ المباهلةِ بعدَ إصابةِ (أسعد) في مجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ، حيثُ نُقلَ إليهِ، فيصفُ المكانَ قائلًا: "ماذا كانَ يعني غيابُ أمي عنِ المكوثِ معَ جدتي في كلِّ هذهِ المساحةِ منَ البياضِ، سقفٍ، جدرانٍ، أغطيةٍ، زيِّ الأطباءِ والممرضينَ، وحتى مقاعدُ الزائرينَ؟ فاضتْ الروحُ بالسؤالِ، وأنا أكفكفُ دمعي: ستي وينْ إمّي؟"[٣].

وكذلكَ ظهرَ وصفُ المستشفى معَ شخصيةِ (هادي)؛ لأنه ميدانُ عملِهِ، يقولُ: "الأسبوعُ الماضي التقيتُ بزميلِ دراسةٍ يهوديٍّ اسمُهُ (زخاريا) وصلَ مشفى –سوروكا– مصابًا بنيرانٍ صديقةٍ كما يسمونَها أثناءَ مشاركتِهِ في تدريباتٍ عسكريةٍ لقواتِ الاحتياطِ بأحدِ معسكراتِ الجيشِ بصحراءِ النقبِ، كانتْ إصابتُهُ دونَ المتوسطةِ ويستجيبُ للعلاجِ، وردتني إشارةٌ منَ الإدارةِ بزيارةِ مصابِ غرفةِ رقْمِ 401 فتوجهتُ، نقرتُ البابَ، ودخلتُ كانتِ الممرضةُ إلى جوارِهِ تبادلُهُ ألطفَ الكلماتِ، وما أنْ وقعَ ببصرِهِ عليَّ حتى هتفَ: (هادى)، ارتابتِ الممرضةُ، وأخذَتْني المفاجأةُ، فكررَ النداءَ: (هادي) ألمْ تعرفْني؟ تقدمتُ بابتسامةٍ حارةٍ، أمسكتُ تقريرَ المتابعةِ اليوميِّ المعلقِ بقائمةِ السريرِ، وصحتُ بصدقٍ: (زخاريا) العزيزُ، لا بأسَ عليكَ"[٤].

تبرزُ هنا العلاقةُ الإنسانيةُ التي كانتْ تجمعُ (هادي) بصديقِهِ الإسرائيليِّ، حينما كانَ يؤمنُ بفكرةِ التعايشِ بادئَ الأمرِ، التي أخذتْ بالانقشاعِ والزوالِ بعدَ الجرائمِ الصهيونيةِ بحقِّ أهلِهِ وأبناءِ شعبِهِ، بَدْءًا بأحداثِ يومِ الأرضِ حتى العدوانِ الأخيرِ على غزةَ سنةَ ٢٠٠٨م.

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص١٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص٣٨١.

(٣) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٩.

(٤) المصدر السابق، ص١٠٥.

- **الجامعةُ:**

يرتبطُ هذا المكانُ بشخصياتِ روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" على وجهِ الخصوصِ، وذلكَ لأنَّ جغرافيا الجامعةِ هيَ المكانُ الأنسبُ لطرحِ الأفكارِ المستحدثةِ التي تثيرُها منظمةٌ خطيرةٌ بحجمِ الماسونيةِ، لتُشَكِّلَ منْ خلالِها قضايا الرأيِ العامِّ؛ فتصبحَ حديثَ الشارعِ، وقد وصفَ الكاتبُ أجواءَ الجامعاتِ، ونقاشاتِ الطلبةِ، وكيفيةَ استقطابِ الماسونيةِ للطلبةِ المثقفينَ والمؤثرينَ، يقولُ (نصيف): "عالمُ الجامعةِ يأخذُكَ (نجيب) بالخيالِ إلى أبعدِ مدى يمكنُ تصورُهُ، حيثُ لا حدودَ للانفتاحِ على الآخرِ؛ بفضلِ المناقشاتِ التي لا تهدأُ والأنشطةُ الطلابيةُ المتعددةُ، فلوَ كنتُ أحيا حياةً طبيعيةً لما ترددتُ لحظةً بوصفِ تلكَ المرحلةِ بأنها الأجملُ، إذْ معَها تكسرتْ حواجزُ الاتصالِ والتواصلِ، بلْ لقدْ كانَ أحدَ أهمِّ المهامِ المكلفِ بها تدعيمُ روابطِ التعارفِ، ولكنْ معَ أشخاصٍ بعينِهِمْ، يتمُّ رصدُ توجهاتِهِمْ الفكريةِ ودراسةِ سماتِهِمُ الشخصيةِ لاستكشافِ الآفاقِ، أيْ معرفةُ أيِّ نوعٍ منَ المستقبلِ ينتظرُهُمْ"[١].

يظهرُ مما سبقَ تركيزُ الماسونيةِ على أصحابِ العقولِ النيرةِ، والأفكارِ الثاقبةِ، لما تتوقعُهُ لهمْ من مكانةٍ مستقبليةٍ، حتى تتمكنَ منَ استقطابِهِمْ، وتضمَهم في محافلِها، وتضمنَ ولاءَهم وتبيعتَهم لها.

- **السردابُ والنفقُ:**

مثَّلَ النفقُ أو السردابُ أحدَ الأماكنِ التي تعكسُ الأجواءَ العسكريةَ الصعبةَ التي كانَ يمرُّ بها أبطالُ روايةِ "المباهلة"، فهذا (أسعد) يصفُ اكتشافَ نفقٍ عندما تعرضتْ بغدادُ للقصفِ الجويِّ الشديدِ بدايةَ العدوانِ الغربيِّ الكبيرِ سنةَ ٢٠٠٣م، يقولُ: "أجابَ (زياد) المولودُ هنا: سنهربُ عبرَ نفقٍ سريٍّ حفرناهُ بعلمِ المسؤولينَ زمنَ عاصفةِ الصحراءِ"[٢].

ويبدعُ الكاتبُ في رسمِ صورةِ النفقِ، فينحتُها بفنيةٍ عاليةٍ مُجَلِّيًا ضيقَ المكانِ وصعوبةَ المشهدِ، يقولُ (أسعد): "انطلقَ سبعتُنا إلى الجهةِ الشرقيةِ وعندَ علامةٍ معينةٍ حددَها (زياد) أزحْنا فورًا أكوامَ الترابِ، ثم غطاءَ الفتحةِ، وبعدَ أنْ نزلْنا جميعًا في سردابٍ ظلمتُهُ حالكةٌ مفزعةٌ أعادَ الشيخُ وراءَنا إغلاقَ الفوهةِ والتعميةِ على مكانِها، استمرَ زحفُنا على البطونِ والأكفِّ مسافةً أحسستُ أنها ما بينَ المشرقِ والمغربِ، حتى وصلْنا المنفذَ الآخرَ، ولكنْ واجهتْنا مشكلةٌ في رفعِ الغطاءِ"[٣].

إنَّ المكانَ السابقَ يشكلُ جزءًا من طبيعةِ الحياةِ العسكريةِ التي اتصفتْ بها بغدادُ طيلةَ عقودٍ منَ الزمنِ، والتي تنعكسُ بالضرورةِ على مواقفِ الشخصياتِ وأفكارِها.

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٩٦.

(٢) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٧٢.

(٣) المصدر السابق، ص١٧٣.

ويظهرُ أيضًا توظيفُ الكاتبِ للأنفاقِ عندما استطاعَ (هادي) الوصولَ إلى قطاعِ غزةَ عبرَ نفقٍ أرضيٍّ منَ الحدودِ المصريةِ وصولًا إلى رفحَ الفلسطينيةِ، وكذلكَ ذكرُهُ لمشهدِ العمليةِ البطوليةِ للمقاومةِ الفلسطينيةِ في موقعٍ صهيونيٍّ شرقَ مدينةِ غزةَ سنةَ ٢٠١٤م، ومحاولةُ أبطالِ الروايةِ (أسعد) و(هادي) و(عادل) حفرَ نفقٍ؛ لتنفيذِ عمليتِهِمُ البطوليةُ على مشارفِ الجولانِ المحتلِ[١].

- **المطارُ:**

كانَ منَ الطبيعيِّ أنْ يصورُ الكاتبُ عويضة فضاءَ المطارِ؛ وذلكَ ليخدمَ تنقلاتِ شخصياتِهِ بينَ الدولِ العربيةِ والعالميةِ التي كانتْ مسرحًا للأحداثِ.

جاءَ وصفُ المطارِ في روايةِ "المُباهلة" عندما قررَ (سامي) ورفاقُهُ السفرَ إلى باكستانَ، هربَا منَ الواقعِ الأمريكيِّ المتفلّتِ، يقولُ الراوي: "في صالةِ المطارِ العملاقِ متعددِ المداخلِ والمخارجِ وردهاتِهِ الفسيحةِ التي يُفضى بعضَها إلى بعضٍ، وحيثُ تنتشرُ المطاعمُ، والمقاهي، والمكتباتُ، ومحلاتٌ تبيعُ كلَّ ما يخطرُ وما لا يخطرُ بالبالِ، وأسواقٍ حرةٍ للهدايا، وتُحيطُ بالبصرِ لوحاتٌ رخاميةٌ وزيتيةٌ وتماثيلُ تزيِّنُ بأضوائِها الممراتِ والجدرانَ والأسقفَ الزجاجيةَ العاكسةَ، لتعطيَ المسافرَ الإحساسَ بأنه يدورُ حولَ نفسِهِ، فيما اللوحاتُ الإلكترونيةُ المعلقةُ تعلنُ بلا انقطاعٍ أرقامَ الرحلاتِ، ومواعيدَ الإقلاعِ، ووجهةَ المغادرينَ، والقادمينَ أيضًا، وأصواتُ المكبراتِ تتداخلُ معَ الموسيقى التي تبثُ مقطوعاتِها عبرَ سماعاتٍ لا تخلو منها زاويةٌ أو ركنٌ قصيٌّ، فبينَ كل لحظةٍ ولحظةٍ إعلانُ إقلاعٍ أو هبوطٍ"[٢].

هذا الوصفُ يعكسُ حالةَ التقدمِ والتطورِ التي وصلتْ لها المطاراتُ الأجنبيةُ، ويعكسُ تجربةَ الكاتبِ التي مرَّ بها في رحلاتِهِ الخارجيةِ، فتتجلي مهارتُهُ في الوصفِ الدقيقِ لتفاصيلِ المطاراتِ ليساعدَ الملتقي على رسمِ الصورةِ الذهنيةِ للمكانِ، ليشعرَ القارئُ وكأنه يقفُ في حيزِ المكانِ من خلالِ الخيالِ الذي يحلقُ بهِ الكاتبُ معَ جمهورِ متلقيهِ.

وجاءَ وصفُ المطارِ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" في أكثرَ من مشهدٍ، منها عندما أراد (نصيف) السفرَ إلى القاهرةِ، فيقولُ: "حينَ وصلتُ المطارَ كانتْ رحلةُ الدارِ البيضاءِ– القاهرةِ تنطلقُ عندَ الخامسةِ والربعِ فجرًا، أيْ بعدَ ساعةٍ ونصفِ الساعةِ، ولمْ أجدْ مقعدًا سوى على قائمةِ waiting list فانتظرتُ بأعصابٍ محترقةٍ خابيةٍ كالرمادِ"[٣].

([١]) يُنظر: خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٣٨٩.

([٢]) المصدر السابق، ص١٤٩.

([٣]) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص١٥٠.

ويعكسُ الكاتبُ من خلالِ المطارِ الصراعَ الفكريَّ والمعاناةَ النفسيةَ التي كانَ يعاني منها (نصيف)، يقولُ: "سارعتُ بعدَ إبلاغي بأني مسافرٌ على متنِ الطائرةِ؛ فاشتريتُ زجاجةَ –كونياك– منَ العيارِ الثقيلِ، لأنَّ الخدمةَ الجويةَ لا تقدمُ الخمرَ في رحلاتِ الصباحِ الباكرِ، كما أفادتْني موظفةُ الخطوطِ الملكيةِ المغربيةِ، فشربتُ مذْ جلستُ في المؤخرةِ، لأدخنَ كما أريدُ، ولمْ تمضِ ساعةٌ حتى غبتُ مخمورًا روحًا وجسدًا عنِ الوعيِ، أفقتُ على هزّاتِ المضيفةِ والطائرةِ قد هبطتْ والركابُ يستعدونَ للنزولِ"[1].

- **المقهى:**

يعدُّ المقهى مكانًا جماليًّا معروفًا في الرواياتِ العربيةِ والعالميةِ، فهوَ المتنفسُ أمامَ الشخصياتِ للبوحِ بأفكارِها وأسرارِها، أو للتفريغِ عما يعتملُ فيها منْ همومٍ أو مشاعرَ، وقد رسمَ الكاتبُ صورةَ المقهى كنقطةِ التقاءٍ بينَ (أنور) وصديقِهِ (إدوار)، ثم تعرَّفَ فيهِ إلى (إيزابيل)، يقولُ الراوي: "واتفقا على اللقاءِ عندَ الرابعةِ في مقهىً قريبٍ، له إطلالةٌ على المحيطِ"[2].

هذا المكانُ يلقي بظلالِهِ على شخصيتي (أنور) و(إيزابيل)، ويسهمُ في رسمِ جوٍّ عاطفيٍّ جميلٍ يعجلُ في نسجِ علاقتِهما العاطفيةِ، ويؤكدُ ذلكَ وصفُ الراوي للمكانِ: "سبقَها إلى المكانِ الذي جمعَهُ بـ(إدوارد) أكثرَ من مرةٍ، ولم يكنْ مزدحمًا كما هوَ عندَ الغروبِ، حينَ يؤمُّهُ الكثيرونَ يتأملونَ الشمسَ تُلَمْلِمُ بقايا ضوئِها تارةً مبتسمةً، وأخرى كاسفةً حزينةً، جلسَ قربَ نافذةٍ تطلقُ العنانَ للبصرِ حتى أبعدِ مدى في مرماهُ، ليس سوى الماءِ الخلابِ تلامسُ صفحتُهُ خيوطَ الشمسِ فيتلألأُ مختالًا مزهوًا ببريقِهِ، وما منْ شيءٍ يجرحُ الصمتَ الجميلَ سوى هديرِ قواربِ صيدٍ وسفنِ رحلاتٍ ويُخوتٍ تجوبُ المحيطَ"[3].

تتجلى في المقطعِ السابقِ جماليةُ الوصفِ الدقيقِ، وعلوُّ اللغةُ الشاعريةُ للكاتبِ عويضة، وتوظيفُهُ للحركةِ واللونِ، والمزجُ بينَهما، وتشبيهُ لحظاتِ وداعِ الشمسِ عندَ الغروبِ بالإنسانِ عندَ الوداعِ الجميلِ، فالشمسُ غدتْ ينتابُها الفرحُ الخجولُ والحزنُ معًا، ثم يبدعُ في وصفِ حركةِ الماءِ، وتلامسِهِ للشمسِ، كأنهما في علاقةٍ، كتلكَ التي بينَ (أنور) و(إيزابيل)، هذا الجوُّ الشاعريُّ يضفي على المشهدِ علاقةَ الحميميةَ التي جمعتْ (أنور) بـ(إيزابيل)، التي بلا شكٍّ سارعت في انعقادِ علاقتِهما، وعمَّقَتْها.

كذلكَ وردَ وصفُ الكاتبِ للمقهى في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، عندما اصطحبتْ (أميرةُ) (نصيفَ) إلى مقهى –فرنسا– الشهيرِ في المغربِ، الذي كانَ قِبْلَةً لأعضاءِ الماسونيةِ، يقولُ

---

(1) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق ص١٥١.

(2) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٨٤.

(3) المصدر السابق، ص٨٥.

(نصيف): "المقاهي الشرحةُ تُغريكَ بالولوجِ إليها، فهيَ تشغلُ حيّزًا كبيرًا، وبعضُها يفترشُ مساحةً منْ رصيفِ المشاةِ تظلّلُهُ الشماسي زاهيةُ الألوانِ، تماما كما في روما وباريسَ، انفتحَ أمامَنا الطريقُ وامتدَّ حتى وصلْنا إلى مكانِها المفضلِ للاستراحةِ وشربِ القهوةِ في "مقهى فرنسا""(١).

إذنْ فالمقهى كانَ مكانًا للراحةِ والألفةِ والهدوءِ، وكانتْ علاقتُهُ إيجابيةً معَ شخصياتِ الروايتينِ، ويظهرُ استغلالُ الماسونيةِ للمقاهي العامةِ، فقدْ جعلتْها مكانًا سريًّا، حتى وإنْ كانَ عامًّا، وهذا ما حدثَ معَ (رباح) ووالدِهِ (رباح) في مصرَ عندما استدرَجَهُمْ الزَّعيمُ (سَعدُ زغلول) في أحدِ المقاهي(٢). الّذي كانَ منْ أعضاءِ الماسونيَّةِ في مِصرَ، وشغلَ منصبًا كبيرًا فيها(٣).

- **الفندقُ:**

ارتبطَ هذا المكانُ بالشخصياتِ التي اعتادتِ السفرَ والتنقلَ بينَ البلدانِ كشخصيةِ (أنور) في روايةِ "المباهلة"، يصفُ الراوي الفندقَ الذي نزلَ به في بيشاورَ: "نزلَ بفندقٍ غيرِ بعيدٍ عن جامعةِ بيشاورَ التي كانتَ يومًا تضمُّ آلافَ الطلابِ والطالباتِ، واليومَ يرتادُها بضعُ عشراتٍ"(٤).

أما في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، فكانَ وصفُ الفندقِ ذا دلالةٍ على سعةِ العيشِ وحالةِ الترفِ التي يتمتعُ بها أعضاءُ الماسونيةِ، يقولُ (نصيف) على لسانِ (يوسف) والدِ صديقِهِ (رمزي): "وبدأَ يعطيني لمحةً سريعةً عنْ تاريخِ الفندقِ الذي بناهُ والدُهُ معَ شريكٍ فرنسيٍّ، ومعَ انتهاءِ الاستعمارِ استقرتِ الملكيةُ لوالدِهِ الذي طوّرَهُ، مضيفًا إليهِ مساحةَ أرضٍ مجاورةٍ معشبةٍ بالبساطِ الأخضرِ، تضمُّ ملعبًا لرياضةِ الغولفِ ومسبحًا مستطيلًا، وآخرَ دائريًّا للأطفالِ، وحين انتقلتِ الملكيةُ بالوراثةِ إليه؛ أضافَ هوَ أجنحةً جديدةً، ودُهشتُ وهوَ يذكرُ لي أنَّ لديهم جناحًا ملكيًّا مجهزًا لاستقبالِ ملوكٍ ورؤساءِ دولٍ، كما أنشأَ قاعةَ احتفالاتٍ مزيّنةً بديكوراتٍ فسيفسائيةٍ وأضواءٍ مبهرةٍ، وقاعةً أخرى للمؤتمراتِ نوَّهَ أنها نالتِ استحسانَ (كريم) بشكلٍ لافتٍ، إضافةً لما كانَ سابقًا من مطعمٍ شرقيٍّ وآخرَ غربيٍّ ومرقصٍ وبارٍ وصالةِ قمارٍ خاصةً بالسائحينَ الأجانبَ"(٥).

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص١٢.

(٢) يُنظر: المصدر السابق، ص١١١.

(٣) يُنظر: وائل الدسوقي يوسف، الماسونية في العالم العربي، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١١٦. بتصرف.

(٤) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢١٦.

(٥) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٤٥.

- **المكتبُ:**

المكتبُ مكانٌ مغلقٌ يحتوي على الكتبِ والأوراقِ المهمةِ، وبعضِ الصورِ المثبتةِ على الجدرانِ، التي بدورِها تُعدُّ "أكثرَ إلحاحًا منَ الأفكارِ"(١). ويأتي الروائيونَ بوصفِهِ ورسمِهِ لأهدافٍ محددةٍ، وللدلالةِ على اهتمامِ الروائيِّ بانتقاءِ شخصياتٍ مثقفةٍ.

وجاءتْ صورةُ المكتبِ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"؛ لخدمةِ الرؤيةِ الأيديولوجيةِ لأفرادِ للماسونيةِ، ولتعكسَ أفكارَ (كريم) التي كانَ يحملُها ويعملُ على غرسِها في نفسِ (نصيف)، وظهرَ ذلكَ بقولِ (نصيف): "ويطلبُ بإشارةٍ من يدِهِ أن أتبعَهُ إلى مكتبِهِ الذي أبهرني بفخامةِ أناقتِهِ ودقةِ هندستِهِ، التي بدتْ ترمزُ إلى أفكارٍ معينةٍ، ثمَّ سَعَتِهِ؛ فصالتُهُ فسيحةٌ، ربّما تقلُ قليلًا عنِ الصالةِ الرئيسيةِ في الأسفلِ، ولفتَ نظري وجودُ ثلاثةِ أبوابٍ لا أعلمَ على ماذا تفتحُ ورابعٌ كانَ بابُهُ مواربًا يفتحُ على حمامٍ ملوكيٍّ بهِ خزائنُ ملابسَ، أريجُ رائحةِ عطرٍ غريبةٍ تتغلغلُ عبرَ الأنفِ فتدغدغُ الأعصابَ فتسترخيَ كانتْ تنبعثُ من مبخرةٍ فوقَ سطحِ مكتبِهِ العريضِ، وفي الخلفِ بضعُ عشراتٍ منَ الكتبِ مرصوصةٍ بعنايةٍ، ووقعَ بصري على خزنتينِ بحجمٍ كبيرٍ في ركنٍ محاذٍ لأحدِ الأبوابِ المغلقةِ، لكنَّ أكثرَ ما استرعى انتباهَ عقلي المتأهبِ هو مجموعةُ الخرائطِ الملونةِ المعلقةِ بشكلٍ هندسيٍّ حولَ جدرانِ المكتبِ تتوسطُها خريطةُ العالمِ، ولاحظتُ مكبرًا أشبهَ بمنظارٍ بجوارِ الركنِ الأيسرِ، أصفُ ذلكَ لأنها المرةُ الأولى التي أُدعى فيها لدخولِهِ، إذْ سيطرتْ عليَّ مشاعرُ متضاربةٌ خاصةً لحظةَ رأيتُ كاميرا مثبتةً بإحدى الزوايا"(٢).

في المقطعِ السابقِ يبدعُ الكاتبُ في رسمِ صورةِ مكتبِ كاتمِ السرِّ الأعظمِ، وكأنهُ عايشَ المكانَ وجلسَ فيهِ لمدةٍ زمنيةٍ جعلتْهُ ينقلُ تفاصيلَهُ بدقةٍ متناهيةٍ، وتظهرُ هنا الرموزُ الماسونيةُ التي تجعلُها الماسونيةُ عنوانًا لها، واتخاذُها من علمِ الهندسةِ وأدواتِهِ شعارًا لها، وكأنها هيَ مهندسُ الكونِ.

- **المحفلُ الماسونيُّ:**

يرتبطُ هذا المكانُ بشخصياتِ روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" التي تناولتْ أنشطةَ الماسونيةِ، ويرسمُ الكاتبُ صورةَ المحفلِ والمعبدِ الماسونيِّ بدقةٍ وحرفيةٍ عاليةٍ، ليعكسَ للقارئِ صورةً كاملةً عن هذهِ المنظمةِ منْ خلالِ فخامةِ أماكنِها وأبعادِ هذهِ الأماكنِ على كلِّ من ينتمي إليها، ودلالاتِ الصورِ والخرائطِ التي تضعُها عنوانًا لها، يقولُ (نصيف) واصفًا معبدَ التعميدِ: "صالونُ التصويرِ دائريٌّ فسيحٌ

(١) غاستون باشلار، جماليات المكان، مرجع سابق، ص٩٢.

(٢) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٥٠.

جدرانُهُ مغلفةٌ فوقَ البطانةِ ببوستراتٍ ضخمةٍ لأماكنَ مختلفةٍ في العالمِ كبرجِ إيفلَ، ساعةِ بج بن، تمثالِ الحريةِ، أهراماتِ مصرَ وغيرِها، بدايةً ظننتُها ثابتةً، لكنها بدأتْ تتحركُ كشريطٍ يدورُ بآلةٍ"[١].

ويلاحظُ الباحثُ أن الكاتبَ قصدَ منْ وصفِ هذا المكانِ توضيحَ أهدافِ الماسونيةِ التي تحدثْنا عنها في الفصلِ الثاني بشكلٍ مستفيضٍ.

ثانيًا: الأماكنُ المفتوحةُ:

وهيَ الأماكنُ التي يكونُ لأيِّ إنسانٍ مطلقُ الحريةِ في دخولِها ولا يعيقهُ فيها عائقٌ، فهيَ متاحةٌ للجميعِ، كالأماكنِ العامةِ المفتوحةِ كالحدائقِ والصحاري وغيرِها، وتنعكسُ الأماكنُ المفتوحةُ ذات الفضاءِ الواسعِ على نفسيةِ الشخصياتِ الروائيةِ، فصفاتُ الشخصياتِ التي تقطنُ الباديةَ تختلفُ عنِ الذينَ يسكنونَ الأماكنَ الراقيةَ.

رصدَ الكاتبُ عويضة مجموعةً منَ الأماكنِ المفتوحةِ في روايتي "المباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، التي كانَ لها حضورُها الفعالُ، ودورُها المميزُ في البناءِ الروائيِّ، منها المدينةُ، والمخيمُ، والصحراءُ، والأحياءُ، والبحرُ، والشوارعُ.

- **المدينةُ:**

للمدينةِ حضورٌ فعالٌ وأهميةٌ كبيرةٌ داخلَ النصِّ الروائيِّ، فهيَ منْ أهمِّ الأماكنِ التي يرتكزُ عليها الروائيُّ، وتكونُ ميدانًا للأحداثِ وتنقلاتِ الشخصياتِ. وأبسطُ تعريفاتِها الأدبيةِ: هي المكانُ الذي يجمعُ شتاتَ الشخصياتِ التي لا رابطَ بينَها غيرَهُ، فيصبحَ هو صلةَ الدمِ الجغرافيةِ التي تقومُ على أساسِها شبكةُ العلاقاتِ[٢]. ويصف عبد الرحمن منيف المدنَ: "هيَ البشرُ، هيَ التاريخُ، وبالتالي فإنها الذاكرةُ الحقيقةُ لما كانَ، ولما يجبُ أنْ يبقى"[٣].

واتخذتْ روايَتا "المباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ" مجموعةً منَ المدنِ مسارحا لأكثر أحداثهما، ويلحظُ أنَّ الكاتبَ عويضة قد أكثرَ من حضورِ المدنِ العالميةِ والعربيةِ ليدلَّ على الصراعِ الأيديولوجيِّ الذي عكستْهُ هذهِ المدنُ على شخصياتِ الروايتينِ، كوصفِهِ لمدينةِ نيويوركَ، وفلورنسا، وكاليفورنيا، وواشنطن، وبيشاورَ، والعديدِ منَ المدنِ العربيةِ والفلسطينيةِ، مثل الخليلِ، وبغدادَ، وعمانَ، وغزةَ، والجليلِ شمالَ فلسطينَ، التي كانَ لها أثرُها على الشخصياتِ.

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٧٣.

(٢) يُنظر: حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، مرجع سابق، ص٥٤.

(٣) مجدولين شرف الدين، الصورة السردية في الرواية والقصة والسينما، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١٠م، ص٥١.

رصدَ الباحثُ مجموعةً منَ المدنِ التي وصفَها الكاتبُ في روايةِ "المُباهلة"، فوصفَ مدينةَ نيويوركَ بشكلٍ دقيقٍ، يقولُ الراوي: "إنها أمريكا؛ بلادُ الفرصِ والأحلامِ، وموطنُ الخيباتِ أيضًا، سيختصرُ القلمُ القارةَ الشاسعةَ المترامية، ويضيقُ الحيّزُ الجغرافيُّ ويتوجهُ إلى مدينةِ نيويوركَ ثاني أكبرَ المدنِ الأمريكيةِ وأهمِّها، مدينةِ المتناقضاتِ، فهنا يفيضُ المالُ وتزدهرُ الأعمالُ في رحابِ عالمِ البورصةِ الجبارِ، فيتحددَ سعرُ النفطِ الخامِ والفضةِ والذهبِ، هنا دورُ عرضِ الأزياءِ والمكياجِ والموضةِ التي تمنحُ لها جوائزُ عالميةٌ، وصناعةُ السينما تُضاهي مثيلاتِها في الولاياتِ الأخرى، وهنا أيضًا مراكزُ البحثِ العلميِّ والتخطيطِ الاستراتيجيِّ، ومركزُ النشرِ والطباعةِ لأشهرِ الصحفِ والمجلاتِ العالميةِ"[1].

وبالطبعِ فإنَّ هذا الوصفَ له ما بعدَهُ في أحداثِ الروايةِ، فالكاتبُ عندما يأتي بهذهِ الأوصافِ لمدينةِ نيويوركَ يمهدُ للحدثِ الفاصلِ الذي حلَّ بها في أيلولَ ٢٠٠١م، الذي شكَّلَ بؤرةً للأحداثِ الروائيةِ فيما بعدُ.

وبعدَ وصولِ (أنور) إلى مدينةِ كاليفورنيا الأمريكيةِ تأسرُهُ طبيعتُها الخلابةُ، يقولُ الراوي: "كلُّ ما يراه ويسمعُ عنه يأسرُهُ، حتى التضاريسُ الجغرافيةُ قرأَ إنها متنوعةٌ؛ مما أهَّلَ كاليفورنيا التي يأملُ أنْ تكونَ موطنَهُ الجديدَ، لأنْ تغدوَ مصيفًا يحجُّ إليه أثرياءُ العالمِ، بعضُهُمْ يهوى شمسَها الذهبيةَ أيضا، وبعضُهُمْ يتسلقُ جبالَها الشاهقةَ التي تغتسلُ قممَها بندى السحابِ، وآخرونَ يجدونَ متعتَهُمْ في الاغتسالِ واللهوِ تحتَ هديرِ مصبِّ شلالاتِها المتعددةِ مثلَ (يوزميت) الخلابةِ"[2].

يتضحُ منَ المقطعِ السابقِ مدى تعلقِ (أنور) بالمدينةِ الجديدةِ التي هاجرَ إليها راغبًا، التي يأملُ أنْ تكونَ موطنَهُ الجديدَ، وهو ما يدلُّ على عدمِ اكترائِهِ وتعلقِهِ بوطنِهِ الأمِّ، بدايةَ الأمرِ، ثم تتحولُ الأمورُ إلى الضدِّ وينتقمُ من مشغليهِ، ليثبتَ حبَّهُ ودفاعَهُ عن فلسطينِ.

أَمَّا بِالنِّسبةِ لابنهِ (سامي) فقد كانَ مُتنَاقِضًا معهُ فِي تعَلُّقِهِ بِالمدينةِ والمُجتمعِ الأَمريكيِّ، فقد ضَاقَ ذَرعًا بِدايةَ الأَمْرِ، ولمْ ينسَجِمْ معَ طبيعةِ الحَياةِ المُتحَرِّرَةِ في كَالِيفُورنِيا، ممَّا دَفعهُ لِلتَّفكيرِ بِالهِجرَةِ والسَّفَرِ لِبَاكِسْتَانَ.

ويبدعُ الكاتبُ برسمِ صورةِ مدنِ الجليلِ العربيِّ شمالَ فلسطينَ، ليمنحَها قداسةً في نظرِ المتلقي، يقولُ (هادي) في حوارِهِ معَ زوجتِهِ: "ورُحْنا نشيرُ معًا بفرحٍ إلى أحياءِ مجدِ الكرومِ، وجارتِنا دَيْرِ أسدٍ، والمنصورةِ، وصفوريةَ، ونلوحُ لمدينةِ صفدَ، نعبرُ عن شوقِنا لبحيرةِ طبريا، وأختِها الصغرى

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٢٥.

(2) المصدر السابق، ص٥٤.

بحيرةِ الحولةِ، وجبلُ الجرمقِ أمامَنا كأسدٍ حارسٍ، قمتُهُ الشاهقةُ تشدُّ البصرَ، جمالٌ له رهبةٌ، وننظرُ خلفَنا لنرى أضواءَ المنطقةِ التحتيةِ، حيثُ قرى جبالِ الجليلِ الأدنى التي تجاورُ الناصرةَ مطلةً على مرجِ ابنِ عامرٍ، وتقولُ غديرُ ضاحكةً؛ وهيَ تشيرُ لأمِّ الفحمِ، والعفولةِ، حيثُ يقطنُ أهلُها: – حماتُك– لمْ أدعْها تكملُ، أعرفُ ما ستقولُ، ضحكْنا معًا وهبطْنا بأناةٍ وحذرٍ خوفًا على سلامةِ الجنينِ"(١).

هذا الوصفُ السرديُّ الجميلُ لمدنِ الجليلِ العربيِّ يعكسُ مدى حبِّ (هادي) وزوجتُهُ لوطنِهِما المحتلِّ وتعلقِهِما به، وهوَ الذي يمثلُ شريحةً مهمةً من شرائحِ المجتمعِ الفلسطينيِّ وهيَ (فلسطينيو الداخلِ المحتلِّ سنةَ ١٩٤٨م)، هذا الحبُّ يتحولُ فيما بعدُ إلى محركٍ وباعثٍ للثورةِ والانقلابِ في فكرِ الدكتور (هادي) وأيديولوجيتِهِ، ليتركَ بيتَهُ وعملَهُ وأهلَهُ، وينفذَ عمليتَهُ الصامتةَ بتسميمِ عددٍ منْ جنودِ الاحتلالِ الصهيونيِّ بعدَ عدوانِ سنةَ ٢٠٠٨م، ثم تنفيذُهُ لعمليةِ الجولانِ معَ رفاقِهِ.

ولمْ يغفلِ الكاتبُ ذكرَ المدنِ الفلسطينيةِ، وما تحملُهُ من دلالاتٍ مرتبطةٍ بشخصياتِ الروايةِ، فهذا (أسعد) يصفُ زيارةَ ابنِ عمتِهِ (أحمد) إلى أحياءِ مدينةِ الخليلِ، فيقولُ: "قضى (أحمد) عندَنا إجازةَ نصفِ العامِ، فطفْتُ بهِ أنحاءَ المدينةِ وقراها، صعِدْنا الجبالَ، وهبطْنا الأوديةَ، وزرْنا القرى والنجوعَ والخِرَبَ، ووقفْنا معًا أمامَ المستوطنةِ وقدِ اشتبكتْ يدي في يدِهِ، وضغطَ كلٌّ منّا، كأنَنا نتعاهدُ في صمتٍ على شيءٍ"(٢).

يلاحظُ أنَّ الكاتبَ قد حمَّلَ شخصيةَ (أسعد) بُعدًا فكريًّا منذُ طفولتِهِ، بوقوفِهِما أمامَ المستوطنةِ الصهيونيةِ، وحركةِ الأيدي التي تدلُّ على القوةِ والتماسكِ: ويتضحُ ذلكَ في عبارةِ: "ووقفْنا معًا أمامَ المستوطنةِ وقدِ اشتبكتْ يدي في يدِهِ، وضغطَ كلٌّ منّا، كأنَنا نتعاهدُ في صمتٍ على شيءٍ".

كانَ لمدينةِ القدسِ حضورُها في وجدانِ الكاتبِ، فقدَ وصفَها منْ خلالِ شخصيةِ البطلِ (أسعد) الذي يقولُ: "وحدَها القدسُ تمنيتُ البقاءَ فيها، فأزقتُها العتيقةُ ومساجدُها وكنائسُها وأسواقُها كانتْ تشدُني إليها، فآمنتُ أنَّ القدسَ لا تشبهُ المدنَ الأخرى، رأيتُها فريدةً استثنائيةً، صليتُ بالأقصى، وتجولتُ في ساحاتِهِ ومصلياتِهِ، ودرتُ حولَ قبابِهِ وأبوابِهِ"(٣).

يظهرُ هذا الوصفُ مدى تعلقِ (أسعد) بمدينةِ القدسِ، فهيَ لا تشبهُ غيرَها منَ المدنِ، وبلا شكٍّ فإنَّ هذا الوصفَ يؤكدُ حبَّهُ وتعلقَهُ بوطنِهِ، مما يعززُ أيديولوجيتَهُ الوطنيةُ فيما بعدَ.

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٥٢.

(٢) المصدر السابق، ص٧٠.

(٣) المصدر السابق، ص٩٦.

أَما عنْ علاقَةِ الشخصياتِ اليهوديَّةِ بالقدسِ ونَظرتِها لها فقد كانَت محطَّ اهتمامِهِم وتركيزِهِم، وظهرَ ذلكَ في اهتمامِ الحاخاماتِ وقادةِ المستوطنِينَ بدعمِ الهجرَةِ للقدسِ، يقولُ الرَّاوي واصفًا اهتمامَ (بَارُوخ) بِذلكَ: "يُصغِي جيدًا لما يقَالُ في المُحاضراتِ الَّتي يُشرِفُ عليها وَيُنظِّمُها قادَةُ الفِكرِ الصَّهيونيِّ، بَعضُهُم مُقيمٌ بِشكلٍ دائِمٍ في أَمريكا، ويزورُ إسرائيلَ ضِمنَ وُفودِ الدَّعمِ والمُسانَدةِ الَّتي تَحُجُّ إلى (تَلِّ أَبيب) على مدارِ الساعةِ وبعضهُم بِالعكسِ يأتي أَمريكا زَائِرًا لِشحذِ الهِممِ والاطمِئنانِ على مخزونِ حقدِ القُلوبِ أَنَّهُ في أَعلى مُسْتَوَياتِهِ ويُطالِبُ بِزيادةِ الإنفاقِ على المُستَوطِنِينَ وقادَتِهِم في كلِّ بُقعةٍ مِن أَرضِ كنعانَ معَ التَّركيزِ على القُدسِ"(١).

كذلكَ أبدعَ الكاتبُ في رسمِ العديدِ منَ المدنِ مثلَ غزةَ(٢)، وبغدادَ(٣)، ودمشقَ، ودَرْعا(٤)، وبيشاورَ(٥)، وسبن بلداك(٦)، والعديدِ من المدنِ الأخرى في روايةِ "المُباهلة".

أمّا عن حضورِ المدنِ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" فقد جاءَ على لسانِ (نصيف)، الذي وصفَ مدينةَ الدارِ البيضاءِ عاصمةَ المغربِ، وظهرَ مدى التأثرِ الذي وصلتْ له مدنُ المغربِ بالثقافةِ الأوروبيةِ، نتيجة الاستعمار سابقًا، والانفتاح السياحيِّ حديثًا، لا سيما فرنسا وإيطاليا، وهو ما كانَ مدخلًا سهلًا للماسونيةِ في الدولِ العربيةِ.

ويصفُ (نصيف) مدينةَ فلورنسا الإيطاليةِ بقولِهِ: "شاهدتُ أنهارًا عديدةً صغيرةً كالجداولِ تتقاطعُ مع نهرِ –أرنو– الرئيسِ، وزُرْنا متحفَ المدينةِ وشاهدْنا تماثيلَهُ العاريةَ"(٧).

يتجلى من خلالِ وصفِ المدينةِ إتقانُ الكاتبِ عويضة لرسمِ صورةِ المدنِ المختلفةِ بطبيعتِها وثقافتِها وطبائعِ أهلِها، وهو ما انعكسَ على الشخصياتِ، وخدمَ فكرةَ الصراعِ الأيديولوجي بينَها.

- **المخيمُ:**

المخيمُ مكانٌ متميزٌ لهُ طبيعتُهُ الخاصةُ، وهوَ مرتبطٌ بالإنسانِ الفلسطينيِّ المشردِ، وبذكرياتِهِ وشخصيتِهِ على وجهِ الخصوصِ. وكانَ للمخيمِ حضورٌ كبيرٌ في الروايةِ الفلسطينيةِ، حيثُ أولاه الروائيونَ مساحةً كبيرةً في رواياتِهِمْ، فهناكَ منْ أعطاهُ دورَ البطولةِ، وجعلَهُ مكانًا أساسيًّا في روايتِهِ،

---

(١) يُنظر: خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٩٦.

(٢) المصدر السابق، ص٣٠.

(٣) يُنظر: المصدر السابق، ص١٠١.

(٤) يُنظر: المصدر السابق، ص٣٣٣.

(٥) يُنظر: المصدر السابق، ص٢١٦.

(٦) يُنظر: المصدر السابق، ص٢٢٤.

(٧) المصدر السابق، ص٧٩.

وهناكَ منْ أشارَ إليه بشكلٍ غيرِ مباشرٍ، كما فعلَ الكاتبُ خلوصي عويضة، من خلالِ حديثِ (أسعد)، عن مخيمِ البلدياتِ في بغدادَ، يقولُ (أسعد): "وهكذا ارتحلتُ إلى المخيمِ مجازًا أكثرَ منه حقيقةً قياسًا على المخيماتِ التي زرتُها برفقةِ (أحمد) في غزةَ، أو مخيمِ الفوارِ بالخليلِ، أو الوحداتِ بالأردنِ، فمخيمُ البلدياتِ مجموعةٌ كبيرةٌ من العماراتِ السكنيةِ المتلاصقةِ، وليس خيامًا أو بيوتَ صفيحٍ، وأجملُ ما فيهِ بالإضافةِ للمسجدِ نادي حيفا الرياضيُّ"[1].

ويُلقي المخيمُ بظلالِهِ على مشاعرِ (أسعد) الذي بدأَ يستعيدُ ذكرياتِهِ في مخيماتِ اللجوءِ في فلسطينَ، ويعيدُ للقضيةِ الفلسطينيةِ حضورَها في ذهنِهِ وشعورِهِ، يقولُ: "لكنْ في تلكَ البقعةِ منَ الأرضِ بدأتُ أرى الألوانَ، وأميّزُ الفروقَ بينَهُما، وأحاولُ ولو حبوًا استشعارَ أحاسيسِها، فأعادَ لي المخيمُ زخمَ الانتماءِ للقضيةِ؛ أعني عادتْ تحتلُّ بؤرةَ الشعورِ"[2].

على الرغمِ منَ البعدِ المكانيِّ بينَ (أسعد) والمخيماتِ الفلسطينيةِ، فإنها ظلتْ عالقةً في ذهنِهِ وذاكرتِهِ ووجدانِهِ، وأقامَ مقارنةً بينَ مخيمِهِ الجديدِ البلدياتِ في العراقِ الذي يسكنُهُ معظمُ الفلسطينيينَ، وبين مخيماتِ اللجوءِ في فلسطينَ.

أما عن حضورِ المخيمِ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، فكانَ كإشارةٍ للأحداثِ المهمةِ التي وقعتْ فيهِ، حيثُ يذكرُ الكاتبُ جرائمَ الاحتلالِ الصهيونيِّ في مخيمَيْ صبرا وشاتيلا وعينِ الحلوةِ، وتأثيرَ ذلكَ على أنشطةِ الماسونيةِ: يقولُ (نصيف): "ربّما وجدتُ بعضَ ضالتي في مقالاتِ الرأيِ التي تنشرُها الصحفُ المعارضةُ؛ فتكوّنَ لديَّ ما يشبهُ توازنَ التشويشِ في المعرفةِ، ولمّا كنتُ غيرَ مهتمٍ بتصديعِ رأسي أكثرَ، اكتفيتُ بذاكَ القدرِ، إلى أنْ وقعتْ مذابحُ عينِ الحلوةِ وصبرا وشاتيلا معَ بَدءِ العامِ الدراسيِّ الجديدِ، فبدأتُ منْ جديدٍ وقدْ هالتني بشاعةُ الحدثِ، أحاولُ المعرفةَ فشاركتُ بالمظاهراتِ الصاخبةِ المنددةِ بدافعٍ إنسانيٍّ بحتٍ، ولم أتفاجأْ برؤيةِ عناصرِ الماسونِ بقيادةِ (رؤوف) يهتفونَ أيضاً منددينَ، فهمْ خيرُ منْ يعرفُ ما يستوجبُهُ الزمنُ والمكانُ ليكونوا في طليعةِ الميدانِ"[3].

هذا المشهدُ يظهرُ كيفيةَ تعاملِ الماسونيةِ معَ الأحداثِ المهمةِ وتكيفَها معَ الجوِّ السياسيِّ العامِّ، فشاركَ أعضاءُ الماسونيةِ في المظاهراتِ المنددةِ بجرائمِ الاحتلالِ بشكلٍ ظاهرٍ للجميعِ، أما في الخفاءِ فكانَ الدعمُ والتأييدُ في قمتِهِ، وظهرَ ذلكَ في الحواراتِ التي كانتْ تدورُ بينَ الشخصياتِ الروائيةِ، لا سيما (أميرة)، و(جلال)، و(مانويلا)، و(رامون).

---

(1) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص١٢٨.

(2) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(3) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٢١١.

- **الصحراءُ:**

وظَّفَ الكاتبُ خلوصي عويضة البيئةَ الصحراويةَ بشكلٍ مكثفٍ، وذلك تماشيًّا معَ طبيعةِ أحداثِ روايةِ "المباهلة" التي كانتْ تدورُ معظمُ أحداثِها في المناطقِ الصحراويةِ بينَ العراقِ وسوريا.

يغلبُ الجانبُ النفسيُّ الرمزيُّ على علاقةِ الشخصياتِ بالصحراءِ، كما ظهرَ في الروايةِ،

وكانتْ الصحراءُ هي المكانَ الذي كانَ يكتبُ فيه البطلُ (أسعد) ذكرياتِهِ ورحلةَ حياتِهِ، فيتوحدُّ معَها، فهيَ أنيسُهُ في غربتِهِ ورحلةِ الشقاءِ والعذابِ، يقولُ: "اليومَ، وفي هذهِ الفترةِ من حياتي، والصحراءُ ملاذي، كلانا أنيسانِ لوحشةِ الآخرِ، فوقَ رمالِها الصفراءِ الناعمةِ الممتدةِ إلى ما لا نهايةَ؛ شيدْتُ لنفسي قصرًا منَ الذكرياتِ أطوفُ حولَهُ أشواطًا منَ الخارجِ متهيبًا الولوجَ، ثمَّ أطرقُ بابَهُ مدفوعًا بقوةِ الحاجةِ للتعلقِ بالحبالِ المهترئةِ لمرفأِ النجاةِ... نعمْ تُحرقُهُ الشمسُ اللاهبةُ في النهارِ، وتقوضُ أركانَهُ رياحُ الليلِ العاتيةُ؛ فأعاودُ البناءَ طلبًا للزادِ، فما لي أنيسٌ سواها"(١).

ويظهرُ البعدُ النفسيُّ للصحراءِ في نفسِ (أسعد)، الذي يعقدُ مقارنةً بينها وبينَ البحرِ، يقولُ: "لأولِ مرةٍ أرى الصحراءَ أتخيلُها بحجمِ السماءِ لا حدودَ لها، تسحبُني إلى عالمِها الرهيبِ، فللوهلةِ الأولى أحسُّها عالمًا موحشًا مخيفًا، فجأةً يقفزُ إلى ذهني البحرُ الأزرقُ؛ فأقارنُهُ بالباديةِ وأكتشفُ أنَّ الفرقَ أبعدُ بكثيرٍ من مسافاتِ الألوانِ وانعكاسِ ضوئِها على البصرِ، ليسَ الفرقُ بينَ أزرقَ وأصفرَ، إنما البحرُ يوحي بالحياةِ، يمنحُ إحساسًا بالأملِ، يوسعُ مدى الخيالِ، أما الصحراءُ فتشعرُكَ بالمجهولِ، توقظُ الخوفَ من غفوتِهِ كأنَّ عدوًّا يتربصُ بكَ يوشكُ أن ينقضَّ، لاحقًا معَ الأيامِ أدركتُ أني تعجلتُ الحكمَ على الصحراءِ، فلكلٍّ جمالُهُ، كما أنَّ القاسمَ المشتركَ بينَهُما هوَ الموتُ الذي يحتويكَ الإحساسُ بوخزِهِ مطلًّا برأسِهِ في كل لحظةٍ"(٢).

في المقطعِ السابقِ يُحمّلُ الكاتبُ الصحراءَ دلالاتِ الموتِ والضياعِ، وفي جبروتِها يكمنُ المجهولُ والخوفُ والموتُ، ثمَّ ما يلبثُ أنْ يعطيَها جانبًا جماليًّا، ثم يعودُ ليؤكدَ أنَّ القاسمَ المشتركَ بينها وبين البحرَ هوَ الموتُ، وفي ذلكَ تظهرُ براعةُ الكاتبِ في رسمِ البيئةِ الصحراويةِ من خلالِ المفارقةِ الوصفيةِ السابقةِ.

- **البحرُ:**

ارتبطَ الإنسانُ في البحرِ بعلاقةٍ إيجابيةٍ في معظمِ الأحيانِ، وهيَ علاقةٌ نفسيةٌ رمزيةٌ، وقدْ تناولَ الكُتّابُ والروائيونَ صورةَ البحرِ في أعمالِهِمْ، وكانَ حاضرًا في الروايةِ الفلسطينيةِ بشكلٍ خاصٍّ،

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٤٠.

(٢) المصدر السابق، ص٩٨،٩٩.

لما لهُ من وقعٍ في نفوسِ الفلسطينيينَ، كروايةِ "السفينةِ" لجبرا إبراهيم جبرا، وروايةِ "حبرُ الروحِ" للكاتبِ خلوصي عويضة، وغيرُهُمْ منَ الروائيينَ.

وللبحرِ أثرُهُ النفسيُّ في الأحداثِ والشخصياتِ، ومع أنَّهُ قد يشكلُ خطرًا على الإنسانِ إلا أنه قد يبدو عنصرًا جماليًّا متحركًا محسوسًا مؤثرًا في الأحداثِ والشخصياتِ[١].

وظهرَ البحرُ في روايةِ "المباهلة" في رحلةِ سفرِ (أنور) إلى الولاياتِ المتحدةِ، وكذلكَ قدومِ (باروخ غولدشتاين) إلى فلسطينَ، يقولُ الراوي: "تهادتِ الباخرةُ العملاقةُ Olympic Athens متعددةُ الطوابقِ شبهُ المستديرةِ، وقد أبحرتْ من ميناءِ –سالونيك– باليونان، تُقِلُّ في جوفِها، وعلى ظهرِها بضعَ مئاتٍ منَ المهاجرينَ الجددِ، وبضعَ عشراتٍ من طالبي متعةِ السياحةِ، تهادتْ تظلِّلُها طيورُ النورسِ تخفقُ بأجنحتِها البيضاءِ كأنما ترحبُ بالحالمينِ الجددِ، وبقيتْ تصحبُهُمْ غيرَ عابئةٍ بدويٍّ بوقِ السفينةِ يشقُّ صمتَ الفضاءِ المتسعِ حتى ألقى القبطانُ مراسيها على شواطئِ المحيطِ الهادي"[٢].

فالمشهدُ السابقُ يصفُ مياهَ المحيطِ الهادي، وتظهرُ براعةُ الكاتبِ في تصويرِ رحلةِ (أنور) إلى كاليفورنيا، هذهِ المشاهدُ تبعثُ في النفسِ راحةً نفسيةً، واستراحةً للمتلقي، لربطِ الأحداثِ الروائيةِ.

وتأتي صورةُ البحرِ على لسانِ (أسعد) الذي يصفُ بحرَ غزةَ وطبيعتَها بدقةٍ، يقولُ: "وهناكَ في رفحَ عندَ شاطئِ البحرِ الآسرِ قضيتُ أيامًا مختلفةً بصحبةِ أبناءِ عمتي، إلى أبعدِ نقطةٍ مدى في الخيالِ اللامتناهي أخذتْني تجربةُ الحياةِ بجوارِ البحرِ، عالمُ سحرٍ، ودهشةٍ، ومتعةٍ دفعتْني لتمني السفرَ إلى أعماقِهِ أو ضفةِ الشاطئِ الآخرَ منَ العالمِ الآخرِ، فأفقُهُ بعيدٌ كأنه لا نهايةَ لهُ، سحبني طوعًا وحبًّا منْ فوقِ رمالِهِ خلابةِ الجمالِ بنعومتِها، كأنثى فاتنةٍ تزيدُ روعتَها الأصدافُ بأشكالِها الغريبةِ والزلفِ بألوانِهِ العجيبةِ، ويا لطغيانِ فتنتِهِ عندما تلتقي زرقتُه وبياضُه مع زرقةُ السماءِ وبياضِها؛ تسمرتُ مبهوتًا مأخوذًا وأنا أقفُ أمامَ لوحةٍ كونيةٍ أبدعَها الخالقُ"[٣].

أما عن حضورِ البحرِ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، فقدْ كانَ نادرًا، لكنَّ أثرَهُ النفسيُّ كانَ ظاهرًا وواضحًا في نفسِ (نصيف)، الذي يقولُ: "بدأتْ سرعةُ السيارةِ تتهادى، وقد اتسعَ فضاءُ البحرِ أمامَنا، وبدأتْ رياحُهُ المطعّمةُ بالملوحةِ تلفحُ وجهي، وتعبثُ بشعري، فيتطايرُ بكلِّ الاتجاهاتِ، كأنه قلقٌ متوترٌ غاضبُ الأعماقِ كصاحبِهِ"[٤]. ونرى أنَّ الكاتبَ قد مزجَ بينَ الحالةِ النفسيةِ الصعبةِ التي

---

(١) يُنظر: نضال الصالح، نشيد الزيتون (قضية الأرض في الرواية الفلسطينية)، اتحاد الكُتاب العرب، دمشق، ط١، ٢٠٠٤م، ص١٥٤. بتصرف.

(٢) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٥٣.

(٣) المصدر السابق، ص٦٧،٦٨.

(٤) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص٤٤.

يمرُّ بها (نصيف) وبينَ حركةِ شعرِهِ في كلِّ اتجاهٍ، لتعبرَ عنْ حالةِ التشظي والتوترِ بسببِ حالةِ العزلةِ التي فرضَتْها عليهِ الماسونيةُ.

- **الأحياءُ الإسلاميةُ في المدنِ الأوربيةِ:**

ظهرتْ صورةُ الأحياءِ الإسلاميةِ في روايةِ المباهلةِ، عندما سافرَ (أنور) إلى الولاياتِ المتحدةِ، حيثُ سكنَ في الحيِّ الإسلاميِّ في لوس أنجلوس، فجاءَ وصفُهُ على لسانِ الراوي: "نشوةُ فرحٍ غمرتْ كيانَ (أنور) بعدَ انتقالِهِ إلى الحيِّ الإسلاميِّ بمدينةِ (لوس أنجلوس) حيثُ الوجوهُ بسحناتِها المعتادةِ، مألوفةٌ للعينِ قريبةٌ منَ النفسِ، وزادَ من سرورِهِ انتشارُ المطاعمِ الشاميةِ والمصريةِ"[١].

ويظهرُ مدى تأثرِهِ بهذا المكانِ وراحتِهِ النفسيةِ لكونِهِ في حيٍّ إسلاميٍّ اعتادَ على حياتِهِ في فلسطينَ قبلَ هجرتِهِ، ثم يضيفُ الراوي مبينًا سعادةَ (أنور) بوجودِ المسجدِ: "زادَ منسوبُ سعادتِهِ بمسكنِهِ الجديدِ، وهوَ يسمعُ الأذانَ من مسجدِ بلالٍ الجارِ الجنبِ لبيتِهِ"[٢].

وكذلكَ يظهرُ حبُّهُ لدينِهِ ولفطرتِهِ السليمةِ التي تأنفُ الأكلَ الحرامَ، فينعكسُ أثرُ المكانِ على حياتِهِ، يقولُ الراوي: "أعجبَهُ أيضًا في الحيِّ الجديدِ أن المحلاتِ التجاريةَ المنتشرةَ تكتبُ يافطاتِها باللغةِ العربيةِ، التي تبيعُ اللحومَ تنوهُ إلى (الذبحِ الحلالِ) وعلى بعدِ دقائقَ معدودةٍ بدراجتِهِ الناريةِ التي اشتراها بمشاورةِ (إدوارد) يقعُ مركزٌ إسلاميٌّ يحملُ اسمَ (ابنِ تيميةَ)"[٣].

هذهِ الأماكنُ المتعددةُ من مسجدِ بلالِ بنِ رباحٍ، أو مركزِ ابنِ تيميةَ الإسلاميِّ يكونُ لها أثرُها الكبيرُ في التأثيرِ على أفكارِ (سامي)، وتنشئتِهِ تنشئةً متشددةً، وقد استغلتِ المخابراتُ الأمريكيةُ وجودَ هذهِ الأماكنِ لدسِ العملاءِ تحتَ عباءةِ الدينِ كما ظهرَ لنا ذلكَ في شخصيةِ الشيخِ (محسن)، الذي أوقعَ (سامي) في فخِّ التشددِ، ثم سجنَهُ في سجنِ –غوانتنامو– الشهيرِ.

وتجدرُ الإشارةُ إلى غيابِ المسجدِ بشكلٍ ملحوظٍ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، وذلك تماشيًا معَ الأهدافَ الماسونيةِ التي تسعى لمحاربةِ الدياناتِ.

- **الشارعُ:**

رصدَ الكاتبُ خلوصي عويضة مجموعةً منَ الشوارعِ والطرقاتِ في روايتيْهِ، وظهرَ ذلكَ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" في رسمِهِ لشارعِ –محمدٍ الخامسِ– الشهيرِ، يقولُ على لسانِ (نصيف): "مشيْنا معًا في شارعِ –محمدٍ الخامسِ–، السياراتُ منْ كلِّ نوعٍ وحجمٍ ولونٍ تملأُ الاتجاهينِ، لكنَّ ذلكَ لمْ يُعكرْ

---

(١) خلوصي عويضة، المُباهلة، مصدر سابق، ص٥٨.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

صفوَ الصمتِ الهادئِ، فمن مزايا تلكَ المدينةِ العريقةِ خفوتُ حدةِ الضوضاءِ، فقانونُ المرورِ مثلُ باقي القوانينِ لهُ في نفوسِ الناسِ وقعٌ شديدٌ كالمروّضِ أوِ المهذّبِ، لا أدري أكانَ خوفًا أمِ احترامًا، فليسَ شأني"[١].

ويتجلى فضاءُ الشارعِ وينعكسُ على نفسيةِ (نصيف) الذي اتصفَ بالهدوءِ والصمتِ والسكينةِ، كذلكَ يظهرُ التزامُ الناسِ بالقانونِ كحالتِهِ في طفولتِهِ، ويظهرُ أيضًا عراقةُ مدينةِ الدارِ البيضاءِ، وتطورُها متأثرةً بالقربِ الجغرافيِّ لدولِ أوروبا.

ثم يحلقُ الكاتبُ واصفًا شوارعَ مدينةِ فلورنسا الإيطاليةِ، وتمثالَ دانتي الشهيرَ: يقولُ على لسانِ (نصيف): "وأمامَ تمثالٍ شاهقٍ مصنوعٍ منَ البرونزِ ومتوجٍ بإكليلٍ بجوارِ ساحةِ كنيسةِ –سانتا ماريا– توقفتْ (أميرة) التي تقودُ، وأشارَ (كريم) بيدِهِ جهةَ التمثالِ، وقد استدارَ بجذعِهِ للخلفِ حيثُ أجلسُ و(جلال)، وهيَ أيضًا شدتْ نصفَها لأعلى معتمدةً على ردفيْها الممتلئينِ المثيرينِ وصوبتْ نظرَها حيثُ أشارَ، وقالَ بصوتٍ ممتلئٍ عميقٍ:

- هذا تمثالُ دانتي أحدِ أهمِّ الآباءِ الروحانيينَ لعشيرتِنا، إنه من أعظمِ عظماءِ البشرِ، أقولُ لكَ ذلكَ (نصيف) كيْ تعلمَ إلى أيِّ أمَّةِ عظماءَ ستنتمي الآنَ، هذا تمثالُهُ وهنا تعمَّدَ"[٢].

وبلا شكٍّ يظهرُ هدفُ (أميرة) من وصفِها للمكانِ وتمثالِ دانتي أمامَ (نصيف)، فهيَ تهدفُ لغرسِ فكرةِ العظمةِ التي تتمتعُ بها الماسونيةُ في أعماقِهِ، وجاءتْ بشخصيةِ دانتي للتأثيرِ عليه، ولكيْ يعدُّهُ مثلًا له، حتى يصبحَ عضوًا فاعلًا في العشيرةِ.

مما سبقَ نستنتجُ أنَّ المكانَ كانَ من أهمِّ المكوناتِ الأساسيةِ التي بنى عليها الكاتبُ عويضة روايتيْهِ، فقد منحَهُ شكلًا حيويًّا، فلمْ يكنْ كأرضيةٍ بسيطةٍ لحركةِ الأحداثِ بل أكثرَ من ذلكَ، وكان بمثابةِ الوعاءِ الذي لعبتْ فيه الشخصياتُ أدوارَها، وسارتْ فيهِ الأحداثُ والمواقفُ وردّاتُها، فكانَ له دورٌ قائمٌ بذاتِهِ، وظهرَ بقوةٍ بينَ العناصرِ الأخرى، وكانَ تعددُهُ وتنوعُهُ مساعدًا لنموِّ الأحداثِ وتطورِها، وكذلكَ لنموِّ الشخصياتِ.

وقد نوَّعَ الكاتبُ في الأمكنةِ وأشكالِها، ولاحظنا حضورَ الأماكنِ المغلقةِ كالبيتِ والمقهى والمحافلِ والأنفاقِ وغيرِها، والأماكنِ المفتوحةِ كالمدنِ والصحراءِ والمخيمِ والبحرِ والشوارعِ وغيرِها، وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ الكاتبَ عويضة كان متقنًا وبارعًا في صناعةِ الأماكنِ الروائيةِ الخياليةِ، وفي

---

(١) خلوصي عويضة، الأفعى تطوق الأرض، مصدر سابق، ص١٢.

(٢) المصدر السابق، ص٦٧.

نقلِ صورةِ الأماكنِ الحقيقةِ التي زارَها بنفسِهِ، ووصفَها بصورةٍ غرائبيةٍ خياليةٍ، وهذا ما أضفى عليها الصدقَ والواقعيةَ والبعدَ الأدبيَّ.

وتعقيبًا وتذييلًا على الفصل الرابع –الزمن والمكان–، نجدُ أنَّ الكاتبَ خلوصي عويضة ربطَ ربطًا وثيقًا بين المكانِ والزمنِ في روايتيْهِ، فكمَّلَ كلٌّ منهما الأخرَ، كما ربطَ بينَ المكانِ والزمنِ وبينَ بقيةِ العناصرِ الأخرى المكونةِ للروايةِ، فهي تتآزرُ معًا في رسمِ المشاهدِ الروائيةِ ذاتِ الأبعادِ الحسيةِ والنفسيةِ التي تشوِّقُ القارئَ، وتثيرُ لديهِ الخيالَ، واستحضرَ الزمنَ في وجوهِهِ المتعددةِ الماضيةِ والحاضرةِ والمتخيلةِ، وقد رافقَ هذا الزمنَ المكانُ بأنواعِهِ المتعددةِ، وشكَّلا معًا تفاعلًا في السيرورةِ الحكائيةِ السرديةِ، وحمَلا الموروثَ الثقافيَّ والتاريخيَّ، وانعكسا في الأفكارِ الأيديولوجيةِ التي دافعتْ عنها الشخصياتُ الروائيةُ.

وقد فتحَ الكاتبُ للقارئِ دلالاتٍ جغرافيةً وتاريخيةً غنيةً من خلالِ حديثِهِ عن أهمِّ المحطاتِ التاريخيةِ المعاصرةِ على المستوى المحليِّ أو العربيِّ والإسلاميِّ أو العالميِّ، في روايتيِ "المُباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ"، كاجتياحِ بيروتَ، ومجازرِ صبرا وشاتيلا، والانتفاضةِ الأولى والثانيةِ، وحصارِ العراقِ ثم الحربِ عليهِ واحتلالِهِ سنةَ ٢٠٠٣م، ومجزرةِ الحرمِ الإبراهيميِّ، وهجماتِ الحادي عشرَ من سبتمبرَ سنةَ ٢٠٠١م، والحربِ على أفغانستانَ، والصراعِ الطائفيِّ في العراقِ، وحقبةِ تنظيمِ الدولةِ الإسلاميةِ (داعش) والربيعِ العربيِّ، والحروبِ المتكررةِ على قطاعِ غزةَ في العقدِ الأخيرِ.

أما على مستوى الأماكنِ الجغرافيةِ الحقيقةِ، فقد تنقلَ الكاتبُ في دولٍ ومدنٍ متنوعةٍ، منطلقًا عبرَ شخصياتِهِ الروائيةِ من مكانٍ إلى آخرَ، ومن مدينةٍ إلى مدينةٍ، فانطلقَ مع شخصيةِ (نصيف) في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ" من فلورنسا منتقلًا به إلى فرنسا ثم إلى مصرَ ثم إلى المغربِ وتونسَ، وعودةً إلى هذهِ الدولِ حسَبَ مقتضياتِ الأحداثِ وسيرورتِها.

وقد أبدعَ الأديب في الربطِ بينَ ما هوَ غرائبيٌّ وما هوَ حقيقيٌّ، وإنْ كانَ للخيالِ الدورُ الأكبرُ في تغليفِ الحقائقِ والوقائعِ التاريخيةِ التي مرتْ في روايتيِ "المباهلةِ" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ".

الخاتمة

الحمدُ للهِ الذي بنعمتِهِ تتمُّ الصالحاتُ، وبفضلِهِ تتحققُ المقاصدُ والغاياتُ، الحمدُ للهِ الذي وفقني لإتمامِ بحثي، بعدَ رحلةٍ بحثيةٍ طويلةٍ، فما حالفَ الصوابَ فيهِ فإنَّ مردَّهُ إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالى، وما جانبَ الصوابَ فيهِ فهوَ مني وقلةُ حيلتي.

تقعُ روايتا "المباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ" للروائي خلوصي عويضة في إطارِ الأدبِ الروائيِّ الواقعيِّ الملتزمِ بقضايا الوطن والأمةِ، فالكاتبُ ملتزمٌ بقضايا شعبِهِ الفلسطينيِّ ومحيطِهِ العربيِّ القوميِّ، وبُعدِهِ الإسلاميِّ، والإنسانيِّ، يعيشُ معَ أزماتِهِمْ وقضاياهُمْ، ويقدمُ رؤيتَهُ وعلاجَهُ لهذهِ القضايا، منطلقًا من رؤيةٍ شموليةٍ تحافظُ على كرامةِ الإنسانِ وكينونتِهِ، بغضِ النظرِ عن جنسِهِ أو موطنِهِ.

وبعدَ هذهِ الرحلةِ العلميةِ التي طافَ خلالَها الباحثُ في روايتي "المباهلةِ" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ" ومضامينِهِما الفكريةِ والأيديولوجيةِ وتقنياتِهِما الفنيةِ، وازنَ فيها الباحثُ بينَ الأيديولوجيا والبناءِ الفنيِّ، معَ إعطاءِ الأهميةِ للجانبِ الفنيِّ بشكلٍ أكبرَ. فقد خلصتِ الدراسةُ إلى نتائجَ من أهمها:

أولًا: الرؤيةُ الأيديولوجيةُ:

- ظهرَ الجانبُ الفكريُّ الأيديولوجيُّ في مضامينِ الروايتينِ مبكرًا، وطغى على غيرِهِ منَ الجوانبِ.
- تعددتْ أشكالُ الخطابِ الدينيِّ التي تبنتْها شخصياتُ الروايتينِ، وساعدتْ في إذكاءِ شعلةِ الصراعِ والتصادمِ فيما بينَها.
- شكَّلَ الصراعُ العقائديُّ بينَ الدياناتِ والشرائعِ رافدًا مهمًّا من روافدِ المضامينِ الفكريةِ والأيديولوجيةِ في الروايتينِ، وكانَ سمةً من سماتِ الرؤيةِ الأيديولوجيةِ عندَ الكاتبِ عويضة.
- استطاعَ الكاتبُ أنْ يديرَ الصراعَ الفكريَّ بينَ الشخصياتِ بشكلٍ دقيقٍ، وأظهرَ صراعَ الذاتِ معَ الذاتِ، وصراعَ الذاتِ معَ الآخرِ.
- وظفَ الكاتبُ الأحداثَ التاريخيةَ المحليةَ والعالميةَ، وجعلَها محطاتٍ مهمةً لخدمةِ رؤيتِهِ الأيديولوجيةِ في الروايتينِ.
- يرى الكاتبُ أنَّ المباهلةَ سلاحٌ وعلاجٌ ربانيٌّ لخلاصِ البشريةِ منَ الحروبِ وسفكِ الدماءِ.
- عمَّقَ الكاتبُ حديثَهُ حولَ المنظماتِ العالميةِ السريةِ: كالماسونيةِ والصهيونيةِ والبهائيةِ، وركزَ على كشفِ مبادئِ الماسونيةِ، ونفوذِها السياسيِّ، ومخاطرِها على الدياناتِ والشعوبِ، وسعيِها للسيطرةِ على العالمِ.
- اتجهت الروايتانِ إلى العالميةِ معَ الاهتمامِ بالقضايا المحليةِ، وجعلِها منطلقًا للانطلاقِ إلى العالميةِ.

- كثَّفَ الكاتبُ من تضمينِ روايتيْهِ بالنصوصِ الدينيةِ المقدسةِ، من القرآنِ الكريمِ والسنةِ النبويةِ والتوراةِ والتلمودِ والإنجيلِ، وبنصوصٍ من كتبِ الماسونيينَ والبهائيينَ.
- ركَّزَ الكاتبُ على مجموعةٍ من القضايا السياسيةِ، أهمِّها القضيةِ الفلسطينيةِ، والقضيةِ العراقيةِ، وظهرتْ رؤيتُهُ الأيديولوجيةُ من خلالِ تركيزِهِ على واقعِ فلسطينيّي الداخلِ المحتلِ، والموقفِ السياسيِّ الأمريكيِّ والغربيِّ تجاهَ القضيتينِ الفلسطينيةِ، والعراقيةِ، ورصدَ دورَ المقاومةِ العراقيةِ للاحتلالِ الغربيِّ إبانَ الغزوِ الشهيرِ سنةَ ٢٠٠٣م، وصولًا إلى حقبةِ تنظيمِ الدولةِ الإسلاميةِ.

ثانيًا: البناءُ الفنيُّ:

- وظفَ الكاتبُ العتباتِ النصيةَ بشكلٍ فائقِ الدقةِ، حيثُ اختارَ عنوانينِ دقيقينِ للروايتينِ، فعنوانُ المُباهلةِ يحملُ الغموضَ الذي يدفعُ القارئَ للبحثِ عن مكنونِ الروايةِ، والأفعى تطوقُ الأرضَ عنوانٌ مثيرٌ يجذبُ المتلقي للبحثِ عن ماهيةِ الأفعى، أما تصاميمُ الغلافينِ فيعدانِ مَدْخلًا من مداخيلِ المنتجِ الأدبيِّ، حيثُ ساهَما في إثراءِ المجموعِ الدلاليِّ؛ وأديا وظيفتَهُما كما أرادَ لهما الكاتبُ.
- حظيتِ الشخصياتُ باهتمامٍ كبيرٍ في الروايتينِ من خلالِ تركيزِ الكاتبِ على أبعادِها ووصفِها الخارجيِّ والاجتماعيِّ، والنفسيِّ على وجهِ الخصوصِ.
- تنوعتْ تجاربُ الشخصياتِ في الروايتينِ، في مختلفِ القضايا السياسيةِ والاجتماعيةِ والاقتصاديةِ؛ مما أكسبَها حيويةً وثراءً، وحظيتِ الشخصياتُ المتديّنةُ بمساحةٍ أكبرَ منَ الحضورِ والتركيزِ مقارنةً بالشخصياتِ الأخرى.
- استفادَ الكاتبُ في بناءَ معمارِهِ الروائيِّ منَ التقنياتِ الزمنيةِ والتلاعبِ بالزمنِ من خلالِ توظيفِهِ للاسترجاعِ والاستباقِ، وتسريعِ الزمنِ بالحذفِ والتلخيصِ، وتبطيئِهِ بالمشهدِ والوقفةِ الوصفيةِ.
- استخدمَ الكاتبُ تقنيةَ تعددِ الأصواتِ في روايةِ "المُباهلة" لخدمةِ تعددِ وجهاتِ النظرِ واختلافِ الرؤى والأفكارِ الأيديولوجيةِ؛ وتأزيمِ الصراعِ بينَ الشخصياتِ.
- شكلتْ روايتا "المباهلة" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ" سجلًا تاريخيًّا ممزوجًا بالخيالِ، يمكنُ الرجوعُ إليهِ للتعرفِ إلى الأحداثِ التاريخيةِ المحليةِ والعالميةِ في الحقبِ الزمنيةِ التي تناولَها الكاتبُ في روايتيْهِ.
- استخدمَ الكاتبُ تقنيةَ الاسترجاعِ بشكلٍ مكثفٍ في روايةِ "الأفعى تطوقُ الأرضَ"، ولم يغفلِ استباقَ الأحداثِ، والتلاعبَ بالزمنِ.
- يتسمُ المكانُ في الروايتينِ بالاتساعِ والضيقِ، وجاءَ في فضاءاتٍ متعددةٍ، استطاعَ الكاتبُ أن يصفَهُ وصفًا دقيقًا، من خلالِ واقعِ الشخصياتِ، وأكثرَ من الخروجِ خارجَ الحدودِ المحليةِ إلى العالميةِ.

- يشكلُ المكانُ إطارًا ووعاءً للرؤيةِ الأيديولوجيةِ للكاتبِ، وذلكَ من خلالِ توظيفِهِ لأماكنَ معينةً تخدمُ أفكارَهُ الأيديولوجية: كالمساجدِ والمحافلِ الماسونيةِ والأنفاقِ والصحراءِ والمدنِ الأوروبيةِ وغيرِها.
- الروايتانِ غنيتانِ بالتقنياتِ السرديةِ والقدراتِ اللغويةِ، وما زالتا تزخرانِ بالدلالاتِ والتأويلاتِ المفتوحةِ، التي تدفعُ الباحثينَ للولوجِ في معتركِ تحليلِهما، وخوضِ غمارِ الكشفِ عنِ مكنوناتِهِما الأدبيةِ.

التوصياتُ والمقترحاتُ:

١- تخصيصُ دراسةٍ تتناولُ أنماطَ الساردِ وأشكالِهِ في رواياتِ الكاتبِ خلوصي عويضة بشكلٍ عامٍّ.

٢- تخصيصُ دراسةٍ تتناولُ ظاهرتيِ التناصِّ والتضمين بأنواعِهِما، وتوظيفِ التراثِ والمثلِ الشعبيِّ، في روايتيِ "المباهلةِ" و"الأفعى تطوقُ الأرضَ".

٣- تخصيصُ دارسةٍ مستقلةٍ تتناولُ اللغةَ الأدبيةَ والشاعريةَ، في الخطابِ الروائيِّ عندَ الكتابِ خُلوصي عويضة.

وأخيرًا يمكنُ القولُ بأنَّ الروائيَّ خلوصي عويضة ومن خلالِ المتنِ المدروسِ في الروايتينِ قد وُفِّقَ فعلًا في أنْ يتركَ بصمةً واضحةً في الأدبِ الروائيِّ الفلسطينيِّ، مسهمًا بذلكَ في تأسيسِ نصٍّ روائيٍّ متميزٍ، كما أنَّ روايتيْهِ قد أظهرَتا قدرتَهُ الكبيرةَ على السردِ والتحكمِ في تقنياتِهِ بما يتناسبْ مع خصوصيةِ كتاباتِهِ.

وختامًا أسألُ اللَّهَ تَعالى أَنْ يَجعلَ هذا العملَ خالصًا لوجهِهِ الكَريمِ، وأنْ يُوَفِّقَني لِما يُحِبُّ ويرضى، إنه سميعٌ مُجيبٌ، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للّهِ رَبِّ العالمينَ.

المصادر والمراجع

أولا–المصادر:

- **القرآن الكريم.**
- **صحيح البخاري**، محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تح: مصطفى البغا، ط ٣، دار ابن كثير، بيروت–اليمامة، ١٩٨٧م.
- **الكتاب المقدس.**
- **خُلوصي محمد عويضة:**

١–الأفعى تطوق الأرض، ط١، مطبعة دار الأرقم، غزة، ٢٠١٧م.

٢–المُباهلة، ط١، مطبعة دار الأرقم، غزة، ٢٠١٥م.

ثانيًا– المراجع:

أ– الكتب العربية:

١– آمنة يوسف، نظريات السرد بين النظرية والتطبيق، مطبعة دار الحوار، سوريا، ط١، ١٩٩٧م.

٢– إبراهيم السعافين، تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام، ط٢، دار المناهل، لبنان، ١٩٨٧م.

٣– إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، دار الأفق، الجزائر، ط١، ١٩٩٩م.

٤– أحمد شلبي، مقارنة الأديان (اليهودية)، ط٨، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٨م.

٥– أحمد طالب، مفهوم الزمان ودلالته في الفلسفة والأدب "بين النظرية والتطبيق"، دار الغرب، ٢٠٠٤م.

٦– بسام فرنجية، الاغتراب في الرواية الفلسطينية، د.ط، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، ١٩٨٩م.

٧– ابن تيمية، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، تحقيق: محمد سالم، ط١، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ١٩٨٦م.

٨– جرجي زيدان، تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى اليوم، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٤م.

٩– جمال الدين أبو الفضل بن منظور، لسان العرب، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٩٩٣م.

١٠– حارث الضاري، المقاومة العراقية: انطلاقتها وتطورها وأهدافها، ط١، مؤسسة البصائر، بيروت، ٢٠١٠م.

١١– حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي: (الفضاء، الزمن، الشخصية)، ط١، المركز الثقافي، بيروت، ١٩٩٠م.

١٢– حسن عليان، تقنيات السرد وبنية الفكر العربي في الرواية العربية، ط١، الآن ناشرون وموزعون، الأردن، ٢٠١٥م.

١٣- حميد لحميداني، النقد الروائي والأيديولوجيا (من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي)، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠م.
١٤- – بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١م.
١٥- حنين معالي، الراوية بين الأيديولوجيا والفن، ط١، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، ٢٠١٣م.
١٦- رمضان الصباغ، الفن والأيديولوجيا، ط١، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٥م.
١٧- سامي سويدان، أبحاث في النص الروائي العربي، دار الآداب، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
١٨- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي: (الزمن، السرد، التبئير)، ط٣، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٧م.
١٩- سلام إبراهيم، الرواية العراقية: رصد الخراب العراقي في أزمات الدكتاتورية والحروب والاحتلال وسلطة الطوائف، د.ط، المركز العربي للأبحاث، الدوحة، ٢٠١٢م.
٢٠- سمير مرزوقي، وجميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة "تحليلاً وتطبيقاً"، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م.
٢١- سيزا قاسم، بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ)، د.ط، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤م.
٢٢- شكري الماضي، فنون النثر العربي، ط ١، جامعة القدس المفتوحة، عمان، ١٩٩٦م.
٢٣- – في نظرية الأدب، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥م.
٢٤- شمس الدين موسى، مراجعات ومتابعات في الرواية والقصة الفلسطينية، وزارة الثقافة الفلسطينية، ط١، ١٩٩٩م.
٢٥- الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، ط١، دار الجنوب، تونس، ١٩٩٤م.
٢٦- صالح الرقب، واقعنا المعاصر والغزو الفكري، ط١، دار رحمة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠م.
٢٧- طه وادي، الراوية السياسية، د.ط، الشركة المصرية العالمية للنشر–لونجمان، د.ت.
٢٨- عباس إسماعيل، عنصرية إسرائيل، ط١، مركز الزيتونة للدراسات، بيروت، ٢٠٠٨م.
٢٩- عباس العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ط٤، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٥م.
٣٠- عبد الحميد المحادين، التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف، دار الفارس، عمان، ط١، ١٩٩٩م.
٣١- عبد الرحمن الدوسري، اليهودية والماسونية، ط١، دار السُّنة، السعودية، ١٩٩٤م.
٣٢- عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا، ط٨، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠١٢م.
٣٣- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، د.ط، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، ١٩٩٨م.

٣٤- عبد المنعم زكريا القاضي، البنية السردية في الرواية، عين للدراسات الإنسانية والبحوث الاجتماعية، الجيزة، ط١، ٢٠٠٩.
٣٥- عبد الوهاب المسيري، الجمعيات السرية في العالم، ط١، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٣م.
٣٦- عثمان عبد الفتاح، بناء الراوية، د.ط، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٢م.
٣٧- عدنان حداد، الخطر اليهودي على المسيحية والإسلام، ط١، دار البيروني، بيروت، ١٩٩٧م.
٣٨- عزيزة مريدين، القصة والرواية، د.ط، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠.
٣٩- علي عودة، الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية ١٩٥٢-١٩٨٢م، ط٢، دار المنارة، غزة، ١٩٩٧م.
٤٠- غازي الصوراني، البعد التاريخي للصراع الطائفي بين الشيعة والسنة، ط١، نسخة إلكترونية، غزة، فلسطين، ٢٠١٦م.
٤١- عماد الدين ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ج٩، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦م.
٤٢- لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ٢٠٠٢م.
٤٣- مأمون كيوان، فلسطينيون في وطنهم لا دولتهم، د.ط، مركز الزيتونة للدراسات، بيروت، ٢٠١٠م.
٤٤- مانع الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ط٤، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٩٩م.
٤٥- مجدولين شرف الدين، الصورة السردية في الرواية والقصة والسينما، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١٠م.
٤٦- محمد إبراهيم البدري، بين البهائية والماسونية نسب، ط١، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٦م.
٤٧- محمد الأدهمي، الطريق إلى حرب الخليج، الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧م.
٤٨- محمد أيوب، الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة في الضفة الغربية وقطاع غزة (١٩٦٧-١٩٩٣م)، د.ط، اتحاد الكتاب الفلسطيني، ١٩٩٧م.
٤٩- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣م.
٥٠- محمد التلاوي، وجهة النظر في روايات الأصوات العربية، ط٣، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢م.
٥١- محمد الزعبي، الماسونية في العراء، ط١، مطابع معتوق إخوان، بيروت، لبنان، ١٩٧٢م.
٥٢- محمد السماك، الصهيونية المسيحية، ط٤، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٤م.
٥٣- محمد السمان، حسن عاشور، مذبحة الحرم الإبراهيمي، ط١، دار الاعتصام، القاهرة، د.ت.
٥٤- محمد الغزالي، الاستعمار أحقاد وأطماع، ط٤، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٥م.
٥٥- محمد خليفة التونسي، الخطر اليهودي بروتوكلات حكماء صهيون، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦١م.

٥٦- محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة،ط١،اتحاد الكتاب العرب، سوريا،٢٠٠٢م.

٥٧- محمد صابر عبيد، وسوسن البياتي، جماليات الشكل الروائي، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، د.ط، د.ت.

٥٨- محمد عبد الرحمن، قصة مدينة الخليل، ط١، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، د.ت،

٥٩- محمد علي الزعبي، الماسونية منشئة ملك إسرائيل، د.ط، مؤسسة مطابع معتوق، بيروت، ١٩٧٨م.

٦٠- محمد عمارة، وأحمد الكاتب، السنة والشيعة وحدة الدين وخلاف السياسة والتاريخ، ط١، دار طيبة للطباعة، الجيزة، مصر، ٢٠٠٨م.

- السلفية، د.ط، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، د.ط.

٦١- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، د.ط، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٧م.

٦٢- محمد نجم، فن القصة، ط ١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩م.

٦٣- مها قصراوي، الزمن في الرواية العربية، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٤م.

٦٤- مهدي عبيدي، جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د.ط، ٢٠١١م.

٦٥- نبيل بباوي، انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء، ط١، نسخة إلكترونية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٦٦- نداء مشعل، الوصف في تجربة إبراهيم نصر الله، وزارة الثقافة، عمان، ط١، ٢٠١٥م.

٦٧- نديم البيطار، الأيديولوجيا الانقلابية، د.ط، المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٤م.

٦٨- نصر أبو زيد، نقد الخطاب الديني، ط٢، دار سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٤م.

٦٩- نضال الصالح، نشيد الزيتون (قضية الأرض في الرواية الفلسطينية)، اتحاد الكُتاب العرب، دمشق، ط١، ٢٠٠٤م.

٧٠- وائل الدسوقي يوسف، الماسونية في العالم العربي، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٧١- يمنى العيد، دلالات النمط السردي في الخطاب الروائي، تحليل (رحلة غاندي الضمير)، ملتقى السيميائية والنص الأدبي، عنابة، ١٩٩٥م.

٧٢- يوسف حطيني، مكونات السرد في الرواية الفلسطينية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، ١٩٩٩.

٧٣- يوسف الطويل، الحملة الصليبية على العالم الإسلامي والعالم، ط٢، صوت القلم العربي، القاهرة، ٢٠١٠م.

٧٤- يوسف العبيري، الحرب الصليبية على العراق، ط١، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، العراق، د.ت.

ب- الكتب المترجمة:

١- أ. أ. مندولا، الزمن والرواية، ترجمة: بكر عباس، ط١، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٧م.

٢- أرمين ناوابي، لماذا ليس هناك إله، ترجمة عبد الله أحمد، ط١، الجمهورية الملحدة، العراق، ٢٠١٩م، ص١٤.

٣- أغسطس روهلنج، الكنز المرصود في قواعد التلمود، ترجمة: يوسف نصر الله، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٨٩٩م.

٤- بول ريكو، الوجود والزمان والسرد، ترجمة سعيد الغانمي، ط١،المركز الثقافي العربي،١٩٩٩م،

٥- بول مركلي، الصهيونية المسيحية (١٨٩١-١٩٤٨م)، ط٤، ترجمة فاضل جكتر، قدمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤م.

٦- جاك تني، الإخوة الزائفة، ترجمة أحمد اليازوري، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٨٦م.

٧- جريس هالسل، النبوءة والسياسة، ترجمة: محمد السماك، ط٣، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٨- جواد أتلخان، أسرار الماسونية، د.ط، ترجمة: نور الدين الواعظ، سليمان القابلي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٩٠م.

٩- جيرار جينيت وآخرون، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، ترجمة: ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٩م.

١٠- جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي، ط٣، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠٣م.

١١- جيرالد برنس، قاموس السرديات، ترجمة السيد إمام، ط١، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٣م.

١٢- رولان بارت، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ترجمة: منذر عياشي، ط ١، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، ١٩٩٣م.

١٣- رولان بورونوف، وريال أوئيليه، عالم الرواية، ترجمة: نهاد التكرلي، ط ١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩١م.

١٤- غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠م.

١٥- فيليب هامون، سيمولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بنكراد، ط ١، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا،٢٠١٣م.

١٦- لوسيان غولدمان، مقدمات في سوسيولوجية الرواية، ترجمة بدر الدين عردوكي، ط١، دار الحوار، دمشق، ١٩٩٣م.

١٧- مادلين أولبرايت، الجبروت والجبار، ط١، ترجمة عمر الأيوبي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٧م

١٨- مارتن لوثر، اليهود وأكاذيبهم، ط١، ترجمة عجاج نويهض، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠٠٧م،

١٩- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة: محمد برادة، ط١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة،١٩٨٧م.

- الملحمة والرواية، ترجمة جمال شحيد، ط١، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٢م.
- شعرية دوستوفيسكي، ترجمة: جميل التكريتي، ط١، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٦م.

٢٠- وليم جاي كار، أحجار على رقعة الشطرنج، ط١، ترجمة: محمد ثابت، دار الحياة ودار الوعي للنشر والتوزيع، اليمن، ٢٠١١م.

ثالثًا- المجلات العلمية والدوريات:

١- أحمد عبد الله، الماسونية سرطان الأمم، مجلة دعوة الحق، ع: ٧، القاهرة، ديسمبر١٩٨٧م.

٢- حنين معالي، البعد الأيديولوجي في روايتي موسم الحوريات وأبناء الريح، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، م: ٤٤، ع: ١، ٢٠١٧م.

٣-سمية الشوابكة، الرؤية السياسية والتشكيل الفني في رواية السجن السياسي "الأسوار نموذجًا"، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد:١، مج: ٣٩، جامعة الأردن، عمّان، ٢٠١٢م.

٤- صالح زنداقي، الماسونية أهدافها وأساليبها بين الماضي والحاضر، مجلة الشهاب، ع: ٥، ديسمبر، ٢٠١٦م.

٥- عبد العالي بو طيب، مستويات دراسة النص الروائي "مقاربة تطبيقية لنماذج مغربية"، منشورات كلية الآداب مكناس، ع: ٦، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المغرب، ٢٠٠٠م.

٦- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، سلسلة شهرية صادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، ع: ٢٤٠، الكويت، ١٩٩٨م.

٧- عصام بهي، أيديولوجيا المصالحة في (قنديل أم هاشم)، و(موسم الهجرة إلى الشمال)، مجلة فصول، مج:٥، ع:٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.

٨- عمار بلحسن، ما قبل بعد الكتابة حول الأيديولوجيا/الأدب/الرواية، مجلة فصول، مج:٥، ع:٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.

٩- فرحان اليحيى، تجليات المكان في أقاصيص جولانية "دراسة نقدية بنيوية"، الموقف الأدبي، ع:٣٨٢، ٢٠٠٣م.

١٠- محمد عبد المطلب، تداخلات الرؤية والسرد والمكان في رواية هالة البدري منتهى، مجلة فصول، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، م: ١٦ ، ع: ٤، ١٩٩٨م.

١١- نصر الدين محمد، الشخصية في العمل الروائي، مجلة الفيصل، دار الفيصل الثقافية للطباعة، السعودية، ع٣٧، مايو ١٩٨٠م.

١٢- يوري لوتمان، مشكلة المكان الفني، ترجمة: سيزا قاسم، مجلة البلاغة المقارنة، الجامعة الأمريكية، القاهرة، ع: ٦، ١٩٨٦م.

رابعـًا- الرسائل العلمية:

١- أنيسة السعدون، الرواية والأيديولوجيا في البحرين، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، الأردن،٢٠١٣م.

٢- سليم بركان، النسق الأيديولوجي وبنية الخطاب الروائي (دراسة سوسيو بنائية لرواية ذاكرة الجسد)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، ٢٠٠٣-٢٠٠٤م.

٣- فوزي الحاج، صورة اليهودي في المسرح العربي في مصر، رسالة دكتوراة، جامعة عين شمس، مصر، ١٩٨٨م.

٤- محمود بلور، تجربة رائد غنيم الروائية: بين الرؤية الإيديولوجية والتشكيل الفني، رسالة ماجستير، جامعة الأزهر، غزة، ٢٠١٩م.

٥- نسرين النيرب، تقنيات السرد الروائي في روايات غريب عسقلاني، رسالة ماجستير، جامعة الأزهر، غزة، ٢٠١٧م.

٦- ولاء فخري قدوري الدليمي، البنية السردية في (نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة) للتنوخي (ت٣٨٤هـ)، رسالة دكتوراة، جامعة ديالي، كلية التربية للعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، ٢٠١٤م.

خامسًا- مراجع الشبكة العنكبوتية والمواقع الإلكترونية:

١- حكيم الزميلي، خبر صحفي منشور على موقع شبكة BBC NEWS، التعريف الرقمي للموقع: https://bbc.in/3wZXI7p

٢- سليم عوض عيشان علاونة، مقال بعنوان: قراءة في رواية (المباهلة) حرب الأفكار، صراع العقول، التعريف الرقمي للمقال:
https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2018/08/05/470201.html

٣- السيرة الذاتية للروائي خلوصي عويضة، جائزة كتارا للرواية العربية، التعريف الرقمي للموقع: https://www.kataranovels.com/novelist

٤- شادية بن يحيى، مقال إلكتروني بعنوان: الأيديولوجيا في الرواية، موقع ديوان العرب، التعريف الرقمي للموقع: https://bit.ly/3klEwi3

٥- عباس دويكات، مقال إلكتروني بعنوان مناقشة رواية "ربيع حار" لسحر خليفة، وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية وفا، التعريف الرقمي للموقع: https://bit.ly/3zUtkwQ

٦- عبد الرحيم حمدان، مقال إلكتروني بعنوان تجليات البعد الرمزي في رواية "عمو القزم" لخلوصي عويضة، ديوان العرب للثقافة والفكر والأدب، التعريف الرقمي للموقع: https://bit.ly/3Bpw0Em

– ، مقال إلكتروني بعنوان تجليات الشخصية في رواية "زمن الشيطنة"، ديوان العرب للثقافة والفكر والأدب، التعريف الرقمي للموقع: https://bit.ly/3k3qsZm

٧- عبد العزيز بنعبو، مقال بعنوان: حول تمظهرات الفكري والأيديولوجي في الممارسة المسرحية المغربية، موقع ميدل إيست أونلاين، التعريف الرقمي للمقال: https://middle-east-online.com/

٨- علي محمد زينو، مقال إلكتروني بعنوان: الوسطية والطرفية، التعريف الرقمي للمقال: https://www.alukah.net/sharia/0/5762/

٩- مازن معموري، مقال إلكتروني بعنوان: الرواية العراقية التحولات والمُنجز الثري، شبكة الميادين الإعلامية، التعريف الرقمي للموقع: https://bit.ly/3ixZKqi

١٠- مروان الجبور، مقال إلكتروني بعنوان: الرواية العراقية الجديدة. شبكة الجزيرة الإعلامية، منشور بتاريخ ٢٧ مارس ٢٠١٦م، التعريف الرقمي للموقع: https://bit.ly/3i3ja7D

١١- المطران عطا الله حنا، مقال إلكتروني بعنوان: الماسونية والصهيونية يستهدفون الكنيسة بغطاء سياسي، منشور بتاريخ ١٤ سبتمبر ٢٠١٨م، التعريف الرقمي للمقال: https://bit.ly/3wt4cM4

١٢- مقال إلكتروني بعنوان: حكام البيت الأبيض وإسرائيل. شبكة الجزيرة الإعلامية، منشور بتاريخ ٢٨ مارس ٢٠١٧م، التعريف الرقمي للموقع: https://bit.ly/3zbutjB

١٣- مقال إلكتروني بعنوان: الفكر الحر، على موقع الموسوعة الحرة ويكيبيديا، التعريف الرقمي للمقال: https://bit.ly/3zcKHcA

سادسًا- المقابلات:

١- مقابلة تلفزيونية مع الكاتب خلوصي عويضة، فضائية تلفزيون فلسطين، غزة، صيف ٢٠١٧م.

٢- مقابلة تلفزيونية مع الكاتب خلوصي عويضة، فضائية الكتاب، غزة، بتاريخ ٢٠١٤/٩/٥م.

٣- مقابلة شخصية أجراها الباحث مع الكاتب، غزة، بتاريخ ٢٠٢٠/٧/٩م.